الجمهوريـة الجزائريـة الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعــة الأمير عبد القادر

للعلوم الإسلامية . قسنطينة .

كلية: الآداب والحضارة الإسلامية

قسم: اللغة العربية

رقم التسجيل:..................

الرقم التسلسلي:..................

العدول في حروف المعاني في القرآن الكريم

ـ دراسة أسلوبية ـ

. أطروحة مقدَّمة لنيل درجة دكتوراه العلوم في اللغة العربية والدراسات القرآنية، تخصص: إعجاز القرآن والدراسات البيانية .

إعداد الطالب:

ميلود عمارة

إشراف الدكتورة:

ذهبية بورويس

لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الرتبة العلمية	الجامعة الأصلية	الصّفة
رابح دوب	أستاذ	جامعة الأمير عبد القادر	رئيسا
ذهبية بورويس	أستاذ	جامعة الأمير عبد القادر	مشرفًا ومقرّرًا
صالح حديش	أستاذ	جامعة خنشلة	عضوا
عبد الكريم بوغزالة	أستاذ	جامعة حمة لخضر الوادي	عضوا
زين الدين بن موسى	أ. محاضر "أ"	جامعة منتوري	عضوا
عبد الناصر بن طناش	أ. محاضر "أ"	جامعة الأمير عبد القادر	عضوا

نوقشت يوم: 2017/04/26

السنة الجامعية: 1437هـ - 1438هـ/ 2016 م - 2017 م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إهداء

إلى أستاذي الدكتور: رابح دوب

إلى أستاذتي الدكتورة: ذهبية بورويس.

أهـــدي هذا العـــمل.

الطالب

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

شكر وتقدير

الحمد لله الجليل ثناؤه، الجزيل عطاؤه، أحمده على ما أسبغ من النعمة وأظهر من المنّة وأسبل من السّتر، ويسّر من العسر، وقرّب من النّجاح، وقدر من الصّلاح، أحمده على آلائه، وأشكره على نعمائه.

أحمده ربي على ما منحني من جهد، وأعانني ويسّر لي لإتمام هذا البحث، فله الحمد كلّه، أوّله وآخره، ظاهره وباطنه، له الحمد حتى يرضى، وله الحمد إذا رضي، وله الحمد بعد الرّضى، وله الحمد على كل حال.

وإقرارا بالجميل أسجّل بمداد العرفان جميل الشُّكر وعظيم الامتنان إلى أستاذتي الفاضلة: الدكتورة/ **ذهبية بورويس** ـ حفظها الله ـ على تفضُّلها بالإشراف على هذا البحث، فجزاها الله عني خير ما يجزى معلّما عن طالبه، ورزقها الإخلاص، ونفع بعلمها الطلاب والباحثين. كما يسرني أن أتقدم بوافر الشُّكر والامتنان ـ سلفا ـ إلى السَّادة الأفاضل أعضاء اللجنة المناقشة الموقَّرة؛ لتفضُّلهم بقبول مناقشة هذه المذكّرة، أسأل الله أن يوفقهم لما فيه الخير والصلاح، وأن ينفعني بتوجيهاتهم القيّمة التي من شأنها أن تزيد البحث تنقيحًا وإثراءً.

الطالب

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مُقَدِّمَة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1. مُقـَدِّمَة:

الحمد لله الذي أَودَع في كتابه أسرار البيان، وجعله نورا وهدى على مرّ العصور وتعاقب الأزمان، والصّلاة والسّلام على المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين، أمّا بعد:

فإنَّ أفضل ما اشتغل به المشتغلون من العلوم، ووجّهت إلى فهمه همم الدارسين؛ كتاب الله تعالى الذي أودعه الحكم والأسرار، تحدّى الله ﷻ النّاس جميعا أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا، ولهذا كانت العناية بالقرآن لدى المسلمين فضيلة وشرفا يترفّع به المخلصون لينهلوا من معينه العذب الذي لا ينضب، وذلك بتفحّص ألفاظه ومعانيه وفهم أسراره ومقاصده التي لا تنقضي، فلا غرابة في أن تتدافع في خدمته الأجيال على مرِّ العصور والأزمان.

وقد اتخذت هذه العناية أنماطا متعددة؛ منها ما يرجع إلى لفظه وأدائه، وأخرى إلى بلاغته وأسلوبه ومنها إلى شرحه وتفسيره، سالكين في ذلك مناهج مختلفة وطرائق متعددة.

ومن المباحث البيانية والأسلوبية؛ ظاهرة العدول؛ اللّغوية التي تلفت نظر المتدبّر للقرآن الكريم أعني بها مخالفة مقتضى الظاهر في الاستعمال اللّغوي، إذ المخالفة بما يدلّ معناها اللّغوي؛ تعكس منهجا لغويا يسلُكه الكلام آخِذا بذلك طريقا غير الطريق الذي كان عليه سياقُه، فكأنه بذلك يسلك سبيلا مخالفا لما يقتضيه ظاهره.

والعدول حين تلجأ إليه العرب إنما تقصد به صرفَ الكلام عن وجهه وسَمته الذي كان له، سواء أكان هذا الصّرف في الألفاظ أم الأساليب.

ولقد أخذَت طائفة من حروف المعاني في القرآن الكريم نصيبها الوافر من هذه الظاهرة البيانية فتنوعت معانيها واستعمالاتها في السّياق القرآني، وذلك لمقصدية في الخطاب وأسلوبية في الكلام.

2- موضوع البحث :

ومما سبقت الإشارة إليه، وفي خضمّ هذه الفوائد وقع الاختيار على دراسة قضية العدول في استعمال حروف المعاني في القرآن الكريم، في محاولة لوضع لَبِنة في هذا الصّرح العظيم . إعجاز القرآن . الذي تعاقبت عليه أفهام العلماء قديما وحديثا.

ويقوم هذا البحث بمحاولة الكشف عن ظاهرة العدول . الأسلوبية . في استعمال حروف المعاني، ثمّ بيان مواقع هذا العدول في القرآن الكريم، وذلك ضمن دراسة . أسلوبية . في حاولة للكشف عمّا فيه من قِيَم جمالية، وخصائص أسلوبية، ومزايا تعبيرية، وظواهر الاتساع والثراء التركيبي.

وقد عنونته: " **العــدول في حروف المعاني في القــرآن الكريـم ــ دراسة أسلوبية ــ** "

3- أهمّيـة الموضوع :

الدّراسة البيانية للقرآن الكريم من أجلّ العلوم لأنّ مرتكزها موثوق بقضية الإعجاز القرآني الخالد ولا جرم أنّ شرف العلم بشرف ما يبحث فيه، فاستأثر عِلم البيان بالفضيلة والشّرف، لأنه يعنى بمعرفة أسرار الخطاب واستظهار دفائن المعاني، ولطائف التعبير، ويبقى ما دوّنته أيدي العلماء قديما وحديثا عذبا نميراً، ومنهلا نقيا لكلّ من رغب في استكناه أسرار هذا اللّسان.

وحرصا على الاستمرار في خدمة هذه الرّغبة الوليدة؛ أحببتُ أن أواصل دراسة ظاهرة العدول اللّغوية وما ضُمِّنت من أسرار ونُكات؛ مؤمّلا أن أوفَّق في إلمام متفرّقها، ثـمّ ترتيب مباحثها، طمعا أن تَسُدّ ثغرة في الدّراسة البيانية.

4- أسباب اختيار الموضوع :

إنّ الأهمية السابقة لموضوع العدول هي السّبب الأساس في اختيار هذا الموضوع، ويمثّل البحث من هذا الطرح دراسة متميّزة في بابها تخدم البيان القرآني واللّغة العربية، إضافة إلى إثراء مكتبة الدراسات القرآنية واللغوية، ويأتي تبعا لهذا السّبب بعض الأسباب المهمّة التي أسهمت في اختيار الموضوع أذكر منها:

أوّلا: الجدّة في طرح الموضوع وحداثته، حيث لم يقم . في حدود علم الباحث . مؤلَّف خاص يجمع قضايا هذه المادة البلاغية؛ وإن تناثرت بعض أجزاء الموضوع في مصنّفات البيانيين والمفسّرين.

ثانيا: أنّ هذا الموضوع هو امتداد لبحثي في رسالة الماجستير؛ الذي عالجت فيه بلاغة العدول في حروف الجرّ في القرآن الكريم، لهذا رأيت من المهمّ أن أواصل فيما قد بدأت به، لتزداد خبرتي بالبحث، وأيضا لمحاولة الوصول إلى نتائج أكثر دقّة وفائـدة.

ثالثا: أنّ هذا الموضوع يدرس أسرار البلاغة القرآنية، والتي هي عين التحدّي ومكمن الإعجاز، لذا كان أسلوب العدول في القرآن من أبرز القضايا الأسلوبية الدّالة على دقائق اللّغة ولطائف التعبير القرآني.

رابعا: أنّ موضوع العدول موزّع بين فنون بلاغية شتّى، فيدرس بدائع الألفاظ وجلالة المعاني، وأيضا الدقّة في المطابقة بين اللّفظ والمعنى والسّياق، وبهذا يتوقف عليه تعيين مقاصد النصوص.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

خامسا: تميّز هذا البحث بالجمع بين الدراسة البلاغية والدّراسة النّحوية، والحبل الموثوق بينهما لتجسيد نظرية النّظم البلاغي.

5- الهدف من البحث :

إنّ الهدف الأساس من موضوع العدول في استعمال حروف المعاني هو إظهار قضية الإعجاز البياني في القرآن الكريم، وكشف اللّثام عن مزايا البيان فيه.

كما تهدف هذه الدّراسة تفصيلا إلى إبراز ظاهرة العدول اللّغوية، ثم دراسة منهج النحويين والمفسّرين في تناول قضية العدول في استعمال حروف المعاني، كما ترمي إلى استكشاف مظاهر المخالفة في حروف المعاني في البلاغة العربية، ومعرفة أسرار ذلك في التعبير القرآني، وبيان الفروق الدّلالية إثر عملية العدول، وذلك ضمن دراسة نظرية للعدول، ثم تطبيقية على القرآن الكريم بهدف بيان المواطن التي تجلّت فيها هذه الظاهرة وأثرها البلاغي، لتتّضح بذلك قيمتها البيانية.

6- إشكالية البحث :

تجمع أفكار هذا البحث بين المعاني النّحوية والوظائف البلاغية في إبراز ظاهرة عدول حروف المعاني، لأنّ هذه الحروف تؤدّي معاني نحوية تُوسم بالشّهرة . الاطّراد . في الاستعمال، ثمّ يُعدل عن هذا الاستعمال بصرفه عن سَمْتِه وهدْيِه ليؤدي أغراضا بلاغية، متخطّيا المعنى العادي للّغة إلى المعنى الفنّي لها، وهذا الجمع يستدعي تتبّعا لهذه الظاهرة عند النّحاة والبلاغيين، ثم استخراج هذه الأساليب من القرآن الكريم، وبعدها محاولة الْتِماس نكتها وفوائدها، لذلك نستنسخ ما ستقوم به هذه الدراسة في إشكالات تختزل مادة هذا البحث، وهي الآتي:

.كيف عالجت كتب النّحو وكتب البلاغة قضية العدول في استعمال حروف المعاني ؟

. ما هي مواقع الأساليب العدولية لحروف المعاني في القرآن الكريم ؟

. ماهي الأسرار البلاغية وراء هذه المخالفة في الاستعمال ؟

هذا ما أرجوا الإجابة عنه في هذا البحث بإذن الله تعالى.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

7- الدّراسات السّابقة :

اعتنت كتب القدماء بقضية المخالفة في الاستعمال اللّغوي، لكن هذه العناية كانت متفرّقة في كتب اللّغة والنّحو والبلاغة لأنّهم كانوا بصدد بناء منهج سليم في دراسة اللّغة تنظيرا وتطبيقا.

أمّا في العصر الحديث فلم يقع بين يديّ بحث مستقلّ يعالج هذه الظاهرة في حروف المعاني عدا رسالة دكتوراه والموسومة بـ"ظاهرة العدول في الحروف" إعداد الطالب: محمد إبراهيم عبد السلام مقدمة لقسم اللغة جامعة بنجاب، باكستان، 1994م، وقد قسمها إلى أربعة فصول:فصل في العدول في حروف العلّة، وفصل في الحروف الأصلية، والثالث: في موضع حروف المباني، وخصص الرابع للعدول في استعمال حروف المعاني؛ ذكر فيه حروف الخفض والجزم والنصب، وقد سرد في عشرة صفحات كلام النحاة في وقوع بعض الحروف موقع الأخرى.

أما عن الدّراسات التي سبقَتني في تناول موضوع العدول عموما كونه إجراء لغويا يكشف عن بلاغة التراكيب، وجمال الأسلوب في ظلّ نظرية السّياق، فأذكر منها:

. مخالفة مقتضى الظّاهر في استعمال الأفعال ومواقعها في القرآن الكريم، رسالة دكتوراه، مقدّمة لكلّية اللّغة بجامعة أمّ القرى من الباحث: ظافر بن غرمان العمري.

. الإعجاز القرآني في أسلوب العدول عن النظام التركيبي النّحوي والبلاغي، حسن منديل حسن العكيلي، رسالة دكتوراه، جامعة بغداد، طبع في دار الكتب العلمية، بيروت.

. الإعجاز البياني في العدول النّحوي السّياقي في القرآن الكريم، عبد الله علي الهتاري، رسالة دكتوراه طُبِعت في دار الكتاب الثّقافي بالأردن.

. العدول عن المطابقة بين أجزاء الجملة، نجلاء محمّد نور عبد الغفور عطار، رسالة ماجستير، جامعة أمّ القرى.

. العدول في القرآن الكريم على وفق نظرية التلقّي . دراسة أسلوبية . فرح باقر أحمد الفاضلي، رسالة ماجستير، جامعة الكوفة.

وأمّا موضوع العدول في حروف المعاني فلَم يحظَ بعناية وافية؛ جمعت متفرّقه، ورتّبت مشتّته، وبيّنت مكامن الجمال اللّغوي في ظِلال هذه الظاهرة الأسلوبية. أما عن كتابي الباحث محمد أمين الخضري وهما: من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، وكذا كتاب: من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم؛ فإن الباحث عالج الطائفتين من حروف المعاني بلاغيا، وخصها بالكلام على الاستعارة في الحروف دون تتبع لظاهرة العدول أسلوبيا، لذلك جاءت هذه الأطروحة كاشفة عن مواطن العدول

البلاغي في استعمال حروف المعاني من خلال القرآن وفق منهج الأسلوبية الهادفة إلى وظيفة التأثير والإقناع.

8- منهج البحث :

سعيت في بحثي إلى دراسة العدول في حروف المعاني في القرآن الكريم دراسة أسلوبية أي اتخاذ المنهج الذي يتحرّى دراسة هذه الظّاهرة الأسلوبية التي بها يتحوّل الخطاب من سياقه الإخباري إلى وظيفي ليؤثر ويقنع في آن واحد، وعليه فينبغي استحضار قدسية النص القرآني من جهة والجوانب السياقية وحال المتلقين جهة أخرى ثم التماس الأنماط التي تتشكل فيها هذه الظاهرة، بما تحويه من شحنات أسلوبية ودلائل خفية، مبرزة الحروف المناسبة للأغراض الملائمة.

ووفقا لطبيعة الموضوع سيسلك الباحث المنهج الوصفي الذي يحاول الوقوف على ظاهرة المخالفة في التراث اللّغوي والبلاغي، وتوثيق المادّة المنقولة والمستشهد بها من نصوص قديمة أو اقتباسات حديثة متعلّقة بالموضوع.

أمّا موضوع الأسلوبية فينحصر في أسلوب الخطاب الأدبي الذي يتحدّد في أمرين: الأول في "الانزياح" عن المعيار اللّغوي المألوف؛ أي عن لغة الكلام العادي . والآخَر في "الاختيار"، باعتبار الأسلوب انزياحاً عن المعيار اللّغوي.

ولما كانت الأسلوبية تسلك هذا النّهج فقد آثرت الأخذ بها بوصفها طريقة في سبيل فهم أسرار الخطاب القرآني في محاولة الكشف عما فيه من قيم جمالية، وخصائص أسلوبية، ومزايا تعبيرية.

كما التزمت خلال البحث كله بما يأتي:

أولا: عَزوت الآيات بأرقامها إلى سورها فالتزمت في كل نهاية آية ذكر اسم السورة مع رقم الآية ووضعها بين قوسين، وقد اعتمدت رسم المصحف العثماني برواية حفص عن عاصم

ثانيا: وثّقت النصوص المنقولة من مصادرها وذلك بذكر اسم المصدر أو المرجع ثم مؤلفه، ودار النشر ومكانه، ثم الطبعة، والسنة، يلي ذلك الجزء والصفحة. هذا حال ذكره أول مرة أما إذا تكرر فاكتفت بذكر المرجع والجزء والصفحة فقط.

ثالثا: حاولت اعتماد الترتيب الزمني عند الإحالة في الحاشية إلى أكثر من مصدر أو مرجع.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

رابعا: قمت بتعريف الأعلام غير المشهورين تعريفا موجزا، ولم أعرف من لم أنقل عنه، كما لا أشير لمن سبقت ترجمته.

خامسا: وضعت الكلام المنقول بين علامتي تنصيص: (( ))، وإذا لخصت الكلام أو تصرفت في لفظه دون معناه فإني أشير إلى هذا في الحاشية بذكر لفظة: ينظر كذا.

سادسا: ضبطت الأبيات الشعرية بالشّكل التام، وعزوتها إلى مصادرها الأصلية ما أمكن، وإن تعذّر الأصل فالمصادر اللغوية الأخرى.

9- خطّة البحث:

من أجل الإجابة عن إشكال البحث اشتملت هـذه الأطروحة الموسومة: " العدول في حروف المعاني في القرآن الكريم ـ دراسة أسلوبية ـ" على مدخل وخمسة فصول، افتتحتها بمدخل تمهيدي للموضوع بيّنت من خلاله القضايا المتعلقة بالمصطلح والمنهج، وفيه معني العدول في اللغة والاصطلاح، كما تحدثت فيه عن حروف المعاني؛ تعريفها، وتقسيماتها، ثم تناولت معنى الأسلوبية مصطلحا والفرق بينها وبين الأسلوب، ثم بوصفها منهجا لأسلوب العدول وطريقة معالجتها للظواهر البلاغية لحروف المعاني. ثم يأتي الفصل الأوّل؛ النّظري وقد عنوته: " العدول في حروف المعاني عند النحويين والبلاغيين" وقسّمته إلى مبحثين أولاهما خاص بالعدول في حروف المعاني عند النحويين، والآخر عند البلاغيين. أوضحت في الأوّل: معنى العدول في مفهوم النحاة مبرزا الفرق بينه وبين العدل، وعلاقة العدول بقضية أصل الوضع عند النحاة، وثمّ كيفية معالجة أعلام النحو لهذه الظاهرة وقد اخترت علمين بارزين هما: سيبويه، وابن جني مؤلفيهما: الكتاب والخصائص. أما المبحث الثاني: فعالج قضية العدول في حروف المعاني عند البلاغيين، متناولا فيه مفهوم العدول في الدرس البلاغي ثم بيان المنهج البلاغي في دراسة عدول حروف المعاني ثم كيفية معالجة أعلام البلاغة لهذه الظاهرة وقد اخترت علمين بارزين: هما عبد القاهر الجرجاني والزمخشري.

ثمّ قمْت بعدها بتطبيق ظاهرة العـدول في الآيات القرآنية فيما يخص الفصول الأربعة المتبقية فجعلت الفصل الثاني للعدول في حروف الجرّ والعطف، أمّا الثالث فيختصّ بحروف الشّرط والاستفهام والرابع في حروف النّفي والاستثناء، أمّا الفصل الأخير فعالج حروف التوكيد والنّداء والتعليل.

ثم تأتي الخاتمة؛ حاوية أهمّ ثمرات البحث ونتائجه.

وقد ذيّلت هذه الرسالة بفهارس عامّـة، وفق الترتيب الآتي:

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- فهرس الآيات القرآنية.
- فهرس الأعلام المترجم لهم.
- فهرس الأبيات الشعرية.
- ثبت المصادر والمراجع.
- فهرس المحتويات.

وفي الأخير أسأل الله ﷻ بمنّه وجوده وكرمه؛ أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، ونافعا لكلّ من قرأه، والله أسأل أن يعلّمَنا ما ينفعنا وينفعَنا ما علّمنا ويزدنا علماً، والحمد لله ربّ العالمين.

. وصلّى الله وسلّم على نبيّنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين .

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ينبغي لنا قبل بداية الكلام في موضوع العدول في حروف المعاني وتكييفه عند النّحاة والبلاغيين ثم تطبيقه في القرآن الكريم؛ ينبغي أن نوضّح معالم المصطلحات المتعلّقة بالموضوع، وكذا ضبط بعض المفاهيم والرّؤى التي قد تؤخذ على معهود معانيها، وعليه فإني أعرّج ابتداءً على مصطلح العدول من حيث المفهوم والأنواع، وأثني ببيان حروف المعاني ومعايير تقسيمها، ثم أبرز ملامح المنهج الأسلوبي وعلاقته بفكرة العدول.

أولا: مصطلح العدول(1)

يدلّ العدول في اللّغة العربية على معنيين متقابلين(2) أحدهما يدلّ على استواء، فالعدل من النّاس المرضيّ المسْتَوي الطريقة، والآخر يدلّ على اعوجاج، ومنه عدل وانعدل، أي: انعرج.

يقول ابن منظور: « عَدَلَ الحاكِمُ فِي الْحُكْمِ يَعْدِلُ عَدْلًا وَهُوَ عادِلٌ مِنْ قَوْمٍ عُدُولٍ وعَدْلٍ. »(3)

ويقول أيضا: « عَدَلَ عَنْهُ يَعْدِلُ عُدولًا إِذا مَالَ كأَنه يَمِيلُ مِنَ الْوَاحِدِ إِلى الْآخَرِ؛ وَقَالَ المرَّار:

فَلَمَّا أَن صَرَمْتُ، وَكَانَ أَمْري ... قَوِيماً لَا يَمِيلُ بِهِ العُدولُ. »(4)

فالعدول مصطلح تدور مادته حول محورين أولاهما: الإنصاف والاستواء، والآخر حول الميل والرجوع، والذي يعنينا في هذا البحث هو المعنى الأخير، تحسّساً لربط المصطلح بالمفهوم العام للعدول، ومدى مناسبة الحَيدة والميل لمفهوم ظاهرة العدول اللّغوية والتي نحن بصدد دراستها، والتي تقتضي ميلاً من شيء إلى شيء.

أمّا في الاصطلاح فقد عُرِّف العدول في القول الأدبي عموما على أنه ضرب من المجاوزة للسنن التي أَلِفَها النّاس في محاوراتهم ليحقّق القول سمة جمالية ترقى به إلى النصّ الأدبي، لأنّ السّمة الأبرز في العدول هو الخروج عن الكلام العادي واللّغة القاعدية، وقد توسّع في مفهوم هذا العدول إلى أن شمل أصناف أدبية شتى كالوزن والإيقاع الشعري، والقصة، والرواية.. أما العدول الذي سنتناوله في هذه الدراسة فهو خاص بالبناء اللّغوي والشّكل الأسلوبي الذي يأتي عليه الكلام، والذي نعني به "مخالفة الكلام لصياغته اللغوية الأصلية المفترضة لتحقيق قيمة جمالية أو دلالة بلاغية." (5)

(1) . سنتناول في الفصل الأول معنى العدول ومفهومه عند النحويين والبلاغيين، لذا سأكتفي بإبراز المعنى العام للعدول في اللغة والاصطلاح، ثم صوره وأنواعه.

(2) . ينظر: معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ت: عبد السلام هارون، دار الفكر، 1399هـ- 1979م، ج4، ص246.

(3) . لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ، ج11، ص430.

(4) . المصدر نفسه، ج11، ص435.

(5) . ينظر: العدول في البنية التركيبية، إبراهيم بن منصور التركي، مجلة جامعة أم القرى، 1428هـ، العدد40، ج19، ص550

ويمكن تعريفه بمعنى أدقّ بأنّه: خروج منظّم عن تركيب لغوي مقدّر اعتبارا لحال المخاطب بناءً على أصل لغوي مفترض لتوخّي نكتة بلاغية وسمة أسلوبية.

أمّا عن العدول في حروف المعاني في هذا البحث فنعني به مخالفة مقتضى الظاهر في استعمال حروف المعاني بطريق إيثار وتخير حرف معنى على آخر يقوم مقامه في الظّاهر، مراعاة لما يقتضيه سياق الكلام من تلك المخالفة.

أنواع العدول: أفضى تتبّع استعمالات حروف المعاني وتقلّباتها في القرآن الكريم إلى استخلاص ثلاثة أنماط تعبيرية تدخل ضمن المواطن المعدول بها عن أصل الاستعمال سواء أكان الخروج عن الأصل قاعدي أو افتراضي(1)، وهي الآتي:

النّمط الأول: العدول بالمخالفة

وصورته أن يعدل النّظم في سياق واحد أو سياقين مختلفين عن حرف معنى إلى حرف آخر يماثله في الوظيفة العامة ويختلف عنه في خصوصية الأداء، وهو أقرب إلى معنى المخالفة بين حرفين مذكورين يشتركان في وظيفة واحدة، كالمخالفة بين لا ولن، أو على وفي، وعادة يكون هذا النوع عند اختلاف استعمال الحروف في المواضع المتشابهة أو في آيتين متقاربتين.

لتقوم الدراسة في عدول المخالفة في استعمال الحروف باستخراج نكات تحوّلها وأسراره البلاغية وأكثر هذا الضّرب يكون في المواضع المتشابهة، بمحاولة تجسيد الفوارق الأسلوبية وعلاقتها بالجوانب النّفسية والشّعورية ومدى تصوير الخطاب لأبعاد الرّوح وأغوار الأفئدة.

وقد يكون عدول المخالفة في موضع واحد، وقد يكون في موضعين، فمن الأول قوله تعالى:﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ: 24] إذ عدل النظم بأن خالف بين الحرفين "على" و"في" فاستعمل على مع الهدى، و"في" في الضّلال.

---

(1) ـ نعني بالعدول القاعدي ما خرج عن أصله بناء على القواعد اللغوية، كقولهم: الأصل أن تقول رفثت بالمرأة لا رفثت إليها، أو كخروج الاستفهام عن معنى طلب الفهم إلى معنى النفي مثلا، أما الافتراضي فهو أن يكون الحرف المعدول عنه مقدر باعتبار حال الكلام، نحو قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ [الإنسان: 24] فمن جهة اللّفظ يقال أنّ النهي عن اجتماع الوصفين أولى من الانفراد، فيفترض حينها حرف الجمع وهو الواو، ليدرس العدول سرّ اختيار النظم للحرف "أو" دون الواو وبلاغته دون الآخر، وحينها لا يقال إنّ الأصل أن تتعين الواو هنا، وع ذلك هو عدول باعتبار الافتراض، وهذا النوع يكون عادة في العدول بالاختيار، والحذف.

ومثال الموضعين قوله تعالى في اليهود: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: 95] فنفَى التمنّي بحرف النّفي "لن"، أمّا في سورة الجمعة فخالفه إلى استعمال "لا" في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [الجمعة: 7].

النّمط الثاني: العدول بالاختيار

معنى هذا الضّرب هو أن يعدل النّظم عن حرف مقدَّر مفترض إلى الحرف المذكور في الكلام لمناسبة بينهما، ويدخل في معرفة دقّة اختيار الحرف المناسب لملائمة الغرض، وتظهر المزية ويتضح الفضل حين يخضع هذا العدول لافتراض استبدال الحرف المذكور بآخر يشترك معه في المعنى العام بمعنى معرفة ما مدى حكمة اختيار النّظم لحرف بعينة إذا أمكن إحلال غيره محلّه، وعليه فإنّ طبيعة الدراسة تهتمّ بكشف الفروق الأسلوبية بين الحرف المنظوم والمحتمل، وتتبع الأسرار البلاغية في اختيار المستعمل من المتصوّر، رغم أنّ هذا الأخير ينافس الأوّل في المعنى النّحوي دون الغرض، لأنّ تقرير مسألة الاشتراك في المعنى والغرض لأكثر من حرف أمر مستبعد في طبيعة اللّغة ومقتضيات الكلام البليغ، إذ لا بدّ من وجود خاصية أسلوبية مختارة إذا عدل الكلام إلى مادة تعبيرية دون أخرى.

وهذا نحو قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الأعراف: 4] ففي قوله: ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ عدل التعبير عن استعمال واو العطف المفترضة إلى اختيار "أو" وذلك لأن « "أو" هنا أحسن من الواو؛ لأنّ الواو توجب اجتماع الشيئين، و"أو" التي للإباحة توجبهما مجتمعين ومفترقين، ألا ترى أنك إذا قلتَ: ضربت القوم ضاحكين وباكين لأوجبت "الواو" أنك ضربتهم وهم على هاتين الحالين، وإذا قلتَ: ضربتهم ضاحكين أو باكين لأوجَبَت "أو" أنّك ضربتهم مرّة على هذا الحال، ومرّة على هذه الحال، فكذا في الآية، ولو أتيت فيها بالواو مكان "أو"، لصار المعنى: أهلكناهم باللّيل وهم قائلون. »(1)

ويدخل في هذا النّمط ما يتعلّق بالأساليب النّحوية كالنّداء والاستفهام والتعليل، ففي النداء مثلا لا يختار حرف على حرف بل قد يعدل النّداء عن معنى طلب الإقبال إلى معان أخرى اقتضاها المقام إذ يعدّ هذا الإجراء خروجا عن مقتضى ظاهر الاستعمال وذلك بالعدول عن أصل معنى الحرف إلى معنى آخر لغرض بلاغي، فالعدول في هذا الوجه ليس الاختيار فيه على مستوى الحرف بل على معناه الأصلي كخروج الاستفهام من "طلب الفهم" إلى معنى النّفي، أو التقرير، أو الأمر، وغيرها.

(1). إعراب القرآن، زكريا الأنصاري، ت: موسى مسعود، ط1، 1421هـ- 2001م، ص276.

ووجه العدول في هذا الضّرب هو اختيار التعبير عن النّهي مثلا بالاستفهام لتحقيق غاية أسلوبية لا يمكن تحقيقها لو جاء الكلام بصورة النهي الأصلي، وبالتالي فإنّ طبيعة الدراسة تهتمّ بتوضيح العلاقة بين اللّفظ المتخيّر الملفوظ والمعنى المعدول إليه، بمعنى تتبع الأسرار التي من أجلها تمّ اختيار نسق أسلوبي معين ذات صورة ثابتة كهمزة الاستفهام مثلا للدّلالة على معان متعدّدة كالتعجب والنهي والإنكار وغيرها، وكلّها مخالفة لمعنى النسق المعبّر به وهو "الاستفهام".

وهذا كخروج النّداء عن أصل وضعه، فلأجل تحقيق غرض التحسّر مثلا عدل عن معنى النّداء مع بقاء صورته وهيئته اللّفظية.

النّمط الثالث: العدول بالحذف.

ومعناه أن يُثبِت النّظم حرف معنى في موضع ثم يحذفه في موضع مشابه مما يلفت انتباه القارئ ويدعوه إلى التفكّر في نكتة هذه المخالفة.

وهذا العدول بمفهومه المبيّن يرتكز أساسا في حروف الجرّ والعطف، وذلك لما يجمع بين كلّ منهما من وحدة الأسلوب وتماثل الوظيفة النّحوية فحروف الجر متلاحمة في أمّ المعنى وهو الإضافة لذلك سميت به، أي هي تضيف المعنى إلى الفعل وتحدّد مدلوله وهي منبثقة عن نظام التعدية ثم تقوم على مخالفة هذا النظام والعدول عنه لتحقيق أغراض في معنى الفعل تتناسب مع طبيعة الحرف المذكور.

وكذلك الأمر في حروف العطف التي تدور في نطاق الاشتراك وما يتصلّ به من دلالات؛ يسهم السّياق في صياغتها وتكوينها. (1) أمّا باقي الحروف فتختلف درجة بيان معنى هذا العدول فيها على وفق ما تحقّقه من معنى المشابهة والاشتراك.

ومثال هذا النّمط قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٥٣ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا ﴾ [الشّعراء: 153-154] بحذف واو العطف، ثم اثباتها في قوله تعالى بعدها: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٨٥ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا ﴾ [الشّعراء: 185-186].

فالأسلوب العدولي في حروف المعاني يدور أغلبه في كشف الملابسات المعنوية داخل الأسلوب الواحد، لأنّ الحامل على ذلك هو التقارب في المضمون والفائدة، وبالتالي فالعدول البلاغي إجراء تسوّغه المقاربة المعنوية بين أداتين وفي هذا تظهر مزيته ويتّضح فضله، أمّا إذا كان سبيله الاختلاف

(1). ينظر: الأدوات النحوية في كتب التفسير، محمود أحمد الصغير، دار الفكر، دمشق، ط1، 1422هـ-2001م، ص707.

والتباعد فإقحام مفهوم العدول فيه هو حَيْدة عن البلاغة، وعيب في البليغ، فاختيار القريب من البعيد كاختيار الصّحة من الخطأ؛ وهذا مسلك ليست البلاغة إليه.

وهذا الرأي قد أثبته حتى المقرّين مسألة حمل حرف على معنى حرف آخر، يقول الطبري: « إنما يوضع الحرف مكان آخر غيره، إذا تقارب معنياهما. فأما إذا اختلفت معانيهما، فغير موجود في كلامهم وضع أحدهما عَقِيب الآخر. »[1]

وبالتالي فإنّ مفهوم العدول في هذه الدراسة لا يتحقّق بمحض اشتراك طائفة من الحروف في الأسلوب النّحوي إلا إذا تشاكل المعنى والغرض، فأسلوب الجواب مثلا وإن كانت حروفه تشترك في تحقيقه فإنها لا تتقارب كلّها في المضمون والفائدة، على خلاف العطف والنفي مثلا.

وبالتالي فإنّه فيما بدا لي أنّ تقرير مسألة العدول أو التناوب في أحرف الجواب غير وجيه، لأنّ الجواب بالحرف قد يفسَّر بمعنى حرف آخر لكن لا يُحمل أحدهما على الآخر، ولا يقارض كلّ حرف دلالته للآخر على أيّ وجه، فهذا تضبطه قواعد خاصّة لا يمكن إحلال أيّ حرف محلّه في مقتضى الظاهر، لأنّ حروف الجواب ليست متقاربة في تقرير معنى الجواب فبلى مثلا تحمل معنى النّفي أكثر من الإثبات، ونعم هي إثبات وليس فيها أي معنى للنّفي، وإذا سلّمنا بأنهما يشتركان في معنى التقرير فإنّ التقرير الذي يقدّمه الأوّل يختلف عن تقرير الثاني، فكيف يمكن حمل أحدهما على الأخرى؟! وعليه فإنّ مبدأ العدول يتأكّد منهجه حين تتقارب دلالات الحروف لا مجرّد الاشتراك في الأسلوب.

كما أنّ أسلوب الجواب يرتبط ارتباطا وثيقا بأسلوب الاستفهام، وتبنى معاني أدواته عليه بالإضافة إلى معطيات أخرى[2] وهذا ما نلمسه من خلال آراء وتحليلات البيانيين، إضافة إلى اقتصار المفسرين في ضوء ما ورد منها في القرآن على المعاني الأصلية من دون ذكر لفوائدها وعدولها عن معانيها؛ إلا نادرا.

(1). جامع البيان، ت: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ- 2000م، ج9، ص552.

(2). ينظر: الأدوات النحوية في كتب التفسير، ص620.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثانيا: مفهوم حروف المعاني وتقسيماتها:

أـ معنى الحرف في اللّغة: يطلق الحرف في اللغة على معان عدّة[1] منها الطرف والشفير والحدّ وحرف الشّيء: ناحيته. ويقال: فلانٌ على حرف من أمره، أي ناحية منه كأنّه ينتظر ويتوقّع، فإن رأى من ناحية ما يحبّ وإلا عدل عنه، كما جاء في التنزيل: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ ﴾ [الحج: 11]، أي على وجه واحد، وذلك لشكّه وعدم طمأنينته، وبهذا عُدَّ هذا المعنى علّة لتسميته حرفا فالحرف إنما يدلّ في حالة واحدة؛ على معنى واحد « فإن قيل: فإنّ الحرف الواحد قد يرد لمعان كثيرة! فالجواب أنّ الأصل في الحرف أن يوضع لمعنى واحد، وقد يتوسّع فيه، فيستعمل في غيره. »[2]

يقول ابن جني: « فأمّا الحرف فالقول فيه وفيما كان من لفظه: أنّ "ح ر ف" أينما وقعت في الكلام يراد به حدّ الشّيء وحِدته، من ذلك حرف الشيء إنما هو حَدُّه وناحِيَته. »[3]

أما في **الاصطلاح** فيعنى بالحرف « ما دلّ على معنى في غيره، ومن ثم لم ينفكَّ من اسم أو فعل يصحبه. »[4]

ويعرف المرادي الحرف بأنه: « كلمة تدلّ على معنى، في غيرها، فقط. »[5]

أمّا عن وصفه فقد ذكر سيبويه أنّ الحرف « ما جاء لمعنى وليس باسم ولا فعل »[6] يعني هو الَّذِي يفيد معنىً لَيْس فِي اسم ولا فعل، نحو قولنا "زيدٌ منطلقٌ" ثُمَّ نقول "هل زيدٌ منطلق" فافدْنا بـ"هل" مَا لَمْ يكن فِي "زيد" ولا "منطلق".[7]

---

(1) . ينظر: سرّ صناعة الاعراب، ابن جني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1421هـ- 2000م، ج1، ص28 والجنى الداني في حروف المعاني، المرادي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1413هـ- 1992م، ص24، ولسان العرب ابن منظور، ج9، ص42، والقاموس المحيط، الفيروزأبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط8، 1426هـ- 2005م، ج1 ص799.

(2) . الجنى الداني في حروف المعاني، ص24.

(3) . سرّ صناعة الاعراب، ج1، ص28.

(4) . شرح المفصل، ابن يعيش، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ-2001م، ج4، ص447.

(5) . الجنى الداني في حروف المعاني، ص20.

(6) . الكتاب، ت: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1407هـ- 1988م، ج1، ص12.

(7) . الصاحبي في فقه اللغة، ابن فارس، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1418هـ-1997م، ص50.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ب ـ تعريف حروف المعاني:

أطلق النّحاة على قسيم الأسماء والأفعال تسمية "حروف المعاني" لدورها في إيصال معاني الأفعال إلى الأسماء أو لأنها تدلّ على معنى كالاستعلاء لـ"على" والالصاق للباء والاستفهام لـ"هل"، فإن الباء في قولك مررت بزيد حرف معنى لدلالتها على الإلصاق بخلاف الباء في بِكر وبِشر فإنها لا تدلّ على معنى. وتكون عوضا عن جمل وتفيد معناها بأوجز لفظ، فكلّ حروف المعاني تفيد فائدتها المعنوية مع الايجاز والاختصار: فحروف العطف جيء بها عوضا عن أعطف، وحروف الاستفهام جيء بها عوضا عن أستفهم، وحروف النفي عوضا عن أجحد أو أنفي، وحروف الاستثناء جاءت بدلا من أستثني أو أحاشي، وكذلك سائر حروف المعاني كأحرف النّداء والتمني. (1)

وأطلق عليها لفظ الحروف تغليبا لأنّ بعض ما ذكر في هذا الباب أسماء مثل "كلّ، متى، مَن، إذا وغيرها" لكن لما كان أكثرها حروفا سمي الجمع بهذا الاسم. (2)

وقد عرّفت حروف المعاني بناء على وظيفتها بأنها «كلّ حرف أو شبه حرف له وظيفة نحوية أو صرفية أو صوتية ذات دلالة.»(3)

ج ـ تقسيمات حروف المعاني:

أورد النّحاة عدّة تقسيمات لحروف المعاني وذلك باعتبارات مختلفة(4)، فقسمت باعتبار بنيتها حينا، وحينا باعتبار عملها، وباعتبار وظائفها الاجمالية حينا آخر، وأحيانا أخرى باعتبار وظائفها التفصيلية، وبعض معايير تقسيمها يرجع إلى اختصاص الحرف في دخوله على الاسم أوالفعل أو عليهما جميعا، فمن حيث بنيتها تقسّم على قسمين: مفردة؛ وهي التي تتكون من حرف واحد كالباء والهمزة والفاء، ومركبة وهي التي تتكون من أكثر من حرف وتشتمل على الثنائي كلم ولن والثلاثي نحو إلى وعلى، والرّباعي كلعلّ ولكن.

وقسّمت من حيث عملها إلى عاملة ومهملة، ومن حيث وظائفها الاجمالية قسّمت إلى أقسام كثيرة كحروف الجر، والعطف، والشرط، والاستثناء، والاستفهام، والنفي وغيرها.

---

(1) . ينظر: معجم مصطلحات النحو والصرف والعروض والقافية، محمد إبراهيم عبادة، دار المعارف، القاهرة، ص 106.

(2) . ينظر: كشف الأسرار، علاء الدين البخاري الحنفي، دار الكتاب الإسلامي، ج2، ص109.

(3) . مقدمة كتاب: معجم حروف المعاني في القرآن الكريم، محمد حسن الشريف، مؤسسة الرسالة، بيروت ط1، 1417هـ ص ر ر

(4) . ينظر: المفصل في صنعة الإعراب، الزمخشري، ت: علي بوملحم، مكتبة الهلال، بيروت، ط1، 1993م، ج1، ص379 ورصف المباني في شرح حروف المعاني، المالقي، ت: أحمد محمد الخراط، مطبوعات مجمع اللّغة العربية، دمشق، ص4-5، والجنى الداني في حروف المعاني، ص25، وحروف المعاني بين الأداء اللّغوي والوظيفة النحوية، عبد الله حسن عبد الله، (دكتواره) ص26.

وأمّا حيث وظائفها التفصيلية قسّمت إلى عدة أنواع كحروف الابتداء، والاستدراك، والاستفتاح والاضراب، والإلصاق، والامتناع، والتخيير، والتراخي، والترتيب، والترجي، والتسويف، والتعقيب...

لكن التقسيم المعتمد في هذه الدّراسة هو باعتبار اشتراك لطائفة من الحروف في الوظائف العامة كالجرّ والشّرط والتوكيد وغيرها، ليتسنى لنا تحسّس الفروق المعنوية الدقيقة للحروف داخل الأسلوب الواحد، أمّا التقسيمات الأخرى فلا يهتمّ موضوع العدول باقتضائها وتطلبها.

وتقسّم الحروف باعتبار معناها إلى أنواع عدة[1]، ونظرا لطبيعة الموضوع سأقتصر على ذكر الحروف التي تخضع لظاهرة العدول وتبنيها فكرة المخالفة، لأنّ منهج الأسلوب العدولي لا يقوم إلا إذا توفرت المقاربة المعنوية بين الحروف ومشاكلة المعنى للغرض، لا مجرّد الاشتراك النحوي، وعليه سأختصّ بالدراسة حروف المعاني الآتية:

حروف الجرّ: من، إلى، حتى، خلا، حاشى، عدا، في، عن، على مذ، منذ، ربّ، اللام،كي، الواو التاء، الكاف، الباء، لعلّ، متى.

حروف العطف: الواو، والفاء، وثمّ، وأو، ولا، وبل، ولكن، وأم، وحتى

حروف الشّرط: إنْ، ولو، ولولا، ولوما، وأمّا، ولما

أحرف النّفي: وهي: لم، ولما، ولن، وما، وإنْ، ولا، ولات.

حرفا الاستفهام: الهمزة، وهل.

حروف الاستثناء: إلا، وغير، ولما

حروف التوكيد: إنّ، وأنّ، ولام الابتداء، ونونا التوكيد؛ الخفيفة والثقيلة، واللام الواقعة في جواب القَسم، وقد.

حرف النّداء: "يا"

حروف التعليل: كي؛ وهي أصل معنى التعليل، وقد تتضمن حروف أخرى التعليل، وهي: اللام والباء، والفاء، ومِن، ولعلّ، وعن، وفي، وعلى.

ولما كانت دراسة ظاهرة العدول في حروف المعاني اقتضت المنحى الأسلوبي في المعالجة والتحليل لا بدّ من توضيح معنى الأسلوبية، وعلاقتها بموضوع العدول، وكيف يتعامل التحليل الأسلوبي مع الظاهرة اللغوية، وهذا ما سيوضّح في النقطة الموالية.

---

(1). ينظر: الكتاب، ج4، ص217، المفصل في صنعة الإعراب، ج1، ص403-405، شرح المفصل، ج5، ص4.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثالثا: مفهوم الأسلوبيـة

تعدّ الأسلوبية بوصفها مصطلحا مفهوما جديدا تأسّست دعائمه عند "بالي" سنة 1902م وقد اشتهر معناه في اللّغات الأوروبية منذ مطلع القرن العشرين، أما خلال القرون من الخامس عشر إلى التاسع عشر كان يوجد مصطلح الأسلوب فقط والذي كان يقصد به "النّظام والقواعد العامّة" كأسلوب المعيشة، أو الأسلوب الكلاسيكي في الملبس والأثاث، أو الأسلوب البلاغي، وغيرها، أما في القرن العشرين فقد استمر هذا المصطلح أيضا ولكن وجد إلى جواره مصطلح آخر هو "الأسلوبية" الذي اقتصر على حقول الدراسات الأدبية. (1)

فهو مصطلح جديد من حيث النّشأة، وجدّته تمخّضت عن ميلاد عدة نظريات لغوية حديثة كما هو الحال عند العالم اللّغوي دي سوسير مؤسّس علم اللّغة الحديث الذي حاول كشف العلاقة بين اللغة والكلام؛ والتي عُدّت أهم ركيزة من ركائز التفكير اللّغوي أسهمت في تحديد مجال الأسلوبية « وقد كان هذا التمييز بين اللّغة كظاهرة لغوية مجرّدة توجد ضمنا في كلّ خطاب بشري ولا توجد أبدا هيكلا ماديا ملموسا، والكلام باعتباره الظاهرة المجسّدة للغة؛ مساعدا على تحديد مجال الأسلوبية، إذ إنها لا يمكن أن تتصلّ إلا بالكلام وهو الحيز المادي الملموس الذي يأخذ أشكالا مختلفة قد تكون عبارة، أو خطابا، أو رسالة، أو قصيدة شعر. »(2)

وقد تميز البحث الأسلوبي بمفهومين مختلفين (3):

الأول: دراسة الصّلة بين الشّكل والفكرة.

الثاني: الطريقة الفردية في الأسلوب أو دراسة النقد الأسلوبي وتتمثل في بحث الصِّلات الرابطة بين التعبيرات الفردية أو الجماعية.

كما أنّه من المهمّ أنّ نشير إلى أنّ « التناول الأسلوبي إنما ينصبّ على اللغة الأدبية، لأنها تمثل التنوع الفردي المتميز في الأداء بما فيه من وعي واختيار وبما فيه من انحراف على المستوى العادي المألوف بخلاف اللغة العادية التي تتميّز بالتلقائية، والتي يتبادلها الأفراد بشكل دائم وغير متميز. »(4) فعلم اللّغة يدرس ما يقال، في حين أنّ الأسلوبية هي التي تَدرس كيفية ما يقال مستخدمة الوصف والتحليل في آن واحد. »(5)

(1) . ينظر: دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث، أحمد درويش، دار غريب، القاهرة، ص15-16.

(2) . البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان ، ط1، 1994م، ص204.

(3) . البلاغة والأسلوبية، ص185.

(4) . المرجع نفسه، ص186.

(5) . المرجع نفسه، ص186.

أمّا مدلول الأسلوب عند الأسلوبيين فيعني: ((تفجّر الطّاقات التعبيرية الكامِنة في صميم اللّغة بخروجها من عالمها الافتراضي إلى حيّز الوجود اللّغوي... فالأسلوب هو الاستعمال ذاته.))(1)

وإذا كنا نتحدث عن الأسلوب والأسلوبية فمن الجدير التفريق بين الأسلوب والأسلوبية، فعلم الأسلوب يتوقف عند تحليل النّص وفق مستويات التحليل ليصل إلى العلم بأساليبه، أما الأسلوبية هي التي تتجاوز النّص المحلّل إلى نقد تلك الأساليب وفق أحد مناهج النّقد، فهي تقوم على إفراز المادة الجمالية من بعد التفسير التحليلي للنصوص.

فكلمة الأسلوب من حيث معناها العام يمكن أن تطلق على:

1- النّظام والقواعد العامة كأسلوب معيشة شعب ما، أو أسلوب العمل لدى جماعة معيّنة، سعيا إلى إيجاد المبادئ العامة لطبقة من طبقات الأسلوب.

2- يمكن أن يعنى الأسلوب الخصائص الفردية التي تميّز شيئا عمّا سواه، فهنالك لحديث عن أسلوب كاتب معين، أو الميل إلى سماع أسلوب موسيقي خاصّ. (2)

كما أنّ الدّائرة التي تحتلّها الأسلوبية أضيق من الأسلوب فهي تعني ((الوصول إلى وصف وتقييم علمي محدّد لجماليات التعبير في مجالات الدّراسات الأدبية واللّغوية على نحو خاصّ، ولا تكاد تتعدّاها إلى غيرها من المجالات.))(3)

فالأسلوبية إذن هي آلية نقدية تكشف عن جماليات الأسلوب، وتحليل التّراكيب اللّغوية والبلاغية للنّصوص.

أما في مجال المقارنة بين التحليل الأسلوبي والتحليل البلاغي على اعتبار أنهما يشتركان في دراسة اللّغة الفنية الجمالية، فإننا نجد أنّ البلاغة هي علم معياري يرسل الأحكام التقييمية ويهدف إلى تعليم مادته وموضوعه بينما تنفي الأسلوبية عن نفسها كلّ ما هو معياري وتعزف عن إرسال الأحكام التقييمية بالمدح أو التهجين، ولا تسعى إلى غاية تعليمية البتة، إنما تحدد الأسلوبية بقيود منهج العلوم الوصفية.

(1) . البلاغة والأسلوبية، ص89، وانظر تعريفات الأسلوبية في: دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث، ص20، والأُسلوبية والبيان العربي، محمد عبد المنعم خفاجي وآخرون، الدار المصرية اللبنانية، ط1، 1992م، ص23. والبلاغة والأسلوبية، ص172- 173- 174، و للتوسّع ينظر: الأسلوبية والأسلوب، للمسدي، الدار العربية للكتاب، تونس، ط3، مِن ص33 إلى ص125.

(2) . ينظر: دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث، أحمد درويش، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ص20.

(3) . دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث، ص20.

ومن المفارقات أيضا أنّ البلاغة اعتمدت فصل الشّكل عن المضمون فميزّت في وسائلها العملية بين الأغراض والصّور، بينما ترفض الأسلوبية الفصل بين الدال والمدلول إذ لا وجود لكليهما إلا متقاطعين ومكوّنَين للدلالة فهما لها بمثابة وجهي ورقة واحدة. [1]

العدول إجراء أسلوبي:

اهتمّت الدراسات النّقدية والأدبية الحديثة بظاهرة "العدول" باعتباره قضية أساسية في تشكيل جماليات النّصوص الأدبية، وبوصفه إجراء لغوي وبلاغي يعنى بدراية الكلام ونظمه وصياغته والعدول هو إحدى المواد التي تدرسها وتهتم بها الأسلوبية من خلال النّصوص الأدبية بحثا عن سمات تفوّق الأسلوب، والإيحاءات الكامنة في التراكيب العدولية.

وبالرّغم من ذيوع ظاهرة العدول في البحث البلاغي العربي، فقد اتّخذها علماء الأسلوب والنّقد الحديث، مقياساً كاشفاً لطبيعة الجمال اللغوي؛ ومنه إلى الظاهرة الأسلوبية، باعتبارها الظاهرة التي تبتعد عن الاستعمال المألوف؛ وتهتمّ بمظاهر الخروج عن الأشكال النّحوية في صورتها الأولى وذلك تحت عدّة اصطلاحات[2] منها: "العدول" و"الانزياح" و"المخالفة" و"الانتهاك"...

وقد استخدم النّقد المعاصر للتّعبير عن العدول دلالات لغوية تشير إلى معناه، أوصلها الباحث عبد السّلام المسدي إلى اثنتي عشرة مصطلحا؛ أوردها فيما يقابل خروج الكلام عن مقتضى الظّاهر تحت عنوان أسماه: "كشف الدّوال المعبّرة عن الواقع العَرَضي"، في الوقت الذي أحصى فيه ستّة عشر مصطلحاً فيما يقابل مقتضى ظاهر الكلام تحت عنوان أسماه: "ثبت المصطلحات المعبَّر بها عن الواقع الأصل". [3]

وخلال هذا الكمّ الهائل من المصطلحات نلحظ أنّ هناك توسّعا من الدّراسات الأسلوبية الحديثة في البدائل اللّغوية لمصطلح العدول؛ باعتباره إجراءً بلاغيا نقديا « يُستخدم لبلاغة دراسة التّركيب وشعرية اللّغة »[4]، ولعلّ من أسباب هذه التّوسعة ؛ التّرجمة [5]وما انجرّ عنها؛ التي ربّما تجرّ معها أزمةً في المصطلح؛ يصعُب خوضها، إضافةً إلى مُرونة الدّلالة المعجمية لهذا المصطلح يتعسّر حصرها في لون لغويّ معيّن.

---

(1) . ينظر: الأسلوبية والأسلوب، عبد السّلام المسدي، ص52-53.

(2) . ينظر: المرجع نفسه، ص100، وما بعدها.

(3) . ينظر: المرجع نفسه، ص99، 100.

(4) . العدول في البنية التركيبية، ص591.

(5) . ينظر: من قضايا المصطلح اللغوي العربي، مصطفى طاهر الحيادرة، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 1424هـ-2003م، ص55-61.

والأسلوبية قد جعلت العدول منذ نشأتها عماد نظريتها، فمنهم من اتخذ العدول مقياسا لتحديد الخاصية الأسلوبية عموما ومعيارا لتقدير كثافة عمقها ودرجة نجاعتها، ومنهم من يعزو الظاهرة الأسلوبية إلى عبقرية اللّغة، إذ تسمح بالابتعاد عن المألوف، فتُوقع في نظام اللغة اضطرابا يصبح هو نفسه انتظاما جديدا، ومنهم من يربط الأسلوب بمجموع المفارقات التي نلاحظها بين نظام التركيب اللّغوي للخطاب الأدبي وغيره من الأنظمة، وهي مفارقات تنطوي على انحرافات ومجاذبات بها يحصل الانطباع الجمالي. (1)

ويحرص الباحثون على تأكيد أهمية العدول الذي يعدّ من أهمّ ما ارتكزت عليه أركان الأسلوبية ويرجع هذا إلى أنّ ظاهرة العدول من أهمّ الظواهر التي يمتاز بها الأسلوب الأدبي من غيره، باعتبار أنّ أهمّ مبحث من مباحث الأسلوبية يتمثل في رصد انحراف الكلام عن نسقه المثالي المألوف والذي يمكن بواسطته التعرّف على طبيعة الأسلوب الأدبي، بل ربما كان هذا الانزياح هو الأسلوب ذاته وهذا يرجع إلى أنّ تعامل الأسلوبيين مع اللّغة على مستويين: الأول المستوى العادي "المثالي" ويتّسم بهيمنة الوظيفة الإبلاغية على أساليب الخطاب، والآخر المستوى الإبداعي "الفني" ويتّسم بخرق الاستعمال المثالي والخروج عنه. (2)

فالمستوى العادي "المثالي" هو الذي قام على رعايته النّحاة واللّغويون واصطلحوا عليه: "أصل المعنى" و"أصل الكلام" وهذه الأصول أو المثالية أقرب إلى الافتراض النّظري منها إلى الاستعمال الواقعي، أما المستوى الإبداعي "الفني" وهو ما اهتمّ به النقاد و البلاغيون ـ وهو العدول ـ لما تضمَّنَه الأسلوب من طاقات إيحائية وملامح جمالية، بما اصطلَح عليه "عبد الحكيم راضي" بالمثالي والمنحرِف وقَصد بالمثالي المستوى العادي للّغة، أمّا المنحرف فهو المستوى الفنّي لها؛ وضرب لذلك مثلاً من تفسير الزّمخشري لقوله تعالى: ﴿ قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ ﴾ [الإسراء: 100] قال الزّمخشري(3): "لو" حقّها أن تدخل على الأفعال دون الأسماء... وهذا هو الوجه الذي يقتضيه علم الإعراب فأمّا ما يقتضيه علم البيان فهو أنّ: ﴿ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ ﴾ فيه دلالة على الاختصاص وأنّ النّاس هم المختصّون بالشّحّ المتبالغ. (4)

(1) . ينظر: الأسلوبية والأسلوب، ص101-102.

(2) . ينظر: البلاغة والأسلوبية، ص298.

(3) . ينظر: الكشاف، ت: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث، بيروت، ج2، ص651.

(4) . ينظر: نظرية اللغة في النقد العربي، مكتبة الخانجي، مصر، (د ط)، ص191.

والأسلوبية تتجاوز الجانب الوظيفي للغة إلى المعالجة الأدبية ذات الطابع الفني التي تكشف عن درجات الأساليب إذ تركّز اهتمامها على دراسة الجانب الجمالي في الظّاهرة اللغوية والأثر التي تحدثه في المتلقي المتعامل مع النّص، فالتحليل الأسلوبي « يتعامل مع ثلاثة عناصر:

1- العنصر اللّغوي: إذ يعالج نصوصا قامت اللّغة بوضع شفرتها.

2- العنصر النّفعي: الذي يؤدي إلى أن ندخل في حسابنا مقولات غير لغوية، مثل المؤلف والقارئ، والموقف التاريخي، وهدف الرسالة وغيرها.

3- العنصر الجمالي الأدبي: ويكشف عن تأثير النّص على القارئ والتفسير والتقويم الأدبيين له. »(1)

وتميزت الأسلوبية في دراسة الظاهرة اللغوية باستقصاء المقولات التعبيرية ووصف خواصها وتحديد طرق استعمالاتها، ثم تقوم بتحديد المستويات اللغوية وتصنيفها وترتيبها على أسس لغوية حديثة إذ تميز في دراسة لغة بعينها بين النحو والدلالة والأسلوب فاصلة بين القواعد العامة "مستوى الصحة والخطأ" والخصائص الأسلوبية ذات الوظائف المحددة في التعبير المتصلة بجوانبه التأثيرية، فهي تدرس أسلوب ما من ناحية مزايا التراكيب المختلفة في لغة معينة ومقارنته بالوظائف المشابهة لها في نفس اللغة وفي لغة أخرى(2)، وهذا ما يدعونا إلى الحديث عن منهج الأسلوبية في التحليل.

إنّ أصحاب التحليل الأسلوبي سلكوا في تتبعهم للنص الأدبي مسلكا يحاول تفسير السِّمة الإبداعية المتوخاة من كلّ طبقات النّص صوتيا وتركيبيا ودلاليا لتحليل الحدث الإيحائي والتأثيري بحثا عن السّمات التي استحالت من عناصر لغوية إلى مؤشرات تصنع الحدث الأسلوبي.

ومع هذا المسلك تعدّدت مناهجهم في التحليل الأسلوبي(3) باعتبار نظرة كلّ منهج إلى طبيعة العيار الكاشف عن جمال الأسلوب ومناحيه التأثيرية، لكن الذي يعنينا في هذا البحث منهج تحليل الانحراف عن اللّغة العادية أو ما هو مسمّى بالعدول.

وعليه يمكننا القول بأنّ المنهج الذي سار عليه الأسلوبيّون في تحليل ظواهر الأسلوب هو منهج "المقارنة" بمعنى مقارنة كلّ ظاهرة ببديلها المفترض، كي تتكشّف القيمة الفنّية لإيثارها . دون هذا البديل . في سياقها الخاصّ الذي وردت فيه(4)، واختيار منهج المقارنة؛ لأنّ استكشاف عناصر

---

(1) . علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، فضل عباس، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1419هـ - 1998م، ص132.

(2) . ينظر: المرجع نفسه، ص183.

(3) . ينظر: المرجع السابق، ص208، ص242.

(4) . ينظر: أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، حسن طبل، دار الكتب، 1990م، ص41.

الجمال في الجملة ((يتمّ بعد الانغراس في تربة تركيبها المفترض للمقارنة بين التركيب الأدبي الحادث، والتّركيب النّحوي السّابق وهو ما يُعرف في الدّراسات المعاصرة باسم: العدول.))[1]

وهذا المنهج الذي سلكته الأسلوبيّة يلخّص محورين على أساسهما يتشكّل الأسلوب؛ وهما:

أوّلا: محور العلاقات الرّأسية: وهو المحور التي يتحرّك في الحقول الدّلالية عبر ظلال الفوارق الدّقيقة لينتقي مثلاً من بيْن أفعال الشّرب؛ امتصَّ، وشرِب، وبَلَعَ، وتجرَّع، وتعاطَى، وتَساقَى، ما يتلاءَم مع المعنى الدّقيق. و قد يمتدّ هذا المحور إلى التركيب الصّرفي، وإلى مجال المعجم التاريخي.

ثانيا: محور العلاقات الأفقية التّركيبية: وهو المحور الذي ينتقي النّسق التّركيبي الأكثر ملائمة للموقف وسوف يجدُ أمامه كثيرا من خيارات التّنسيق بين الوحدات الصغرى، الحروف والأفعال والأسماء التي تمّ اختيارها في المرحلة الأولى. [2]

فالانزياح من النّاحية العملية متّصل بركنين أساسين: الأوّل متّصل بالتوزيع أي ب"العلاقات الرّكنية" بمعنى العدول عن النّمط التّركيبي الأصلي، كالتقديم والتأخير، والحذف والذِّكر، نحو قوله تعالى: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة: 87]، وفي هذا عدول عن النّمط التركيبي الأصلي بتقديم المفعول به أوّلا، واختزال الضّمير العائد عليه ثانيا "فريقا كذّبتموه"، فهذا عدول متّصل بالتوزيع معنى ذلك أنّ نفس الأدوات اللّغوية المستعملة يمكن إعادة رصفها بما يزيل الانزياح وبالتالي السّمة الأسلوبية، والآخر يختصّ بجدول الاختيار، أي: العلاقات الاستبدالية، فكقول الشاعر: "والعَيْنُ تَخْتَلِسُ السَّمَاعَ..." فالمألوف أن تسترق حاسّةُ البصر النَّظر، وفي العدول عن عبارة النّظَر، واختيار عبارة السّماع سِمة أسلوبية، أمّا إذا قلت: "كَذبت القوم، وقتلت الجماعة" فإنّك لا تعمد إلى أيّ خاصية أسلوبية. وعليه يعتبر الأسلوبيون أنّه كلّما تصرّف مستعمل اللغة في هياكل دلالاتها، أو أشكال تراكيبها بما يخرج عن المألوف؛ انتقل كلامه من السِّمة الإخبارية إلى السِّمة الإنشائية. [3]

وقضية العدول في الظاهرة الكلامية لا تخرج من احتمالين ((إما خروج على الاستعمال المألوف للغة، وإما خروج على النظام اللّغوي نفسه أي خروج على جملة القواعد التي يصير بها الأداء إلى وجوده، وهو يبدوا في كلا الحالين كما يمكن أن نلاحظ وكأنّه كسر للمعيار، غير أنه لا يتمّ إلا

---

(1) . العدول في البنية التركيبية قراءة في التراث البلاغي، إبراهيم بن منصور التركي، ص548.

(2) . ينظر: دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث، ص47.

(3) . ينظر: الأسلوبية والأسلوب، ص163.

بقصد من الكاتب أو المتكلّم وهذا ما يعطي لوقوعه قيمة لغوية وجمالية ترقى به إلى رتبة الحدث الأسلوبي. »[1]

وهذا الأسلوب العدولي هو نفسه يعدّ نظاما أسلوبيا متميّزا لأنّه وإن عدّ خروجا عن أصل « أو مخالَفة لقاعدة ولكن هذا الخروج وتلك المخالفة اكتسبا في الاستعمال الأسلوبي قدْراً من الاطّراد رُقِيَ بهما إلى مرتبة الأصول التي يقاس عليهما. »[2]

كما أنّ المقصود في هذا البحث بالعدول الأسلوبي أو مخالفة القاعدة بمعناه العام ليس هو الخروج عن نظام المألوف من كلام النّاس، كأنْ يكون مخالفا لترتيب الألفاظ في العبارة، أو مخالفا للمنطق والعقل في تركيب المعنى، أو غامضا ملتبسا في دلالته أو غيرها مما يصنّف في دائرة المنحرف عن النظام اللّغوي المتكامل.

بل المقصود بالجوانب العدولية هو مخالفة النّص في بعض تراكيبه أو صياغته مقتضى ظاهر الكلام باعتبار أصل الوضع، وعدوله عن القياس النّحوي المألوف على أساس القواعد اللغوية، وذلك نحو ما جاء في قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ١﴾ [المعارج: 1]، ولم يقل: "عن عذاب واقع" والسّؤال إنما يعدّى بــ"عن" دون الباء في أصل القاعدة.

ولا شكّ أنّ هذا البناء الأسلوبي المحكم لا يتوقّف مسألة تعدية الفعل فحسب بل هو نسيج تركيبي يكمن في طريقة بناء المعاني النّحوية، وهذا البناء يتدخّل في صناعته عنصُرا الاختيار والتوزيع فالاختيار يتمثل في إيثار عنصر عن آخر، فإنّ الصانع اللّغوي يجد أمامه مجموعة من مجالات التخيّر بين العناصر النّحوية المختلفة، فيختار إحداهما تبعا لطبيعة الموقف والغاية، لأنّ لكلّ عنصر نحوي إمكانية معينة في أداء المعنى، أمّا التأليف فيتمثّل في طريقة توزيع هذه العناصر داخل الجملة ووضع كلّ عنصر في المكان الذي يخدم قضية البناء الفني المحكم للعبارة.[3]

وقد أكسب مفهوم العدول الأسلوبية ثراء في التحليل إذ تتعامل المقاييس الاختيارية والتوزيعية على مبدئه فتتكاثف السّمات الأسلوبية، وفي ضوئه يمكن إعادة وصف كثير من التحليلات البلاغية العربية، فمن ذلك باب تضمين الحروف؛ وفيه يقول ابن جني: « اعلم أنّ الفعل إذا كان بمعنى فعل آخر وكان أحدهما يتعدى بحرف والآخر بآخر فإنّ العرب قد تتّسع فتوقع أحد الحرفين موقع صاحبه إيذانا بأنّ هذا الفعل في معنى ذلك الآخر فلذلك جئ معه بالحرف المعتاد مع ما هو في معناه وذلك

(1) . الأسلوبية وتحليل الخطاب، منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، ط1، 2002م، ص77.

(2) . البيان في روائع القرآن، تمام حسان، عالم الكتاب، القاهرة، ط1، 1413هـ- 1993م، ص347.

(3) . ينظر: دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث، ص113ص123.

كقول الله عزّ اسمه: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ [البقرة: 187]، وأنت لا تقول رفثت إلى المرأة، وإنما تقول: رفثت بها، أو معها لكنّه لما كان الرّفث هنا في معنى الإفضاء وكنت تعدي أفضيت بـ "إلى" كقولك : أفضيت إلى المرأة جئت بـ "إلى" مع الرفث إيذانا وإشعارا أنّه بمعناه.))[1]

فهذا الاتّساع الذي يتحدث عنه ابن جني ليس سوى انزياح، فالطبيعي أن تقول أحد أمرين:

أحلّ لكم ليلة الصّيام الرّفث بـنسائكم / أحلّ لكم ليلة الصّيام الإفضاء إلى نسائكم.

فإنْ عَمدت إلى أن تقرن الرّفث بحرف هو من توابع الإفضاء تكون قد أسقطت جدولين من الاختيار غير متآلفيْن ابتداء، وأفرغتهما في جدول توزيعي واحد مما أحدث السّمة الأسلوبية.[2]

وتبقى مسألة العدول في استعمال الحروف ممتدّة في الدرس النّحوي إلى خارج حدود العطف والجرّ، وقد تتبّعها بعض البلاغيين محاولين الإفادة من ذلك في خلق صلات متجدّدة في صياغة الجمل وعدم الاكتفاء بالصّور الوظيفية؛ الجاهزة لتلك الحروف، مما يعدّ أحد عناصر البحث الأسلوبي الحديث.

---

(1) . الخصائص، ج2، ص310.

(2) . الأسلوبية والأسلوب، ص164-165.

الفصل الأول

العدول في حروف المعاني عند النحويين والبلاغيين

ويندرج تحته مبحثان:

المبحث الأول: العدول في حروف المعاني عند النحويين

المبحث الثاني: العدول في حروف المعني عند البلاغيين

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول:

العـدول في حـروف المعاني عند النحويين

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول: العدول في حروف المعاني عند النّحويين.

المطلب الأول: العدول في مفهوم النحويين

أوّلا: بين العدل والعدول:

لفظة: "عدول" مأخوذة من مادة "عَدَل"، وملخّص معناه يكمن في معنيين متقابلين، الأوّل يدور حول الإنصاف والاستواء والآخَر حول الميل والرجوع؛ والمعنى الثّاني هو الذي يجاري هذا البحث تحسّساً لربط المصطلح بالمفهوم العام للعدول، ومدى مناسبة الحَيدة والميل لمفهوم ظاهرة العدول اللّغوية والتي نحن بصدد دراستها، والتي تقتضي ميلاً من شيء إلى شيء.

ومن منطلق المفهوم اللّغوي للعدول أسمى النّحاة مصطلح "العَدْلُ" في الأسماء، فإذا كان العدول هو خروج باللّفظ على غير وجهه، فإنّ العَدل هو أن تريد لفظا فتَعْدِل عنه، كعُمر معدولة عن عامر، والفيصل في معرفة دلالة كلّ من المعنيين هو سياق الكلام.

وإذا كان العَدل هو ضَرْبٌ من التصرّف وفيه إخراج للأصل عن بابه إلى الفرع[1]، والتّصريف هو إعمال الشّيء في غير وجه، كأنّه يصرفه عن وجه إلى وجه [2] فإنه يشترك والعدول الذي يعني مخالفة الكلام لصياغته اللّغوية الأصلية المفترضة في صرف اللّفظ عن وجهه وبابه إلى صيغة فرعية مستحدثة باعتبار أصل لغوي مفترض.

وقد يصطلح سيبويه على المعدول عن أصله بالمحدود ويقصد به الممنوع من صيغته البنائية الأصلية وذلك عند حديثه عن الأسماء والصفات المصروفة التي جاءت على "فُعَل"، ثمّ استثناء بعض الأسماء المعرفة وبيان علّة صرفهم، يقول: « وأمّا عُمَر وزُفَر، فإنما منعهم من صرفهما وأشباههما أنَّهما ليسا كشيء مما ذكرنا، وإنما هما محدودان عن البناء الذي هو أولى بهما، وهو بناؤهما في الأصل، فلمّا خالفا بناءهما في الأصل تركوا صرفهما، وذلك نحو: عامرٍ وزافرٍ، ولا يجيء عُمَر وأشباهه محدوداً عن البناء الذي هو أولى به إلا وذلك البناء معرفة. »[3]

فالمنع من الصرف، والمحدود عن البناء الأوّل، ومخالفة الأصل هي مصطلحات لمعنى واحد وهو مفهوم العدل عن النحويين الذي يعني: المنع من ورود البناء الأصلي "المفترض" وتجاوزه إلى البناء المعدول إليه "المستعمل" لعلل نحوية.

(1) . ينظر: الخصائص، ج1، ص52.

(2) . ينظر: تاج العروس، ت: عبد الكريم العزباوي، التراث العربي، الكويت، ط1، 1422هـ- 2001م، ج24، ص22.

(3) . الكتاب، ج3، ص223.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ويمكن أن نخلص مما سبق ذكره أنّ العدول لما يستعمله النّحاة للدلالة على العدل فإنما المقصود به العدول الصّرفي، ويُعنى به إخراج الاسم من صياغتة الأصلية إلى صيغة فرعية جديدة مستخرجة منه ويُقصد بهذه الصيغة الفرعية؛ الوجه المستعمل المعدول إليه؛ وذلك على مستوى بناء الحروف داخل الكلمة بأن « تَلفظ ببناء وأنت تريد بناءً آخر، نحو: عُمَر وأنت تريد عامرا وزفر وأنت تريد زافرا »(1)

ويعرّف السّكاكي العدل على أنّه: « تغيّر الصّيغة بدون تغيير معناها، كتغيير نحو: عَامِر وحَاذِمَة في الأعلام وواحد واحد على عشرة عشرة في غيرها على عُمَر وحذَامِ وعلى مَوْحد أو أَحَاد على معشر أو عشار»(2)، ويعني هذا أنّ التحوّل يحدث في صرف الكلمة لا في معناها، فالعدول من اثنين اثنين إلى "مثنى" إجراء تقصد إليه اللغة للتصرّف على مستوى متون الألفاظ من دون مساس بالمعاني.

ثانيا: العدول ونظرية الأصل عند النّحاة:

1- تعريف الأصل عند النّحاة:

الأصل لغة: أسفل كلّ شيء، وجمعه أصول، وأَصُل الشيء صار ذا أصل، واستأصل الشّيء ثبُت أصلُه، وقوي. (3)

ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: 24]، والأصل هنا القاعدة وورد بما يقابل الفرع، كما جاء في قوله: ﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ [الحشر: 5]، بمعنى قائمة فروعها على أصولها. (4)

والمراد بالأصل عند النّحاة ما ينبغي أن يكون عليه التركيب اللّغوي في الوضع بناء على غلَبة الاستعمال، ولا يمكن العدول عنه إلا لمانع، أو غرض بلاغي.

وقد لا يُراد بالأصل؛ الكثرة والغَلبة في الاستعمال، كما جاء في قول ابن مالك: "والأصل في المبنيّ أنْ يسكّنا"(5)، فليس المراد بالأصل هنا الغالب، بل هو بمعنى الرّاجح أو المستصحب للأصل، إذ

(1) . اللُّمع في العربية، ابن جني، ت: فائز فارس، دار الكتب الثقافية، الكويت، ص155.

(2) . مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1407هـ-1987م، ص 81.

(3) . ينظر: لسان العرب، ج11، ص16.

(4) . ينظر: التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م، ج28، ص77.

(5) . ينظر: توضيح المقاصد والمسالك، ت: عبد الرحمن سليمان، دار الفكر العربي، ط1، 1428هـ-2008م، ج1، ص307.

ليس غالب المبنيات ساكنا[1]، لكنّه ذكر الأصل لأنّ لزوم آخر الكلمة حالة السّكون أدعى إلى الخفّة من الحركة.

وقد حمل النّحاة مسائل كثيرة على نظرية الأصل والفرع؛ الذي يتجلّى فيه مفهوم العدول، منها تأصيلهم أنّ "ما لا يختصّ من الحروف فحقّه ألا يعمل" وذلك كـ"ما" النافية فهي لا تعمل شيئا لدخولها على الأسماء والأفعال، لكن أهل الحجاز ألحقوها بليس في الإعمال، لأنها لنفي الحال غالبا فأعملوها عملها، وبلغتهم ورد القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ [يوسف: 31] وعلّة إعمالها هو خروجها عن أصلها "الإهمال" لكونها حرفا غير مختصّ. [2]، كما قالوا بأنّ الأصل عدم نزع الخافض، وقد يعدل عن هذا الأصل بنزعه من بعض التراكيب. [3]

2- العدول عن الأصل:

إنّ العمل النّحوي يبدأ بجمع المادة التي يطلق عليها "المسموع" ويجري عليها الاستقراء والملاحظة ثمّ يخضعها للتصنيف حتى إذا ما استقامت له الأصناف بدأ في إنشاء هيكل بنيوي مجرّد يمثل تصوّرا ما للتفاعل بين الصور المختلفة لمباني اللّغة وهذا ما أسماه النّحاة بالتغيير [4] وحين رأى النحاة أن الحرف الواحد تعدّد صوره بحسب موقعه مما جاوره من الحروف كان عليهم أن يجرّدوا أصلا وجذرا أوليا لهذه الصور ومادام أنّ « القياس على الأكثر »[5]، فقد لا يصدُق الأصل على كلّ أفراد اللّغة لخروج بعضها عن حدوده، فإنهم قرّروا جعل ورود الصّور الأخرى عدولا عن هذا الأصل والجذر المقترح، ويكون هذا بحسب قواعد معلومة تضبط هذا التحوّل، وهذا كأصول قواعد الإدغام والقلب ونحوها في باب حروف المباني، وكأصول تصريف الكلمة من نوع وعدد وضمائر ونحوها، وأصل الوضع نتاج هذه الأصول كلّها.

ولإيضاح قضية العدول عن الأصل في الحروف عند النحاة نتطرق إلى بيان فكرة أصل الوضع عموما، ثم معرفة العدول عن الأصل في الحروف.

---

(1) . ينظر: دليل السالك إلى ألفية ابن مالك، عبد الله الفوزان، دار المسلم، ط1، 1998م، ج1، ص51.

(2) . ينظر: توضيح المقاصد والمسالك، ج1، ص506، وشرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ت: محي الدين عبد الحميد، دار التراث، القاهرة، ط20، 1400هـ-1980م، ج1، ص302، ومغني اللبيب، ابن هشام، ص399.

(3) . ينظر: الأصول في النحو، ابن السراج، ت: عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1988م، ج1، ص180.

(4) . ينظر: الأصول في النحو، ابن السراج، ج1، ص43، والإنصاف في مسائل الخلاف، ابن الأنباري، المكتبة العصرية، ط1 1424هـ- 2003م، ج2، ص32.

(5) . الأصول في النحو، ج3، ص325.

أ ــ أصل الوضع:

يري الباحث تمام حسان أنّ "أصل الوضع" هو الأصل المجرّد لوضع الحرف والكلمة والجملة، يقول ‹‹وسموا أصل الحرف وأصل الكلمة وأصل الجملة باسم جامع هو "أصل الوضع" ثم رأوا أن القواعد التي استخرجوها بواسطة التجريد من المسموع تحتمل بعض الاستثناء، فكان عليهم أن ينصّوا على ذلك فيقولوا مثلا:"القاعدة كذا إلا في حالة كذا" أو "القاعدة كذا وقد يجوز كذا". ››[1]

وهناك من الباحثين لم يرتض هذا التقسيم الثلاثي وعدّله إلى ثنائي فرأى أنّ أصل الوضع قسمان: أصل وضع اللّفظ المفيد ويشمل أصل وضع الحرف والاسم والفعل، وأصل وضع التركيب الصحيح ويشمل الجملة وما تعلّق بها، وذلك لأنّ الحرف أحد أنواع الكلمة فلا يخرج عنها، فتكون بذلك أصولا للألفاظ وأصولا للتراكيب. [2]

وهذا التحليل صائب فيما إذا كان قصد تمام بالحرف هو حرف المعنى؛ الذي يعرّف بأنّه "ما دلّ على معنى في غيره مجرّد من الزّمان في أصل الوضع" فهذا لا يشكّ بأنّه من مكونات الكلمة، لكنه يعني بأصول الحروف أصول النّطق بها وتحديد مخارجها وصفاتها، حين ذكر الطّريق إلى معرفة "الأصل" عند النّطق بالحرف وتمييزه من فرعه، وضرب لذلك مثلا بأصل وضع حرف النّون، التي من أصولها أنها تنطق في اللّثة، وأن تكون أنفية، ومرقّقة، ومجهورة، وكلّ واحدة من هذه العناصر المكوّنة للأصل يصلح أن يعدل عنها إلى غيرها بحسب الموقع، فتنطق بالشفتين في مثل "ينبحُ"، وتنطق مفخّمة في الأسنان ك"ينظر"، ونحوها كلّ ذلك فروع للنون، واطراد هذا العدول في مواقعه يسهل ردّه إلى أصله فنعرف أنّ هذا الفرع من قبيل النون، وإن لم يكن نطقه في مخرج اللّثة. [3]

وعلى هذا الأساس قسّم النّحاة أصوات العربية إلى أصول وفروع، وعدّ "تمام" اعتبارات رعاية هذا الأصل ذوقية تعتمد الحدس النّفسي في سليقة العربي، يجعله يسعى عند النّطق إلى تحقيق الأصل فتحُول مطالب الموقع والجوار دون تحقيق الأصل، فيتحقّق الرفع آليا دون وعي من المتكلّم، فتحديد الأصل يجري في ضوء هذا التحليل، وهو ما أسماه تمام بـ"ذوق الحروف". [4]

أمّا عن أصل وضع الكلمة فيمكن التوصل إليه إذا صنّفنا الكلمة تصنيفا عامّا إلى اشتقاقية أي: "ذات معنى عند الإفراد" وتوسم بالطابع المتحوّل، وغير المحصور؛ كالأسماء والأفعال والصّفات

([1]) . ينظر: الأصول دراسة ابستيمولوجية للفكر اللّغوي عند العرب، عالم الكتب، القاهرة، 1420هـ- 2000م، ص108.

([2]) . ينظر: نظرية الأصل والفرع في النحو العربي، حسن خميس الملخ، دار الشروق، الأردن، ط1، 2001م، ص108.

([3]) . ينظر: الأصول دراسة ابستيمولوجية للفكر اللّغوي عند العرب، ص109-110.

([4]) . ينظر: المرجع نفسه، ص110-111.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وتركيبية أي: "ذات وظيفة في التركيب" وتوسم بالطّابع المقيّد والمحصور كالضمائر والموصولات والظروف، والحروف، ونحوها.

ويؤصّل الكفوي[1] لأصول أوضاع اللّغة؛ فيقول: « كلّ لفظ فله معنى لغوي، وهو ما يُفهم من مادّة تركيبه، ومعنى صيغي؛ وهو ما يُفهم من هيئته أي حركاته وسكناته وترتيب حروفه، لأنّ الصّيغة اسم من الصّوغ الذي يدلّ على التصرّف في الهيئة لا في المادة، فالمفهوم من حروف "ضَرَبَ" استعمال آلة التأديب في محلّ قابل له ومن هيئته وقوع ذلك الفعل في الزّمان الماضي، وتوحيد المسند إليه، وتذكيره وغير ذلك، ولهذا يختلف كلّ معنى باختلاف ما يدلّ عليه، إلا أنّ في بعض الألفاظ تختصّ الهيئة بمادة فلا تدل على المعنى في غير تلك المادة كما في "رَجُل" مثلاً فإنّ المفهوم من حروفه أنّه ذَكر من بني آدم جاوز حدّ البلوغ ومن هيئته أنه مكبَّر غير مصغَّر، وواحد غير جمع، وغير ذلك، ولا تدلّ هذه الهيئة في مثل "أسد" و"نمر" على شيء، وفي بعضها تدلّ كلتاهما على معنى واحد وهي الحروف كـ"من" و"عن" و"في". »[2]

إذا فمِن خلال تلاقح أصلَيْ المادة التركيبية "المعنى اللغوي" والبنية الصرفية "المعنى الصيغي" يتكوّن أصل وضع الاسم والفعل، وإلا فإنه يوسم بالعدول عن الأصل، فإذا ما تقاطع مثلا الفعل"ضَرب" مع صيغة "انفعل" تولّد منهما: "انضرب" وهو وجه غير معمول به، ولو فُرضت صيغة "فاعل" مع الفعل نفسه؛ لكان المعنى "ضارب" وهو وجه مستعمل.

ورأى النّحاة أنّ أصل الوضع في الفعل والاسم أن لا يقلّ بناؤه على ثلاثة أحرف، لأنّ أقلّ الأصول ثلاثة أحرف، حرف يُبتدأ به وحرف يوقف عليه وحرف فاصل بينهما، وما نقُص بحذفٍ رفعوه إلى ثلاثة نحو: أب وأخ ودم[3]، وما وُضع منها على أقلّ من ثلاثة فقد شابه وضعها وضع الحروف. [4]

أمّا أصل وضع الحرف قسيم الكلمة فأن يكون على حرف هجاء واحد، كباء الجرّ ولامه وكافِه وفاء العطف وألف الاستفهام وما شاكل ذلك، أو على حرفَيْ هجاء ثانيهما لين كـ"لا" و"ما"

([1]) . هو أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء؛ صاحب الكليات كان من قضاة الأحناف، عاش وولي القضاء بتركيا وبالقدس، وببغداد، توفي باستانبول سنة 1683م، ينظر ترجمته في: الأعلام، الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط15 أيار- مايو، 2002م ج2، ص38.

([2]) . الكليات، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسّسة الرسالة، بيروت، 1419هـ -1998م، ص494.

([3]) . ينظر: الكتاب، ج3، ص322، والأصول في النحو، ج1، ص356، واللباب في علل البناء والإعراب، ج2، ص211، والمزهر في علوم اللغة، ج2، ص272.

([4]) . ينظر: توضيح المقاصد والمسالك، ج1، ص299.

النّافيتين [1]، وطبيعة أصل الوضع المجرّد للحروف غير قابل للزيادة والنّقص وهو يخضع في ضوء الأصالة والفرعة إلى البساطة والتركيب، باعتبار أنّ الحروف البسيطة هي الأصل وتركيبها خلاف الأصل[2] فمن الأوّل هو أصل وضع حرف الاستفتاح "ألا" التي قالوا بأنّه مركّب من همزة الاستفهام الدّالة على الإنكار، وحرف النفي "لا"، ليفيد التحقيق بعد تركيب هذين العنصرين، ومن البسيط حروف الجرّ كـ"مِن" و"إلى" و"ما" وواو القَسم؛ فأصل وضعها صورتها التي جاءت عليها وهذه الصّور تستنطق بتركيبها في جُملها وعلى حسب مواقعها.

ب ــ العدول عن الأصل في الحروف:

يُعرَّف الحرف على أنّه لفظ دالّ على معنى في غيره، معنى ذلك أنّ دلالة الحرف على معناه الإفرادي متوقّفة على ذكر متعلّقه، بخلاف الاسم والفعل. فإنّ دلالة كلّ منهما على معناه الإفرادي غير متوقّفة على ذكر متعلّق؛ ألا ترى أنّك إذا قلت: "الغلام" فُهم منه التعريف. ولو قلت: "أل" مفردة لم يُفهم منه معنى. [3]

وقد حاول النّحاة أن يستأثروا لكلّ حرف من حروف المعاني معنى عاما هو له أولى وبه أخصّ وجرّدوه من كلّ صور المعاني التي يمكن دلالته عليها، مما أعانهم على هذا ثبوت صيغة الحرف وإن اختلفت سياقاته، فقالوا: إنّ أصل "مِن" ابتداء الغاية، وأصل وضع "عن" المجاوزة، وأصل "على" الاستعلاء... ونحوها، وهذه المعاني يمكن أنْ تكون مرجعية معيارية لقياس درجة العدول في استعمال حروف المعاني، يقول المبرّد: ((والكلام يكون له أصل ثمّ يتّسع فيه فيما شاكل أصله، فمن ذلك قولهم: زيدٌ على الجبل، وتقول عليه دَيْن، فإنما أرادوا أنّ الدَّيْن قد ركِبه وقد قَهره.))[4]

وبتتبّع كلام النّحاة في قضية العدول عن الأصل أو ترك الأصل في استعمال حروف المعاني يجدهم يقررون مسألة العدول باعتباره إجراء غير أصلي ومع ذلك تقصده اللغة في ضروب استعمالها لتأكيد أغراض خاصّة، يقول المرادي: ((إنّ همزة الاستفهام قد ترد لمعان أخر، بحسب المقام، والأصل في جميع ذلك معنى الاستفهام.))[5]

---

(1) . ينظر: توضيح المقاصد والمسالك، ج1، ص299، وشرح ابن عقيل، ج1، ص31.

(2) . ينظر: شرح المفصّل، ج4، ص266.

(3) . ينظر: الجنى الداني، المرادي، ص22، ونتائج الفكر، السهيلي، ص59.

(4) . المقتضب، ت: محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب، بيروت، ج1، ص46.

(5) . الجنى الداني، ص31.

وعلى نحو الباء فإنّ أصل معانيها الإلصاق، ولم يذكر لها سيبويه غيره، قال: إنما هي للإلصاق والاختلاط، ثم قال: فما اتّسع من هذا، في الكلام، فهذا أصله. [1]

ويبين ابن يعيش معنى الأصل والعدول عنه في الظرفية فيقول: « أمّا "فِي"، فمعناها الظرفية والوعاء، نحوُ قولك: "الماءُ في الكَأْس"، و"فلانٌ في البيت"، إنما المراد أن البيت قد حواه... هذا هو الأصل فيها، وقد يُتّسع فيها، فيقال: "في فلانٍ عَيْبٌ"، و"في يَدِي دارٌ"، جعلت الرجل مكانًا للعيب يحتويه مجازًا أو تشبيهًا. »[2]

أما إذا تعارض أصلان في الرّتبة في بعض المواضع فيراعى تقديم أصل على حساب آخَر، وذلك في اجتماع حرفي الاستفهام والعطف في صدارة الجمل المعطوفة، كما في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾ [الشعراء: 7]، وقوله تعالى: ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ﴾ [يونس: 51]، وفيها تقدّمت الهمزة على حرفي العطف الواو وثمّ.

يقول المرادي: « فالهمزة أعمّ، وهي أصل أدوات الاستفهام. ولأصالتها استأثرت بأمور، منها تمام التصدير بتقديمها على الفاء والواو وثمّ، في نحو: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [البقرة: 44]، ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ ﴾ [الروم: 9]، ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ﴾. وكان الأصل في ذلك تقديم حرف العطف على الهمزة، لأنّها من الجملة المعطوفة. لكن راعَوا أصالة الهمزة، في استحقاق التصدير، فقدّموها بخلاف "هل" وسائر أدوات الاستفهام. هذا مذهب الجمهور.

وذهب الزّمخشري إلى تقدير جملة بعد الهمزة لائقة بالمحلّ، ليكون كلّ واحد من الهمزة وحرف العطف في موضعه. والتقدير: أتجهلون فلا تعقلون؟ ونحو ذلك. وضُعِّف بعدم اطّراده، إذ لا يمكن في نحو: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ ﴾ [الرعد: 33]، وبأنّ فيه حذف جملة معطوف عليها من غير دليل. »[3]

فالنّحاة يرون أنّ همزة الاستفهام تقدّمت على حرف العطف والأصل فيها أن تكون بعده [4] فمذهب سيبويه والنّحويين أنّ أصل الكلام في مثل هذا تقديم حرف العطف على الهمزة، لكن لما كانت الهمزة لها صدر الكلام، قُدّمت على حرف العطف، أمّا الزمخشري فأبقى كلّ من الحرفين في

(1) . الكتاب، ج4، ص217.

(2) . شرح المفصل، ج4، ص471.

(3) . الجنى الداني، ص31.

(4) . ينظر: البحر المحيط، ج3، ص413.

موقعه، ويقدّر بين الهمزة وحرف العطف جملة يصح العطف عليها، مع تضعيف المرادي لهذا التوجيه بحجّة عدم اطراده، وكأنّ الزمخشري راعى أولوية الحذف عن التقديم والتأخير، كما يرى أبو حيان: ((فعلى قول الجماعة يكون التقدير: فَألا تعقلون، وعلى قول الزّمخشري يكون التقدير: أتعقلون فلا تعقلون.))[1]

فتعارض أصل العطف مع أصل صدارة الاستفهام جعل النّحاة يغلّبون أصل التصدير عن أصل العطف، فكأنّه رُوعي المحافظة على رتبة أصل على حساب أصل آخر.

(1) . البحر المحيط، ج1، ص296.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الثاني: العدول في حروف المعاني في كتاب سيبويه

عالج كثير من النّحاة مسألة العدول على أنها ضرب من الاتّساع يخرج به اللّفظ عن قياسه النّحوي المألوف إلى معنى أو معان لا تتجاوز مجرى المعنى الأصلي، فالمنهج النّحوي يعالج ما يَعدل عن الأصول النّحوية التي قرّرها النّحاة، كترتيب كلّ مكوّن من مكوّنات الجملة ليعيد العبارة إلى أصولها، ⁽⁽ فالنّحوي يبحث- في ضَوء صحّة التركيب وسلامته من اللّحن والخطأ- عن المعنى من خلال الوظيفة النّحوية في الأداة، والصّيغة، والتركيب، فسُمّي بحثه: "نحو الإعراب". ⁾⁾[1]

وعلى الرّغم من عدم ورود مصطلح "العدول" في كتاب سيبويه بالمعنى المبيّن في هذه الدراسة إلا أنّ تعبيرات أخرى وردت تدلّ على مفهوم هذا المصطلح، منها: الاتّساع، مخالفة الأصل، الخروج عن الأصل.[2]

ويعدّ كتاب سيبويه عمدة في النّحو العربي، وما ناله من مكانة سامية عند النّحويين؛ لانفراده بعرض الأساليب العربية، وتحليل القضايا النّحوية الدّلالية، فكان جديرا بنا أن نقدّم رأيه في العدول في استعمال حروف المعاني، والعِلل النّحوية من وراء ذلك.

يبدو للباحث أنّ سيبويه ذكر في كتابه؛ المسائل النّحوية المتعلقة بحروف المعاني، كمسألة التّشريك في الحُكم في باب العطف، وغيرها من المسائل، لكنّه لم يفرد لكلّ حروف المعاني أبوابا مستقلّة فهي تكاد تتوزّع أبواب الكتاب، وذلك في مواضع متفرّقة، فجاء حديثه عن الحروف بحسب مناسبة كلامه لعلاقتها بالأحوال الإعرابية.

وقد تحدّث سيبويه عن معاني الحروف، محاولا استقراء أنواعها، فعقد في ذلك بابا أسماه: "هذا باب عِدة ما يكون عليه الكلام" لكنّه مع ذلك لم يُسهب في كثير من معاني الحروف، إذ يكتفي بذكر المعنى الأصلي له، كما جاء في معاني بعض الحروف؛ قوله: ⁽⁽ و"هل" وهي للاستفهام. و"لَمْ" وهي نفيٌ لقوله فعل. و"لنْ" وهي نفيٌ لقوله: سيفعل. و"إنْ"، وهي للجزاء، وتكون لغواً في قولك: ما إن يفعل. ⁾⁾[3]

كما عقد أبوابا عدّة يذكر فيها مسألة الاتّساع في استعمال حروف المعاني، ومعنى التوسّع هو خروج الحروف عن معانيها الأصلية، من هذه الأبواب: "باب ما أجرى مجرى ليس في بعض المواضع

([1]) . التضمين النحوي في القرآن الكريم، ص56-57.
([2]) . ينظر: الكتاب، ج4، ص80 ص217.
([3]) . الكتاب، ج4، ص220.

بلُغة أهل الحجاز، ثمّ يصير إلى أصله" [1]، وخصّه للحروف المشبّه بـ"ليس"، ومنها ما جاء لبيان عدول بعض حروف النّفي وهي: "لا"، و"ما"، وذلك في باب: "حروف أجريت مجرى حروف الاستفهام وحروف الأمر والنّهي" [2]، ومنها ما صرّح به في باب: "أنْ وإنْ"[3] بمجيء "إنْ" بمعنى "ما" النّافية في قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ [الملك: 20]، وكذلك ما جاء منسوبا إلى الخليل في "باب ما تكون فيه أنْ بمنزلة أيْ"[4]، وذلك قوله ﷻ: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟﴾ [ص: 6].

وتظهر قضيّة الاتّساع عنده في حديثه عن معاني بعض الحروف، كقوله عن باء الجرّ: « إنما هي للإلزاق والاختلاط، وذلك قولك: خرجت بزيدٍ، ودَخلْت به، وضَربْته بالسّوط: ألزقتَ ضرْبك إيَّاه بالسّوط. **فما اتّسع من هذا في الكلام فهذا أصله.** »[5]

أيضا ما جاء عنه في معنى "إلى": « ويقول الرَّجُل: إنما أنا إليك، أي إنما أنت غايتي، ولا تكون حتى ههنا: **فهذا أمرُ "إلى" وأصله وإن اتّسعت**. وهي أعمّ في الكلام من حتى، تقول: قُمْت إليه فجعلته منتهاك من مكانك، ولا تقول: حتّاه. »[6]

والذي يبدو من خلال مفهوم سيبويه للاتّساع هو تفريقه بين أصل الحرف ووجهه، وبين ما اتّسع منه وجرى مجراه، ولكن هذا الخروج عن الأصل؛ معلوم المجرى، فهو خروج اكتسب في الاستعمال الأسلوبي قدراً من الاطرّاد رُقيّ به إلى مرتبة الأصول التي يقاس عليها. [7]

ومما له صِلة بموضوعنا هو ما ذَكره سيبويه في معرض توضيحه الفرق بين استعمال الواو والفاء في عطف الصّفات، فبيّن أنّ الفاء لا تُستعمل حيث يُراد دلالة مطلق الجمع دون تقييدها بدِلالتي التّرتيب والتّعقيب، حيث يقول: « وإذا أردت بالكلام أن تُجريه على الاسم كما تجري النّعت لم يجز أن تُدخل الفاء؛ لأنّك لو قلتَ: مررتُ بزيدٍ أخيك وصاحبِك، كان حسنا ولو قلتَ: مررت بزيد

---

[1]. ينظر: الكتاب، ج1، ص57.
[2]. ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص145.
[3]. ينظر: المصدر نفسه، ج3، ص151.
[4]. ينظر: المصدر نفسه، ج3، ص162.
[5]. الكتاب، ج4، ص217.
[6]. الكتاب، ج4، ص231.
[7]. ينظر: البيان في روائع القرآن، تمام حسان، ص347.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أخيك فصاحِبك والصّاحب زيد، لم يجز. وكذلك لو قلتَ: زيد أخوك فصاحبُك ذاهبٌ، لم يجز. ولو قلتها بالواو حسُنت، كما أنشد كثير من العرب، والبيت لأمّية بن أبي عائذ [1]:

وَيَأْوِي إِلَى نِسْوَةٍ عُطَّلٍ ... وَشُعْثٍ مَرَاضِيعَ مِثْلَ السَّعَالِي. [2]

ولو قلتَ: "فَشُعْثٍ" قَبُحَ. »[3]

أراد سيبويه من خلال هذا الكلام أن يبيّن مزية استعمال واو العطف في الموضع الذي يقبُح فيه استعمال الفاء في باب عطف الصّفات، فالعدول بالكلام المراد جريانه على الاسم؛ إلى الواو، في هذا الموضع؛ أضفى معنى آخر قد يُفقد إذا جاء الكلام بغير هذا الحرف، ولو كان من أقرب حرف يشاركه في صفاته النّحوية، وهو الفاء.

فاستعماله للفظ الحسن، والقُبح، والفساد؛ في توظيف حرفَيْ الواو والفاء؛ يوحي بإيمائه إلى مؤدّاها الوظيفي الخاص، وإن كان لم يذكر المعاني الأدبية للواو؛ لأنّه ليس في معرض ذكر ذلك لكنّه أبان مبدأ العدول الذي يكشف لنا السرّ المعنوي للحرف باستعماله في نمط أسلوبي دون آخر.

كما تحدّث سيبويه عن الوظائف الدّلالية لبعض الحروف في "باب ما يَنتصب على إضمار الفعل المتروك إظهارُه في غير الأمر والنّهي"، قائلا: « وذلك قولك: أخذته بدرهم فصاعدا... ولا يجوز أن تقول: وصاعدٍ؛ لأنّك لا تريد أنْ تخبر أنّ الدّرهم مع صاعدٍ ثمنٌ لشيء، كقولك: بدرهمٍ وزيادةٍ ولكنّك أخبرتَ بأدنى الثّمن فجعلته أوّلا، ثم قَرَوْتَ[4] شيئاً بعد شَيءٍ لأثمان شتّى. فالواوُ لم تُرِد فيها فيها هذا المعنى، ولم تُلزِمِ الواو الشّيئين أن يكون أحدُهما بعد الآخَر، ألا ترى أنّك إذا قلت: مَررْتُ بزيدٍ وعَمرٍو، ولم يكن في هذا دليلٌ أنّك مَررْت بعمرٍو بعد زيد... وثُمّ بمنزلة الفاء، تقول: ثُمّ صاعداً، إلا أنّ الفاءَ أكثرُ في كلامهم. »[5]

والعدول إلى أحد معنيي حرفين؛ لا يعني أنّهما لا يشتركان في نفس المجرى، لأنّ محاولة التفريق بين حرفين مختلفين معنىً وجريانا ضربٌ من العَبَث، إذ لا بدّ من مناسبة بين الحرفين وهذا ما جاء موضّحا في كلام سيبويه عن الواو والفاء، حين فرّق بين معنى الحرف وبين مجراه اللّغوي؛ الذي قد يُشرِك فيه أكثر من حرف، فقال عن الواو: « وأنها قد تُشرِك بين الأوّل والآخِر كما تُشرِك الفاء

(1) . شاعر أدرك الجاهلية، وعاش في الإسلام، من بني عمرو بن الحارث، من هذيل، وهو من مداح بني أمية، له قصائد في عبد الملك ابن مروان، رحل إلى مصر فأكرمه عبد العزيز بن مروان، توفي نحو: 25هـ، ينظر: الأعلام، ج2، ص22.

(2) . ينظر: خزانة الأدب، البغدادي، 426/2.

(3) . الكتاب، ج1، ص399.

(4) . وهي من قَرَا الأمرَ واقتراه قَرْوا، وتقرّاها واستقراها أيْ: تتبّعها. ينظر: لسان العرب، مادة (قرا)، ج15، ص174.

(5) . الكتاب، ج1، ص290-291.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وأنّها يُستقبَح فيها أن تُشرِك بين الأوّل والآخِر كما استقبح ذلك في الفاء، وأنّها يجئ ما بعدها مرتفعاً منقطعاً من الأوّل كما جاء ما بعد الفاء.

واعلم أنّ الواو وإن جرَت هذا المجرى، فإنّ معناها ومعنى الفاء مختلفان، ألا ترى الأخطل قال:

لا تَنْه عن خُلُقٍ وتَأتي مِثْلَه ... عارٌ عَليكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظيمُ [1]

فلو دخلت الفاء ههنا لأفسدت المعنى، وإنّما أراد لا يجتمعنّ النهي والإتيان، فصار تأتي على إضمار أنْ. »[2]

ويتّضح هذا المعنى أيضا في قوله: « ومما يدّلك أيضاً على أنّ الفاء ليست كالواو؛ قولك: مررتُ بزيدٍ وعمرو، ومررتُ بزيدٍ فعمرو، تريد أن تُعلِم بالفاء أنّ الآخِر مُرَّ به بعد الأوّل.

وتقول: لا تأكلِ السّمكَ وتشربَ اللبنَ، فلو أدخلتَ الفاءَ ههنا فسد المعنى. »[3]

وذلك لأنّك إذا « جئت بالواو لتضمّ الآخر إلى الأول وتجمعهما. وليس فيه دليلٌ على أنَّ أحدهما قبل الآخر. والفاء، وهي تضُمّ الشّيء إلى الشّيء كما فعلت الواو، غير أنها تجعل ذلك متّسقاً بعضه في إثر بعض. »[4]

ويوسّع سيبويه من مجرى الحرفين الفاء والواو ليشمل الحرف "ثمّ" وأكثر، وذلك في حديثه عن ما ينجزم بين المجزومين قائلا: « فقولك: إن تأتني ثمَّ تَسألْني أُعْطِك، وإن تأتني فَتسألْني أُعطِك، وإن تأتني وتسألْني أُعطِك. وذلك لأنَّ هذه الحروف يُشْرِكن الآخِر فيما دخل فيه الأوّل. وكذلك أو وما أشبههنّ. »[5]

ثم واصل في ذِكره لاجتماع مجرى هذه الحروف في أكثر من معنى، ولأنّ هذا الكلام ربّما يوهم بأنها تؤدّي معاني مشتركة؛ فتشْتبه علينا، فلذلك بيّن فرائد معاني هذه الحروف، وهي وإنْ اشتَبهت في بعض دلالاتها؛ فهي مختلفة في وظيفتها واستعمالها، وذلك بقوله: « واعلم أنّ "ثمَّ" لا يُنصَب بها كما ينصب بالواو والفاء، ولم يجعلوها مما يضمر بعده "أنْ"، وليس يدخلها من المعاني ما يدخل في الفاء وليس معناها معنى الواو، ولكنها تُشْرِك ويُبْتدأُ بها. »[6]

---

[1]. نُسب هذا البيت إلى أبي الأسود الدؤلي وإلى المتوكل بن نهشل بن مسافع الليثي، وإلى الطرماح بن حكيم، وإلى حسان بن ثابت وإلى الأخطل، والصحيح أنه لأبي الأسود، ينظر: الخزانة، ج8، ص566-567.

[2]. الكتاب، ج3، ص41-42.

[3]. المصدر نفسه، ج3، ص42.

[4]. المصدر نفسه، ج4، ص216-217.

[5]. المصدر نفسه، ج3، ص87-88.

[6]. الكتاب، ج3، ص89.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ومما سبق ذكره يمكن القول بأنّ سيبويه أراد أن يبيّن لنا بُعد القريبين، ليس بعدا في الوظائف والخصائص العامّة، وإنّما هو مخالفة أسلوبية يفرضها المعنى ويحتّمها السّياق، ومنه فاختيار الأداة بما يناسب سياقها ويَليق بمعناها؛ فِراسةٌ بعيدة المأخذ، كثيرة النّكات، يفقه ذلك فحول العربية.

كما تتجلّى ظاهرة عدول الحرف عند سيبويه فيما أبانه في " باب ما جرى على حرف النّداء وصفاً له" إذ تحدّث فيه عن خروج حرف الاستفهام عن أصل معناه إلى معنى التسوية كعدول النّداء إلى الاختصاص، وذلك للمناسبة بين المعنيين المعدول إلى أحدهما الكلام، إذ لو أنّ الاستفهام لم يُضمّن معنى الاستواء ما عَدل الكلام عن معناه، وكذلك فيما جرى على حرف النّداء وليس بمعناه حيث قال: ((وليس بمنادى ينبّهه غيره، ولكنه اختُصّ كما أنّ المنادى مختصّ من بين أمته لأمرِك ونهيِك أو خبرِك. فالاختصاص أجرى هذا على حرف النّداء، كما أنّ التسوية أجرت ما ليس باستخبار ولا استفهام على حرف الاستفهام؛ لأنك تسوّي فيه كما تسوي في الاستفهام. فالتسوية أجرتْه على حرف الاستفهام، والاختصاصُ أجرى هذا على حرف النّداء. وذلك قولك: ما أدري أفَعلَ أم لم يفعل. فجرى هذا كقولك: أزيدٌ عندك أم عمرو، وأزيدٌ أفضلُ أم خالدٌ، إذا استفهمتَ لأنّ علمك قد استوى فيهما كما استوى عليك الأمران في الأول...))[1]

ويبيّن سيبويه ظاهرة عدول الهمزة إلى التسوية بقوله: ((وإنَّما جاز حرف الاستفهام هاهنا لأنّك سوّيت الأمرين عليك، كما استويا حين قلت: أزيدٌ عندك أم عمرو، فجرى هذا على حرف الاستفهام، كما جرى على حرف النِّداء قولهم: اللهمَّ اغفر لنا أيَّتها العصابة.))[2]

وهذا يعني كما يقول الزمخشري: ((أنّ هذا جرى على صورة الاستفهام ولا استفهام، كما أنّ ذلك جرى على صورة النّداء ولا نداء.))[3]

وفي "باب أو" يفرّق سيبويه تفريقا دلاليا بين استعمال حرفي الاستفهام "هلْ" والهمزة إذ جعل من الفروق بينهما أنّ الهمزة تختصّ بالاستعمال في معنى التوبيخ والتقرير، يقول: ((وما يدلّك على أنّ ألِف الاستفهام ليست بمنزلة "هل" أنّك تقول للرّجل: أَطَرَبا؟ وأنت تَعلم أنّه قد طرب؛ لتُوبخّه وتُقرّره ولا تقول هذا بعد "هل".))[4]

([1]) . المصدر السابق، ج2، ص232.

([2]) . المصدر نفسه، ج3، ص170.

([3]) . المصدر نفسه، ج1، ص87.

([4]) . الكتاب، ج3، ص176.

ومعنى التقرير عند النّحاة هو « حملك المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقرّ عنده ثبوته أو نفيه. »[1]

والتقرير لفظه لفظ الاستفهام ومعناه الخبر، يقول الطبري في قوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ [العنكبوت: 68] « وهذا تقرير، وليس باستفهام، إنما هو كقول جرير:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المطايا... وأَنْدَى العَالَمِينَ بُطُونَ رَاحِ. [2]

إنما أخبر أنّ للكافرين بالله مَسْكَنا في النار، ومنزلا يَثْوُونَ فيه. »[3]

وعلى هذا المعنى نبيِّن أنّ العدول ليس ضربا من العُجمة المعنوية لتلتبِس به الدّلالة، وليس تضمينا دلاليا الذي هو مظِنّة الاشتراك الوظيفي بين الحروف، بل هو تكييف بياني لوجوه اختلاف هذه الحروف باختلاف مواقعها، ثم معرفة الفرق الدّقيق المبنيّ على هذا الاختلاف، وذلك « لأنّ إحالة المعنى الوظيفي لحرف من الحروف إلى معنى حرف آخر ينافي الدّقة العلمية المنشودة في درس حروف المعاني... فلكلّ حرف منها وظيفته المتميّزة واستعمالاته الخاصّة التي لا يُغني عنه فيها حرف آخر. وإذا جاز حدوث تداخل دلالي بين معاني بعض تلك الحروف فإنّ دور الباحث حينئذ هو التعرّف إلى طبيعة ذلك التّداخل ثمّ الفصل بين معاني تلك الحروف وتحديد كلٍّ منها بطريق استقراء تراكيبها العربية الموثوق بها؛ للتوصّل إلى ما يميّز كلّ حرف من الأخَر. »[4]

ووفق هذا المنحى سار سيبويه في تحليله لبعض الآيات القرآنية، مبيّنا المعاني في ضوء الأساليب النحوية لبعض الحروف، ومشيرا إلى أصالة معانيها من دون إحالتها إلى معان حروف أخرى، كما جاء ذلك في توضيحه لطبيعة الخطاب مع الأداة "لعلّ" من قوله تعالى: ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه: 44] وطريقة توجيه الكلام مع الترجّي؛ الذي قد يظهر أنّ لا يليق في حقّ الله تعالى.

كما وقف كثير من المفسّرين واللّغويين أمام معنى هذه الأداة واستشكلوا بقائها على بابها من الترجّي، لأنّ هذا الأخير لا يستقيم هذا في حقّ الله تعالى وهو العالم بعواقب الأمور[5]، فمنهم من صرف "لعلّ" عن بابها في الآية إلى الاستفهام، فمعنى الآية: فانظرا: هل يتذّكر فيُراجِعَ، أو يَخْشى الله

---

(1). مغني اللبيب، ت: مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله، دار الفكر دمشق، ط6، 1985م، ص26.

(2). البيت لجرير بن عطية الخطفي، ينظر: ديوانه، دار بيروت، 1406هـ- 1986م، ص77.

(3). جامع البيان، ج20، ص63.

(4). أساليب العطف، مصطفى حميدة، الشركة المصرية العالمية للنشر، مصر، ط1، 1999م، ص257.

(5). ينظر: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، السمين الحلبي، ت: أحمد محمد الخراط، دار القلم. دمشق، ج8، ص42.

فيرتدعَ عن طغيانه؟[1]، ومنهم من صرفها إلى التعليل[2]، أي بمعنى: "كي"، ووجّهوا معنى الكلام إلى: اذهبا إلى فرعون إنّه طغى، فادْعُواه وعِظاه ليتذكّر أو يخشى.

بَيْدَ أنَّ سيبويه لم يستشكل بقاءها على الترجّي، وعلّل ذلك بقوله: ((العباد إنما كُلِّموا بكلامهم وجاء القرآن على لغتهم وعلى ما يَعْنون... فالعِلْم قد أتى من وراء ما يكون، ولكن اذهبا أنتما في رجائِكُما وطَمَعِكُما ومبلغِكما من العِلم، وليس لهما أكثرُ من ذا ما لم يعلما.))[3]

وكأنّه خرّج وجْه الترجّي مُنسحباً على المُرْسَل، وهو هنا موسى وهارون عليهما السّلام ومعناه: فقُولا له قَولاً ليّنا راجيين أنْ يتذكّر أو يخشى.[4]

ولما جاء الكلام في "باب أمْ مُنقطِعةً" عن انقطاع "أمْ" بعد الاستفهام؛ بيّن سيبويه تخريج الاستفهام مع "أمْ" في مثل ذلك قوله تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ ١٦ ﴾ [الزخرف: 16]. فعند قولك: أعمرو عندك أم عندك زيدٌ، فأنت تظنّ أنَّ عَمرو عنده ثم أدركك مثل ذلك الظنّ في زيد بعد أن استغنى كلامك، فالمستخبر غير عالم، إنّما يتوقّع الجواب فيُعلم به، والله عزّ وجلّ منفيّ عنه ذلك، إذن فما معنى الاستفهام في الآية؟ ويجيبنا سيبويه بقوله: ((فقد علم النبي ﷺ والمسلمون: أنّ الله عزّ وجلَّ لم يتخّذ ولداً، ولكنّه جاء على حرف الاستفهام ليُبصَّروا ضَلالتهم. ألا ترى أنّ الرّجُل يقول للرَّجُل: آلسّعادة أحبّ إليك أمِ الشّقاء؟ وقد عَلِم أنّ السعادة أحبّ إليه من الشّقاء، وأنّ المسئول سيقول: السّعادة، ولكنَّه أراد أن يبصّر صاحبه وأن يعلمه.))[5]

ومن باب التوبيخ والتقرير تُخرَّج أمثال هذه الحروف في القرآن، ألا تراه يقول ﷻ: ﴿ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ [فصلت: 40]- وقد علم المستمعون كيف ذلك- ليزجرهم عن ركوب ما يؤدّي إلى النّار.[6]

([1]) . ينظر: جامع البيان، الطبري، ج18، ص313.

([2]) . ينظر: مغني اللبيب، ص379.

([3]) . الكتاب، ج1، ص331.

([4]) . ينظر: المفردات في غريب القرآن، ص451.

([5]) . الكتاب، ج3، ص173.

([6]) . ينظر: المقتضب، المبرد، ج3، ص292.

قال السّهيلي: « وهذه "أم" التي هي مشوبة المعنى بالإضراب والاستفهام، ولا ينبغي أن تكون في القرآن، وإن كانت فعلى جهة التقرير، نحو قوله: ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ ﴾ [الزخرف: 52]. »[1]

فمن خلال نظرتي في كتاب سيبويه وعند إمعان النّظر في كلامه على الحروف؛ وجدته يستعمل مصطلح "الجريان" في حروف المعاني بمفهوم أوسع من أصول معاني الحروف ومدلولاتها، فليس كلّ ما جرى على صورة الاستفهام هو استخبار، وكذا ليس كلّ ما جرى على صورة العطف هو لمطلق الجمع،كما جاء قوله في استعمال واو العطف: « واعلم أنّ الواو وإن جرَت هذا المجرى، فإنّ معناها ومعنى الفاء مختلفان. »[2] فالجريان هو معنى أسلوبي يدلّ على استعمال الكلام بما عرفته العرب ودَأَب عليه فهمُهم؛ لأنّ هناك ضرب من الخطاب في استعمال حروف المعاني يُفهم بطريق المنوال العُرفي لا الوضعي، على نحو ما أفادت به الأداة "لعلّ" ليس خروجا عن أصل معناها الذي هو الترجّي؛ ولكنْ في وجه دلالتها عليه، وتبصّر بمناسبة المواضع التي تُستعمل فيها وَفق ما تعني العرب.

وما يدلّل على هذا الفَهم قول سيبويه في باب: "من النّكرة يجري مجرى ما فيه الألف واللام من المصادر والأسماء"، وحديثه عن اختلاف استعمالات بعض المصادر عن أخرى، وعدم جعل المنصوب الذي تذكره تعمل في إثباته، بمنزلة المرفوع الذي هو مُثْبتٌ عندك، قال: « فإنما تُجريها كما أجْرت العرب، وتضعُها في المواضع التي وُضِعنَ فيها، ولا تُدْخِلَنَّ فيها ما لم يدخلوا من الحروف... لأنّه لم يُستعمَل هذا الكلام كما استُعمِل ما قبله، فهذا يدلُّك ويبصِّرُك أنّه ينبغي لك أن تُجْرِيَ هذا الحروف كمَا أجْرَت العرب، وأن تعني ما عَنَوْا. »[3]

لذلك كان الجانب الفنّي لدراسة الحروف أوسع من الجانب النّحوي لها، والعدول – المقصود في هذه الدّراسة– يهتمّ بالجانب الأوّل، إذ يُعنى بالفروق الدّقيقة بين استعمال معاني الحروف واختلاف وجوه دلالتها عليها؛ التي قد تُستعمل في صورة حروف أخرى، وليس كذلك معانيها.

([1]) . نتائج الفِكر، ص205.

([2]) . الكتاب، ج3، ص41.

([3]) . المصدر نفسه، ج1، ص330-331.

المطلب الثالث: العدول في استعمال الحرف عند ابن جنّي:

عقد ابن جني في كتابه الخصائص بابا أسماه "باب في تدريج اللّغة" أدرج فيه عدة ظواهر لغوية متعلقة بالباب، منها ما له صلة بموضوع العُدول في الحروف، وذلك أنّه وجد في لغة العرب استعمالا لمفهوم حرف في صورة غيره، بطريق المشابهة في الموضع، فكأنّهم تدرّجوا في الاستعمال من معنى الحرف الأوّل إلى الآخَر لمسوّغ الاستئناس والإلْف والاعتياد، قال ابن جنّي مبيّنا معنى التدريج: ((وذلك أن يُشْبِه شَيء شيئا من موضع فيُمْضَى حكمه على حُكْم الأوّل ثم يُرَقَّى منه إلى غيره فمن ذلك قولهم: جالِسِ الحسن أو ابن سيرِين، ولو جالسهما جميعا لكان مصيبا مطيعا؛ لا مخالفا وإنْ كانت "أو" إنما هي في أصل وضعِها لأحد الشَّيئين، وإنما جاز ذلك في هذا الموضع لا لشيء رجع إلى نفسِ "أو"، بل لقرينه انضمَّت من جهة المعنى إلى "أو" وذلك لأنّه قد عُرِف أنه إنما رُغِّب في مجالسة الحسن لِما لمِجالِسِةِ في ذلك من الحظّ، وهذه الحال موجودة في مجالسةِ ابن سيرين أيضا وكأنّه قال: جالِسْ هذا الضّرب من النّاس.))[1]

أسّس أبو الفتح فكرة التدريج على منازل فابتدأ بالتشابه الموضعي للفظين، ليبني عليه التواطؤ في الحُكم بشرط وجود قرينة تسوّغ هذا الاستعمال، ثمّ بكثرة استعمال هذه القرينة يرقّى اللّفظ وذلك بأن يدلّ على معنى شبيهه عاريا من هذه القرينة.

وكأنّ ابن جني يقدّم لنا ضربا من التطوّر اللّغوي يبرز من خلاله مسألة التّدرج، وهي ترقّي في استعمال الألفاظ باكتسائها أوصافا إضافية نحوية أو صرفية مُستعارة من الألفاظ المشابهة لها.

وأردف موضّحا هذه الفكرة بقوله: ((وعلى ذلك جرى النّهي في هذا الطِرزِ من القول في قول الله سبحانه: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: 24]، وكأنّه والله أعلم قال: لا تطع هذا الضّرب من النّاس، ثمّ إنّه لما رأى "أو" في هذا الموضع قد جرَت مجرى الواوِ تَدرَّج من ذلك إلى غيره فأجراها مجرى الواو في موضع عار من هذه القرينة التي سوَّغته استعمِال "أو" في معنى الواو.))[2]

ويلاحظ أنّ ما ذكره سيبويه في "باب أو في غير الاستفهام" يشير إلى نفس مفهوم ما بيّنه ابن جني في هذا الباب –على اختلاف صور الأمثلة– إذ يقول سيبويه في بيانه: ((تقول: جالسْ عمراً أو خالداً أو بشراً، كأنّك قلت: جالس أحد هؤلاء ولم تُرد إنساناً بعينه، ففي هذا دليل على أنّ كلَّهم

---

(1) . الخصائص، ج1، ص347- 349.

(2) . المصدر نفسه، ج1، ص349.

أهل أن يجالس، كأنّك قلت: جالس هذا الضّرب من النّاس... ونظير ذلك قوله ﷻ: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾، أي: لا تطع أحداً من هؤلاء. ››[1]

وثنّى ابن جني في توضيح معنى "التدريج" بأن أضاف من الأمثلة ما استخدمت فيها "أو" في موضع الواو، كما في قول الشاعر الهذلي[2]:

وكان سِيَّان أَلَّا يَسرحوا نَعَما ... أو يَسْرَحوه بِها واغبرِت السُوحُ.

فهو يرى أنّ سيّان لا تستعمل إلا بالواو، وأنّ الأمثلة التي ذكرت يصلح فيها الواو، ولكن جرت فيها "أو" مجرى الواو، ولذلك حصل لها هذا التدريج في الاستعمال، فأجريت مجرى الواو. [3]

وفي سياق مفهوم هذا الباب؛ قولُ الرّضي عن حرف الواو: ‹‹ ولما كَثُر استعمال "أو" في الإباحة التي معناها جواز الجمع، جاز استعمالها بمعنى الواو. ››[4]

وما يؤكّد لنا اهتمام ابن جني بمسألة المخالفة في استعمال حروف المعاني؛ هو ما أودعه ضمن "باب في خلع الأدلّة"، الذي ضمّنه بعض نظراته اللغوية الهامّة، وكعادته في كثير من الأبواب فإنّه يكتفي بالتمثيل لتوضيح مراده منها، لكن إذا ما نظرنا في أمثلته نجِده يريد بخلع الأدلّة: أعلام المعاني فالهمزة دليلُ الاستفهام، وإنْ دليل الشّرط... والمقصود به في هذا الباب ليس معاني الأجناس؛ بل قصد به معاني الحروف والأدوات، كما أوضح محقّق كتاب الخصائص أنّ ما أراده ابن جني من تسميته "خلع الأدلة" هو ‹‹ تجريد الحروف والأدوات من المعاني المعروفة والمتبادرة فيها، وإرادة معان أخر لها، أو تجريدها من بعض معانيها. ››[5] ومفاد هذا الباب هو أن يتجرّد حرف – في استعمال مخصوص– من دلالته على أحد معانيه ويخلُص لمعنى آخر، وهذا بطريق "العدول" في الاستعمال ومخالفة مقتضى ظاهر استعماله.

ومن أمثلة هذا الباب؛ ما وضّحه ابن جني بقوله: ‹‹ ومما خُلِعت عنه دلالة الاستفهام؛ قولُ الشّاعر [6] – أنشدَنَاه سنة إحدى وأربعين–:

([1])– الكتاب، ج3، ص184.

([2]) . قال عنه البغدادي إنه ملفّق من بيتين في قصيدة لأبي ذؤيب الهذلي، وهما: وقَالَ رَاعِيهم سِيّان سَيْركم ... وأن تقيموا به واغْبَرَت السّوح– وكان مثلين أن لا يسرحوا غنما ... حيث استرادت مواشيهم وتسريح. ينظر: الخزانة، ج5، ص137.

([3]) . ينظر: الخصائص، ج1، ص349.

([4]) . شرح الرضي على الكافية، ج4، ص398.

([5]) . الخصائص، ج2، ص181.

([6]) . هو رجل من تغلب، يقال له أفنون، كما في المفضليات للضبي، ت: أحمد محمد شاكر، وعبد السلام هارون، دار المعارف القاهرة، ط6، ص263، وأورده له أبو عمرو الشيباني في أشعار تغلب. ينظر: خزانة الأدب، ج11، ص139.

أَنَّى جَزَوْا عامِرا سَيْئاً بفِعْلِهِمُ ... أمْ كَيْفَ يَجْزُونَنِي السُوأَى مِن الحَسَنِ

أَمْ كَيْفَ يَنْفَعُ ما تُعْطِي العَلُوقُ به ... رِئْمَانُ أَنْفٍ إذا مَا ضُنَّ بِاللَّبَن

ف"أم" في أصل الوضع للاستفهام، كما أنّ "كيف" كذلك. ومحالٌ اجتماع حرفين لمعنى واحد[1] فلا بدّ أنْ يكون أحدُهما قدْ خُلِعت عنه دلالةُ الاستفهام. وينبغي أن يكون ذلك الحرف "أم" دون "كيف" حتى كأنّه قال: "بلْ كيف ينفع"، فجعلها بمنزلة "بل" في التّرك والتحوّل، ولا يجوز أن تكون "كيف" هي المخلوعة عنها دلالة الاستفهام؛ لأنها لو خُلِعت عنها لوَجب إعرابها لأنها إنما بُنِيت لتضمّنها معنى حرف الاستفهام، فإذا زال ذلك عنها وجب إعرابها كما أنه لما خُلِعت دلالة الاستفهام عن "مَنْ" أُعرِبت في قولهم: ضَرَب مَنٌ مَناً، وكذلك قولك: مَرَرْت بِرَجُل أيِّ رجل، لما خُلِعت عنها دلالة الاستفهام جَرت وصفا، وهذا واضح جليّ.))[2]

وما يُفهم من كلام أبي الفتح في باب خلع الأدلّة هو تقريره لمسألة العدول في حروف المعاني أو كما أسماه بالتّحوّل والتّرك، فالحرف الذي تحوّلت دلالته الأصلية، أو تَرك أحد دلالتيه واستُعمِل في منزلة حرف آخر، كأنّه عُدل به؛ بمسوّغ الاتّساع الدّلالي الذي اقتضاه المقام.

لكن بإمعان النّظر يمكن القول إنّ الاتّساع الدّلالي لا يفسّر لنا مسألة الخلع، لأنّ الاتساع هو زيادة في الدّلالة وليس تجرّدا منها، وإذا ما تأوّلنا علّة هذا الخلع نجد المنحى البلاغي والبياني يتزاحمان لتخريجها، لأنهما يتطلّبان أخصّ الأساليب لمقتضى الحال، ويهتمان بما تجاوز المعنى الأصلي للألفاظ لذا علّق ابن جني هذا الباب بالاستعمال وليس بأصل الوضع، فقوله إنّ: "أمْ" في أصل الوضع للاستفهام؛ يُفهِمُ التزاما أنّ المعنى الآخَر ل"أم" ليس وضعيا، بل اقتضاه السّياق وفَرضَه الاستعمال.

ثمّ يواصل في ذِكر بعض الأحرف التي خُلِعت دلالتها، فيقول: ((ومن ذلك واو العطف فيها معنيان: العطف ومعنى الجمع. فإذا وُضعت موضع "مع" خَلُصت للاجتماع وخُلِعت عنها دلالة العطف، نحو قولهم: استوى الماءُ والخشبةَ، وجاء البردُ والطيالسةَ.))[3]

ولنا أن نتساءل -في ضوء نظرية خلع الأدلّة- عن إمكانية عدول حرف الفاء عن معنى الإتباع وخلوصه للعطف، أم أنّ له أصلا لا يمكن التجرّد منه؟ وهذا ما أجاب عنه ابن جني حين قال:((فإن قيل: إذا صحّ بما قدّمته حال الفاء في كونها عاطفة ومُتْبعة، فهل دلالتها على الأمرين سواء أم لها

([1]) . هذا الرأي عقّب عليه البغدادي في خزانته قائلا:"وليس في الكلام اجتماع حرفين لمعنى واحد، لأنّ في ذلك نقضاً لما اعتزم عليه من الاختصار في استعمال الحروف..." ولتفصيل رده على رأي ابن جني؛ ينظر: الخزانة، ج11، 140-141.

([2]) . الخصائص، ج2، ص184.

([3]) . الخصائص، ج2، ص196.

اختصاصٌ بأحدهما؟ فالجواب: أنّ أخصّ هذين المعنيين بالفاء إنما هو الإتْباع دون العطف وذلك أنها إذا كانت عاطفة؛ فمعنى الإتْباع موجود فيها، نحو: ضرَبْتُه فبكى، وأحْسَنتُ إليه فشَكَر وقد تتجرّد من معنى العطف فيما قدّمنا ذِكره من الجزاء... فلمّا كان الإتْباع لا يفارقها والعطف قد يفارقها كان أخصّ معنييها بها الإتْباع لملازمته لها.))[1]

ومما له صلة كبيرة بدرس العدول؛ قضيّة التّضمين المتعلّقة بالمخالفة في استعمال حروف الجرّ التي يتعدّى بها بعض الأفعال، وقد اعتنى بها ابن جني وعدّها نوعا من اتساع الكلام العربي يلتجئ إليه إيحاءً بوجود مستتبع دلالي يشير إليه هذا التركيب العدولي الجديد، يقول: ((اعلم أن الفعل إذا كان بمعنى فعل آخر وكان أحدهما يتعدّى بحرف والآخر بآخر فإنّ العرب قد تتّسع فتوقع أحد الحرفين موقع صاحبه إيذانا بأن هذا الفعل في معنى ذلك الآخر فلذلك جئ معه بالحرف المعتاد مع ما هو في معناه وذلك كقول الله عز اسمه: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ [البقرة: 187] وأنت لا تقول رفثت إلى المرأة وإنما تقول : رفثت بها أو معها لكنه لما كان الرفث هنا في معنى الإفضاء وكنت تعدى أفضيت ب "إلى" كقولك: أفضيت إلى المرأة جئت ب "إلى" مع الرّفث إيذانا وإشعارا أنه بمعناه.))[2]

فهذا الاتّساع الذي تحدّث عنه ابن جني يعدّ عدولا في القول عن مقتضى الظاهر، فالرفث لا يعدّى بـ"إلى" في الاستعمال العادي، ولما كان التركيب مؤشّرا على احتوائه فعلا آخر دلّ عليه حرفه المألوف أو كما أسماه ابن جني بالمعتاد؛ أو "كثرة الاستعمال"، وهذا الأخير في حقيقته هو الذي صنع فكرة العدول باعتباره مرجعية تقاس بها درجة هذا الخروج.

كما ذكر هذا الضّرب من العدول في آخر كلامه على مسألة الحمل على المعنى- الذي وَصف متعاطيه بقوّة النّظر وملاطفة التأوّل- فقال ابن جني فيما أدرجه ضمن باب الحمل على المعنى: ((ومنه باب من هذه اللّغة واسع لطيف طريف وهو اتّصال الفعل بحرف ليس مما يتعدّى به؛ لأنّه في معنى فعل يتعدّى به. من ذلك قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ [البقرة: 187] لما كان في معنى الإفضاء عدّاه بـ"إلى".))[3]

وفي جانب العدول في حروف المعاني نراه يعيد مصطلح التّرك والتّحوّل، وهذا بالمفهوم الوارد في باب خلع الأدلّة، وذلك ما أودعه ضِمن باب في إقرار الألفاظ على أوضاعها الأُوَل ما لم يدْعُ داع

([1]) . سر صناعة الإعراب، ج1، ص260.

([2]) . الخصائص، ج2، ص308.

([3]) . الخصائص، ج2، ص435.

إلى التّرك والتحوّل، يقول: ((من ذلك "أو" إنما أصل وضعها أن تكون لأحد الشّيئين أيْن كانت وكيف تصرّفت، فهي عندنا على ذلك، وإن كان بعضهم قد خَفِي عليه هذا من حالها في بعض الأحوال حتى دعاه إلى أن نقَلها عن أصل بابها.))(1)

مفاد هذا الباب هو أنّ الألفاظ لها معان وضعية أولى وأخرى مستتبعة، والأصل هو بقاء الألفاظ على أوضاعها الأوَل إلا إذا تعذّر تخريجها على أصولها، ولكن الإشكال الوارد ليس في بقاء اللّفظ في معناه؛ إنما في ماهية العِيار الذي يخضع له هذا التحوّل. وقد عاب ابن جني على من تسارع في إخراج بعضها عن أبوابها في مقامٍ يمكن تأويلها عليه.

على أنيّ لا أميل إلى ما ذهب إليه ابن جني حين أخضع الألفاظ إلى جدلية الأصل والفرع، وذلك لنسبية ضابط الإقرار من عدمه، ولأنّ هذا يدعونا إلى الارتباط بالمعاني المعجمية للحروف دون مراعاة القرائن التي تصل بنا إلى المعنى الدّلالي ((فالحرف منفردا يبقى معناه خاصّا، أو محصورا في إطار ضيّق، وتوظيفه في تركيب معيّن هو الذي يحدّد معناه الحقيقي، فقد يختلف معناه من جملة إلى أخرى بمقتضى الاستعمال.))(2)

وإذا كان ابن جني قد سلك في معنى "أو" مذهب إقرار الأصل، مستعذبا له، وهذا في تعليقه عن قول ذي الرّمة(3):

بدتْ مثَل قرن الشمس في رَوْنق الضُّحى ... وصورتها أو أنت في العين أملح. (4)

وقد ساق كلامه عن معنى "أو" ملوّحا إلى تضعيف مَن قال بتحوّلها، فقال بأنّها: ((على بابها من الشكّ ألا ترى أنّه لو أراد بها معنى "بل" فقال: "بل أنتِ في العين أملح" لم يفِ بمعنى "أو" في الشكّ لأنّه إذا قطع بيقين أنها في العين أملح، كان في ذلك سرف منه ودعاء إلى التّهمة في الإفراط له وإذا أخرج الكلام مخرج الشّك كان في صورة المقتصد غير المتحامل ولا المتعجرف. فكان أعذب للفظه، وأقرب إلى تقبُّل قوله.))(5)

---

(1) . المصدر السابق، ج2، ص457.

(2) . حروف الجرّ في العربية بين المصطلح والوظيفة، نور الهدى لوشن، المكتب الجامعي الحديث، 2006م، ص119.

(3) . هو غيلان بن عقبة بن نهيس بن مسعود العدوي، أبو الحارث، ذو الرمّة؛ شاعر من فحول الطّبقة الثانية في عصره، ولد سنة77هـ، وكان شديد القصر، دميما، أكثر شعره تشبيب وبكاء أطلال، توفي بأصبهان سنة117هـ، له ديوان شعر مطبوع، انظر ترجمته في: الأعلام، ج5، ص124.

(4) . ينظر: البيت في: الإنصاف ج2، ص391، والخزانة ج11، ص65، والخصائص، ج2، ص460.

(5) . الخصائص، ج2، ص458.

وما يدلّل على هذا أيضا هو قوله: « فأمّا قول الله سُبحانه: ﴿ وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ﴾ [الصّافات: 147]، فلا يكون فيه "أو" على مذهب الفراء بمعنى "بل"، ولا على مذْهب قطرب في أنها بمعنى الواو، لكنّها عندنا على بابها في كونها شكّا. »(1)

إذا كان سلك هذا المذهب مستحسنا له؛ فإنّه في جانب آخر لا يميل إليه، ويرجّح – وفق مسلك العدول– أنّ "أو" للإضراب بمعنى "بل"، وذلك في قراءة قوله تعالى: ﴿ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُم ﴾ [البقرة: 100] بسكون الواو مِن "أو"، وهذا حين عقّب على هذه القراءة، قائلا: « فإذا كان كذلك كانت "أو" هذه حرفا واحدا، إلا أنّ معناها معنى بل للترك والتحوّل بمنزلة أم المنقطعة، نحو قول العرب: إنّها لإبل أو شاء، فكأنّه قال: بل، أهي شاءٌ؟ فكذلك معنى أو ها هنا... و"أو" هذه التي بمعنى أم المنقطعة، وكلتاهما بمعنى بل موجودة في الكلام كثيرا. »(2)

وكذلك مع الأداة "هل"، يواصل ابن جني في مذهب العدول، لكن متزحزحا من الترجيح إلى الاحتمال، يقول في موضع آخر: « فأمّا "هلْ" فقد أُخْرجت عن بابها إلى معنى "قَد" نحو قول الله سبحانه: ﴿ هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ ﴾ [الإنسان: 1] قالوا: معناه: قَدْ أتى عليه ذلك وقد يمكن عندي أن يكون مُبقاة في هذا الموضع على بابها من الاستفهام، فكأنّه قال –والله أعلم–: هلْ أَتى على الإنسان هذا، فلا بدَّ في جوابه من "نعم" ملفوظا بها أو مقدّرة. »(3)

فتفريق ابن جني بين هذه المواضع لا يعني هشاشةً في مبدأ الأصل، لكنّه تقرير لمبدأ العدول بناءً على التغيّر الأسلوبي الذي ورد فيه الحرف، وحتى لا يُعقَّب على قوله في معنى "أو" أنّها « لأحد الشّيئين أيْن كانت وكيف تصرّفت »؛ لو أناط دلالة الحرف بالاستعمال الصّحيح، من دون تعلّق بمعناه المجرّد، فيكون هذا أتمّ، وأسلمَ لسوء فهم كلامه.

ومجاراةً لدراستي للعدول من جانب أسلوبي؛ ومن خلال تحليلات ابن جني واستعماله لمصطلحات: حُسن المعنى، وعذوبة اللّفظ، وظرف المذهب؛ فإني أقول أنّ أبا الفتح كان متذوّقا لتحوّلات الأساليب العدولية لحروف المعاني، برؤية تعكس عمق تأويله اللّغوي، وبُعده النّقدي.

ومما يحسب له أيضا في اهتمامه بظاهرة المخالفة في استعمال حروف المعاني؛ عنايته بعدول الاستفهام عن أصله وخروجه عن مقتضى ظاهره، ليعلّل بذلك استعمال بعض أحرف الاستفهام في

---

(1) . المصدر السابق، ج2، ص461.

(2) . المحتسب، ج1، ص99.

(3) . الخصائص، ج2، ص462.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقام لا يخفى فيه الجواب على السّائل، يقول: « واعلم أنّه ليس شيء يخرج عن بابه إلى غيره إلا لأمر قد كان وهو على بابه ملاحظا له وعلى صَدَد من الهجوم عليه، وذلك أنّ المستفهِم عن الشيء قد يكون عارفا به مع استفهامه في الظّاهر عنه لكن غرضه في الاستفهام عنه أشياء. منها أنْ يرى المسئول أنّه خَفي عليه ليسمع جوابه عنه. ومنها أن يتعرّف حال المسئول هل هو عارف بما السّائل عارف به. ومنها أن يُرى الحاضر غيرهما أنّه بصورة السّائل المسترشِد لما له في ذلك من الغرض. ومنها أن يُعد ذلك لما بعده مما يتوقّعه حتى إنْ حلِف بعد أنّه قد سأله عنه حلف صادقا فأوضح بذلك عذرا. ولغير ذلك من المعاني التي يسأل السّائل عما يعرفه لأجلها وبسببها، فلمّا كان السّائل في جميع هذه الأحوال قد يسأل عما هو عارفه أخذ بذلك طرفا من الإيجاب لا السّؤال عن مجهول الحال. وإذا كان ذلك كذلك جاز لأجله أن يجرّد في بعض الأحوال ذلك الحرف لصريح ذلك المعنى. فمن هنا جاز أن تقع "هل" في بعض الأحوال موضع "قد"، كما جاز لـ"أو" أن تقع في بعض الأحوال موقع الواو نحو قوله:

وكان سِيّانِ ألا يَسْرحوا نَعَما ... أو يَسْرحوه بها واغبَّرت السُوح. »[1]

وفي السّياق نفسه يذهب بنا أبو الفتح مذهب التّقنين في مثل هذه الأساليب المعدول بها عن بابها، وذلك بقوله: « وكلّ حرفٍ فيما بعد يأتيك قد أُخرِج عن بابه إلى باب آخر؛ فلا بدّ أن يكون قبل إخراجه إليه قد كان يُرائيه ويلتفِت إلى الشّقّ الذي هو فيه، فاعرِف ذلك وقِسْه... »[2]

وهذا ما أعدُّه من الإشارات الدّقيقة في فهم ابن جني لأسباب ظاهرة العدول، وما يُستشفّ من لفظة "الشّقّ" الذي هو بمعنى الاشتراك في التّصيب الدّلالي بين الحرف المعدول به والمعدول عنه لأنّ الحرف الذي يُرائي ويُلاحظ ويلتفِت إلى الحرف الآخَر؛ لا بدّ أنّ بينهما حظّا معنويا – مع قِلّته- وذلك بمعنى المناسبة التي جُعلت سببا للتحوّل في الألفاظ؛ الذي وضّحه ابن جني في هذا الباب. وقريب من هذا التّحليل ما بينّاه عند سيبويه في إثباته لاشتراك المجاري ونفيه لاشتراك المعاني في الحروف.

وأخيرا نقول إنّ من أهمّ القضايا التي نظرة فيها النّحاة إلى حروف المعاني هي قضية التحوّل عن الأصل الوضعي بعلل الاستعمال والأعراف اللّغوية وبالتالي فقد حظيت نظرية العدول اهتماما كبيرا لدى النّحاة وإن لم يصرحوا في كثير من الأحيان بمصطلحه، وقد تولّد عن هذا الاهتمام عدّة

([1]) . الخصائص، ج2، ص465.

([2]) . المصدر نفسه، ج2، ص465.

مصطلحات ومفاهيم تخدم قضية العدول، منها: التحوّل والتّرك، التدريج، وخلع الأدلّة وأيضا الفرق بين معنى الحرف ومجراه اللّغوي.

وقد عالج النّحاة قضية العدول في ميزان نظرية الأصل باعتبار أنّ الحروف لها معان وضعية بمثابة أصول ثابتة في ملفوظ الحرف وأخرى مستتبعة نابعة من المعنى الأصلي، لا يلتجأ إليها إلا حين يتعذّر حملها على هذا الأصل، كما لم يختلفوا في أنّ كلّ حرف إذا عدل من بابه إلى آخر فلا بدّ من وجود علائق مشتركة بين المعنيين، تظهر وتدِقّ بحسب درجة المناسبة.

ولئن عني النّحاة بالأصول المقدّرة لحروف المعاني حملا عليها وتأويلا إليها؛ فإنّ طبيعة اللّغة وسنن استعمالها يأبى الاستسلام لنظرية الأصل والتراكيب النّمطية ويفرض الواقع اللّغوي مراعاة الأصل وعدم الالتزام به مما أسبغ اللّغة مرونة واتّساعا خرجت بها من مجرد التواصل إلى لغة التشبيه والتصوير ونقل الأحاسيس.

وحتى تزال وحشة الخروج عن الأصل عند النّحاة ينبغي أن تُعقل نظرية المخالفة بالتحليلات البلاغية بدراسة أساليب حروف المعاني وفق ملائمتها للحال ومناسبتها للمقام.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثاني:

العـدول في حـروف المعاني عند البلاغيين

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثاني: العدول في حروف المعاني عند البلاغيين.

المطلب الأول: مفهوم العدول في الدّرس البلاغي

وردت في الموروث البلاغي والنّقدي عدد من المصطلحات التي تدلّ على ظاهرة "التحوّل الأسلوبي" ضُمّنت في دائرة "شجاعة العربية "[1] التي نحن بصدد دراسة أبعاده، واستجلاء معالمه.

ومن تلك المصطلحات نذكر: شجاعة العربية، ونقض العادة، والاتّساع، وإخراج الكلام لا على مقتضى الظّاهر[2]... وغيرها.

ومن مظاهر العدول في اللّغة ما ذكره ابن قتيبة في باب: "مخالفة ظاهر اللّفظ معناه"، حيث أدرج فيه أمورا عدّة، منها: مجيء الكلام على مذهب الاستفهام في الظّاهر وهو تقرير في المعنى، أو على الاستفهام وهو تعجّب في المعنى، أو على الأمر وهو تهديد، أو عام ويراد به الخاص، ومنها العدول في استعمال الضّمائر، وغيرها.[3]

وإدراج ابن قتيبة في كتابه تأويل مشكل القرآن هذا المظهر العدولي وهو مخالفة الظّاهر من اللّفظ للمعنى المتبادر منه؛ يدلّ على اعتنائه بالسرّ المعنوي للعدول وما يمكن أن تسبغه الدّلالة في خطاب المخالفة للظّاهر من معان أسلوبية تتضح معالمها كلّما تكاثرت علاقات الانحراف بين الدّلالة الأولى المفترضة في الذّهن والدّلالة الثانية المقصودة من الكلام، وبالتالي فكلامه عن العدول كونه من موضوعات تأويل المشكل القرآني هو إقرار ببلاغته ولطافة مسلكه، وأنّ الإشكال الوارد في بعض الآيات، وإن يتناقض والظّاهر على مستوى البناء السّطحي فهو ماسك لزمام التركيب رافعا له من مستوى الإبلاغية العادية إلى مستوى البلاغة الفنّية ليحيي في المخاطب روح الانتباه فيجعله يتحسّس بقريحته جودة الإفهام وحكمة البيان.

ومن مظاهر العدول أيضا: التغيّرات الصّرفية لبعض الصّيغ وعلاقتها بالمعاني، وَفق متطلّبات المقام، وما يحمله أسرار اختلاف هذه الصّيغ من الفروق الفنّية بين المعاني ممّا يفيد أكثر الإفادة في التوظيف البلاغي لتلك الصّيغ في سياقاتها التي تطابق مقتضى الحال، كالعدول من صيغة "فَعِيل" إلى "فُعَال"

([1]) . استخدم ابن جني في الخصائص: (ج2، ص447،360) هذا المصطلح، وهو ما عَبّر عنه ابن قتيبة بمجازات الكلام: (تأويل مشكل القرآن، ص20)، وأيضا هو الاتّساع والتسامح في الكلام عند عبد القاهر الجرجاني: (دلائل الإعجاز، ت: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط3، 1413هـ-1992م، ص62 وص438).

([2]) . ينظر على الترتيب: الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني، ص74، والخصائص، ج2، ص215، وج3، ص47، ومفتاح العلوم، ص327.

([3]) . ينظر: تأويل مشكل القرآن، ص275، وما بعدها.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

للمبالغة، نحو طَوِيل إلى طُوال؛ لأنها أبلغ منها في المعنى، وأُدرِجت عند اللّغويين تحت عدّة مسمّيات منها: التفسير على المعنى دون اللّفظ، قوّة اللّفظ لقوّة المعنى، تكثير اللّفظ لتكثير المعنى.[1]

وعبّر أبو هلال العسكري بمصطلح العدول حين فرّق بين صيغتي: "رحيم" و"رحمن" بقوله: ((وعندنا أنّ "الرحيم" مبالغة لعدوله، وأنّ "الرحمن" أشدّ مبالغة لأنّه أشدّ عدولا، وإذا كان العدول على المبالغة كلّما كان أشدّ عدولا كان أشدّ مبالغة.))[2]

وعلى اعتبار أنّ تعبير المبالغة في القرآن يعني الدّقة في تصوير المعنى لا الإفراط في الوصف فإنّ أبا هلال قد أوضح بكلامه أساس التّفرقة بين الوصفين حين جعل العدول معيارا به تقاس البلاغة وتتفاضل الأساليب فكلّما كانت مؤشّرات العدول كثيرة كان أكثر إصابة في نقل العواطف ورسم الأفكار بما يتناسب ومعهود المخاطبين.

ولا جرم أنّ التخيّر في استعمال صِيَغ دون أخرى أمرٌ تمليه ظروف الكلام وسياقاته ما يثير وجدان المتلقين ((ذلك أنّ الاختيار الفنّي لتلك الصّيغ من قِبَل المبدع، وكذلك ما يقوم به من تَكرار لبعض الصّيغ، أو عدول فنّي مقصود من صيغ يقتضيها السّياق إلى صيغ أُخَر يراها أكثر مناسَبة كلّ ذلك يُحدِث بلا شكّ نوعاً من الإثارة، ولفت الذّهن للمتلقّي ناقداً كان أو غير ناقد.))[3]

فمن بين مميّزات الجمال الفنيّ في الأداء القرآني؛ دقّته في اختيار الألفاظ وفقا للأغراض والمقاصد فتكون ((المفردات المعجمية مؤشّرات أسلوبية من حيث مناسبة إحداهما دون أخرى بمعناها لسياق معيّن، فيتمّ اختيارها دون الأُخرى))[4]، فتُؤْثَر اللّفظة المذكورة عن أخرى؛ تُعدّ من البدائل اللغوية لها والذي ((يساعدها على الظّفر بمكان لها في الملفوظ؛ أنّ المقام يستدعيها أكثر مما يستدعي غيرها وأنّ هدف إقناعَ المتكلّمِ مُخَاطبَه؛ يقتضها أكثر مما يقتضي غيرها.))[5]

فالعُدول إذا هو صناعة أسلوبية معادلها دقّة النّظم، وجودة الصّياغة، وبراعة الأسلوب.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

([1]) . ينظر: الخصائص، ج3، ص260، وص264، وص267، وانظر: المزهر، ج1، ص155- 156.

([2]) . الفروق اللغوية، ت: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، دط، ص196.

([3]) . الإعجاز الصرفي في القرآن، عبد الحميد أحمد هنداوي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 1429هـ- 2008م، ص6.

([4]) . البيان في روائع القرآن، تمام حسان، ج1، ص434.

([5]) . الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، عبد الله صولة، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط2، 2007م ص169.

ويمكن أن نفهم العُدول من المنظور البلاغي على أنّه انزياح عن قاعدة لغوية سواء في الصّيغ أو في المعاني، وبذلك يعّرف العدول بأنّه: ((مخالفة الكلام لصياغته اللّغوية الأصلية المفترضة؛ لتحقيق قيمة جمالية، أو دلالية، أو بلاغية.))[1]

وفي هذا المفهوم نجد الجرجاني يعبّر عن مضمون العدول بلفظ "التخيّر"[2] الذي يُعنى بالتحوّل الأسلوبي في بناء لغوي معيّن لتوخّي نكتة معيّنة، ويركّز الجرجاني على هذا المصطلح كمِعيار تظهر به جودة النّظم وتتفاضل به درجات البلاغة

وهذا المفهوم أقرّه أحد الباحثين؛ حيث ذهب إلى أنَّ مصطلح العدول وهو مصطلح الأسلوبيين خاصّة متّصل أشدّ الاتّصال بمصطلح الاختيار؛ الذي هو مصطلح اللّسانيين خاصّة، ويعتبر: ((المفهومين هذين واحدا، ذلك أنّ فرق ما بين العدول والاختيار في تعريف الأسلوب مَهْمَا اجتهد القوم من النّاحية النّظرية في ضبط حدوده ليس بالفرق الواضح تمام الوضوح.))[3]

وعلى اعتبار أنّ العدول بمعنى الخروج على مقتضى ظاهر الكلام، فهو أسلوب الكلام المبني على اختيار الألفاظ والتّراكيب، ونعني بالأسلوب ((الطّريقة الكلامية التي يسلكها المتكلّم في تأليف كلامه واختيار ألفاظه.))[4]، إذن فلُحمة العدول هي الاختيار؛ بتوخّي الفروق الدّقيقة بين الألفاظ ووضعها في مواضعها؛ تبعاً للمقاصد والأغراض التي سيق لها الكلام.

وعلى اعتبار أنّ العدول هو فنّ إيثار البدائل اللّغوية لأساليب خاصّة، وتجاوز الوظائف المشتركة إلى خصوصية الأداء؛ فإنّ محاولة التفريق بين العدول والاختيار أمر يحتاج إلى مراجعة، لأنهما وإنْ اختلفا في المبْنى فهما يشتركان في الخصائص والغايات.

وبعد هذا نخلص إلى أنّ العدول كإجراء بلاغي هو خروج منظّم عن تركيب لغوي مقدّر اعتبارا لحال المخاطب بناءً على أصل لغوي مفترض لتوخّي نكتة أسلوبية.

([1]) . العدول في البنية التركيبية، ص550.

([2]) . ينظر: دلائل الإعجاز، ص250.

([3]) . الحجاج في القرآن، ص170-171.

([4]) . مناهل العرفان، محمد عبد العظيم الزّرقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركائه، ط3، ج2، ص303.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

– التكييف البلاغي للعدول:

تحدّث البلاغيون عن مظاهر الخروج التي يتحقّق بها مطابقة مقتضى الحال، وهي صور الخروج عن مقتضى الظّاهر . ولم يهملوا موافقة الكلام لمقتضى الظاهر إذا طابق مقتضى الحال، "ولعلّ ما تحدّث عنه البلاغيّون من مظاهر الخروج؛ هو بعينه ما يتناوله درْس الأسلوب في العصر الحديث تحت اسم: "العدول" أو "الانزياح"، واستعمال كلمة "العدول" في تراثنا البلاغي كثيرٌ وشائع مما يدلّ على أنّ البلاغيين قد فهموا الخروج على أنّه عدول، وإن لم يتّخذوا من كلمة العدول مصطلحا." [1]

قال المسدّي موضّحاً معنى الانزياح: "...على أنّ المفهوم ذاته يمكن أن نصطلح عليه بعبارة "التّجاوز" وأن نُحْيِيَ له لفظة عربيّة استعملها البلاغيون في سياق محدّد، وهي عبارة العدول." [2]

ولئن كان النّحاة يقيمون مباحثهم على رعاية المستوى المثالي مراعاة للأصل، فالنّحوي يبدأ في درسه من المبنى إلى المعنى، فإنّ البلاغيين والأدباء يقيمونها على أساس تجاوز هذه المثالية والعدول عنها، فينطلق البلاغي في درسه من المعنى مستقصيا التراكيب الملائمة التي تفي بمتطلّبات السّياق والأحوال المختلفة، ويظهر هذا في دراسة البلاغيين لموضوع "علم المعاني" والذي يُعنَى بـ" تتبّع خواصّ تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصلّ بها من الاستحسان وغيره، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما تقتضي الحال ذكره." [3]

فالأحوال المختلفة والتّحويلات التركيبية التي تطرأ على الكلام هي ميدان عناية البلاغيين، والقصد في التركيب عندهم منوط غالبا بدراية خواصّه، ومخالفة مقتضى ظاهره، ليس اهتمامهم مركّزا على التركيب في أصل وضعه، لأنّ هذا أقرب إلى صنعة النّحو منه إلى صناعة البيان، والبلاغة كما يقول الجرجاني ليس مرجعها إلى العلم باللّغة، بل العلم بمواضع المزايا والخصائص [4] كما أنّ عنايتهم " بنوع من الكلام ذي مزية تتمثّل في تعدّد أنماطه، بحيث يكون للمتكلّم اختيار النّمط الذي يتلاءم وسياق الحال والذي يحقّق الإرادة الاستعمالية للتركيب المنجَز، وهذه الإرادة شيء زائد على التركيب لأنّها مرتبطة بسياق الحال وموافقة لمقتضاه." [5]

([1]) . مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء، حامد صالح خلف الربيعي، 1996م، ص579- 580.

([2]) . الأسلوبية والأسلوب، ص162- 163.

([3]) . مفتاح العلوم، السكاكي، ص 161.

([4]) . ينظر: دلائل الإعجاز، ص249.

([5]) . دراسات في اللسانيات العربية، ص179.

لذلك لا يكون الكلام عند البلاغيين ذات شحنات فنيّة، وسمات بيانية إلا حين يخضع للأساليب العدولية، باعتبارها مؤشّرات على نسب الجمالية في إحياء إثارة المتلقّي بما تفيده أنماطه من قدرة على التصوير الأسلوبي، وهذا المعنى عزّزه عبد القاهر الجرجاني بأنْ لا مزية في النّظم إلا حين يحتمل الكلام في ظاهره أكثر من وجه، كلّها تعدّ مؤهلات للظّفر بمكان لها في الملفوظ؛ مع بقاء الأفضلية للأوّل، يقول الجرجاني: "وإنما تكون المزية ويجب الفضل إذا احتمل في ظاهِر الحالِ غير الوجه الذي جاء عليه وجهاً آخر، ثمَّ رأيتَ النفسَ تَنبو عن ذلك الوجه الآخر، ورأيت للذي جاء عليه حُسْنا وقبولاً يعدمهُما إذا أنت تركتَه إلى الثاني. "(1)

وهذا لا يعني إهمال البلاغيين لفكرة موافقة الأصل؛ على اعتبار أنها عديمة الفائدة في فنّهم، كما يرى ذلك بعض الباحثين(2) وأنّ أبواب علم المعاني يمتنع فيها إجراء الكلام على الأصل، فهي أبواب تقوم أساسا على العدول في اللّغة عن مستوى استخدامها المألوف.

ويرى الباحث أنّ قيام علم المعاني على فكرة العدول فقط وإقصاء مراعاة الأصل اللغوي وجمالياته التركيبية أمر لا تثبته الدّراسات البلاغية، فإذا ما تتبعنا الأساليب ذات المعاني البلاغية التي يفيدها الأصل فإننا نجد السّكاكي حين يتناول أسلوب الحذف والذّكر في أحوال المسند إليه يعدّد الأغراض التي يفيدها الحذف والأغراض التي يفيدها الذِّكْر، وعلى اعتبار أنّ الأصل في المسند إليه كونه مذكورا فإنه في بعض المقامات يقتضي أسرارا بلاغية تتساوق وفائدة الخبر، على عكس ما إذا خرج النّظم على طريقة العدول فإنه قد يفقد كثيرا من الأغراض المتوخاة من الخطاب، كما في قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ ﴾[الشّعراء:70-71] فذَكر المسند إليه: "نَعْبُدُ" وَفقا للأصل، ومع ذلك فقد تضمّن الكلام غرضا بلاغيّاً؛ هو بسط الكلام حيث الإصغاء مطلوب، فبسطوا كلامهم ابتهاجا منهم بعبادة الأصنام، وافتخارا بمواظبتها منحرفين عن الجواب المطابق المختصر وهو "أصناما". (3)

- عدول حروف المعاني عند البلاغيين.

(1) . دلائل الإعجاز، ص286.

(2) . ينظر: البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب، دار نوبار، القاهرة ، ط1، 1994م، ص270.

(3) . ينظر: مفتاح العلوم، ص178.

كان اهتمام النحويين بحروف المعاني واضحا جليا، فأفردوا لها مؤلّفات خاصّة [1]، ذاكرين معانيها، واختلاف مواقعها، ومستشهدين ببعض النّصوص القرآنية، وقد كان تأليفهم في معاني الحروف على أضرب مختلفة، فمنهم من درسها من حيث الإعمال والإهمال كالرماني، ومنهم من ذكرها على ترتيب المعجم كعمل ابن هشام، وغيرها، وإن اختلف العلماء في تآليفهم على أوجه متعدّدة، فهم مجمعون على أهمية هذه الحروف، وعلوّ قدرها، ودورها في إنتاج الدّلالة.

أمّا البلاغيون فلم تصل عنايتهم بها إلى أن يفردوا لها دراسات مستقلّة، سوى ما جاء عرضا في ذكرهم للمسائل البلاغية، ومع ذلك وفي هذا الخضم الضيّق؛ حاولوا بيان معانيها والكشف عن أسرارها؛ لتخلُص دلالاتها من الإلباس إلى الإفصاح، ومن ضيق النّحو المعياري إلى سَعة البلاغة الذّوقية، كما يبيّن ابن الأثير مراده من ذكر باب حروف المعاني؛ فيقول: ((ولست أعني بإيراده ههنا ما يذكره النّحويون من أنّ الحروف العاطفة تُتبع المعطوف المعطوف عليه في الإعرابِ ولا أنّ الحروف الجارة تجرّ ما تدخل عليهِ بل أمراً وراء ذلك، وإنْ كان المرجع فيه إلى الأصل النّحوي.))[2]

وهذا سعيا منهم لإدراك مواطن الجمال اللّغوي، وإبراز مكامن البيان القرآني الذي وظّف هذه الحروف توظيفا دقيقا يحاكي المعاني ويصوّر المواقف، ليتعانق الدّال والمدلول، وتُشاكلَ الألفاظ معانيها ((التي أرواحها يتفرّس الفطن فيها حقيقة المعنى بطبعه وحسّه كما يتعرّف الصادقُ الفِراسة صفاتَ الأرواح في الأجساد من قوالبها بفطنته.))[3]

وبالنّظر إلى طريقة معالجة العدول في حروف المعاني في هذه المؤلفات باعتبارها مؤلفات نحوية نجدها تختلف عن المعالجة البلاغية لها، فمن المباحث القريبة في موضوع العدول شارك البلاغيون النّحويين في دراسته؛ هو خروج بعض المعاني الأصلية للأدوات إلى معان أخرى، كخروج الاستفهام إلى معان أخرى منها[4]: التقرير، والتعجّب والأمر، والإنكار، والتهكّم، والاستبطاء، وغيرها، وخروج النّداء إلى التعجّب، والاستغاثة، والنّدبة، وغيرها، ومن خلاله يمكن أن ندرك ما أبدعه البلاغيون.

فالنّحاة كانت نظرتهم إلى هذا الخروج باعتباره عدولا دلاليا بين الأساليب النّحوية، بمعنى تبادل وتقارض المواضع الدّلالية بين التراكيب النّحوية، كأن يوضع الخبر موضع الإنشاء، وكوضع الأمر

([1]) . ومن ذلك: حروف المعاني والصّفات للزجاجي، معاني الحروف للرمّاني، الأزهية في علم الحروف للهروي، ومغني اللبيب لابن هشام، وغيرها.

([2]) . المثل السائر، ت: محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت 1420هـ، ج2، ص46.

([3]) . بدائع الفوائد، ابن القيم، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ج1، ص102.

([4]) . ينظر: مغني اللبيب، ص24.

موضع النّهي، ووضع النّداء موضع التعجّب داخل الأسلوب نفسه، فمِن وضع النّداء موضع التعجّب؛ قول الشاعر[1]:

فيا لك من ليلٍ كَأَنَّ نُجُومَهُ ... بأمراسِ كتّانٍ إلى صُمّ جَندَلِ

ومن وضعه موضع النّدبة، قول الآخَر[2]:

واحَرَّ قَلْبَاهُ مِمَّنْ قَلْبُهُ شَبِمُ ... ومَنْ بِجِسْمِي وَحَالِي عِنْدَهُ سَقَمُ

فهذه المعاني المعدول بها هي معاني نحوية، أي لها تركيب نحوي تُعرف به في الدّرس النّحوي فالتعجّب والاستغاثة كلاهما تركيب لغوي ذو مدلول نحوي.

أمّا البلاغيون فقد اختلفوا في طريقة معالجتهم لموضوع العدول وذلك لطبيعة نظرتهم إلى هذا الموضوع، وتطلّبات درسهم البلاغي الذي يُعنى بمقتضى الحال، ومحاكاة المقام، وما يدرّ به السّياق فأخذت طريقتُهم منحى يجافي تقسيمات النّحويين وتفصيلاتهم، فجهودهم في الأغراض البلاغية لتقلّبات حروف المعاني وإن بنَوها على ما أثمر به النّحويون من دلالة التركيب؛ فإنّها تمخّضت بكشف ما وراء هذا التركيب من إشارات ومقامات وهمسات خفيّة ترتبط في كثير من الأحيان بنفسية المتلقّي وإحساسه، مستندةً في ذلك إلى السّياق وقرائن الحال والمقام، وهذا هو المعروف في الدّرس البلاغي بالخروج عن مقتضى الظاهر، والمعبّر عنه أسلوبيا[3] بـ"العدول".

ومن ذلك ما يمكن أن يدرّه لفظ النّداء مثلا من معان أخرى غير المعنى الأصلي الذي هو "طلب الإقبال"[4] وذلك بطريق العدول لتحقيق أغراض بلاغية معيّنة، ومن هذه المعاني[5]: الإغراء، والزّجر والتحسّر، والتحبّب، والتضرّع، والشّكوى من الزّمن، والتوجّع، وكثير من الأغراض التي يحتملها لفظ النّداء.

ونورد هنا كلام ابن عاشور في طبيعة النّداء الذي افتتح به قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾ [المزمل: 1-2]، يقول: «والأصل في النّداء أن يكون باسم المنادَى العلم إذا كان معروفاً عند المتكلّم، فلا يعدِل من الاسم العَلم إلى غيره من وصف أو إضافة إلاّ لغرض يقصده

([1]) . البيت لامرئ القيس، ينظر: ديوانه، دار المعرفة، بيروت، ط3، 1425-2004م، ص 50.

([2]) . البيت للمتنبي، ينظر: ديوانه، دار بيروت، 1403هـ -1983م، ص331.

([3]) . ينظر: الأسلوبية والأسلوب، ص99-100.

([4]) . ينظر: مفتاح العلوم، ص304.

([5]) . ينظر: البلاغة فنونها وأفنانها، فضل عباس، دار الفرقان للنشر والتوزيع، اليرموك، ط4، 1417هـ-1997م، ص166.

البلغاء... فإذا نوديَ المنادى بوصف هيئته من لِبسَة أو جِلسة أو ضِجعة كان المقصود في الغالب التلطّف به والتحبُّب إليه ولهيئته.))[1]

وفي الآية السّابقة نداء للنّبي ﷺ بوصف هيئته مستنسخة من حالته وقت ندائه أُنسا له، وتلطّفا وترفّقا به على تزمّله بثيابه لما اعتراه من الحزن من قول المشركين فأمره الله بأن يدفع ذلك عنه بقيام اللّيل. [2]

أما النّداء الوارد في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ٦ ﴾ [الحجر: 6]، فهو نداء على وجه الاستهزاء والتهكّم إذ كيف يقرّون بنزول الذّكر عليه وينسبونه إلى الجنون، وهو من باب التعكيس في كلامهم بنيّة الاستهزاء. [3]

فهذه المعاني المذكورة الخارجة عن أصل النّداء في حقيقتها ليست عدولا على مستوى الأساليب النّحوية، وليست مما ذُكر من تراكيب لغوية ذات الطابع النّحوي، وإنّما هي أغراض بلاغية ـ يقدّرها المقام ـ تخاطِب العقل وتستنطق العاطفة، وترتبط بقدرة المبدع على مما يختلج في فؤاد المتلقّي من حركات روحية تتناسب والمقام.

وكذا الأمر عندما نلتقط أطياف المعاني المستوحاة من معنى الاستفهام الوارد في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ [البقرة: 30] حين يتزحزح عن معناه المتبادر "طلب الفهم"، إلى معنى الحيْرة والولَه، ثم يرقّ فيوحي بالشّكوى، وغَلَبة الوَجد، ثم يتفلّت فيَصعُب ضبطه في معنى بعينه، ما يُلجئ البلاغي إلى تضييق منابع مجراه، وذلك بذكر جملة من المعاني المحتملة التي يرى أنها أحاطت بمعناه، وأتت على مجمل مقصده ومؤدّاه.

وفي كلّ هذا ما نستأنس به لنقول إنّ ما يفيده الاستفهام ((أرحب وأدقّ من أن نحدّده تحديدا تامّا، وأنّ المعاني التي يشير إليها هي بطبيعتها خفيّة وهاربة لا تستطيع وصفها بإحاطة وسيطرة.))[4]

وإذا ما نظرنا في التكييف البلاغي للتّمني بـ"ليت" الذي يعني طلب أمرٍ مرغوب فيه، ولكن لا يُرجى حصوله في اعتقاد المتمنّي[5]، فإنّ الأمر يختلف عن الحروف التي قد تعدل عن معانيها الأولى

(1) . التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج29، ص255-256.

(2) . ينظر: المصدر نفسه، ج29، ص257.

(3) . ينظر: الكشاف، ج2، ص535.

(4) . دلالات التراكيب دراسة بلاغية، محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط2، 1408هـ - 1987م، ص218.

(5) . ينظر: الجنى الداني، ص391، والبلاغة العربية، عبد الرحمن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، ج1، ط1، ص251.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فالعدول في التمني لا يقع في خروج "ليت" عن معنى التمني، وإنما في يكون في عدول التعبير عن إفادة التّمني بحروف أخرى غير ليتَ، « ولعلّ هذا لعراقتها في التّمني وأنها لم تتخلّص منه ولم تجرِ في غير هذا المعنى القلبي الحميم. »[1]

ومن أمثلة إفادة التمني بغير أداته؛ قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ﴾ [البقرة: 167]، يرى الطاهر بن عاشور أنّ "لو" في قوله: ﴿لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ﴾ مستعملة في التمنّي، وهو استعمال لغوي كثير، واستعيرت "لو" للتمني بعلاقة اللّزوم، لأنّ الشيء العسير المَنال يكثُر تمنّيه، وشاع هذا الاستعمال حتى صار من معاني "لو". [2]

ويقول النّحاة إن نصب الفعل بعد الفاء دليل على أنّ لو أُشرِبت معنى التمنّي[3]، واستدلّ الأخفش عن ذلك بقول الشّاعر:

فلَسْتُ بمدركٍ مَا فاتَ مِني ... بـ"لهفَ" ولا بـ"ليتَ" ولا "لو انيّ"

فأنزل "لو أني" بمنزلة "ليت" لأنّك إذا قلت: "لَو أنّي كنتُ فعلتُ كذا وكذا "فإنما تريد: "ودِدتُ لو كنتُ فَعلْتُ". [4]

وليست المعاني التي تشير إليها هذه الأدوات محصورة في تراكيب معيّنة وإنّما هي متولّدات تشيعها السّياقات والتراكيب، ولا عيار في ذلك يُحتكم إليه سوى سلامة الذّوق وحسن تتبّع التراكيب فلا ينبغي أن يقتصر في مثل هذه المعاني والأساليب على الآراء المنقولة مَنْ يجد إلى التفكّر سبيلا.

وقد تنبّه العلماء على الدور البلاغي الذي استأثرت به حروف المعاني إذ أدركوا « أنّ لهذه الحروف لطائف وأسرارا لا تظهر إلا بوجودها في التراكيب اللّغوية، فبها يتمّ مختلف الأساليب البلاغية كالنفي والتوكيد والاستفهام وغيرها، وذلك أنّ هذه الأساليب وغيرها تفتقر إلى وجود حروف المعاني، فبها تقوّم أركانها، ويتمّ بنيانها، وبدونها تتهاوى الأركان، ويسقط بناء هذه الأساليب، كما أنّ اللغة بدونها تفقد روعتها وجمالها، فلا سلامة للتعبير اللّغوي إلا بوجودها. »[5]

([1]) . دلالات التراكيب، ص200.

([2]) . التحرير والتنوير، ج2، ص98.

([3]) . ينظر: البحر المحيط، ج7، ص26.

([4]) . ينظر: معاني القرآن، الأخفش، ت: هدى قراعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1411هـ- 1990م، ج1، ص72.

([5]) . نظرية الحروف العاملة في القرآن، هادي عطية الهلالي، ص.

ولاستكمال بيان ظاهرة عدول حروف المعاني في مفهوم البلاغيين؛ فإننا نورد تحليلا وافيا لعَلَمين بارزين في علم البلاغة العربية هما عبد القاهر الجرجاني ومن بعده الزمخشري وما أبرزاه من عناية بدور حروف المعاني في استنساخ الدّلالة من التراكيب وبخاصّة حين يُعنى البليغ بفحص الفروق بينها وتتبّع خصوصياتها اللغوية والسّياقية، وهذا ما سيأتي في الفرعين الآتيين.

المطلب الثاني: العدول في حروف المعاني عند عبد القاهر الجرجاني:

ألّف الجرجاني كتابه دلائل الإعجاز وهو يحاول أن يجد مخرجا من مشكلة اللّفظ والمعنى التي كثُر فيها الآراء واختلفت فيها الرّؤى، وخاصّة بعد الجاحظ، فحاول جادّا العمل في حلّها متسلّحا بذخيرته اللّغوية وبحسّه المتذوّق للبيان، ومنطلقا من عقيدته الدّينية الأشعرية، فكان نتاج هذا العمل هو تأسيس نظرية "النّظم والتأليف"؛ القائمة أساسا على المعنى النّحوي، من حيث هي تركيب يحتمل عديدا من وجوه الأوضاع، ودلالة هذه الأوضاع على المعاني المتحجّبة التي ينسجها هذا التركيب، ومزيّة كلّ تركيب في احتوائه على أوجه البيان بنفس مراد المبيِّن، مستهدفا بهذا التحليل اللّغةَ وبيانها.

وهذا ما جعل الجرجاني يُعنى كثيرا ببيان حقيقة النّظم وجوهره، فيعمد إلى تحريره وتأسيسه بقوله: ((واعلم أنْ ليس النّظم إلا أن تضعَ كلامَك الوضع الذي يَقتضيه علم النّحو، وتعملَ على قوانينه وأُصوله.))[1]

وقد ركّز في تأسيسه لفكرة النّظم على دراية الوجوه والفروق بين الألفاظ والأساليب المتشابهة، ولا يمكن قيام النّظم من دون هذا الأساس، بل إن بغية الناظم وقصده تتوقف على معرفته والنّظر في أحكامه يقول الإمام: ((وذلك أنَّا لا نعلمُ شيئاً يبتغيه النّاظمُ بنظمِه غيرَ أنْ ينظرَ في وجوهِ كلَّ بابٍ وفُروقه.))[2]

والجرجاني لا يقصر الوجوه والفروق على وجوه إثبات المعنى داخل دائرة الجملة فحسب، بل يجعلها شاملة لأدقّ شيء من نحو حروف المعاني: ((وينظر في الحروف التي تشترك في معنًى ثم ينفرد كلُّ واحد منها بخصوصيّة في ذلك المعنى، فيضع كلاً من ذلك في خاصّ معناه نحو أن يجيء بـ"ما" في نفي الحال وبـ"لا " إذا أراد نفي الاستقبال وبـ"إن" فيما يترجّح بين أن يكونَ وأن لا يكون وبـ"إذا

(1) . دلائل الإعجاز، ص81.

(2) . دلائل الإعجاز، ص81.

" فيما عُلم أنه كائنٌ.. ››[1]، ويمتدّ منها إلى علائق الجمل وما يعتريها من معاني نحوية، فيُردف: ‹‹ وينظر في الجمل التي تُسرد فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل ثم يعرف فيما حقُّه الوصل موضعَ الواو من موضع الفاء، وموضعَ الفاءِ من موضع "ثُمَّ"، وموضع "أو" من موضع "أم"، وموضع "لكنْ" من موضع "بل". ››[2]

ومن أمعن النّظر في كتاب الدّلائل يجد بأنّ عبد القاهر ينظّر لشيء قد قصّر في فحصه البلاغيون قبله ـ حسب اعتقاده ـ فكان مقتدرا كلّ الاقتدار‹‹ على توسّم آثار العلائق الظاهرة والخفية كالأدوات والحروف في ربطها بين هذه الألفاظ المنصوبة للدلالة على المعاني وعلى استخراج نبيثة[3] ما يلحق معاني هذه العلائق من التغيّر اللّطيف الدّقيق بتغيّر مواقعها من الكلم، وعلى استنباط الدفين المستور من المعاني المتحجّبة التي تكمن من وراء أوضاع هذه العلائق المتقلّبة المعاني. ››[4]

فعبد القاهر استطاع بجدارة أن يبيّن الرّكن الذي ينبني عليه النّظم، والغاية التي يهتدي إليها، وهي النّظر في وجوه كلّ باب وفروقه، ومنه باب حروف المعاني وما يكتنفه من ملابسات خفيّة في الحروف المتقاربة في المعنى، كالفروق بين أحرف العطف، والفروق بين أحرف الشّرط، وكذا الاستفهام وغيرها. والتأصيل للفروق يستدعي تمييزا دقيقا بين مواضع الأدوات، حسَب المعاني والأغراض، حتى تضع كلّا في خاصّ معناه، وهذا التّمييز يتطلّب تخيّر بعض الأدوات لبعض المواضع، بحيث يكون بدور المتكلّم اختيار النّمط الذي يتلائم وسياق تلفّظه، فهل يمكن أن نعدّ أسلوب العدول في ضوء هذا هو أحد موضوعات هذا النّظم، أم لا ؟

يقول الجرجاني مبينا معقد المزايا في النّظم: ‹‹ واعلمْ أنّا لم نوجب المزيَّة من أجل العلم بأنفس الفروق والوجوه فنستند إلى اللّغة، ولكنا أوجبناها للعلم بمواضِعها، وما ينبغي أن يُصنعَ فيها، فليس الفضل للعلم بأنَّ الواو للجمع، والفاء للتَّعقيب بغير تراخ، و"ثمّ" له بشرط التراخي، و"إنْ" لكذا، و"إذا" لكذا، ولكن لأنْ يتأتّى لك إذا نَظمت شعراً وألّفت رسالة أن تُحسن التخيُّر، وأن تعرف لكلٍّ من ذلك موضعه. ››[5]

([1]) . المصدر السابق، ص82.

([2]) . المصدر نفسه، ص82.

([3]) . من نَبَثَ التراب ينبُثه فهو منبوث بمعنى استخرجه من بئر أو نهر، ينظر: لسان العرب، ج2، ص193، والمقصود باللّفظة استظهار وجوه المستور والمخفيّ.

([4]) . مداخل إعجاز القرآن، محمود شاكر، مطبعة المدني، المؤسسة السعودية بمصر، ط1، 1423هـ - 2002م، ص120.

([5]) . دلائل الإعجاز، ص249-250.

ومفاد هذا الكلام هو أنّ سمة الجمال اللغوي لا تنحصر في معرفة المعاني الوضعية للألفاظ، وإنما تتحقّق باستثمار مفهوم التخيّر، ودراية المقامات، أي أنّ الوظيفة الحقيقية للكلمة تكون عند خلق الانسجام بين اللّفظة في معناها الصّوري، وبين موقعها داخل سياق تركيبي معيّن يراعي حضور باقي مكونات الجملة عن طريق مفهوم الاختيار، بشرط أن يكون هذا الاختيار واعيا يتعامل مع الدّوال في جانبيها الصّوتي والدّلالي.

فالألفاظ المجرّدة من التركيب في نظر عبد القاهر لا تحمل أيّ قيمة فنية في نفسها، إلا إذا اتّصفت بحسن دلالتها على المعنى، ولن تميز حُسن هذا الوصف من عدمه إلا باختيارك اللّفظة من بين بدائلها الأخرى المفترضة؛ المشاركة لها في أصل معناها، لتضعها في تركيب يناسب مبناها ومعناها وتؤلّفها في سياق يحاكي مغزاها ومرماها، فتؤدّي بهذا التركيب دلالة خاصّة، وهذه الخصوصية تعكس لنا مدار النّظم؛ الذي به تظهر القيمة البلاغية للتخيّر النّحوي.

وبالتالي فهو يعتقد أنّ المزية والفضل تتجاوز الفروق اللّغوية للحروف إلى ما أسماه بحسن التخيّر تبعا للأغراض والمقاصد، ويعني بالتخيّر " العُدول عن معنى من معاني النّحو إلى معنى آخر لأداء دلالة لا يؤدّيها المعنى الأول "[1]، أو بمعنى إيثار أحد التّراكيب على الآخر؛ لخصيصة معيّنة، يفقدها التّركيب الأوّل.

كما يمكن أن يوصف هذا "التّخيّر" بأنّه أحد الأركان التي تربّع فيها النّظم، وأنّه أحد المعايير التي تقاس بها مزيّة الكلام وفضيلته، قال الجرجاني في معرِض سياقه في الحديث عن جودة النّظم ولطافته: "...لأنّه لا فضيلَةَ حتّى ترى في الأمرِ مَصنعاً، وحتى تجد إلى التّخيُّرِ سبيلاً، وحتى تكونَ قد استدركتَ صواباً. "[2]

وإذا ما أردنا تفهُّم العلاقة بين العدول بمعناه العام الذي يعني الخروج عن مقتضى الظّاهر لتحقيق أغراض بلاغية، وبين ما أسماه الجرجاني بالنّظم على أنّه فنّ بناء العبارة بحسب مناسبات المعنى فنقول إنّ العدول هو ضربٌ من النّظم، وكلّ منهما يتبنّى مبدأ التّخيّر سواء في الألفاظ أو التّراكيب ثمّ وَضعُ الكلام وَفقَ الأغراض والمقاصد، كما يمكن القول بأنّ العدول هو إحدى المواد التي يدرسها

([1]) . الاتجاه الأسلوبي في النقد العربي، شفيع السيد، دار الفكر العربي، القاهرة، 1986م، ص35.

([2]) . دلائل الإعجاز، ص98. قال هذا بعدما أشار إلى أنّ ألطف الكلام ما كان عمله أدقّ وطريقُه أغمض ووجه المشابكة فيه أغرب.

النّظم، وأنّ ((النّظم يئول في النّهاية إلى نوع من الثّبات والتغيّر، فالثّبات يتّصل بالمعنى الأصلي، أمّا المتغيّر فيتّصل بالدّلالة وتنوّعها من خلال العدول في التّراكيب...))[1]

ولئلا يُخلط مفهومه للتخيّر في باب النّظم بين اختيار الصّواب من الخطأ في القوانين النّحوية وبين التخيّر الموجب للمزية في الفروق الفنّية؛ أراد الجرجاني التفريق بين ما الصّنعة منه في لفظه مما هي منه في نظمه[2]، بأنّ التخيّر المصاحب للمزية ليس على مستوى متون الألفاظ، لأنّ اطراد الصّواب وسلامة الكلام من العيب لن يزيد مبلغه على تقويم اللّسان، والتحرّز من الخطأ في الإعراب، إنّما يتجلّى التخيّر الموجب للمزية ((في أمورٍ تدركُ بالفِكر اللطيفة ودقائقَ يوصل إليها بثَاقب الفهم فليسَ دَرك صواب دركاً فيما نحن فيه حتى يشرف موضعه، ويصعب الوصول إليه وكذلك لا يكون ترك خطأ تركا حتى يحتاج في التحفُّظ منه إلى لطف نظر، وفضل رؤيّةٍ، وقوة ذهن، وشدَّة تيقظ.))[3]

ويبدوا أنّ الجرجاني من خلال تحليلاته للنصوص أنّه يكشف عن فهم أعمق وأبعد من أن يقيّد مفهومه لتخيّر معاني النّحو في الوظائف النّحوية، فالنّظم الذي غايته أن يحقّق صورة نحوية صحيحة بمعنى أنه يعتمد على اختيار مفردات معجمية صالحة للدخول في علاقات نحوية تشتغل وظائف مناسبة، ثمّ نتاج ما يسمّى بالدّلالة النّحوية، فهذا وإن اعتمد على مادة مختارة فإنّه يبقى في دائرة النّظم النّحوي أو"مستوى الصّحة النّحوية" المفْرَغ من مادته الإبداعية، وهو ليس من جنس الافتنان في الصّنعة، أمّا النّظم المتربّع على ركن التّخير الموجب للمزية عند الجرجاني هو النّظم البلاغي الذي تتلاقح في تكوينه الدّلالة النحوية مع المعنى الوظيفي "الإسناد" والمعنى التركيبي الذي يربط الإسناد مع الوظائف الأخرى، والذي يعني الخروج المقدّر من اجتماع الوظائف المشتركة إلى أداء الوظيفة الخاصّة وتخيّر الدّلائل النّحوية الأكثر دقّة للأعراض الأكثر ملائمة، فهذا من أدقّ مسائل النّظم الذي تتفاضل فيه الصنائع، وذلك لأنّ مداخل إدراكه الحسّ والذّوق، لا قوانين النّحو واللغة، يقول ابن أبي حديد: ((اعلم أنّ معرفة الفصيح والأفصح، والرّشيق والأرشق من الكلام أمرٌ لا يُدرك إلا بالذّوق ولا يمكن إقامة الدّليل عليه.))[4]

([1]) . النّحو بين عبد القاهر الجرجاني وتشومسكي، محمد عبد المطلب، مجلّة فصول، العدد1، 1984م، ص35.

([2]) . من العلماء مَن يرى أنّ الجرجاني قصر مفهومه للنظم على المستوى الفني للغة (على مستوى الحسن والقبح)، وهناك من يعتقد أنّ النّظم يكون فنيا بلاغيا تارة، ونمطيا مجرّدا (على مستوى الصحّة والخطأ) تارة أخرى، ينظر: المعنى في البلاغة العربية ص164-165.

([3]) . دلائل الإعجاز، ص98.

([4]) . الإتقان في علوم القرآن، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1394هـ- 1974م، ج4، ص214.

كذلك يدخل عنصر الاختيار في حروف المعاني، وما يقع فيها من فروق وما تُشعره من أغراض ليعدّ ذلك من ضمن المواد التي يدرسها النّظم عند الجرجاني، خصوصا حين تعدل عن أصول معانيها لتحقّق أغراض بلاغية، وتوحي بمؤشرات أسلوبية، أما حين تشغل معاني نحوية مطلقة فلا ترقى إلى أن تكون مادة يدرسها النظم البلاغي، فالأداة ((لا تحتل موقعها الخاصّ في الأسلوب الفنّي من أجل معناها الوظيفي فحسب، بل بالدرجة الأولى من أجل خصوصيتها في أداء هذا المعنى، وما يترتّب على تلك الخصوصية من مزية في الغرض أو المعنى الدّلالي.))[1]

فنجد من الفروق الدقيقة في الدّلالة بين أدوات النّفي مثلا ما يجعلنا نتساءل عن كل سياق نريد فيه توظيف إحدى هذه الحروف: هل الأنسب استعمال "ما" أو "لا" أو "لم" أو "لن" أو "لما" وهكذا.

يقول عبد القاهر مبيّنا هذا المعنى ((... فاعلم أنَّ الفروق والوجوه كثيرةٌ ليس لها غايةٌ تقف عندها ونهايةٌ لا تجد لها ازدياداً بعدها، ثم اعلمْ أن ليستِ المزيّة بواجبة لها في أنْفُسِها ومن حيثُ هي على الإِطلاق ولكن تُعرضُ بسبب المعاني والأغراض التي يُوضَعُ لها الكلام ثم بحسبِ موقع بعضِها من بعضٍ واستعمال بعضِها معَ بعض.))[2]

ويعدّ أبرز نص أظهر فيه مفهوم العدول في استعمال الألفاظ والأساليب هو قوله: ((واعلم أنه إذا كان بيّناً في الشيء أنه لا يحتمل إلاّ الوجه الذي هو عليه حتّى لا يُشكلَ وحتى لا يُحتاج في العلم بأنَّ ذلك حقّه وأنه الصَّواب إلى فكر ورويّة فلا مزيَّة. وإنما تكون المزية ويجب الفضل إذا احتَمَل في ظاهِر الحالِ غير الوجه الذي جاءَ عليه وجهاً آخرَ ثمَّ رأيتَ النفسَ تَنبو عن ذلكَ الوجهِ الآخرِ ورأيتَ للذي جاء عليه حُسْنا وقبولاً يعدمهُما إذا أنت تركتَه إلى الثاني.))[3]

وهو إشارة منه إلى العدول في القول وما يحدثه من مزية في النّظم، لأنّ مزية العدول عن شيء إلى آخر لا تتمّ إلا بوجود وجه آخر يلابِس ويشارك الوجه الذي جاء عليه الأوّل، ووصف الثاني بالملابِس يستدعي وجود وجهين- منظوم ومحتمل- لا يُفصل في وحييهما، ولا يجب الفضل لأولاهما؛ إلا بعد مراجعة النّفس وإذكاء الحسّ، وهذا سبيل كل من تشابهت طرق الدلالة عليه، ولا

([1]) . المعنى في البلاغة العربية، حسن طبل، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 1418هـ- 1998م، ص172.

([2]) . دلائل الإعجاز، ص87.

([3]) . المصدر نفسه، ص286.

تتكشّف هذه الملابسة الظّاهرية إلا حين يخضع التركيب لحتمية الافتراض، على طريق المقارنة للوصول إلى أجود التعبيرين، وهذه النظرية للعدول أسماها الجرجاني بالاحتمال في ظاهر الحال.

وقد أوجب الجرجاني في الهمزة إذا كانت للتقرير أن يليها الشيء الذي تقرّر المخاطب به، كما أوجب فيها إذا كانت للاستفهام المحض أن يليها الشيء المستفهم عنه، فقال: «واعلم أنَّ هذا الذي ذكرتُ لك في الهمزة وهي للاستفهام قائمٌ فيها إذا كانتْ هيَ للتقرير، فإذا قلتَ "أأنت فعلتَ ذاك" كان غرضُك أن تقرِّرَه بأنه الفاعل، يبينُ ذلك قولهُ تعالى حكايةً عن قولِ نمرود: ﴿ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾ [الأنبياء: 62] لا شُبْهَةَ في أنَّهم لم يقولوا ذلك له عليه السلام وهم يريدون أن يُقِرَّ لهم بأنَّ كسرَ الأصنام قد كانَ، ولكن أن يُقِرَّ بأنَّه منه كان. وقد أشاروا له إلى الفِعل في قولهم: ﴿ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا ﴾ وقال هو عليه السّلام في الجواب: ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾. ولو كان التقريرُ بالفعلِ لكان الجوابُ: "فعلتُ" أو "لم أفعَل". »[1]

وفي مثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأعراف: 33] يواصل الجرجاني تأصيله لفكرة إثبات الفرق بين الأدوات المتقاربة، فيسرد كلام أبي علي في آراء بعض النّحويين في التسوية بين "إنما" و"ما وإلا" في باب القصر، على أنّ معنى الآية: ما حرّم ربي إلا الفواحش، وكذا عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: 173]، يكون المعنى: ما حرّم عليكم إلا الميتة، ثمّ يعلّق الجرجاني بأنّ معنى التسوية بين العبارتين التي درجت عندهم ليس المراد منها المطابقة في المعنى على الإطلاق، أو إسقاط الفرق بينها، فيقول: « اعلم أنّهم وإن كانوا قد قالوا هذا الذي كَتبْتُه لك فإنَّهم لم يَعْنُوا بذلك أن المعنى في هذا هو المعنى في ذلك بعينه وأنَّ سبيلهما سبيلُ اللفظين يوضعان لمعنًى واحد. وفرقٌ بين أن يكونَ في الشيءِ معنَى الشيءِ وبينَ أن يكونَ الشيء الشيء على الإطلاق، يُبيِّنُ لك أنَّهما لا يكونان سواء، أنه ليس كلُّ كلام يصلحُ فيه "ما وإلا" يصلحُ فيه "إنما"، ألا ترى أنها لا تصلحُ في مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: 62] ولا في نحو قولنا: ما أحدٌ إلاَّ وهو يقولُ ذاك، إذ لو قلتَ : إنَّما من إلهٍ اللّه، وإنَّما أحد وهو يقول ذاك، قلت: ما لا يكون له معنًى »[2]

([1]) . المصدر السابق، ص113.

([2]) . دلائل الإعجاز، ص329.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ومما ذكر من الفروق بين العبارتين أنَّ موضوع "إنما" تجيء لخبرٍ لا يجهله المخاطَب ولا يدفع صحَّته، أو لِما ينزَّل هذه المنزلة، فنحو ما لا يجهله المخاطب؛ قولك: إنّما هو أخوك، وإنما هُوَ صاحبك القديمُ، لا تقوله لمن يجهل ذلك ويدفع صحته ولكن لمن يعلَمُه ويُقرُّ به، ومثال ما نزّل هذه المنزلة « قولهُ تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [إبراهيم: 10]. إنما جَاء – واللهُ أعلمُ – بإنْ وإلاّ دون إنَّما فلم يقل: إنما أنتم بشرٌ مثلُنا لأنهم جعلوا الرسلَ كأنهم بادِّعائهم النبوَّةَ قد أَخرجوا أنفسَهم عن أن يكونوا بشراً مثلهم وادَّعوا أمراً لا يجوز أن يكون لمن هو بشرٌ، ولما كان الأمر كذلك أُخرج اللّفظ مخرجَه حيث يراد إثبات أمر يدفعه المخاطَب ويدَّعي خلافَه ثم جاء الجوابُ منَ الرسُل الذي هو قولُه تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [إبراهيم: 11].كذلك بإنْ وإلاّ دون إنَّما لأنَّ من حُكْم مَن ادَّعى عليه خصمه الخلافَ في أَمْرٍ هو لا يخالِفُ فيه أن يعيد كلام الخصمِ على وجههِ ويجيء به على هيئتِه ويحكيهِ كما هو. فإذا قلتَ للرجلِ: أنتَ من شأنك كيت وكيت. قال: نَعَمْ أنا مِنْ شأني كَيْت وكيت ولكن لا ضَيْرَ عَلَيَّ ولا يلزمُني من أجل ذلك ما ظَننتَ أنه يلزمُ. فالرسلُ صلواتُ الله عليهم كأنهم قالوا: إنَّ ما قلتُم من أنّا بشرٌ مثلُكم كما قلتم: لسنا ننكِرُ ذلك ولا نجهلهُ ولكن ذلك لا يمنعُنَا من أن يكونَ اللهُ تعالى قَدْ منَّ علينا وأكرمَنا بالرسالة. »[1]

وغيرها من الأمثلة التي أوردها في هذه المسألة التي تؤكد مراعاة النّمط النّحوي للجملة على نفسية المخاطب، ومعالجتها وفق سياقات يقتضيها موقف الكلام، هذا وإن كان الجرجاني يركّز على الفروق البنيوية بين المسند والمسند إليه نفيا وإثباتا، بمعنى أنّ كل تحوّل تركيبي يفضي حتما إلى تغيّر في المعنى فإنّ هذا التحليل اللّغوي أصاب منه موطن العدول في الحروف المتشابهة في النّفي، والسرّ البلاغي وراء تأكد استعمالها في أساليب وعدولها في أخرى.

لذلك لما أورد الجرجاني تحليل قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [إبراهيم: 11] وعدول الآية عن تركيبها بأداة إنّما؛ أعقبها بتوجيه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: 110] التي جاءت فيها أداة إنّما، فيعلّل قوله تعالى بأنّه: « ابتداء كلام قد أُمر النبيُّ بأن يُبلِّغه إيّاهم ويقوله معهم وليس هو جواباً لكلام سابق قد قِيل فيه: إن أنت إلاَّ بشرٌ

([1]) . المصدر نفسه، ص333.

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مثلُنا فيجب أن يؤتَى به على وفق ذلك الكلام ويُراعى فيه حذوُه، كما كان ذلك في الآية الأولى.))[1]

ونواصل مع الجرجاني لنزداد بصيرة في باب العدول والفروق بين منازل الحروف والأدوات، وذلك عند كلامه في جواز العطف بلا، في قولك: إنما هو قائمٌ لا قاعد، وعدم جوازه في مثل قولك: ما زيدٌ إلا قائمٌ لا قاعد، وذلك ليس لخاصية ترجع إلى "لا" العاطفة نفسها، وإنما ذلك لخصوصية في مقام أسلوب النّفي بما وإلا، المقتضية لاختصاص زيد بالقيام في المقام المذكور ونفيه عمن عداه، بحيث يحقّق هذا التركيب نفي الفعل عن كلّ ما سوى الفاعل، وبالتالي فلا يصحّ بعدها أن تعقبها بلا العاطفة فتنفيَ بها عن شيء كنتَ قد بدأتَ فنفيته، لأنّ معناها أن تنفي بها ما بدأت فأوجبته كقولك: إنّما هذا لك لا لغيرك، لا لِأَنْ تفيدَ بها النّفيَ في شيءٍ قد نفيتَه[2]، بمعنى أنّ هذه الصيغة توجب بملفوظها إعمال النّفي، ووقوعه **لفظا** على كلّ ما سوى الفاعل.

إذ ليس المعنى الذي ترمي إليه عبارة: ما زيدٌ إلاّ قائم أنّه ليس له مع القيامِ صفةٌ أخرى، كأن يكون أبيضا أو أسود أو طويلا أو قصيرا، وغيرها، بل المعنى: أنْ ليس له بدلَ القيام صفةٌ ليستْ بالقيام وأنْ ليس القيامُ منفيا عنه وكائناً مكانَه فيه القعود أو الاضطجاع أو نحوُهما [3]، وأيضا من منظور وظيفي فإنّ هذه الأداة لا تستعمل إلا لخبر ينكره المخاطب ويشكّ فيه، فإذا قلت ما هو إلا مصيبٌ فإنّك لا تقوله إلا لمن يدفع صحّة ذلك، ويجتهد في إنكار كونه مصيبا، فكأنّ هذا الأسلوب المسمى عند البلاغيين بالحصر؛ أُشرب معنى النّفي في صيغته الأصلية فلا يُتشوّف بعده إلى تخصيصٍ آخر.

أمّا الأداة إنّما فإنها تفيد في الكلام بعدها كما أورد الجرجاني إيجاب الفعل لشيء ونفيه عن غيره[4]، فإذا قلت: "إنّما جاءني زيد" كان المعنى أنّك أردت أن تنفي أن يكون المجيء الذي قلت إنّه كان من زيد كان من غيره، لا أن تنفي أن يكون قد جاء مع زيد غيره، وبيانه أن يكون قد بلغ المخاطب أن قد جاءك جاءٍ، ولكنّه ظنّ أنّه عَمرو مثلا فأعلمته أنّه زيد، فترفع بذلك الشّبهة في أنّ ذلك الجائي هو زيد لا غيره.

([1]) . دلائل الإعجاز، ص256.

([2]) . ينظر: دلائل الإعجاز، ص347.

([3]) . المصدر نفسه، ص346.

([4]) . دلائل الإعجاز، ص348.

وبذلك يكون الكلام معها شبيها بمعنى قولك: جاءني زيد لا عمرو، فكأنّ "لا" العاطفة جاءت نافية بعد سياق إثبات وإيجاب وهي موضوعة لمثل هذا، فإن قيل: إنّ قولك: إنّما جاءني؛ نفياً أيضا فهذا يجيب عنه الجرجاني بأنّ ذلك غير مسلّم به على حقيقته « وذلك أن ليس معك إلا قولك: جاءني زيد وهو كلامٌ كما تراهُ مثْبَتٌ ليس فيه نفيٌ البتَّة، كما كانَ في قولِك: ما جاءني إلاّ زيدٌ. وإنما فيه أَنَّك وضعتَ يدَك على زيدٍ فجعلتَه الجائي. وذلك وإن أوجب انتفاء المجيء عن غيرِهِ فليس يوجِبُه من أجلِ أنْ كان ذلك إعمالَ نفيٍ في شيءٍ. وإنما أوجَبَه من حيثُ كان المجيءُ الذي أخبرتَ به مجيئاً مخصوصاً إذا كان لزيدٍ لم يكنْ لغيره. والذي أَبيناهُ أن تنفيَ بلا العاطفة عن شيءٍ وقد نفيتَه عنه لفظاً. »(1)

وإنْ كانت هاتين الصّورتين تكادان تتقاربان في المعنى إلا أنّ خصوصية استعمال كلّ صورة منهما تعكس فرقا لطيفا بينهما، ينمّ عن دقة اللغة في محاكاتها المعاني تبعا للمقاصد والغايات.

وهذه وجوه معانٍ لا يعيَها إلا من كانت له ملكة نحوية بالغة، وحسّا لغويا يدرك به الفروق الدقيقة بين التراكيب المتشابهة، وذوقا راقيا يفكّ به ما بين الأساليب المتخفّية، ولا يتأتّى ذلك إلا بدراية معاني النّحو، وما تسبغه من لطائفَ تتحجّب حتى كأنّها تتراءى للدّارس خطئا وهي إلى الصّواب أقرب، وعلى المقصد أنحى، يقول الجرجاني: « واعلم أنَّ من شأن الوجوه والفروق أن لا يزال يحدث بسببها وعلى حسب الأغراض والمعاني التي تقع فيها؛ دقائقُ وخفايا لا إلى حدٍّ ونهاية وأنَّها خفايا تكتم أنفسَها جَهدَها حتى لا يُنتبه لأكثرها ولا يُعلم أنها هي، وحتّى لا تَزال ترى العالم يعرضُ له السَّهو فيه، وحتى إنّه ليقصد إلى الصَّواب فيقُع أثناء كلامه ما يُوهم الخطأ، وكلُّ ذلك لشدَّة الخفاء، وفرط الغموض. »(2)

ويمكن استخلاص مادة العدول في فكر الجرجاني مِن درس النّظم الذي أمكن تصوّره في الفروق وسرّ اختلاف الأوجه، وما جاء من كلامه عن حروف المعاني وإن لم يكن كثيرا في عَدِّه فإنّه كان كثيرا في عدّته، إذ رسم مَعلم العدول في الحروف من خلال إبراز التّحوّلات الطارئة على التركيب النّحوي لتُشكّل وجوها بلاغية مُتوخّاة تتناسب مع حالات الخطاب وأحوال المخاطبين، وكذا من خلال إيضاح أن لا مزية في التركيب إلا حين يخضع لنظرية الاحتمال في ظاهر الحال، وهي نظرية شكّلت منحى العدول في مفهوم الجرجاني.

---

(1) . المصدر نفسه، ص348.

(2) . المصدر نفسه، ص285.

المطلب الثالث: العدول في حروف المعاني عند الزمخشري:

استوعب الزمخشري أفكار عبد القاهر الجرجاني في قضية النّظم وحاول امتثالها في تفسيره "الكشاف"، وقد كان لأدوات الربط وحروف المعاني فيه وقفات متأمّلة، ممعنا في سياقاتها، وكاشفا عن معانيها، مثيرا للفروق بين دلالاتها ومبينا على ضوء هذه المفارقات لطائف الاختيار، ونكت الاختلاف، وللزمخشري نظرات صائبة ولمسات بلاغية رفيعة في حروف المعاني، فحاول بيان ملامحها الفنية بيان الناقد المتذوّق، وفيما يأتي نستعرض صورا من اهتمامه بقضية العدول في حروف المعاني.

وفاتحة هذا ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾ [البلد: 3] وفيه يحاول الزمخشري الكشف عن الدلالة الأدبية المستوحاة من عدول التعبير القرآني عن استعمال"مَن" إلى "ما" حين يتحدّث عن العقلاء، يقول: ((فإن قلت: هلا قيل: ومَن ولد؟ قلت "ما" في قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ﴾ [آل عمران: 36] أي: بأيّ شيء وضعت، يعني موضوعاً عجيب الشّأن.))[1]

وكذا الأمر عند قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾ [الشّمس: 5-7] فعن حكمة مجيء "ما" بدل "مَن" يقول: ((والوجه أن تكون موصولة وإنما أوثرت على "مَن" لإرادة معنى الوصفية، كأنّه قيل: والسّماء، والقادر العظيم الذي بناها، ونفس والحكيم الباهر الحكمة الذي سواها، وفي كلامهم: سبحان ما سخّركن لنا.))[2]

وقد أسمى ابن عاشور هذا الإجراء عدولا حين تتوخى النكتة ويصاب المقصد، لأنّ إرادة التنكير باستعمال "ما" مرادة في هذا السّياق بخلاف "مَن" التي لا تستعمل نكرة تامة، يقول ابن عاشور: ((فعدل عن "مَن" لأنّ "ما" أشدُّ إبهاما، فأريد تفخيم أصحاب هذه الصّلة؛ فجيء لهم بالموصول الشّديد الإبهام لإرادة التفخيم.))[3]

أمّا عن أحرف النّداء فلم يدرِسْها الزمخشري على طريقة النّحوي الذي رسم جداولها الوظيفية وثبّت دلالاتها المعجمية؛ بقدر ما أجراها على ذوق البلاغي الموشّح بأطياف الدّراسة الفنية الأدبية فحلّل أساليب النّداء في رحاب خصوصياته القرآنية.

([1]) . الكشاف، ج4، ص758.

([2]) . المصدر نفسه، ج4، ص762-763.

([3]) . التحرير والتنوير، ج30، ص349.

ومن هذا يذكر الزمخشري في ضوء نظرية العدول؛ طبيعة النّداء في قوله تعالى: ﴿ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٠ ﴾ [يس: 30] حيث جاءت الحسرة وهي معنى قلبي في مقام الشّخص المنادى، ولا شكّ أنّ هذا عدول عن المعنى الأصلي للنّداء وهو في هذا الموضع أفاد وجود سر بلاغي يتلائم وطبيعة الخطاب وسياق الآية فكأنما ((قيل لها تعالي يا حسرة فهذه من أحوالك التي حقّك أن تحضري فيها وهي حال استهزائهم بالرّسل. والمعنى أنهم أحقاء بأن يَتحسّر عليهم المتحسّرون، ويتلهّف على حالهم المتلهّفون، أو هم مُتحسَّر عليهم من جهة الملائكة والمؤمنين من الثقلين. ويجوز أن يكون من الله تعالى على سبيل الاستعارة في معنى تعظيم ما جنوه على أنفسهم ومحنوها به، وفرط إنكاره له وتعجيبه منه))[1]

وعدّ السّيوطي هذا الأسلوب من وضع النداء موضع التعجّب، فكأنّ المعنى: يالها من حسرة وأورد كلام ابن خالويه بأنّ هذه من أصعب مسألة في القرآن، لأنّ الحسرة لا تنادى وإنما ينادى الأشخاص، لأنّ فائدته التنبيه، لكن المعنى على التعجّب. [2]

وللنّداء الوارد في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ ﴾ [سبأ: 10] نصيب في مجرى أسلوب العدول عند الزمخشري، إذ يحلّله تحليل المتذوّق الحاذق، وذلك عندما لاحظ أنّ الأصل في استعمال النّداء أن يكون لما يعقل، فيكون إجراء النّداء على الجماد عدولا عن الأصل، وما طواه هذا العدول من صور الدّلائل، وحِكَم الإبلاغ.

حيث يرى الزمخشري أنّ نداء الجماد في قوله "يا جبالُ" مظهر من مظاهر استعلاء الربوبية، وسمة من سمات الانقياد والإذعان، يقول في هذه الآية: ((فإن قلت: أي فرق بين هذا النّظم وبين أن يقال: "وَءاتَيْنَا دَاوُودُ مِنَّا فَضْلاً" تأويب الجبال معه والطير؟ قلت: كم بينهما. ألا ترى إلى ما فيه من الفخامة التي لا تخفى من الدّلالة على عزّة الربوبية وكبرياء الألوهية، حيث جعلت الجبال منزّلة منزلة العقلاء الذي إذا أمرهم أطاعوا وأذعنوا وإذا دعاهم سمعوا وأجابوا إشعاراً بأنه ما من حيوان وجماد وناطق وصامت، إلا وهو منقاد لمشيئته غير ممتنع على إرادته.))[3]

([1]) . الكشاف، ج4، ص16.

([2]) . ينظر: معترك الأقران في إعجاز القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1408هـ ـ 1988م، ص196.

([3]) . الكشاف، ج3، ص581.

ولهذا يعمد القرآن إلى هذا الأسلوب وله عنه مندوحة، ليبثّ في النّفوس هيبة الربوبية، ويطبع فيها الشّعور بعزّتها وكبريائها. [1]

وقد أبدع الزّمخشري حين عالج حروف العطف بسياسته اللّغوية الفريدة، ولأنّ بلاغته أباحت له ألا يتوقّف على ما يقوله النّحاة في معاني الحروف فأجتهد في توليد دلائل سياقية للحروف تعكس عمق رؤيته وشموليتها.

فعند قوله ﷻ: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الأنعام: 1-2]

ذهب الزمخشري إلى أنّ "ثم" الواردة في الآية قد تأتي لمعنى أسماه: الاستبعاد، والمعنى استبعاد أن يعدلوا به بعد وضوح آيات قدرته، ويأتي هذا المعنى عند ما يكون بعد ثمّ أمر مستبعد الوقوع بالنسبة لما قبلها « وكذلك ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ استبعاد لأنّ يمتروا فيه بعدما ثبت أنهث محييهم، ومميتهم وباعثهم. »[2]

وقد تردّد عنده هذا المعنى في مواضع أخرى، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ﴾ [السّجدة: 22] والمعنى « أنّ الإعراض عن مثل آيات الله في وضوحها وإنارتها وإرشادها إلى سواء السبيل والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها؛ مستبعَدٌ في العقد والعدل،كما تقول لصاحبك: وجدت مثل تلك الفرصة ثم لم تنتهزها؛ استبعاداً لتركه الانتهاز. »[3]

ويرى ابن عطية أنّ "ثم" الواردة في آية الأنعام للتوبيخ فهي دالّة على قبح فعل الذين كفروا، فإنّ خلقه للسموات والأرض وغيرهما قد تقرّر، وآياته قد سطعت، وإنعامه بذلك قد تبين، ثم مع هذا كله يعدلون به غيره. [4]

([1]) . ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، محمد أبو موسى، دار الفكر العربي، القاهرة، دط، ص314.

([2]) . الكشاف، ج2، ص6.

([3]) . نفسه، ج3، ص522.

([4]) . ينظر: المحرر الوجيز، ت: عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422هـ، ج2، ص266.

أمّا أبو حيان[1] فقد خالف نظرة الزمخشري وابن عطية معتبرا ما قالاه من أنها للتوبيخ والاستبعاد ليس بصحيح؛ لأنها لم توضع لذلك، والاستبعاد والتوبيخ مستفاد من السّياق لا من "ثم"، ولم أعلم أحدا من النّحويين ذكر ذلك، بل "ثمّ" هنا للمهلة في الزمان.

والذي يبدوا أنّ الخلاف لم يقع في تحقّق مفهوم العدول، بل وقع في الوسيلة التي تم بها هذا العدول هل هي معنوية أو لفظية؟ أي هل هي السياق أو الحرف؟ فأبو حيان مع إقراره بأنّ الحرف "ثم" لم يخرج عن أصل وضعه "التراخي" فقد أقر أنّ هناك معان مستتبعة إضافية جاءت مع تركيب هذا الحرف كالقبح والتوبيخ والاستبعاد، ولا جرم أنّ هذه المعاني تُفقد إذا جاء النّظم بغير حرف التراخي، كالواو أو الفاء، فمن هنا نفهم أنّ الحرف الذي دلّ على أصل وضعه وأفاد معان لا تستفاد من تركيب وضعه يمكن عدّه في جملة الحروف التي تَشَكَّل فيها مفهوم "العدول" سواء أكان هذا العدول مستوحى باعتبار السّياق أو باعتبار أصل الوضع.

فإذا كان النّحوي يعتني بمعاني الحروف باعتبار أصالتها، فإنّ البلاغي يهتم بالغرض المستوحى من معنى الحرف، والذي أدى إلى اختلاف النظرة بينهما هو عدم الالتزام في التعبير بمصطلح المعنى والغرض[2] لأنّ حجة أبي حيان هي أنّ "ثم" لم توضع أصالة لمعنى الاستبعاد، وليس ردا لغرضها في السّياق، بمعنى أنه لو قال الزمخشري إنّ "ثمّ" معناها التراخي والمهلة وغرضها الاستبعاد، لا يُنكر النّحوي هذا، لأنّ البلاغي اجتهد وأبدع في حدود فنّه.

ومن ملامح عناية الزمخشري بظاهرة العدول ما جاء في كلامه عن خروج الاستفهام عن أصل وضعه إلى معان أخرى تفهم من حال الكلام، ومن هذه المواضع ما جاء في قوله سبحانه: ﴿ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة: 91] يقول الزمخشري: «وفي هذا الاستفهام استقصار وتعيير بالمعاندة وقلّة الإنصاف، لأنّ المنصف إذا تجلّت له الحجّة لم يتوقّف إذعانه للحق، وللمعاندة بعد تجلّي الحجّة ما يضرب أسداداً بينه وبين الإذعان.»[3]

ولا ريب في أنّ إخراج الكلام بما يفيد هذه المعاني أبلغ في الصرف والانتهاء من مجيء التعبير بطريق النهي المباشر، لذلك نجد الزمخشري في مثل هذه الأساليب يعزز بالأمثلة زيادة في بيانها «

(1) . ينظر: البحر المحيط، ج4، ص430.

(2) . الكشاف، ج1، ص161-162.

(3) . الكشاف، ج1، ص375.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وهذا كقولك لمن لخّصت له المسألة ولم تبق من طرق البيان والكشف طريقا إلا سلكته هل فهمتها لا أم لك.))[1]

كما يرى الزمخشري أنّ التقرير قد يصحبه معنى التوبيخ والتعجيب، إذ يقول في قوله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: 44] يقول: ((﴿ أَتَأْمُرُونَ ﴾ الهمزة للتقرير مع التوبيخ والتعجيب من حالهم... ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ توبيخ عظيم بمعنى: أفلا تفطنون لقبح ما أقدمتم عليه حتى يصدكم استقباحه عن ارتكابه؟ وكأنّكم في ذلك مسلوبو العقول، لأنّ العقول تأباه وتدفعه.))[2]

وعند الاستفهام الوارد في قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الحجر: 54].

فقد أشار بعض المفسرين[3] إلى أنّ معنى الآية أنّ إبراهيم عليه السّلام قد عجب بالبشرى التي جاء بها الملائكة، وهذه البشرى تمثّلت في أنّ الله تعالى سيرزقه بإسحاق على كبر فيه وامرأته فعجب إبراهيم عليه السلام من هذه البشرى، على سبيل الاستبعاد لما جرت به العادة، ومع إشارتهم إلى هذا لم يفصّلوا في عدول معنى الاستفهام إلى معنى التعجّب الصّريح.

أمّا الزّمخشري فقد صرّح في هذه الآية بعدول الاستفهام إلى معنى التعجّب، حين ذكر أنّ "ما" الواردة هنا استفهامية دخلها معنى التعجّب، يقول: ((كأنّه قال: فبأيّ أعجوبة تبشرونني أو أراد أنكم تبشرونني بما هو غير مقصور في العادة فبأي شيء تبشرون يعني لا تبشرونني في الحقيقة بشيء لأنّ البشارة بمثل هذا بشارة بغير شيء.))[4]

ومن المؤشّرات الدّالة على عظم هذا التعجّب الذي صدر من نفس إبراهيم عليه السلام، هو تميّز النّظم القرآني إذ حذف المفعول به من "تبشّرونَ" وبقيت النون مفتوحة، وهذا في قراءة الجمهور، لما في ذلك من زيادة في التعجّب.

([1]). نفسه، ج1، ص375.

([2]). نفسه، ج1، ص161-162.

([3]). ينظر: البحر المحيط، ج5، ص447. مفاتيح الغيب، الرازي، دار إحياء التراث، بيروت، ط3، 1420هـ ج19، ص151.

([4]). الكشاف، ج2، ص543.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وإذا تكلّمنا على حروف الجرّ وتقلّباتها في السّياق القرآني نجد الزمخشري يوليها اهتماما بالغا بتوخّي الفروق الدقيقة بينها، واستكناه وجه الحكمة في عدولها، لكن قد يستدرك على بعض تحليلاته اللّغوية في ربط بعض المفاهيم بحروف الجرّ، ومن ذلك تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠﴾ [التوبة: 60].

حيث استعمل القرآن حرف اللام في الأربعة الأوائل ثم عدل في الأصناف الأخيرة إلى حرف الجر "في"، وفي هذا يقول الزمخشري محللا: ((فإن قلتَ: لِمَ عدل عن اللام إلى "في" في الأربعة الأخيرة؟ قلتُ: للإيذان بأنّهم أرسخ في استحقاق التصدّق عليهم ممن سبق ذكره، لأنّ "في" للوعاء، فنبّه على أنّهم أحقّاء بأنّ توضع فيهم الصدقات ويجعلوا مظنّة لها ومصباً، وذلك لما في فكّ الرقاب من الكتابة أو الرّق أو الأسر، وفي فك الغارمين من الغرم من التخليص والإنقاذ ولجمع الغازي الفقير أو المنقطع في الحجّ بين الفقر والعبادة، وكذلك ابن السّبيل جامع بين الفقر والغربة عن الأهل والمال، وتكرير "في" في قوله: ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [التوبة: 60]، فيه فضل ترجيح لهذين على الرّقاب والغارمين.))[1]

وعلى خطى الزمخشري في نكتة العدول؛ قول أبي السّعود: ((فالعدول عن اللام لِعدم ذكرهم بعنوان مصحّح للمالِكية والاختصاص كالذين من قبلهم، أو للإيذان بعدم قرار مُلكهم فيما أُعطوا كما في الوجهين الأولين...))[2]

وما نلحظه من تحليل الزمخشري هو أنّه أعطى لحرف الجرّ "في" معنى الاستحقاق ثم وصفه بالراسخ، لكن بالرجوع إلى أصل استعمال هذا الحرف لا نجد أثرا لمعنى الاستحقاق فيه، ولم يذكر النّحاة نيابة الاستحقاق عن الوعاء، بل هو للوعاء وما اتّسع منه فهذا أصله، ومع ذلك فالزمخشري استلهم هذا المعنى لما كان قرار ووضع المال في الوعاء والمصبّ. فمن كان أحقّ بالمال كان جديرا بأن يوضع فيه.

([1]) . المصدر نفسه، ج2، ص270.

([2]) . تفسير أبي السعود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ج4، ص76.

فالزّمخشري في تخريجه لهذا العدول لم يراع المقتضى اللّغوي من المفردات الواردة في الآية، ولم يراعِ المعنى السّياقي، ولا دِلالة حرفيَ الجرّ، ولا شكّ أنّ الأصل في لام الجرّ أن تكون للمِلك فيما يَقْبله أو للاستحقاق[1]، فيكون المستحقّ الأوّل أجدر من الثّاني بالدّلالة اللّغوية والسّياقية، أمّا "في" فهناك من جعلها للسّببية وليست للوعاء[2]، أي: هي لأجلهم حتى ينكشف ما بهم، وليست لهم مطلقاً كالأوائل وبفرض أنها كانت للوعاء فهي تكشف عن أنّهم محلّ أو ظرف للصّدقات لمصالح تتعلّق بهم ولا تتقوّى باستحقاقها على اللام لا لغةً ولا سياقاً.

ومع هذا يبقى الزمخشري من المجتهدين البارعين في مراس اللّغة والبيان، وإدراك بعض مواضع الجمال الفني في لغة القرآن الكريم، ومنها قضية العدول والمخالفة في استعمال حروف المعاني بإثارتها وتحليلها بالتصوير والتمثيل حينا وبالتذوّق حينا آخر.

وبعد تطرّقنا في هذا العرض المبسّط للفصل النّظري الذي تناول مدخلا حول مفهوم العدول ومعنى الأسلوبية، ثم إبراز معالم الحروف في اللّغة العربية، ثم بيان مسألة العدول في الحروف عند النحاة والبلاغيين؛ يتسنى لنا أن نشرع في الجانب التطبيقي من خلال رصد الملامح الأسلوبية لعدول حروف المعاني في القرآن الكريم.

---

(1) . ينظر: الكليات، ص1248، والجنى الداني في حروف المعاني، 96.

(2) . ينظر: معجم حروف المعاني في القرآن الكريم، محمد حسن الشريف، ج2، ص763.

الفصل الثانـــي:

العدول في حروف الجرّ والعطـف

ويندرج تحته مبحثان:

المبحث الأول: العدول في حروف الجـرّ

المبحث الثاني: العدول في حروف العطـف

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول: العدول في حروف الجر[1]:

❖ **العدول بالمخالفة:**

الصورة الأولى: العدول من "في" إلى"على":

الموضع الأول: قال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [هود: 40]، وقال أيضا: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [غافر: 80].

جاء قوله تعالى في أمر نوح عليه السلام بالحمل في السفينة لمن آمن معه: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا﴾ فاستعمل حرف الظرفية مع الحمل، أمّا قوله تعالى في وصف منافع الأنعام: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [غافر: 80] فقد جاء النظم بحرف الاستعلاء، وهلا قيل: "وفي الفلك"، كما قال: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا﴾.

ردّ الزمخشري هذا العدول إلى استواء الحرفين في الدّلالة على المعنى بقوله إنّ ((معنى الإيعاء، ومعنى الاستعلاء: كلاهما مستقيم، لأنّ الفلك وعاء لمن يكون فيها حمولةً له يستعليها، فلمّا صحّ المعنيان صحّت العبارتان.))[2]

وكلام الزمخشري لا يعدم الصحة، ولا يحوي النكتة، لأنّ طبيعة الاستعمال اللغوي يفرض ما ذهب إليه من كون في للظرفية وعلى للاستعلاء لكن ما طبيعة دلالة كل من الظرفية والاستعلاء في أسلوبهما الخاص، ولماذا عدل النظم القرآني إلى أحدهما دون الآخر في مواضع دون أخرى، ومعلوم أنّ التعدية بالحروف المتعددة لا بدّ أن يصحبه دقائق معان تستفاد من التركيب والسّياق.

أما العلوي فقد التمس في هذا العدول توكيدا يضفيه حرف "في" وذلك مما استوحاه من حرف الوعاء، ومع هذا لم يخرج مضمون الكلام عن رؤية الزمخشري، يقول: ((إنما أعرض عن ذكر حرف الاستعلاء وهو "على" وعدل عنه إلى حرف الوعاء وهو "في" مع أنّ الظاهر هو العلو على الأرض والفلك، إعلاما بأنّ حرف الوعاء أقعد وأمكن ههنا من حرف الاستعلاء؛ لأن "على" تشعر

([1]) . قد تناولت بالدراسة هذا المبحث في رسالة الماجستير المسماة: "عدول حروف المعاني الجارة في السياق القرآني وأثره البلاغي – دراسة نظرية تطبيقية–" بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، وسأحاول أن اقتضب في هذا المبحث، متحاشيا تكرار المواضع المذكورة في الرسالة.

([2]) . الكشاف، ج4، ص186، وينظر: البحر المحيط، ج9، ص276.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بالاستعلاء لا غير من غير تمكن واستقرار، و "في" تشعر ههنا بالاستقرار والتمكّن، ومن حقّ ما يكون مستقرّا فيه متمكّنا أن يكون مستعليا له، فلمّا كانت تؤذن بالمعنيين جميعا آثرها وعدل إليها وأعرض عن "على" دلالة على المبالغة التي ذكرناها، وإنما ساوى في ذكر "على" بين قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الملك: 22] لاستوائهما جميعا في الدّلالة على المبالغة؛ لأنّ كلّ من كان منهمكا في الغيّ منغمسا في غمرات الباطل، فهو في التمثيل بمنزلة من ركب وجهه، وجعله مطية له يمتطيها إلى الوقوف عليه وإحرازه له ومن كان على الحقّ فهو في التمثيل بمنزلة من هو على طريق مستقيمة لا تعوّج به منتصب القامة لا ينحني في صعود ولا هبوط، فلمّا كان في كلتا حالتيه لا ينفكّ عن الركوب والاستعلاء إما لوجهه أو للطريق المستقيمة سوّى بينهما في حرف الاستعلاء.))[1]

ويرى السّمين الحلبي أنّ فيما بدا له ((أنَّ "في" هناك أليقُ؛ لأنَّ سفينةَ نوحٍ عليه السّلام على ما يقالُ كانَتْ مُطبقةً عليهم، وهي محيطةٌ بهم كالوعاءِ. وأمَّا غيرها فالاستعلاء فيه واضحٌ؛ لأنَّ الناس على ظهرِها.))[2]

أما ابن عاشور فيرى أنّ "على" دلّت على الاستعلاء المجازي وهو التمكّن كقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ ﴾ [المؤمنون: 28]، وإلا فإنّ استقراره في السفينة كائنٌ في جوفها، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ ﴾ [الحاقة: 11]، وكذا قوله: ﴿ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ [هود: 40].

وقيل بأنّ ((استعماله كلمة "في" ليس لأجل أنّ المأمور به كونهم في جوفها لا فوقها... بل لرعاية جانب المحلية والمكانية في الفلك، والسرّ فيه أنّ معنى الركوب: العلوّ على شيء له حركة إرادية كالحيوان أو قسرية كالسّفينة، ففي الأول: ركبت الفرس، ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1) . الطراز لأسرار البلاغة، العلوي، ج2، ص32.

(2) . الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، السمين الحلبي، ج9، ص501.

﴿ لِتَرۡكَبُوهَا ﴾ [النحل: 8]، وفي الثاني: يلوح بمحلية المفعول بكلمة "في" ﴿ رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ ﴾ [العنكبوت: 65] و﴿ رَكِبَا ٱلسَّفِينَةِ فِي خَرَقَهَا ﴾ [الكهف: 71] .»[1]

وبالنظرة المتأنية للأساليب القرآنية الواردة في ذكر الحمل مع حرف الظرفية؛ فإننا نجد فيها إيحاءً لطيفا يلحّ السياق إليه وتحضّ عليه أحوال المخاطبين، ومن هذه المواضع قوله تعالى:

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ﴾ [الأعراف: 64] ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ﴾ [يونس: 73] ﴿ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ ﴾ [هود: 40] ﴿ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ١١٩ ﴾ [الشعراء: 119] ﴿ وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ٤١ ﴾ [يس: 41] ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ١١ ﴾ [الحاقة: 11].

والسّياق في كلّ هذه الآيات جاء في امتنان الله تعالى على عباده بتنجيتهم من خطر الطوفان والأمواج المتلاطمة، فبدّل الله فيها خوفهم أمنا، وأحاطهم بعنايته ورحمته، فصوّر العدول إلى الظرفية استقرارهم في الفلك وأمنهم فيها، وكأنها قد تحوّلت إلى مساكن على أرض يابسة تحميهم من كلّ موج يحيط بهم، سيول تنهمر من فوقهم، لهذا كان الأدلّ على بيان هذه المنّة أن يعبّر بما يدلّ على تمكنهم واستقرارهم فيما سخّره الله عز وجلّ لهم.

وأمّا ما جاء في العدول إلى حرف الاستعلاء، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٢١ وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ٢٢ ﴾ [المؤمنون: 21-22]، وكذا قوله: ﴿ وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبۡلُغُواْ عَلَيۡهَا حَاجَةٗ فِي صُدُورِكُمۡ وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ٨٠ ﴾ [غافر: 80].

فقد جاء النّظم في الحمل على الفلك إثر ذكر الحمل على ظهور الأنعام، وهذا ما زاده تناسبا وتوافقا لأنّ الغرض في الموضعين هو التذكير بنعمة الله تعالى في خلق الأنعام، وما أودعه فيها من منافع للإنسان سقيا من بطونها، وطعما من لحومها وحملا على ظهورها، والغالب في الحمل أنْ يعدّى بـ"على"، لأنّ المحمول يستعلي ظهر الحامل، فإذا ما أريد الدّلالة على أنّ الحامل صار كالوعاء

[1]. التضمين النحوي في القرآن، محمد نديم فاضل، ج1، ص373.

للمحمول لغرض يطلبه النّظم ويستدعيه المقام جيء بـ"في"، أمّا الغرض في هذا المقام هو بيان نعمة الله تعالى في اعتلاء ظهورها، والتنقّل بها وحمل أثقالهم، كقوله تعالى: ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِ﴾ [النحل: 7]، فلما لم يكن الغرض لحماية وتنجية أو مُكنة وقرار، جاء حرف الاستعلاء أدلّ على المقصد، وأنسب للحال. [1]

ومما جاء في العدول عن حرف "على" إلى حرف الظرفية في مادة الحمل؛ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ [الإسراء: 70].

حيث عدل التعبير القرآني في قوله:﴿وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ﴾ عن الحرف الذي يقتضيه الظاهر وهو "على" لأنّ المحمول عادة يستعلي الحامل، ويتعيّن هذا العدول لما يكون السبب الحامل لبني آدم هو البرّ والبَحر، فكيف يكون ظرفا له باعتبار الظّاهر؟ وقد قال تعالى في موضع آخر: ﴿وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡ﴾ [الأنعام: 32]وقال: ﴿إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ﴾ [الأعراف: 176] فقيل في توجيهه أنّ حملهم « في البرّ على الأنعام، وفي البحر على السّفن. »[2]

قال ابن عاشور: « وأما الحمل في البحر فهو الحصول في داخل السفينة، وإطلاق الحمل على ذلك الحصول استعارة من الحمل على الرّاحلة، وشاعت حتى صارت كالحقيقة، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ١١﴾ [الحاقة: 11]، ومعنى حمل الله الناس في البحر: إلهامه إياهم استعمال السّفن والقلوع والمجاذيف[3]، فجعل تيسير ذلك كالحمل. »[4]

وقيل إنّ سبب هذا العدول هو الإعلام بأنّ حرف الوعاء أقعد وأمكن ها هنا من حرف الاستعلاء، لأنّ "على" تشعر بالاستعلاء لا غير، أي: من غير تمكّن واستقرار، أما "في" فتشعر

([1]) . ينظر: من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، محمد الأمين الخضري، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1414هـ، ص60-62.

([2]) . أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، 1415هـ-1995م، ج3، ص175.

([3]) . المجاذيف جمع مجذاف السفينة وهو ما يدفع بها، ينظر: تاج العروس، ج23، ص77.

([4]) . التحرير والتنوير، ج15، ص165.

بالاستقرار والتمكّن، ومن حقّ ما يكون مستقرا فيه؛ متمكّنا أن يكون مستعليا. فلمّا كانت "في" تؤذن بالمعنيين آثرها، وعدل إليها وأعرض عن "على" دلالة على النّكتة التي ذكرناها. (1)

وهذا كلّه يبيّن روائع النّظم القرآني، ودلائله الأسلوبية الباهرة في وضع كلّ من حرفي الظرفية والاستعلاء الموضع الدقيق المبرز لإعجاز القرآن الخالد وبلاغته الساحرة.

الموضع الثاني: قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء: 37].

وقال أيضا: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان: 63].

فقد جاء النّظم الحكيم في الآية الأولى معبّرا عن النهي عن مشي المرح بحرف الظرفية في قوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ ثم خالف استعماله في الآية الأخرى إلى حرف الاستعلاء حين وصف مشي عباد الرحمن بقوله: ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ ولم يقل: "يمشون في الأرض" كأسلوب آية الإسراء، فهل هذا العدول مجرّد تطرية لنشاط السامع أو يحمل معه معاني بلاغية أخرى؟

يعلّل لنا الزركشي سر هذا العدول بأنه سبحانه: « قال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ وقال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ﴾، وما قال: "على الأرض" وذلك لما وصف العباد بين أنهم لم يوطِّنوا أنفسهم في الدنيا وإنما هم عليها مستوفِزُون. ولما أرشده ونهاه عن فعل التّبختر قال: لا تمش فيها مرحا، بل امش عليها هونا. »(2)، وصفة المشي مرحا: أن يكون في المشي شدة وطء على الأرض وتطاول في بدن الماشي. (3)

وعلى هذا جاءت "في" حاكية لنا في هذا السياق حالة نفسية تتوافق وموقف المختال « حيث المخاطب مغرور منتفخ الأوداج يضرب الأرض بقدميه احتيالا وكبرا، لذا لم يكتف القرآن بنهيه عن

---

(1). ينظر: من أسرار التعبير في القرآن، عبد الفتاح لاشين-حروف القرآن- ص99-100، نقلا عن: من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، ص64.

(2). البرهان في علوم القرآن، ج4، ص176.

(3). ينظر: التحرير والتنوير، ج15، ص103.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المشي اختيالا وتكبرا ومعلوم أنّ المشي المعتاد لا يكون على غير الأرض، فعدّى المشي إليها بـ"في" إشعارا بشدّة ضربه في الأرض ومبالغته في وطئها، شأن من يظنّ أنّه قادر على خرقها وذلك يجسّد لك إلى أيّ حدّ بلغ اغتراره بقوّته، وتمكّنه من دنياه...وكيف دلّ حرف الاستعلاء على تواضع المؤمنين وإقلاعهم عن الدّنيا وزهدهم فيها وكيف يمشون برفق على هذه الأرض حتى لا تكاد تلمسها أقدامهم وكأنهم يمشون بين قوم نيام يخشون إيقاضهم. »[1]

وما يعزّز معنى الشدة الذي أفاد به حرف الظرفية في هذا السّياق هو إردافها بقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ﴾ فكأنّ الواطئ المرح المتبختر في شدّة تطاوله وغيّه كمن يشعر بأنّ الأرض ذليلة أمامه تكاد أن تتفطر له، ولما كان المختال موصوفا بالمبالغة في المشي مع الإحساس بالترفّع؛ قصد القرآن إلى هذا الأسلوب التهكمي بأنّك أيها الطاغي لن تخرق أديم الأرض بمشيك، ولن تبلغ علوّ الجبال بأنفتك وإحساسك.

فجاءت في كلّ هذه المعاني "في" ترسم ملامح الخيلاء في مشي بغيض، فلما عدل الماشي عن فطرته وطينته الضّعيفة؛ عدل التعبير عن حرف الاستعلاء اللائق بمقام الأنقياء الأتقياء، لذلك جاء في وصف مشية عباد الرحمن بالحرف الأصيل لهذا الغرض، فالتحلّي « بهذا الخلق؛ مظهر من مظاهر التخلق بالرحمة المناسب لعباد الرحمان لأنّ الرحمة ضدّ الشدة، فالهون يناسب ماهيتها، وفيه سلامة من صدم المارين. »[2]

([1]) . من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، ص128.

([2]) . التحرير والتنوير، ج19، ص68.

الصورة الثانية: العدول من"الباء" إلى"على":

الموضع الأوّل: قال تعالى: ﴿ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴾ [هود: 37]

وقال أيضا: ﴿ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴾ [طه: 39].

عدل التعبير القرآني في استعمال فعل "صنع" بين حرفي الإلصاق والاستعلاء، حيث ورد في سورة هود قوله تعالى: ﴿ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا ﴾ الفعل معدى بالباء، وعدل عنه في سورة طه إلى حرف "على" في قوله تعالى: ﴿ وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴾ فما الفرق بين الموضعين في هذا التحوّل؟

ما نلحظه من استعمال حرف الإلصاق في الآية الأولى الواردة في سياق عون الله تعالى لصنع نوح عليه السلام السّفينة، فتكون عبارة عن الإدراك والرعاية والحفظ، فمعنى بأعيننا، أي: بمرأى منا وكلاءة وحفظ فلا تزيغ صنعته عن الصواب فيها، ولا يحول بين العمل وبينه أحد.[1]

وفي هذا العدول ما يوحي بقرب الله تعالى من عبده، فكأنّ رعايته وحفظه سبحانه متلبّسة بعباده وفي نفس هذا المجرى البلاغي والنكتة المقاصدية؛ يجيء قوله تعالى: ﴿ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ١٣ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ١٤ ﴾ [القمر: 13-14].

فقد ذهب جمع من المفسّرين[2] إلى أنّ الباء في قوله: "تجري بأعيننا" أبلغ في الدّلالة على الحفظ والرّعاية الربانية.

أمّا ما جاء عند قوله تعالى: ﴿ إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ٣٨ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ٣٩ ﴾ [طه: 38-39] فإنّ الأسلوب وطبيعة الخطاب قد تباين عن الأوّل، إذ أنّ السّياق قد جاء مشحونا بالتحدي وكمال القدرة " حيث قضت حكمته تعالى أن يُربّى موسى على يد عدوّ يتربّص به، ويقتل من أجله جيلا من الأطفال ولم يشأ سبحانه أن ينشأ موسى في الخفاء بعيدا عن

(1). ينظر: المحرر الوجيز، ج3، ص169، والبحر المحيط، ج6، ص149.
(2). ينظر: مفاتيح الغيب، ج29، ص298، وأنوار التنزيل، ج5، ص165.

فرعون إمعانا في التّحدي وإذلالا لفرعون بتسخيره لما أراده العلي القدير وحسب من يدّعي الألوهية أن يربي بيده من يكون على يديه ذهاب ملكه وليس غير "على" يصلح لهذا الموضع.))[1]

وهذا ما باح به السهيلي فيما نقله عنه ابن القيم وذلك في سؤاله عن المعنى الذي لأجله قال تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ بحرف "على" وقال تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ و ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ بحرف الباء، ثم يجيبنا بأنّ ((الفرق أنّ الآية الأولى وردت في إظهار أمر كان خفيا وإبداء ما كان مكتوما فإنّ الأطفال إذ ذاك كانوا يغذون ويصنعون سرّا، فلمّا أراد أن يصنع موسى عليه السلام ويغذّى، ويربّى على حال أمن وظهور لا تحت خوف واستسرار دخلت "على" في اللّفظ تنبيها على المعنى لأنها تعطي الاستعلاء، والاستعلاء ظهورٌ وإبداء، فكأنّه يقول سبحانه وتعالى ولتصنع على أمن لا تحت خوف، وذكر العين لتضمّنها معنى الرعاية والكلاءة، وأما قوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾، ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾فإنه إنما يريد برعاية منّا وحفظ، ولا يريد إبداء شيء ولا إظهاره بعد كتم، فلم يحتج في الكلام إلى معنى "على".))[2]

وألطف معاني الآية والفرق بينهما يظهر من الاختصاص الذي خصّ به موسى في قوله تعالى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: 41]، فاقتضى هذا الاختصاص اختصاصا آخر في قوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ فإنّ هذه إضافة تخصيص وتشريف، وأما قوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ فليس فيه من الاختصاص ما في صنع موسى على عينه سبحانه وتعالى واصطناعه إياه لنفسه. [3]

وهذه الأسرار والنّكات لا تُعرب عنها الأوضاع اللّغوية للحروف؛ وإنما يصنعها السّياق، ويوحي بها الخطاب على مقتضى الأحوال، ثم ينظمها ويسلكها الأسلوب نظما عجيبا فتشاكل دواله مدلولاته، وتعانق ألفاظه معانيه، وهذا ما اتضح لنا من حرف الاستعلاء الذي استطاع أن يرمز إلى إعلان ظهور الفعل، وإبرازه للعناية به أكثر ثم اختصاصه بالتشريف والتكريم، وكلّ هذه اللّطائف لا تجد مكانا إذا ما جاء التعبير في هذا السّياق بغير هذا الحرف.

([1]) . من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، ص178.

([2]) . بدائع الفوائد، ج2، ص 5-6.

([3]) . ينظر: بدائع الفوائد، ج2، ص 6.

ومن عجائب لغة القرآن أيضا في العدول بين حرفي "الباء"و"على" ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ ﴾ [هود: 38]، فجاء الفعل "مرّ" معدّى بـ"على" ولم يقل: "مرّ به ملأ"، أمّا في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [المطففين: 29-30]، فقد عدل النّظم مع الفعل نفسه عن حرف الاستعلاء معبّرا بحرف الإلصاق، في قوله: "مَرُّوا بهم"، فهل نُخضع هذا العدول لنظرية التقدير والتجوّز القاصرة عن تذوق البيان؟ أم كلّ حرف حقيقٌ بموضعه، أصيل في مقامه؟

فحين نتذوّق المعاني ونغوص فيها يوحى إلينا أنّ حرف الاستعلاء الوارد في قوله: ﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ ﴾ قد صوّر لنا نظرة العلوّ بالتكبّر والسّخرية مما يصنع نوح عليه السلام، فكأن الذي يمرّ ساخرا كمن علت به الأرض وترفّعت به نفسه، فهو لا يلقي لما مرّ به؛ بالا ولا يعيره اهتماما، لذلك جاء حرف الاستعلاء في هذا الأسلوب ليجسّد لنا هذا المعنى الأسلوبي الدّقيق، ويحكيه لنا حكاية المعلن المتكتّم، لأنّ هذه اللطائف وإن كتمتها الألفاظ فقد باح بها الأسلوب، وفي هذا نتدبر قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [يوسف: 105].

وأمّا ماجاء في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾ ولم يقل: "مرّوا عليهم" لأنّ موقف المرور اختلف عن الأوّل، وإنك إذا تحسّست روح الباء؛ فإنك تسمع لها ((همسا مؤداه أن هؤلاء المجرمين كانوا يتعمّدون الذهاب إلى المؤمنين والتحرّش بهم وإيذائهم بالحركة والكلمة فهو ليس مرور لعابر وإنما هو مرور فيه تلبّث، واحتكاك، وقرب وملاصقة، ولعلّ قوله: ﴿ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴾ [المطففين:31] يشعرك بأنهم ذهبوا قاصدين إليهم متوقفين عندهم، ولم يكن مرورهم عابرا فرضته الطريق عليهم.))[1]

([1]) . من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، ص184.

الصورة الثالثة: العدول من اللام إلى على:

الموضع الأوّل: قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١ ﴾ [الأنبياء: 101]

وقال أيضا: ﴿ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡ ﴾ [المومنون: 27].

نلحظ من خلال استعمال الفعل "سبق" في الموضعين عدولا ومخالفة بين استعماله باللام في قوله تعالى: ﴿ سَبَقَتۡ لَهُم ﴾ واستعماله بـ"على" في قوله تعالى: ﴿ سَبَقَ عَلَيۡهِ ﴾ مايستدعي تتبّعا وتفحصا لغرض الموضعين واختلاف السياقين لمعرفة سر هذا العدول، ونكتة هذا التنوّع الأسلوبي.

قال الطبري: « وأما الحُسنى فإنها الفُعلى من الحسن، وإنما عني بها السّعادة السّابقة من الله لهم. »(1)

يقول الزمخشري: « جيء بعلى مع سبق الضارّ ، كما جيء باللام مع سبق النافع. »(2)

ومن الشّواهد المقررة لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ١٧٣ ﴾ [الصّافات: 171- 173]، ولم يقل: " سبقت كلمتنا على عبادنا".

فالله تبارك وتعالى قضى في أمّ الكتاب أن يكون لهم النّصرة والغلبة بالحجج، فاللام هنا أوحت بالهبة الربانية التي منحها لهم تعالى بفضله، واختصهم لها بحكمته، ولا يمكن في هذا الأسلوب أن يقوم مقامه حرف الاستعلاء؛ الموهم إيحاءً قد لا يتناسب مع مرامي الآية ومقاصدها، فعند قولنا: سبقت عليهم؛ قد تشير إلى معنى: "حقّت عليهم" مع أنّ لفظة "حقّت" وحقّ لم ترِد مع اللام، بل جاءت وحرف الاستعلاء للدّلالة على أسبقية كلمة العذاب على الكفار والمعاندين، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ [الأعراف: 30]، وقوله: ﴿ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [الزمر: 71].

---

(1) . جامع البيان، ج18، ص540-541.

(2) . الكشاف، ج3، ص186.

يقول الطبري: « وكان بعض أهل العربية يتأوّل ذلك: ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين بالسعادة. وذُكر أنّ ذلك في قراءة عبد الله:"ولقد سبقت كلمتنا على عبادنا المرسلين" فجعلت "على" مكان اللام، فكأنّ المعنى: حقّت عليهم ولهم، كما قيل: على مُلك سليمان، وفي مُلك سليمان، إذ كان معنى ذلك واحدا. »(1)

أمّا النحاس فإنه يصرّح بأنه لا يَعرف في العربية "لهم" بمعنى: "عليهم" (2) مما يدلّ على الحرف الذي جاء به ظاهر القرآن، وقد استعمله النّظم ليفيد دلالة لا ينوب عنه في أدائها غيره، كما أنّه يوصل إلى هدف لا يضطلع بحمله إلا هو، ولا شكّ أن هذا من دقائق لغة القرآن العظيم، وسرٌّ من أسرار بيانه السّاحر.

ولنتأمل أيضا سرّ اصطفاء حرف اللام دون على، وحكمة عدول النّظم إليها في قوله عزّ وجلّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾ [المؤمنون: 61]، حيث آثر التعبير القرآني اللام في سياق المسابقة للخيرات، فعن ابن عباس رضي الله عنهما في معنى: " وهم لها سابقون" سبقت لهم من الله السّعادة، فلذلك سارعوا في الخيرات. (3) ولو قيل عليها أو إليها سابقون لن نجد إشارة إلى هذا الاختصاص الممدوح، ودلائل المنّة الإلاهية التي يسّرت لهم سبيل الرّشد والفلاح.

---

(1) . جامع البيان، ج21، ص131.

(2) . ينظر: مغني اللبيب، ابن هشام، ص280.

(3) . الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج12، ص 133.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الصورة الرابعة: العدول من اللام إلى "إلى":

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [هود: 23]

وقال سبحانه: ﴿ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡ ﴾ [الحج: 54].

عدل النّظم الحكيم عن حرف "إلى" مع الفعل "أخبت" في قوله تعالى: ﴿ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ ﴾ إلى حرف الجرّ "اللام" مع الفعل نفسه في قوله سبحانه: ﴿ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡ ﴾ فما الأثر البلاغي وراء هذا العدول؟

يقول الراغب في تعريف الخبت بأنه: ((المطمئنّ من الأرض، وأخْبَتَ الرجل: قَصَد الخَبْت، أو نزله، نحو: أسهل وأنجد، ثم استعمل الإخبات استعمال اللّين والتواضع، قال الله تعالى: ﴿ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ ﴾ [هود: 23].))[1]

ويوضّح ابن منظور وجه معنى الخبت المستوحي من الحرفين بقوله: (("وأخبت إلى ربّه" أي: اطمأنّ إليه. وروي عن مجاهد في قوله: وبشر المخبتين؛ قال: المطمئنين، وقيل: هم المتواضعون وكذلك قال في قوله: ﴿ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ ﴾ أي تواضعوا؛ وقال الفراء[2]: أي: تخشعوا لربهم قال: والعرب تجعل إلى في موضع اللام، وفيه خبتة أي: تواضع. وأخبت لله: خشع، وأخبت: تواضع، وكلاهما من الخبت، وفي التنزيل العزيز: ﴿ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡ ﴾.))[3]

ومن مذهب آخر يعتقد بعض الباحثين إلى أنّ سرّ العدول بين الحرفين هو تضمين الفعلين المذكورين فعلين آخرين فيرى بأنّ ((أخبت إلى: تضمن معنى اطمأنّ، فالحرف "إلى" مع امتداد الصوت وتفريغ النَّفَس وراحة الصّدْر يفيد اطمئنان القلب وسكون الأعضاء، وهذا المعنى يتفق مع

(1) . المفردات في غريب القرآن، ص272.

(2) . ينظر: معاني القرآن، ج2، ص9.

(3) . لسان العرب، ج2، ص27-28.

سياق الآية: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ ﴾ أما "أخبت له": فقد تضمّن معنى خضع، والخضوع فيه كسر النّفس، والحرف "لِـ" مع الكسرة الخاطفة والصّوت المنقطع ونفثة الصّدر السّريعة، يفيد خضوع الجارحة الموقوت، وخشوعها المنفعل بإثارة تزول بزوال المؤثر، فقد يتوب العبد إلى ربّه ثمّ يعود إلى ما كان عليه مرّة ومرّة ومرّة.))[1]

لكن من خلال السّياق الوارد فيه كلّ من الحرفين نستشفّ أنه جاء مناسبا لخاصّ معنى الحرف الموظف، وليس من باب تناوب الحرفين في المعنى، ((فآية هود جاءت بعد وعيد الله تعالى للصادّين عن سبيل الله، الذين يبغونها عوجا ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ١٩ ﴾ [هود: 19]، فلمّا نعى القرآن على هؤلاء الصادين جاء في مقابلتهم بامتداح المؤمنين الذين استقامت وجهتهم إلى الله تعالى، فلم يستطع الصادون عن سبيل الله أن يحوّلوهم عن وجهتهم واستواء قصدهم إلى ربهم أو يحولوا بينهم وبين الوصول إليه، والإيواء إلى كنفه، وذلك ما يعبّر عنه حرف انتهاء الغاية.

أمّا آية الحج فقد جاءت إثر الحديث عن الفتنة التي يلقي بها الشيطان في نفوس الضّعفاء ﴿ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡ ﴾ [الحج: 53]، وفي مقابل مرض القلوب فريق آخر من الذين أوتوا العلم يرى ما أنزل الله هو الحقّ فتخشع له قلوبهم وتخضع لأمره، وتنقاد لحكمته ﴿ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡ ﴾، واللام دالّة فيه على إسلام قلوبهم لربهم واختصاصه بالخضوع له.))[2]

([1]) . التضمين النحوي في القرآن، ج1، ص78-79.

([2]) . من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، ص272.

الصورة الخامسة: العدول من اللام إلى "مع":

قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنبياء: 79]

وقال أيضا: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [ص: 36].

من خلال الآيتين فقد عدل النّظم بالفعل "سخر" عن تعديته بـ"مع" في كلام ربّ العزة عن داوود عليه السّلام بقوله: ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ ﴾ إلى تعديته باللام حين كان الكلام في حقّ سليمان عليه السّلام وذلك عند قوله تعالى في سورة ص: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ ﴾ ولم يقل: "سخّرنا مع سليمان الرّيح"، فما المغزى البلاغي من هذا العدول؟

قال الرازي: ((فإن قيل: قال في داود: ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ ﴾ وقال في حقّ سليمان: ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ ﴾ [الأنبياء: 81]، فذكره في حقّ داود عليه السلام بكلمة "مع" وفي حقّ سليمان عليه السلام باللام، وراعى هذا الترتيب أيضا في قوله: ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾ [سبأ: 10] وقال: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ ﴾ [ص: 36] فما الفائدة في تخصيص داود عليه السّلام بلفظ "مع"، وسليمان باللام؟ قلنا: يحتمل أنّ الجبل لما اشتغل بالتسبيح حصل له نوع شرف، فما أضيف إليه بلام التمليك، أمّا الريح فلم يصدر عنه إلا ما يجري مجرى الخدمة، فلا جرم أضيف إلى سليمان بلام التمليك، وهذا إقناعي.))[1]

([1]) . مفاتيح الغيب، ج22، ص169.

❖ **العدول بالاختيار:**

الصورة الأولى: **العدول من "اللام" إلى "على":**

الموضع الأوّل: قال سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: 45]

موضع العدول في هذه الآية هو قوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ولم يقل: أذلّة للمؤمنين، فجاءت الذلّة متعدية بحرف الاستعلاء، وإنما يقال ذلّ له لا عليه [1]، وقد خرّج كثير من المفسّرين[2] هذا العدول على مذهب التضمين في الفعل، فضمنوا أذلّة معنى مشفقين حانين، ومنهم من وجهها على المشاكلة بمعنى حمل النقيض على النقيض، فحملت "على" الأولى على الثانية للتناسب. [3]

وقد كان للزمخشري وقفة عند هذا العدول متسائلا عن سبب عدم قوله: أذلّة للمؤمنين ثم يجيب عن ذلك بوجهين: ((أحدهما أنْ يضمّن الذلّ معنى الحنو والعطف، كأنّه قيل: عاطفين عليهم على وجه التذلّل والتواضع.

والثاني: أنهم مع شرفهم وعلوّ طبقتهم وفضلهم على المؤمنين خافضون لهم أجنحتهم.))[4]

لكن الأمر الذي يحتاج إلى إيضاح هو أنّ معنى الحنوّ والعطف هل هو مبيّنٌ من هذه التعدية على أساس التضمين في الفعل، أو هو معنى اللّفظ ومدلوله من غير تضمين، على أنه تفسير لمعنى السّياق؟

ولاشكّ أنّ داعي القول بالتضمين هو استشكال وجه العدول إلى حرف "على" دون اللام، وليس الخلاف في المراد بإطلاق لفظ الذّل في هذا الموضع، إذ لا يشكّ في أنّ معناه "متذلّلين من قبل

---

(1) . ينظر: البرهان، ج3، ص341.

(2) . ينظر: الكشاف، ج1، ص681، ومفاتيح الغيب، ج12، ص381، والبحر المحيط، ج4، ص298، والتحرير والتنوير، ج6 ص237.

(3) . ينظر: التحرير والتنوير، ج6، ص237.

(4) . الكشاف، ج1، ص681.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أنفسهم غير متكبّرين"[1]، وهذا بقرينة لفظة "المؤمنين"، يقول الألوسي: ((يعني أنّ كونهم أذلّة ليس لأجل كونهم أذلاء في أنفسهم، بل لإرادة أن يضُمُّوا إلى علوّ منصبهم وشرفهم فضيلة التواضع.))[2]

وبيان المسألة يدعونا إلى معرفة مدلول "الذلّ" في اللّغة، فجلّ المفسرين أتبعوا الزمخشري في قوله إنّ أذلّة: ((جمع ذليل، وأما ذلول فجمعه ذُلُل. ومن زعم أنّه من الذُلّ الذي هو نقيض الصّعوبة، فقد غبي عنه أنّ ذلولا لا يجمع على أذلّة.))[3]

لكنّ ابن منظور[4] أثبت هذا الجمع، حين قال بأنّ الذُّل والذِّل ضدّ الصعوبة، ذلّ يذلّ ذُلّا وذِلا فهو ذلول، يكون في الإنسان والدّابة؛ وأنشد قول ثعلب:

وَمَا يَكُ مِنْ عُسْري ويُسْري، فإِنَّني ... ذَلولٌ بحاجِ المُعْتَفِينَ، أَرِيبُ.

وعلّق ذلولا بالباء، لأنّه في معنى: رفيق ورؤوف، والجمع ذلُل وأذلّة.

كما ذكر أنّ الذُّل والذِّل يدلّ بوضعه على الرِّفق والرّحمة، وفي التنزيل العزيز: ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ ﴾ [الإسراء: 24].

وعليه فإنّ معنى الذلّ في الآية يدور حول لين الجانب، وتوطئة الكنف، وهو شدّة الرّحمة والسعي للنّفع، ليس معناه أنهم أذلاء مهانون.

أما عن تفسير الحرف فلا تمحّل في تخريجه، ولكن لما كان ذلّهم هذا إنما هو الرّفق ولِين الجانب لا الهوان، كان في الحقيقة عزّاً لهم، ورفعة لشأنهم فلذلك أشار إليه بحرف الاستعلاء[5]، ولا لبس في حرف الاستعلاء، بل هو أصيل في مقامه دقيق في معناه؛ وهو أنّ جانبهم ليّن على المؤمنين شديدٌ على الكافرين.

ومفاد ما سبق هو أنّك تقول: ذلّ له، وذلّ عليه، كما تقول: عكف للشيء وعكف عليه، سلام لك، وسلام عليك، كلّ بحسب المعنى السّياق، لكن المعنى يختلف فيه الأول عن الثاني، فالذلّ في قولك: ذل له: ذلّ إذلال خضوع واستكانة وتدني يصحب معه معنى الصّغار والتبعية، أمّا في ذلّ

([1]) . المحرر الوجيز، ج2، ص208.

([2]) . روح المعاني، ج3، ص331.

([3]) . الكشاف، ج1، ص681.

([4]) . ينظر: لسان العرب، ج11، ص257.

([5]) . ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج6، ص191.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

عليه: فهو تليّن من تلقاء نفسه، صاحبا معه معنى التواضع وخفض الجناح، وفي هذا بيان الفرق ووضوحه.

فإنّه تعالى عدل إلى حرف "على" حتى يدلّ على علوّ منصبهم، وفضلهم، وشرفهم، فيفيد أنّ كونهم أذلّة ليس لأجل كونهم ذليلين في أنفسهم، بل ذاك التذلّل إنما كان لأجل أنهم أرادوا أن يضمّوا إلى علوّ منصبهم فضيلة التواضع. (1)

الموضع الثاني:

قال تعالى: ﴿ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَا ﴾ [يونس: 108]، [الإسراء: 15]، [الزمر: 41]

وقال في موضع آخر: ﴿ قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِي ﴾ [سبأ: 50].

عدل النّظم عن التعبير باللام إلى حرف الاستعلاء في قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَا ﴾، ولم يقل: "يضلّ لها" كقوله في جانب الهداية: "مَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ"، فهل يكون هذا من باب تناوب الحروف أو العدول إلى الاستعلاء في هذا المقام أنسب وأحكم؟

ذهب أبو عبيدة إلى أنّ "على" الواردة في الآية لا مقام لها في الأصل مع الفعل "ضَلّ"، وعليه فإنّ تأويله ومجازه: « يضلّ لها، أي لنفسه، وهداه لنفسه. »(2) وما حمله على هذا التخريج هو قناعته بفكرة الحمل على النقيض، أي: أن "ضلّ" يجب أن يكون واصلا باللام، لأنّ ضدّه وهو "هدى" جاء كذلك. (3)

و"الحمل على النقيض" هو وجه تأويلي لحلّ إشكال تعدية بعض الأفعال بحروفٍ مخالفة لاستعمالها اللغوي، فيتعاملون مع هذه المخالفة على أنها أسلوب مألوف « والعرب قد تجري الشيء مجرى نقيضه، كما تجريه مجرى نظيره. »(4)

(1) . مفاتيح الغيب، ج12، ص381.

(2) . مجاز القرآن، ت: محمد فؤاد سازكين، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1381هـ، ج1، ص284.

(3) . ينظر: دور الحرف في أداء معنى الجملة، الصادق خليفة راشد، منشورات جامعة قازيونس، بنغازي، 1996م، ص217.

(4) . الخصائص، ج2، ص389.

ومن شواهدهم في مسألة الحمل على النقيض هو قولـه تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَ ﴾ [الحجرات: 7]، يقول الرضي الاسترابادي: ((والتكريه يتعدّى بإلى حملا على التحبُّب المضمّن معنى الإمالة، كما قيل: بِعتُ منه، حملا على: اشتريتُ منه، ورضيتُ عليه حملا على سخطت.))[1] ولا جامع بين الفعلين سوى أنّ ((كرّهه إليه...نقيض: حبّبه إليه.))[2]

والحقّ أنّ وجه الحمل لا يليق بدقّة التعبير القرآني، ودقّة تصويره للمعاني، لأنّه صرف عن الظاهر وتجميد لوظائف حروف الجرّ التي تسبغ الأسلوب بأطياف المعاني المتلوّنة بتلوّن المساقات والغايات فلا يمكن أن نعتدّ بأنّ مؤدّى "ضلّ لها" هو نفس الإيحاء الذي يتركه "ضلّ عليها"، إذ ليس من كلام البلغاء أن يتخطّى المتكلّم لفظا عادلا بكلامه إلى غيره من دون توخي أيّ غرض، فكيف يكون هذا في كلام ربّ البشر!! لذا يسعى الباحث إلى استخراج نكتة بلاغية في العدول عن "اللام" أو غيرها من الحروف إلى حرف الاستعلاء.

ولهذا نستأنس بما ذكر ابن جني، حيث أشار إلى معنى لطيف في استعمال لفظ "على" في مثل هذه المواضع ((وذلك أنه قد يستعمل في الأفعال الشّاقة المستثقلة على قول من يقول: قد سرنا عشرًا وبقيت علينا ليلتان، وقد حفظت القرآن وبقيت عليّ منه سورتان، وقد صُمنا عشرين من الشهر وبقي علينا عشر... وإنما اطَّردت "على" في الأفعال التي قدّمنا ذكرها، ذلك من حيث كانت "على" في الأصل للاستعلاء. فلمّا كانت هذه الأحوال كُلَفًا ومشاقّ تخفض الإنسان وتضعه وتعلوه وتفرعه حتى يخضع لها ويخنع لما يتسدّاه منها، كان ذلك من مواضع "على"، ألا تراهم يقولون: "هذا لك" "وهذا عليك"، فتستعمل اللام فيما تؤثره، و"على" فيما تكرهه.))[3]

فمعنى قولك "يضلّ على نفسه" هو أنّ عاقبة ضلاله تعود عليه، كقوله تعالى: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡ ﴾ [البقرة: 286]، لما كانت العاقبة سوء جيء بـ"على"، وكقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ﴾ [يونس: 23]، كما يحتمل أنّ الضّلال والبغي هو ظلم للنّفس، ومن ظلم

([1]) . شرح الرضي على الكافية، ج4، ص272.

([2]) . تاج العروس، ج36، ص485.

([3]) . الخصائص، ج2، ص270-271.

نفسه فقد أثقلها به، فكأنّ الضّلال والوِزر حملٌ يعلوه الجاني على ظهره، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [الأنعام: 31].

يقول ابن عطية في معنى قوله تعالى: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة: 286] ((وجاءت العبارة في الحسنات بـ"لها" من حيث هي مما يفرح الإنسان بكسبه، ويسرّ بها فتضاف إلى مِلكه وجاءت في السّيئات بـ"عليها" من حيث هي أوزار وأثقال ومتحمّلات صعبة، وهذا كما تقول: لي مال، وعليَّ دَيْن...))(1)

ومما هو في مجرى هذا التحليل والتوجيه؛ قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾ [الأنعام: 104]، فاستعمل اللام مع الإبصار إشارة إلى النّفع بهيئة المبصر المنتفع ببصره، وإنما يملك الشيء النافع المدَّخر للنوائب، واستعمل "على" في العَمى بهيئة الأعمى الذي لا ينتفع بالهدى والنّور وذلك للضرّ والتبعة، لأنّ الشيء الضارّ ثقيل على صاحبه يكلّفه تعبا وهو كالحامل الموضوع على ظهره، وهذا معروف في الكلام البليغ.(2)

أمّا الحرف الذي عدل إليه النّظم القرآني فهو أنسب معنى، وألطف مغزى من أن ينسب إلى الشّذوذ اللّغوي، أو يشوّه بألوان التأويلات، والحاذق مع عرف القرآن لايشكّ في أنّ ((الموقع لـ"على" دون منازع ولا مكان للام في هذا السّياق، فسياق الآية هو الحديث عن جانب الكسب للإنسان حسُنه وسيّئه، وبتتبّع الآيات القرآنية التي تتحدّث عن هذا الموضوع سنجد أنّ كلّ ما كان موجها للحديث عن جانب الكسب الحسن كان واصلا باللام، وكلّ ما كان موجها إلى المعنى المضاد ــ الكسب السّيء ــ كان مضادا لـ"على" حتى أنّ ما جاء على غير ذلك ردّ إليه، على نحو ما جاء في قوله تعالى: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [الإسراء: 7].))(3)

كما قرّر الرازي هذا المعنى وذلك في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النجم: 39]، فيقول: ((المراد من الآية بيان ثواب الأعمال الصالحة... والظاهر أنه لبيان الخيرات

(1) . المحرر الوجيز، ج1، ص393.
(2) . ينظر: التحرير والتنوير، ج7، ص419.
(3) . دور الحرف في أداء معنى الجملة، ص228.

يدلّ عليه اللام في قوله تعالى: "للإنسان"، فإنّ اللام لعود المنافع و"على" لعود المضارّ، تقول: هذا له، وهذا عليه، ويشهد له ويشهد عليه في المنافع والمضارّ.))[1]

وعليه فإنّ المعنى هو أنّ مَن اختار الهدى واتّبع الحقّ، فما نفع باختياره إلا نفسه، ومن آثر الضّلال فما ضرّ إلا نفسه، فدلّ "اللام" و"على" على معنى النّفع والضرّ. [2]

وفي العدول لمسة أدبية بليغة يستشعرها من تتّبع حكمة الله تعالى البالغة وعدله التامّ في إناطة عاقبة ومآل مكاسب الخيرات وجنايات الشّرور بمن باشرها وسعى في اكتسابها، إذ لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يجني جان إلا على نفسه، فالذّنوب والعصيان تكون عاقبتها كأنها غاشية تتلبّس بمن اجترحها وهو مغضوب عليه، فاضطلع الاستعلاء بتصوير هذا الموقف، أما جزاء الهداية فهي منحة من الله لعبده، يملكه إياها، وهو راض عنه. فلا يليق الاستعلاء في رسم ملامح المنّة.

([1]) . مفاتيح الغيب، ج29، ص276.

([2]) . ينظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي، دار الكلم الطيب، بيروت، ط1، 1419هـ- 1998م، ج2، ص45.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الصورة الثانية: العدول إلى "في":

الموضع الأول: قال تعالى: ﴿ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ ﴾ [إبراهيم: 9].

اختلف أهل اللّغة والتفسير في معنى ردّ الأيدي في الأفواه، لعدم شهرة هذا المسلك العدولي فذهبوا إلى تأويل حرف الظرفية بحرف آخر يتوافق والمعنى العام ويدفع إشكال التعدية.

فذهب الفراء إلى أنّ في بمعنى الباء، يقول: « وقد وجدنا من العرب من يجعل "في" موضع الباء فيقول: أدخلك الله بالجنة يريد: في الجنة، قال: وأنشدني بعضهم:

وأرْغَبُ فِيهَا عَنْ لَقِيطٍ ورَهْطه ... وَلَكِنني عَنْ سِنْبِس لَسْتُ أرغبُ.

فقال: أرغب فيها يعني بنتا له. أي إني أرغب بها عن لقيط. »[1]

وقيل إنّ "في" هنا بمعنى "على" والمعنى: فردوا أيديهم على أفواههم؛ إخفاءً لشدّة الضّحك من كلام الرّسل، وهو تمثيل لحالة الاستهزاء بالرسل[2]. وقيل: أشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وما نطقوا به من قولهم: إنا كفرنا، فهي بمعنى "إلى".[3]

أمّا أبو عبيدة فيرى أنّ « مجازه مجاز الْمَثَل، وموضعه موضع كفّوا عما أمروا بقوله من الحقّ ولم يؤمنوا به ولم يسلموا، ويقال: ردّ يده في فمه، أي أمسك إذا لم يجب. »[4]

ولم يرتض ابن قتيبة[5] والطبري[6] بقول أبي عبيدة، فابن قتيبة لا يَعلم أحدًا قال: ردَّ يدَه في فيه إذا أمسك عن الشّيء! أمّا الطبري فقد علّل ردّه بأنّ الله عزّ ذكره، قد أخبر عنهم أنهم قالوا: ﴿ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ ﴾ [إبراهيم: 9]، فقد أجابوا بالتكذيب.

وقد وافق أبو حيان قول الفراء وأبي عبيدة ودافع عليه، فهو يرى أنّ "في" بمعنى الباء، أي: بأفواههم، والمعنى: كذّبوهم بأفواههم. يقال: جلست في البيت، وبالبيت.[7]

([1]) . معاني القرآن، ج2، ص70.

([2]) . ينظر: التحرير والتنوير، ج13، ص196.

([3]) . ينظر: مغني اللبيب، ابن هشام، ص225، والجنى الداني، المرادي، ص252، والدر المصون، ج7، ص73.

([4]) . مجاز القرآن، ج1، ص336.

([5]) . ينظر: غريب القرآن، ت: أحمد صقر، دار الكتب العلمية، 1398هـ- 1978م، ص230.

([6]) . ينظر: جامع البيان، ج16، ص535.

([7]) . البحر المحيط، ج6، ص413.

والذي أميل إليه أنّ "في" من خلال سياق الآية هي على أصل معناها دون تأويل أو تمحّل لأن عدول النظم إليها وتخيرها من بدائلها المفترضة أمر يحتم وجود خصيصة بيانية مكنتها من الظفر بمكان لها في الملفوظ، ولهذا يرى الرضي أنّ الأولى أن نقول هي بمعناها والمراد التمكّن. (1)

ورأى الزمخشري أنّ المخاطبين عضّوها غيظا وضجرا مما جاءت به الرّسل. (2)

فالعضّ على اليد، وعظ الأنامل، وردّ اليد في الفمّ، وتقليب الكفين، وصكّ الوجه هي أشبه بكنايات بناء على ما يلازمها في العرف من معان نفسية، وأصل نشأتها عن تهيّج القوّة العصبية من جراء غضب، أو تلهّف، أو غيظ. (3)

الموضع الثاني: قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ﴾ [البقرة: 177].

ما نلحظه في هذه الآية وعند قوله تعالى: ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ هو مخالفة التعبير القرآني في توظيف حرف الجرّ "في" لمقتضى ظاهر استعماله فقال: "والصابرين في البأساء" ولم يقل: "على البأساء" مع أنّ معنى الصبر فيه من المشاق ما يجعله يستعلي ويثقل كاهل الإنسان، فهل لإيثار حرف الظرفية مغزى أسلوبي ونكتة متوخاة، أو هو من تناوب الحروف وتقارضها؟

يقول الألوسي: ((وعدي الصّبر على الأوّلين بـ"في"، لأنّه لا يعدّ الإنسان من الممدوحين إذا صبر على شيء من ذلك إلا إذا صار الفقر والمرض كالظرف له، وأمّا إذا أصاباه وقتا ما؛ وصبر، فليس فيه مدح كثير، إذ أكثر النّاس كذلك.))(4)

فالمبالغة ((في الصّبر تقتضي أن يكون الصّابر محاطا بالمصائب، محاصرا بالمحن والشّدائد من كلّ جانب سواء منها ما كان في نفسه أو في ماله أو في أهله، وهو ما يجسّده حرف الظّرفية دالا على

(1) . ينظر: شرح الرضي على الكافية، ج4، ص279.
(2) . الكشاف، ج2، ص509.
(3) . ينظر: التحرير والتنوير، ج19، ص12.
(4) . روح المعاني، ج1، ص445.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أنهم اتّصفوا بالصّبر حين كانت تحيط بهم البأساء والضّراء وتشملهم اشتمال الوعاء للموعى فيه. وهذا مسلك تغياه من تمكّن من لغة هذه الأمّة وفقه أسرارها ، كما قال ربيعة ابن مقروم:

شَهِدتُ طِرَادَهَا فَصَبَرتُ فِيهَا ... إذَا مَا هَلَّلَ النَّكْسُ اليَرَاعُ[1]. »[2]

والمتأمّل في سياق الآية التي جاء فيها الصّبر موصولا بحرف الظرفية يلاحظ أنّ الأية جاءت بعد الحديث عن بيان ضروب البرّ التي ينبغي أن يتّصف بها المتّقون لربهم ولا شكّ أنّ الإتيان بالمأمور إرضاء للمعبود يتطلّب كثيرا من مكابدة المشاقّ ومجاهدة النّفس، « وقد جمعت هذه الخصال جماع الفضائل الفردية والاجتماعية الناشئ عنها صلاح أفراد المجتمع من أصول العقيدة وصالحات الأعمال. »[3]، ولذا جاء تصوير موقف الصّبر وشجاعة الأمّة بما يجمع فصائل الصّبر التي لا يعدوها وهي الشدّة في المال، وشدّة مشاقّ الحوال الطارئة على الإنسان، والشدّة في الحرب، وحتى يجسّد لنا الصّبر كأنّه مستودع تجمع فيه هذه الفضائل، لذا عدل النّظم القرآني عن حرف الاستعلاء وأتى بالحرف "في" دلالة على هذا المعنى اللّطيف الذي جاء متناغما صوتا وتركيبا ودلالة. وتبقى دقائق ألفاظ القرآن فوق عقول العالمين.

ومما يعزّز هذا العدول هو مجيء لفظة "الصابرين" منصوبة مغايرة لمقتضى الظاهر، والنّكتة في ذلك كما يقول ابن عاشور: « أنّ في نصب الصابرين بتقدير أخصّ أو أمدح تنبيها على خصوصية الصابرين، ومزية صفتهم التي هي الصبر. »[4]

([1]) . ينظر: المفضليات، الضبي، ص187، والاخيارين، الأخفش الأصغر، ص574.

([2]) . من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، ص130.

([3]) . التحرير والتنوير، ج2، ص132.

([4]) . المصدر نفسه، ج2، ص133.

الصورة الثالثة: العدول من "إلى" إلى اللام:

الموضع الأول: قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: 9].

مما نستشفّه في هذه الآية أنّ النّظم الحكيم عدل في قوله: ﴿يَهْدِى لِلَّتِى﴾ عن قول: "يهدي إلى التي"، لأنّ معنى الهداية كما قال الرّاغب: هي دَلالةٌ بلُطف، وخُصّ ما كان دَلالةً بـ"هدَيت"، وما كان إعطاءً بـ"أهدَيت" [1]، فهل هذا العدول من باب دخول حروف الجرّ بعضها مكان بعض[2] أم جاوزه إلى أغراض بلاغية يميط لثامها الحال، ومزايا أسلوبية يكشف عنها المقام ؟

نقول ابتداءً أنه لا يمكننا التّسليم بأنّ اللام هنا نائب عن "إلى" لاختلاف دلالتي حرفي الجرّ فـ"إلى" معناها انتهاء الغاية، واللام معناها الاختصاص، ولا بدّ لهذا العدول من سرّ؛ وإن دقّ، لأنّ مسلك لغة القرآن لطيف في التفريق بين الحرفين مع فعل الهداية.

فالمتذوّق للبلاغة القرآنية ينزّه نفسه عن القول بالتسوية في استعمال الحروف، لكنّ النّاظر المتأنّي يقول: « إنّ الفعل المعدّى بالحروف المتعدّدة؛ لا بدّ أن لا يكون له مع كلّ حرف معنى زائد على معنى الحرف الآخر، وهذا بحسب اختلاف معاني الحروف، فإن ظهر اختلاف الحرفين ظهر الفرق نحو: رغبتُ عنه، ورغبتُ فيه، وعدلتُ إليه، وعدلتُ عنه، وملتُ إليه وعنه، وسعيتُ إليه وسعيت به، وإن تفاوت معنى الأدوات عسُر الفرق، نحو قصدتُ إليه، وقصدتُ له، وهدَيْته إلى كذ،ا وهدَيْته لكذا... »[3]

وإذا ابتدأنا التحليل الأسلوبي لهذه الآية فإنّنا سنبدأ من اللام، متتبعين سرّ اصطفائها عن باقي الأحرف المفترضة، فمن الأساليب التي تستعمل فيها هو التركيب الهادف إلى بيان الغاية من الحدث فحين تستعمل اللام مع الهداية فهي لبيان الغاية من الحدث، فسالك السّبيل يريد الوصول إلى غاية وليس الطريق غاية في نفسه، فيؤتى باللام عند هذه الغاية فيقال: "هداه لكذا"، أي: أبْلَغه لها فكانت غاية سلوكه وسيره.

ولذا لم نجد استعمال "هدى" مُعَدًّى باللام في القرآن الكريم مع السّبيل أو الصراط، فلا تجد مثل "هداه لصراط مستقيم" أو "هداه لسبيل مستبين" لأنّ الصّراط ليس هو الغاية؛ بل هو طريق يُوصل

([1]) . ينظر: المفردات في غريب القرآن، ت: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، دمشق بيروت، ط1، 1412هـ، ص538.
([2]) . ينظر: اللامات، أبو القاسم الزجاجي، ت: مازن المبارك، دار الفكر، دمشق، ط2، 1405هـ-1985م، ص143.
([3]) . بدائع الفوائد، ج2، ص20.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إلى الغاية فهو مطلوب لغيره فيقال: هداه إلى الصراط وهداه الصّراط، أمّا في قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّ ﴾ [يونس: 35]، وقوله: ﴿ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ [النور: 35]، وكذا قوله: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ ﴾ [الحجرات: 17]، فالإيمان، والحقّ، والنّور؛ كلّها غايات مرادة مطلوبة.

ومما يلاحظ أيضاً أنّ هذه الهداية، وهي الهداية للغاية والانتهاء إليها اختصّها الله لنفسه أو لقرآنه فلم يستعمل "هدى لكذا" إلا له سبحانه، أو لكتابه، فهو المبلّغ للغايات، بخلاف "هداه كذا" أو "هداه إلى كذا"، فقد استعمله له ولغيره، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [الشورى: 25]. وقال: ﴿ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴾ [مريم: 43] [1].

ومما يعزّز كون ما يهدي له غاية عظيمةً؛ عظمةُ القرآن القريب من الأنفس المعتدلة، والفطر السّوية، وهذا ما يدرك من وحي اسم الإشارة الموضوع للقريب في قوله: "إنَّ هذا القرآن"، إذ إنّ من معاني القرب الدّالة؛ التفخيم والعظمة، ووجه إفادة التعظيم من القرب أنّ المحبوب يكون عادة متعلّقا بالرّوح، شاخصا في الذّهن، ولا يغيب عن الخاطر.

وقد ورد فعل الهداية معدّى بالحرفين معا في قوله تعالى: ﴿ قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّ ﴾ [يونس: 35].

فبالرجوع إلى ما قاله بعض النّحاة والمفسرين في هذا العدول نجد منهم من ردّه إلى التفنّن في القول، وأنّ "اللام" بمعنى "إلى" فـ"هَدَيت إلى الحقّ"، و"هَدَيْت للحقّ" بمعنى واحد، ومجيئهما في هذه الآية جمع بين اللّغتين[2]، ومنهم من زاوج بين التفنّن والتّفرقة بين التعبيرين.[3]

لكن ابن القيّم لم يرتض بالتسوية، وقدّم لنا لمسة بديعة في تفريقه بين الحرفين في ضوء العرف اللّغوي، وهي أنّ فعل الهداية متى عُدّي بـ"إلى" تضمّن الإيصال إلى الغاية المطلوبة، فأتى بحرف الغاية ومتى عُدّي بـ"اللام" تضمّن التخصيص بالشّيء المطلوب فأتى باللام الدّالة على الاختصاص

(1) . ينظر: لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، فاضل السامرائي، ص51-52.
(2) . ينظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج، ج3، ص19، ومفاتيح الغيب، ج8، ص233.
(3) . ينظر: روح المعاني، ج6، ص107.

والتعيين، فإذا قلت: هديته لكذا، أَفهم معنى ذكرتُه له وجعلته له، وهيّأته [1] وهو بهذا لم يعدل عن دلالة اللّفظين بقدر ما استلهم الإيحاء الدّلالي لكلا الحرفين.

وقيل في تخريج هذا العدول إنّ الشركاء لا يستطيعون الدّلالة على الحقّ والإرشاد إليه أصلاً، ولكن الله يهدي إلى الحقّ وللحقّ، فالله يرشد إليه ثمّ يوصلك إلى المنتهى ويُبلِّغك المراد فهو لا يكتفي بأن يقول لك: إنّ الطريق من هنا، بل يعرّفك به، ويوصلك إلى طلبتك، وأمّا شركاؤهم فلا يدرون الحقّ أين هو؟ وفرقٌ بعيد بين الحالين فشركاؤهم لا يعرفون مبتدأ الطّريق، والله يوصلك إلى الخاتمة ويبلّغك المراد. [2]

وفي مجرى هذا التحليل الأسلوبي ينبغي تفسير ظواهر العدول في النّص القرآني، فأكثر الناس يضعون هذه الحروف في غير مواضعها، ويجهلون الدّقائق الكامنة في وضعها حيث وضعت، وهنا عدّى فعل "هدى" بإلى مرتين، وفي الثالثة عدّاه باللام، والنّحاة يغفلون عن هذا السرّ ويقولون: إنّ ما يصحّ جرّه بإلى يجوز جرّه باللام، والحقّ أنه لا يسوّى في نحو قولك: مررت به؛ ومررت فيه، أو قلت له؛ وقلت فيه، وإذا تقرّر هذا فنقول –والله أعلم– إنّ هناك سرا وراء هذا العدول فالهداية لما أسندت إليهم وجبت تعديتها بإلى التي تفيد البُعد، كأنها ضِمْنا هي بعيدة عنهم ولكنّها لما أسندت إلى الله تعالى، وجب تعديتها باللام التي تفيد القرب، كأنها من خصائصه وحده، وملك يمينه، وهو المنفرد بها على وجه الديمومة والكمال. [3]

---

(1) . بدائع الفوائد، ج2، ص21.

(2) . ينظر: لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، ص53-54.

(3) . ينظر: الجدول في إعراب القرآن، ج11، ص125.

الصورة الرابعة: العدول من "في" إلى "اللام":

قال عزّ وجلّ: ﴿ وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ٢٣ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ٢٤ ﴾ [الفجر: 23-24].

موضع العدول في الآية هو قوله تعالى:﴿ قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴾ إذ إنّ مقتضى الظاهر أن يقول: "قدّمت في حياتي" كما أشار إلى ذلك بعض النّحاة[1] القائلين بأنّ اللام تأتي بمعنى "في"، لكن هذا الإيثار والتخيّر لحرف بعينه يجعل المتذوّق للبيان القرآني يبحث عن حكمة هذا التعبير، ودقائقه الأسلوبية ولا يتوقّف عند العلّة النّحوية لهذا العدول، فلا يجب أن نسلّم بأنّ قولنا: "فلانٌ قدَّم لحياته" بمعنى: "قدَّم في حياته" هذا في الكلام الفصيح فضلا عن كلام ربّ العزّة؛ القول المعجز والخطاب الحكيم.

يقول المرادي: "أن تكون بمعنى "في" الظرفية، قالوا: كقوله تعالى ﴿ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴾، أي: في حياتي، يعني: الحياة الدنيا، والظاهر أنّ المعنى: لأجل حياتي، يعني: الحياة الآخرة."[2]

وإذا تتبعنا السّياق الوارد فيه اللام مع "قدّمت" فإننا نجده يصوّر لنا حال الإنسان الكافر يوم القيامة، وما يعتريه من حسرة وندامة حين يجد نفسه تذّكر في غير وقت التذكّر، وتكشّفت عنه حقائق الحياة وأسرارها بمجيء جهنمّ إلى أهلها وقد كان غافلا قلبه في دنيا ظنّ أنها الحياة الحقيقية وما هي بذلك، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ ﴾ [الأنفال: 24]، وقد جاءت اللام "مع الإضافة بما فيهما من الاختصاص تكشفان لك عن أعماق نفس مفعمة بالحزن والأسى على ضياع حياة خالصة غالية، كان يمكن أن تكون سعادة ونعيما، فهو كمن يمسك بولد عزيز عليه أهمله فضاع بين يديه؛ وكان هو السّبب في ضياعه، يقلّبه، ويذرف الدّموع أسى وتحسّرا، إنها الحياة الآخرة التي أضاعها، ولم يقدم لها ويسعى من أجلها."[3]

يقول تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: 64] فالكافر بغفلته لم يتذكر في أمد حياته في الدنيا وعاءَ عمره؛ أنّ الحيوان السرمدي هو الذي لا يفنى ولا ينتهي، لكنه تمنّى تقديم العمل حين قضي بين الخلق، وبان ما اختصّ له من العقاب والحساب

---

(1). ينظر: الجنى الداني في حروف المعاني، ص99، ومغني اللبيب، ص281.

(2). الجنى الداني في حروف المعاني، ص99.

(3). من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، ص248.

ولهذا كان العدول إلى اللام يوحي باختصاص ذكر لفظة "حياتي"، لأنه كان يكفر بها قبلُ فأضاع نفسه ولم يقدم لأجل سعادتها وبقائها.

يقول الطبري مقرّرا هذا المعنى: « يقول تعالى ذكره مخبرا عن تلهُّف ابن آدم يوم القيامة، وتندّمه على تفريطه في الصَّالحات من الأعمال في الدنيا التي تورثه بقاء الأبد في نعيم لا انقطاع له، يا ليتني قدمت لحياتي في الدنيا من صالح الأعمال لحياتي هذه، التي لا موت بعدها. »[1]

ولا يمكن أن تجد سبيلا إلى لطائف الاختصاص وتصويره لندم الكافر؛ إذا جاء النّظم بـ"في" أو أي حرف آخر، لأنّ السياق والأسلوب هو الذي يتطلّب الحرف المناسب في مقامه المناسب ليتلائم مع صحّة الغرض وبلاغة الموقف.

ومن المواضع التي تتجلى فيها نكتة العدول إلى حرف الاختصاص دون الظرفية؛ قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾[آل عمران: 25] وكذا قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾ [التغابن: 9].

فمثل هذه الآيات التي جاء فيها الأسلوب يتحدّث عن جمع النّاس لليوم الآخر؛ آثرت التعبير باللام بدل حرف الظرفية مع كونه مستساغا في الظاهر، لأنّ اليوم هو ظرف لجمعهم، فما السرّ البلاغي من هذا العدول؟

فالذي نلحظه من السّياق أنّ العدول إلى حرف الاختصاص أبرز لنا صورة نفسية بالغة التأثير وتساؤلا عميقا تبادر إلى كلّ نفس وهو ما غَرض جمعنا، وماذا أُبطن لنا فيه؟ وليس: ما هو مكان جمعنا؟ فالظرفية لا مقام لها في هذا السّياق، لذلك يقول العلماء إنّ التعبير جاء باللام، ولم يقل: "في يوم" لأنّ المراد: لجزاء يوم، أو لحساب يوم، فحذف المضاف ودلّت اللام عليه.[2]

وعلى مذهب التضمين في الفعل قيل بأنّ "جمع" هنا تضمّن معنى "أحصى" والمتعدّي باللام أحصاهم ليوم الحساب، فلا يفلت منهم أحدا.[3]

([1]) . جامع البيان، ج24، ص421.

([2]) . ينظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج، ج1، ص392، ومفاتيح الغيب، ج7، ص180.

([3]) . ينظر: التضمين النحوي في القرآن، ج1، ص273.

وقد أوضح الطبري نكتة عجيبة لهذا العدول والسّر من اختيار حرف اللام دون حرف "في" فقال: « فإن قال قائل: وكيف قيل: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ ﴾ ولم يقل: في يوم لا رَيب فيه؟ قيل: لمخالفة معنى اللام في هذا الموضع معنى "في". وذلك أنّه لو كان مكان "اللام" "في" لكان معنى الكلام: فكيف إذا جمعناهم في يوم القيامة، ماذا يكون لهم من العذاب والعقاب؟ وليس ذلك المعنى في دخول "اللام"، ولكن معناه مع اللام: فكيف إذا جمعناهم لما يحدُث في يوم لا ريب فيه ولما يكون في ذلك اليوم من فَصْل الله القضاءَ بين خلقه، ماذا لهم حينئذ من العقاب وأليم العذاب؟ فمع"اللام"في ﴿ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ ﴾ نيَّة فِعل، وخبرٌ مطلوب قد ترك ذكره، أجزأت دلالةُ دخول "اللام" في"اليوم" عليه منه، وليس ذلك مع "في"، فلذلك اختيرت "اللام" فأدخلت في اليوم دون "في". »[1]

ولأنّ من المعلوم أنّ ذلك اليوم لا فائدة فيه إلا المجازاة، وإظهار الفرق بين المثاب والمعاقب. [2]

فما أجمل التعبير القرآني الذي يتراءى لك بادئ الأمر أنه منظة للحيدة عن الأنسب، فإذا تمعنت وتفكرت وجدت أنه في قمّة البلاغة وسحر البيان « ألا ترى أنّ الأول بما ينبئ عنه من الغرض من جمعهم المفهوم من اللام يملأ نفوس المجموعين رعبا ويجسد أمام أعينهم أشباح الخوف من المستقبل بخلاف الثاني الذي لا يوحي إليك بغير ميعاد الجمع وزمانه، فلو قلت: "يوم يجمعكم في يوم الجمع "ما زدت على أن أكّدت حقيقة البعث وقيام الساعة، أمّا اللام فإنها تدلّ على هذا المعنى وتزيد عليه التلويح بالحساب والجزاء بما تكشف عنه من غرض الجمع. »[3]

ومن المواضع التي ذكرت على أنّ اللام فيها بمعنى "في" هي قوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [الأنبياء: 47]، قيل بأن معنى: "ليوم القيامة" هو: "في يوم القيامة".

وهذا مذهب الكوفيين[4] ووافقهم ابن قتيبة من المتقدمين، وابن مالك من المتأخّرين، فجعلوا اللام في بمعنى "في"، وكذا الأمر عند قوله تعالى: ﴿ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأعراف: 187]، أي: في وقتها، وأنشدوا مستشهدين على ذلك؛ لمسكين الدّارمي:

([1]) . جامع البيان، ج6، ص294-295.

([2]) . ينظر: مفاتيح الغيب، ج7، ص180.

([3]) . من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، ص250.

([4]) . ينظر: معاني القرآن، الفراء، ج2، ص205، والبحر المحيط، ج7، ص435.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أولَئِكَ قَوْمِي قَدْ مَضَوْا لِسَبِيلِهِمْ ... كَمَا قَدْ مَضَى مِنْ قَبْل عَادٌ وَتُبَّعُ. (1)

كما قيل في معناها أيضا هي للتعليل، أي: لأجل حساب يوم القيامة. (2)

وهنالك من سلك مسلك التضمين في الفعل فقيل بأنّ "وضع" تضمّن معنى "نَصب"، معتبرا أنّ تعدية نصب باللام أرشدت إليه الأحاديث الصّحاح، كما أنّ وضع الموازين هو إشعار بنصبها يوم القيامة وتمهيد له. فليبادر الغافلون المعرضون والمستهزئون المكذبون قبل أن يفجأهم النّذير، لأنّ الحساب توضع موازينه لتُنصب، وما هذه الموازين إلا واحدة من نواميس الكون القائم على القسط والعدل تشهد بالوحدانية والتي هي محور السّورة. (3)

لكن الباحث يرى أنّ كلّ هذه التعليلات اللغوية لا تكفي لتبرير هذا العدول الأسلوبي الحكيم إذ لو كان حرف اللام الوارد في مثل هذه الآيات بمعنى حروف أخرى، فلماذا عدل عنها القرآن؟

وإذا كان الفعل "وضع" تضمّن فعلا آخر؛ فهل يُجزم بأنّ هذا الفعل مقصور في "نصب" فقط، أم أنّ كلّ فعل يدور في فلك معناه فهو مضمّن أيضا؟ فإذا كان الثاني صحيحا فقد توسعت دائرة الأفعال المحتملة ولا يدرى أيهما الفعل المراد، وخاصة إذا كانت كلّها تتعدّى بحرف اللام.

وإذا صحّ الاحتمال الأوّل، وهو أن الفعل المضمِّن لم يشرب إلا "نصب"، فما معيار تقاسم الدّلالة بينهما، وأيهما الأوفر معنىً في هذا السّياق؟ فإذا كان الفعل المذكور في الجملة أوفر حظا وأحكم معنى فلماذا أُخرِج عن مقتضى الظّاهر، ثم أريد له أنْ يُعزّز بفعل بآخر حتى لا يُستشكل التركيب النّحوي؟ وأما إذا كان الفعل المحذوف هو أدلّ على المعنى وأعمق في الدلالة؛ من المذكور فلماذا عدل عنه الذكر الحكيم؟

وإذا قيل إنّ الدليل هو السياق–وهو الدّليل الأقوى– يعني أن استعمال الفعل "وضع" متعديا باللام في سياق معين؛ أفادنا معنى "نصب" –كما في الآية– إذا كان كذلك: فلماذا أُسند التضمين إلى الفعل فقط مع أنّ المكونات الأخرى للخطاب التي منها "الفعل، وحرف الجر، والسّياق" لم تدلّ

---

(1) . البيت من بحر الطويل، قاله مسكين الدارمي(ت 89هـ) كما في ديوانه، ص68، وينظر البيت في: البحر المحيط،ج7 ص435، وخزانة الأدب، البغدادي، ج4، ص101، الشاهد فيه: مجيء اللام بمعنى في: والتقدير: قد مضوا في سبيلهم.

(2) . ينظر: روح المعاني، الألوسي، ج9، ص53.

(3) . ينظر: التضمين النحوي في القرآن، ج2، ص291.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

على هذا الفعل إلا بعد ما تشكّلت وانصهرت، فكيف يسند فعل إلى جزء من سياق واحد مع أنّ الأجزاء كلها فاعلة في توليده، والتدليل عليه !؟

فالمستدرك على هذه الأقوال هو عزو قضية المخالفة في التعدية إلى الظاهرة اللفظية إما التجوّز في استعمال الفعل أو في استعمال الحرف، فإذا ما تناسب التركيب بفعل مناسب للحرف أو بحرف مناسب للفعل يزول الإشكال وينتهي تفسير الظاهرة.

لكن الذي أراه أنّ قضية المخالفة في استعمال حروف الجرّ هي "ظاهرة أسلوبية" سياقية لأن إسناد المخالفة إلى الأسلوب باعتباره ظاهرة غير قياسية أدعى إلى القَبول وآنس للفكرة من عزوها إلى الألفاظ، ونظرية التناوب في الحروف والتضمين في الأفعال هي: تقدير لفظي لحلّ إشكال التعدّي.

وعليه فإنّ العبير القرآني من خلال الآية قد عدل عن حرف الظرفية الذي يقتضيه الظاهر إلى التعبير باللام وما ذاك إلا لخصيصة بيانية اقتضاها السّياق، وتطلّبها الموقف، فكأنّ اللام تلوّح لنا ما أُبطِن للناس في يوم القيامة، وتشير إلى المرامي والغايات التي لأجلها وضعت الموازين، فالنظم الحكيم لم يرد تنبيهنا على محلّ ومستودع وضع الميزان؛ بقدر ما نبّه على أنّ هذا اليوم الموعود هو بداية لمستتبعات الوضع وما رُتّب عنه من فوز أو خسارة؛ ومن حساب وعقاب، فتفكير المؤمن يستشرف إلى ما سيحدث من نتائج، ولما يكون في ذلك اليوم، وما بعده فاللام اختصّت بدلالة وضعها ذلك اليوم لأنّه ليس كالأيام، وأشربت أحداث شتى تتكشّف تبعاتها يوم القيامة، ولو جاء النظم بحرف الظرفية لم يفد غير أنّ وضع الموازين بالقسط لا يكون إلا في يوم القيامة، ففُهم أنّ البراعة متخيّرة وأنّ طريق التعبير بها متخيّر أيضا، فلا مقام لغير اللام، لأنها الأبلغ عن المقصد، والأسلم للمعنى والأنسب للسّياق.

المبحث الثانـي:

العـدول في حـروف العـطف

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثاني: العدول في حروف العطف:

إنّ معاني الأدوات العاطفة غنية متكاثرة، وقد فصّل أهل البيان في دقائقها وأنعموا النّظر في جوانبها البليغة ونكاتها اللّطيفة ووقفوا على معظم مواقعها ودلّلوا باختلافاتهم على الالتباس الشّديد فيما بينها وصعوبة الفروق في بعضها، كما أكّدوا على أنّ بعض هذه الأدوات تتقارب في الدّلالة تقاربا كبيرا فتتوعّر بانفلاتها في تأدية المعاني، ومع هذه الصّعاب اجتهدوا في تذوّق ملامح تحوّلاتها في السّياق القرآني ثمّ محاولة إبراز أثرها البلاغي، فاختلفت أذواقهم وتكافئت؛ على حسب استنباط وجه العطف من الأسلوب، ودلالة كلّ حرف على معناه، وكيفية حمله وتبليغه لمرماه، ثم مناسبة ذلك لمقصده ومغزاه.

وفيما يأتي ذكر لمواضع العدول في حروف العطف البارزة في الآيات القرآنية:

❖ **العدول بالمخالفة:**

الصورة الأولى: العدول من الفاء إلى الواو:

الموضع الأوّل: قال تعالى: ﴿ **وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥** ﴾ [البقرة: 35]

وقال أيضا: ﴿ **وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩** ﴾ [الأعراف: 19].

فقد جاء النّظم القرآني: ﴿ **ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا** ﴾ بالواو المقتضية عدم الترتيب ما لم يفهم من غيرها، أمّا في الأعراف: ﴿ **ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا** ﴾ إذ عدل التعبير عن حرف الواو إلى الفاء المقتضية الترتيب والتعقيب، والقصّة واحدة، ما يستدعي تتبّعا لأغراض هذا العدول.

يرى الكرماني أنّ لفظ « "اسكُن" في الآيتين ليس بأمر بالسّكون الذي هو ضدّ الحركة، وإنما الذي في البقرة من السُّكون الذي معناه الإقامة، وذلك يستدعي زمانا ممتدّا فلم يصلح إلا بالواو، لأنّ المعنى اجمع بين الإقامة فيها والأكل من ثمارها، ولو كان الفاء مكان الواو لوجب تأخير الأكل إلى الفراغ من الإقامة لأنّ الفاء للتعقيب والترتيب، والذي في الأعراف من السّكنى الذي معناها اتخاذ الموضع مسكنا، لأنّ الله تعالى أخرج إبليس من الجنّة بقوله: ﴿ **ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا** ﴾ [الأعراف:

18] وخاطب آدم فقال: ﴿ وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ ﴾ [الأعراف: 19]، أي اتخذاها لأنفسكما مسكنا ﴿ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا ﴾، فكانت الفاء أولى لأنّ اتخاذ المسكن لا يستدعي زمانا ممتدّا ولا يمكن الجمع بين الاتخاذ والأكل فيه بل يقع الأكل عقيبه. ››[1]

فالكرماني خالف في دلالة السّكنى في الآيتين فالأولى من السّكون الدّال على الاستقرار وطول اللّبث لأنّ دوام الإقامة في أي أرض تستدعي المكث فيها والأكل من ثمارها وهذا ما دلّت عليه الواو بأن جمعت بينهما، أمّا المعنى الآخَر من السّكنى فهو اتخاذ الموضع سكنا.

وقد نظر ابن الزّبير الغرناطي في سياق الآيتين على أنّ الوارد فيهما مختلف باختلاف مقصوده فقد بيّن أنّ الوارد في البقرة فالقصد به الإخبار والإعلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم بما جرى في قصة آدم صلوات الله وسلامه عليه من أحداث من غير ترتيب زماني أو تحديد غاية فناسبه الواو.

أمّا آية الأعراف فغايتها تَعداد نعم الله سبحانه على آدم وذريته وما يتبع ذلك من ذكر الخلق والتصوير وأمر الملائكة بالسّجود لآدم، ثم بعد ذلك أمر آدم عليه السّلام بالهبوط، ووصية ذريته فناسب هذا القصد العطف بالفاء المقتضية الترتيب، ولما اختلف القصدان اختلفت العبارة عنهما فورد كلّ على ما يناسب. [2]

أما ابن جماعة فقد زاد لطيفة أسلوبية بعد تفريقه في دلالة السّكنى بين الإقامة، واتخاذ المسكن يقول: ‹‹ فلمّا نَسب القول إليه تعالى: ﴿ وَقُلۡنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ﴾ ناسب زيادة الإكرام بالواو الدّالة على الجمع بين السّكنى والأكل، ولذلك قال فيه: ﴿ رَغَدًا ﴾، وقال: ﴿ حَيۡثُ شِئۡتُمَا ﴾ لأنّه أعمّ، وفى الأعراف: ﴿ وَيَـٰٓـَٔادَمُ ﴾، فأتى بالفاء الدّالة على ترتيب الأكل على السّكنى المأمور باتخاذها، لأنّ الأكل بعد الاتخاذ، و ﴿ مِنۡ حَيۡثُ ﴾ لا يعطى عموم معنى ﴿ حَيۡثُ شِئۡتُمَا ﴾. ››[3]

([1]) . أسرار التكرار في القرآن، الكرماني، ص70-71.

([2]) . ينظر: ملاك التأويل، ج1، ص29.

([3]) . كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ص92-93.

ومن هذا المسلك العدولي أيضا قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا ﴾ [البقرة: 58]، وكذا قوله في الأعراف: ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ ﴾ [الأعراف: 161].

فقد ذهب الإسكافي في مثل هذه الأساليب مذهب التقنين ليؤصّل لنا أنّ كلّ فعل عطف عليه ما يتعلّق به تعلّق الجواب بالابتداء، وكان الأول مع الثاني بمعنى الشّرط والجزاء، فالأصل فيه عطف الثاني على الأول بالفاء دون الواو، وهذا ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا ﴾ [البقرة: 58] فعطف "كُلوا" على "ادخُلوا" بالفاء لما كان وجود الأكل منها متعلّقا بدخولها، فكأنّه قال: إنْ دخلتموها أكلتم منها، فالدّخول موصل إلى الأكل والأكل متعلّق وجوده بوجوده.

أمّا قوله تعالى في الأعراف: ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ ﴾ [الأعراف: 161]، فقد عُدل عن هذا الأصل لأنّه لا تعلّق للثاني بالأوّل، فلفظ اسكنوا من السّكنى، وهي المقام مع طول لبث. والأكل لا يختصّ وجوده بوجوده لأنّ من يدخل بستانا قد يأكل منه وإن كان مجتازا، فلمّا لم يتعلّق الثاني بالأوّل تعلّق الجواب بالابتداء وجب العطف بالواو دون الفاء. (1)

وعليه يخرّج هذا العدول على أنّ مجيء قوله تعالى: "فكلوا " بحرف التعقيب والترتيب لأنّ الأكل لا يكون إلا بعد الدّخول ولا يكون قبله بوجه فجئ بالحرف المحرز لذلك المعنى وأنّه على التعقيب من غير مهله، وأمّا الوارد في سورة الأعراف فإنّ السّكن منجرّ معه الأكل ومساوق له ولا يمكن أن يكون مرتبا عليه فجاء بالحرف الصّالح لذلك المعنى. (2)

(1) . ينظر: درة التنزيل وغرة التأويل، ج1، ص223، مفاتيح الغيب، ج1، ص378.
(2) . ينظر: ملاك التأويل، ج1، ص37.

وفي هذا المنحى الأسلوبي يمكن احتمال العلّة الزمانية، فقوله: "فكلوا" بالفاء من أنّ الدّخول سريع الانقضاء فيعقبه الأكل، أمّا قوله "وكلوا" فالمعنى أقيموا فيها والإقامة طويلة وممتدة فناسبها الواو، أي: اجمعوا بين الأكل والسّكون.[1]

أمّا ابن عاشور فقد وجّه العدول في حرفي العطف باختلاف السّياق التي وردت فيه الآيتان فآية البقرة كانت أولى بحكاية ما دلّت عليه فاء التعقيب لأنّ التعقيب معنى زائد على مطلق الجمع الذي تفيده واو العطف، فآية البقرة سيقت مساق التوبيخ وكان القصد فيها بيان سبب إنزال العذاب عليهم مرتين فناسبها ما هو أدّل على المنّة، وهو تعجيل الانتفاع بخيرات القرية، وآيات الأعراف سيقت لمجرّد العبرة بقصّة بني إسرائيل.[2]

وتلخيص هذه الأقوال الموجّهة للعدول على نظرتين متكاملتين، أولاهما اختلاف معنى السّكن فالأول معناه القرار فجاء السياق بالجمع بين السّكون والأكل وهو ما دلّ عليه حرف العطف الواو والآخر معناه الدّخول فجاء السّياق مرتّبا الأكل بعد الدخول وهو ما دلّ عليه حرف الترتيب الفاء والنظرة الأخرى يمّمت السّياق فأبرزت أنّ سياق الإخبار بما جرى في قصة آدم مجردا من الترتيب يناسب استعمال الواو، وأنّ سياق الأمر بالدخول والخروج ومراعاة ترتيب السّكنى والأكل ناسب حرف الفاء المقتضية لتعلّق الأكل بالدخول.

(1). ينظر: أسرار التكرار في القرآن، الكرماني، ص73.

(2). البحر المحيط، ج1، ص236.

الموضع الثاني:

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾ [الزمر: 8]

وقال أيضا: ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ﴾ [الزمر: 49].

خالف التعبير القرآني بين العطف بالفاء والواو في آيتين متشابهتين، مما يدعونا إلى البحث عن سرّ هذا العدول، مع أنه لا شك في إفادة مضمون العطف في كل منهما، لكن لا يمكن تجاوز ملامح السّياقين، والتخير فيما يليق بهما.

فمن البلاغيين الذين أدركوا الفرق بين الموضعين؛ الزمخشري فتذوق بحاسته اللغوية دقّة المخالفة حين قال كعادته في السّؤال: ((فإن قلتَ: ما السّبب في عطف هذه الآية بالفاء وعطف مثلها في أوّل السورة بالواو؟ قلتُ: السبب في ذلك أنّ هذه وقعت مسبّبة عن قوله: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ ﴾ [الزمر: 45] على معنى أنهم يشمئزون عن ذكر الله ويستبشرون بذكر الآلهة، فإذا مسّ أحدهم ضرّ دعا من اشمأزّ من ذكره، دون من استبشر بذكره، وما بينهما من الآي اعتراض.))[1]

ومن هذا المعنى يفصّل ابن عاشور في النّكتة الفارقة بين العطف بالفاء هنا وعطف نظيرها بالواو يقول:((وتفريع ما بعد الفاء على ما ذكرناه؛ تفريع وصف بعض من غرائب أحوالهم على بعض وهل أغرب من فزعهم إلى الله وحده بالدّعاء إذا مسّهم الضرّ وقد كانوا يشمئزون من ذكر اسمه وحده فهذا تناقض من أفعالهم وتعكيس، فإنه تسبّب حديث على حديث وليس تسبّبا على الوجود.))[2]

أما أبو حيّان فمن مبدأ الاعتراض خالف نظرة الزمخشري معتبرا القول بالاعتراض ضرب من التكلّف وفي هذا يتبع الشيخ أبو علي الفارسي الذي يمنع الاعتراض بجملتين فكيف بهذه الجمل المتكاثرة[3]، يقول: ((والذي يظهر في الرّبط أنه لما قال: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾ [الزّمر: 47]، كان ذلك إشعارا بما ينال الظالمين من شدّة العذاب، وأنّه يظهر لهم يوم القيامة من العذاب ما لم يكن في حسابهم، أتبع ذلك بما يدلّ على ظلمه وبغيه، إذ كان إذا مسّه دعا ربه، فإذا أحسن

([1]). الكشاف، ج4، ص136.

([2]). التحرير والتنوير، ج24، ص34-35.

([3]). ينظر: الدر المصون، ج9، ص433.

إليه، لم ينسب ذلك إليه. ثمّ إنّه بعد وصف تلك النعمة أنها ابتلاء وفتنة، كما بدا له في الآخرة من عمله الذي كان يظنه صالحا ما لم يكن في حسابه من سوء العذاب المترتّب على ذلك العمل، ترتّب الفتنة على تلك النّعمة. ››[1]

وقيل إنّه ذكر ههنا فاء التعقيب لأنّ هذا مناقض لما حكى عنهم عن قريب وهو أنهم يشمئزّون عن ذكر الله وحده فكيف التجأوا إليه وحده عند ضرّ يصيبهم، وفي هذا يقول الرازي: إنّ السّبب في عطف هذه الآية بالفاء ‹‹ أنّه تعالى حكى عنهم قبل هذه الآية أنهم يشمئزون من سماع التوحيد ويستبشرون بسماع ذكر الشّركاء، ثم ذكر بفاء التعقيب أنهم إذا وقعوا في الضرّ والبلاء والتجأوا إلى الله تعالى وحده، كان الفعل الأول مناقضا للفعل الثاني، فذكر فاء التعقيب ليدلّ على أنهم واقعون في المناقضة الصّريحة في الحال، وأنه ليس بين الأوّل والثاني فاصل مع أنّ كلّ واحد منهما مناقض للثاني، فهذا هو الفائدة في ذكر فاء التعقيب هاهنا، فأمّا الآية الأولى فليس المقصود منها بيان وقوعهم في التناقض في الحال، فلا جرم ذكر الله بحرف الواو لا بحرف الفاء. ››[2]

فمن خلال عدول النظم إلى الفاء في الآية الثانية واختيارها عن الواو؛ فَهِم العلماء منها معنى المناقضة والتعكيس، والغرض من إيثارها التهكّم والتحميق، فكيف بمن فرَّ من الله تعالى ومن صرف أي لون من العبادة له؛ يلتجأ إليه وحده عند إصابته بمكروه، ‹‹ وهذا كما تقول: فلان يُسيء إلى فلان فإذا احتاج؛ سأله فأحسن إليه، ففي الفاء استعارة تبعية تهكمية. ››[3]

أمّا آية العطف بالواو فخالية من المناقضة المحكية في الأولى، ولفظة الإنسان للعموم و‹‹ المراد بالإنسان كل مشرك فالتعريف تعريف الجنس...فهو للاستغراق العرفي. ››[4]

وفي ضوء هذه الدقّة وروائع العدول نتأكّد أنْ ليس التوعّر في إدراك ما تمدّنا به اللّغة من أنّ الفاء تفيد التعقيب، والواو تقتضي مجرّد الجمع، إنما الصعوبة تكمن في معرفة وجه الترتيب هنا، ووجه الضمّ هناك، حتى لا نتسرع في إخراجه مخرج التفنن المجرد، أوالمبادلة الجوفاء.

([1]) . البحر المحيط، ج9، ص210-211.
([2]) . مفاتيح الغيب، ج26، ص459.
([3]) . روح المعاني، ج12، ص268.
([4]) . التحرير والتنوير، ج24، ص35.

الموضع الثالث: قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الأنبياء: 92-93]

وقال سبحانه: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [المؤمنون: 52-53].

جاء العطف في آية الأنبياء بما قبلها بالواو عند قوله: ﴿ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم ﴾ لكن في الآية الثانية عدل عن حرف الواو إلى الفاء في قوله: ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم ﴾ مع أنّ الظاهر لا يستدعي مخالفة، لأنهما في سبيل تقرير شيء واحد.

وللبحث عن فائدة هذه المخالفة؛ ذهب الإسكافي في تخريج هذا العدول إلى بيان طبيعة الحرفين فالواو المفيدة للجمع لا تفيد الرّبط والتعلّق، فاختلاف الأمرين اتضح في تباين الأسلوبين، وكلٌّ ناسب المقام وصوّر الموقف وشخّص الحال، لذلك استوحى الإسكافي هذه النّكتة مفرّقا بين" الواو" التي لم يتعلّق ما قبلها بما بعدها، وبين "الفاء" التي جاء ما قبلها متعلّقا بما بعدها، ويبيّن ذلك بأنّ قوله تعالى: "وتقطّعوا أمرهم" جاء بالواو لأنّه لم يكن ما بعد الواو كالجواب لما قبلها، كما كان ذلك في الفاء، لأنه يجوز أن يكون تقطّعهم أمرهم قبل أن خوطبوا بقوله: "فاعبدون" فلا تصلح الفاء، ألا ترى أنّ تفرّقهم فِرقا وتقطّعهم أمرهم قطعاً، فصار بعضهم يعبد الله وحده، وبعضهم يعبد معه غيره، وبعضهم لا يعبده، كان قبل إخبار الله تعالى جميع الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه أن هذه الأمم أممهم جماعة واحدة غير متفرّقة وعليه يكون معنى قوله: ﴿ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ ﴾ أي: تقطعوا أمر دينهم قطعا، وافترقوا فيه فِرقاً؛ خبراً غير متعلّق بما قبله تعلّق الجواب بالابتداء.

وأمّا الفاء في سورة المؤمنين في قوله: "فتقطّعوا" فلأنه لما ذكر الزّبر؛ صار قوله: "فتقطّعوا" كالجواب لما قبله، لأنهم قطّعوا أمر دينهم كتباً منزلة من الله عزّ اسمه، فمنهم من دان بالتوراة وكفر بما سواها من الإنجيل والقرآن، ومنهم مَن دان بالإنجيل وكفر بالتوراة والقرآن.

فلمّا كان ما قبل الفاء خطابا للرّسل وأممهم، وقال: كونوا جماعة واحدة ذات دين واحد، صار كأنّه قال: أمرتهم بالائتلاف والاتفاق في الدين فتقطّعوا أمرهم فيه قِطعا، وافترقوا فِرقا، وكلٌّ يقدّر أنه على الصّواب، وممتثل بما في الكتاب، فهو فرح بما لديه، ومعوّل عليه، فكان ما بعد الفاء هنا في

تعلّقه بالأول تعلّق الجواب بالمبتدأ، بل ذلك هو ما بعد الفاء في عقب هذه الآية: ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ ﴾ [الأنبياء: 94]، أي: تفرقوا فرقا، فمن كان من فرقهم يعمل الصّالحات، وهو مؤمن فإنّ سعيه مقبول، ومن عمل صالحا ولا إيمان معه لم يقبل سعيه. (1)

فقوله في الأنبياء "وتقطعوا" بالواو، وفي سورة المؤمنون "فتقطعوا" بالفاء يقتضي كلّ سياق ما ورد فيه فقد جيء بالفاء للدّلالة على أنّ التقطّع والافتراق وقع في عقب الأمر بالتقوى وذلك مبالغة في عدم قبولهم وفي نفارهم عن توحيد الله وعبادته، مما يدلّ على شدّة كفرهم وعنادهم.

وجيء بالواو في الأنبياء مما يحتمل تأخّر تقطّعهم عن الأمر بالعبادة، لأنّ الواو لمطلق الجمع وليس كالفاء التي تفيد التعقيب والترتيب. فنصّ على الأوّلين بأنهم افترفوا وأنكروا في عقب أمرهم بالتقوى ولم ينصّ على هؤلاء بذلك، فورود الفاء في سياق العقوبة والإهلاك والتحذير أنسب، ولذلك جاء قوله "فاتقون" وهو أبلغ في التخويف والتحذير مما جاء في قوله: "فاعبدون". (2)

وما جاء في العدول بين حرفي العطف الواو والفاء وفق مراعاة طبيعة كل منهما هو قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ۝٨١ ﴾ [الشعراء: 79-81].

ولمعرفة نكتة هذا العدول بيّن ابن الأثير أنّ الإسقاء عطفه بالواو التي هي للجمع، لأنه في العادة يجمع بينهما ولولا مراعاة حسم النّظمِ لتقدّم الإسقاء، ثم عطف الثّاني بالفاء لأنّ الشّفاء يعقّب المرض بلا زمان خال من أحدهما، ولو قال قائل في موضع هذه الآية: الذي يطعمني ويسقين ويمرضني ويشفين، لكان للكلام معنى تامّ، إلا أنه لا يكون كمعنى الآية، إذ كلّ شيء منها قد عطف بما يناسبه، ويقع موقع السّداد منه. (3)

---

(1). ينظر: درة التنزيل، الإسكافي، ج1، ص916-920، وكشف المعاني، ص258.

(2). ينظر: روح المعاني، ج9، ص242، والتعبير القرآني، السامرائي، ص269.

(3). ينظر: المثل السائر، ج2، ص228.

الموضع الرابع:قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡ ﴾ [يوسف: 59].

وقال بعده: ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ﴾ [يوسف: 70].

فمن خلال الآية الأولى يظهر أنّ هناك فارقا زمنيّا بين تجهيز حمولة أخوة يوسف ووصية يوسف عليه السلام لهم، لأنّ الرحيل في العادة لا يكون بعد التجهيز مباشرة، وإنما كان يرتبط بالوقت المناسب لرحيل القوافل. ولا تكون الوصية في الغالب إلا عند اقتراب الرحيل، ونظراً لوجود فارق زمنيّ بين الفعل جَهَّزَ والفعل قَالَ ناسب أن ترد الواو مع الأداة "لمّا".

وكأنّه في المرة الأولى أيضاً في تجهيزهم ليتعرّف أخبارهم في طول المدة من حيث لا يشعرون ولذلك لم يعطف بالفاء. (1)

أما في الآية الثانية جاءت الفاء مع الأداة "لمّا" لعدم وجود فارق زمنيّ كبير بين الفعل جَهَّزَ والفعل جَعَلَ، لأنّ يوسف عليه السّلام عندما أراد أن يضع صُواع الملك في رحل أخيه الصغير اختار أن يكون ذلك عند تجهيز الرّحال، وقيل ((جاءت الفاء للدلالة على رغبتهم الحثيثة في السّفر.))(2)

يقول البقاعي: ((وأسرع في تجهيزهم في هذه المرة قصداً إلى انفراده بأخيه من غير رقيب بالحيلة التي دبّرها. فلذلك أتت الفاء في قوله: ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم ﴾أي أعجل جهاز وأحسنه بجهازهم))(3)

ومن شواهد المخالفة في استعمال حرفي العطف قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُ ﴾ [يوسف: 69]، وقال بعدها: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ ﴾ [يوسف: 99].

---

(1) . نظم الدرر، البقاعي، ج10، ص168.
(2) . إعراب القرآن وبيانه، ج5، ص25.
(3) . نظم الدرر، البقاعي، ج10، ص168.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

حيث استخدمت الواو مع الأداة لما هنا إشارة إلى وجود فارق زمنيّ بين الفعل دَخَلُواْ والفعل آوَى[1] لأنّ يوسف عليه السلام لم يرد إظهار خبره أمام إخوته، وعليه لم يكن بإمكانه أن يخلو بأخيه الصغير فور دخولهم، حتى ينزل أخاه منزله، لينفرد به ويعرّفه على نفسه.

((وعن ابن عباس: تعرف إليه أنه أخوه، وهو الظاهر. وهو قول ابن إسحاق وغيره، أعلمه أنه أخوه حقيقة واستكتمه.))[2] وفي هذا التكتم إشارة إلى وجود انتظار نفسي وتريث إلى حين الانفراد.

أمّا الفاء في الآية الثانية فقد جاءت مع الأداة لما لعدم وجود فارق زمنيّ بين الفعل دخل والفعل آوى، وذلك لأنّ يوسف، عليه السلام، كان ينتظر حضور أبويه، وانظر إلى رحابة لفظة الإيواء الدالة على ضمّ القلب وإيواء المكان، فكان الإيواء بمجرد الدخول، كيف لا يسارع إلى إيوائهما إليه بمجرّد دخولهما؟!

(1) . ينظر: جامع البيان، ج16، ص169.
(2) . البحر المحيط، ج6، ص301.

الصورة الثانية: العدول من "الفاء" إلى"ثم":

الموضع الأول: قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأنعام: 11].

وقال عزّ وجلّ: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [النّمل: 69].

عطف النّظم في الموضع الأول النّظر على السّير بحرف "ثمّ" في قوله:﴿ثُمَّ ٱنظُرُوا۟﴾ لكنّه في آية النّمل عدل في عطف النّظر عن "ثم" إلى فاء التعقيب وذلك عند قوله: ﴿فَٱنظُرُوا۟﴾.

وإذا تتبعنا كلام البلاغيين في حكمة هذا العدول نجد أنّ الزمخشري قد ذهب في ذكر نكتة هذا العدول إلى أنّ الآية جعلت " النّظر مسبّباً السّير في قوله: ﴿فَٱنظُرُوا۟﴾ فكأنّه قيل: سيروا لأجل النّظر ولا تسيروا سير الغافلين، وأمّا قوله: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟﴾ فمعناه إباحة السّير في الأرض للتجارة وغيرها من المنافع وإيجاب النظر في آثار الهالكين. ونبّه على ذلك بـ"ثمّ" لتباعد ما بين الواجب والمباح. "[1]

فالزمخشري أوّلَ فاء العطف بلام السّبب فكأنّ النظر والتفكر هو سبب السير في الأرض، وقد ردّ أبو حيان على قول الزمخشري بأنّ " ما ذكره أوّلا متناقض لأنّه جعل النّظر متسبّبا عن السّير فكان السّير سببا للنّظر، ثم قال: فكأنما قيل: سيروا لأجل النظر فجعل السير معلولا بالنّظر، فالنّظر سبب له فتناقضا، ودعوى أنّ الفاء تكون سببية لا دليل عليها وإنما معناها التعقيب فقط، وأما مثل ضربت زيدا فبكى، وزنى ماعز فرجم، فالتسبيب فهم من مضمون الجملة لأنّ الفاء موضوعة له وإنما يفيد تعقيب الضّرب بالبكاء، وتعقيب الزّنا بالرّجم فقط، وعلى تسليم أنّ الفاء تفيد التسبيب؛ فلِمَ كان السّير هنا سير إباحة وفي غيره سير واجب؟ فيحتاج ذلك إلى فرق بين هذا الموضع وبين تلك المواضع. "[2]

(1) . الكشاف، ج2، ص10.
(2) . البحر المحيط، ج4، ص446.

ولعلّ منطلق الزمخشري حاد عن اعتماد الفرق اللّغوي للحرفين أي: الفرق بين تعقيب النّظر وتراخيه وربط كلّ منهما بسياقه ومقامه المناسب، وذهب في معنييهما إلى السّبب في الفاء، والبعد في ثمّ، وبناء الإباحة والوجوب عليهما، مما جعل رأيه محلّ تبصّر ونظر.

فقوله في سورة الأنعام: ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ ﴾ لم يجعل النّظر فيه واقعا عقيب السّير، متعلّقا وجوده بوجوده، لأنّه بعث على سير بعد سير لما تقدّم من الآية التي تدلّ على أنه تعالى حداهم على استقراء البلاد ومنازل أهل الفساد، وأن يستكثروا من ذلك ليروا أثرا بعد أثر، في ديار بعد ديار قد عمم أهلها بدمار، لقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ ﴾ [الأنعام: 6]، ثم قال: ﴿ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ [الأنعام: 6].

فذكر في قوله: ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ﴾ [الأنعام: 6]أي: قرونا كثيرة أهلكناهم، ثم قال، وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين، فدعا إلى العلم بذلك بالسير في البلاد ومشاهدة هذه الآثار وفي ذلك ذهاب أزمنة كثيرة ومدد طويلة تمنع النظر من ملاصقة السير، كما قال في المواضع الأخرى التي دخلها الفاء لما قصد فيها من معنى التعقيب واتصال النظر بالسير، إذ ليس في شيء من الأماكن التي استعملتها فيها الفاء ما في هذا المكان من البعث على استقراء الديار وتأمّل الآثار فجعل السّير في الأرض في هذا المكان مأمورا به على حدة، والنّظر بعده مأمورا به على حدة، وسائر الأماكن التي دخلتها الفاء علّق فيها وقوع النّظر بوقوع السّير، لأنّه لم يتقدم الآية ما يحدوا على السّير الذي حدا عليه فيما قبل هذه الآية، فلذلك خصّت بـ "ثمّ" التي تفيد تراخي المهلة بين الفعلين. (1)

وقد بيّن السامرائي أنّ وضع "ثم" الواردة في سورة الأنعام يقتضيها السّياق من عدّة نواح بخلاف سياق آية النّمل، فكلّ من التعقيب والإمهال جاء متّسقا مع الأحوال التي اقتضته وأحكمت وجوده فإنّ المكذب قد تعطى له مهلة أطول من مهلة المجرم، فإنّ المجرم ينبغي أن يؤخذ بجرمه على وجه التعقيب، ولذا جاء مع المكذبين بـ"ثم" ومع المجرمين بالفاء، فاقتضى ختام كلّ آية بالحرف الذي اختير لها. ومن جهة أخرى أنّ التكذيب والسّخرية في النّمل أكبر مما في الأنعام، فقد جاءت آية

(1) . ينظر: درة التنزيل، ج2، ص492، وأسرار التكرار، ص105.

النّمل بعد قوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ٦٧ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٦٨ ﴾ [النمل: 67-68].

ثمّ جاء بالآية: ﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ ﴾، ثم صبّر الرسول بعدها بقوله: ﴿ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ٧٠ ﴾ [النمل: 70]، فاقتضى كلّ ذلك التعجيل بالفاء لا الإمهال.

ثم انظر من جهة أخرى إلى قوله تعالى بعد آية النمل: ﴿ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ ٧٢ ﴾ [النمل: 72]، بخلاف قوله في الأنعام: ﴿ مَا عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦٓ ﴾ [الأنعام: 57]، فناسب كلّ ذلك ذكر ثمّ في آية الأنعام وذكر الفاء في آية النّمل. لقد تبيّن في كلّ ذلك أنّ سورة الأنعام مبنيّة على تأخير العقوبات والوعيد، فناسب ذلك ذكر سوف فيها بخلاف آية الشعراء. [1]

وفي كلّ هذا ما يبيّن أنّ الفاء في هذه الآية ليست بمعنى ثمّ؛ وإن تشابهت المواضع واقتربت المعاني ولا حاجة إلى التقدير أو التمحّل لجعل الحرفين متساويين في الحكمة والدّلالة.

ومن أبرز الشّواهد الدالة على دقّة الأسلوب القرآني في توظيف حروف العطف بما يحاكي أطوار الخلق ويناسب الموقف، منها قوله تعالى: ﴿ قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ١٧ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ١٨ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ٢٢ ﴾ [عبس: 17-22].

فقد بيّن لنا ابن الأثير من خلال هذا الموضع مواطن الفضيلة وحسن التخيّر بالعدول إلى الحرف الأفضل في المقام الأنسب، يقول: " ألا ترى أنه لما قال: ﴿ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ ﴾ كيف قال: ﴿ فَقَدَّرَهُۥ ﴾ ولم يقل: ثمّ قدَّره، لأنّ التقدير لما كان تابعاً للخِلقة وملازماً لها عطفه عليها بالفاءِ؟ وذلك بخلاف قوله: ﴿ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴾ لأنّ بين خلقته وتقديره في بطن أمه وبين إخراجه منه

[1]. التعبير القرآني، السامرائي، ص187-188.

وتسهيل سبيله مهلة وزماناً، فلذلك عطفه بثمِ. وعلى هذا جاء قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾ لأنّ بين إخراجه من بطن أمه وبين موته تراخياً وفُسحة، وكذلك بين موته ونشوره أيضاً، ولذلك عطفهما بثمّ، ولما لم يكن بين موتِ الإنسان وإقباره تراخٍ ولا مُهلة عطفه بالفاء.
وهذا موضع من علم البيان شريفِ وقلّما يتفطّن لاستعماله كما ينبغي. ››[1]

الموضع الثاني: قال عزّ وجلّ: ﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [المدثر: 18-25].

فعندما ننعم النّظر في هذا السّياق نجد أنّ حرف التراخي "ثم" قد صوّر لنا أبلغ تصوير حالة الصّراع الداخلي الذي كابده "الوليد بن المغيرة "الذي نزلت في شأنه هذه الآيات، وكيف أنه أجال التفكير في شأن القرآن، وأعوزته الحيلة بعد مهلة من الزّمن وتريث، فلم يجد ما يعيب به القرآن، ثم بعد ذلك كله سارع إلى إلقاء كلمة مفتراة في وصف هذا القرآن العظيم بقوله :﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ . فدلّت "الفاء" في قوله : "فقال" على أنّ صدور القول منه دون نظر تراخي، ولأنّ الكلمة لما خطرت بباله بعد التطلب واكتداد فكره لم يتمالك أن نطق بها من غير تلبث، أو تفكّر في المقول فكلّ معاني التريث والرزانة والتعقل غير موجودة في هذا المقام، ولو جاء النّظم القرآني بـ" ثمّ" بدل الواو؛ لدلّ على أنّ هذا القول قد قاله عن بصيرة، وتيقّن، وأنى له ذلك. [2]

يقول الزمخشري: ‹‹ فإن قلت: ما معنى "ثمّ" الداخلة في تكرير الدّعاء؟ قلت؛ الدّلالة على أنّ الكرّة الثانية أبلغ من الأولى، ونحوه قوله:

أَلاَ يَا اسْلَمِي ثُمَّ اسْلَمِي ثُمَّتَ اسْلَمِي. ››[3]

فالعطف بـ "ثم" في قوله: ﴿ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ يفيد أنّ جملتها أرقى رتبة من التي قبلها في الغرض المسوق له الكلام. فإذا كان المعطوف بها عين المعطوف عليه أفادت أنّ معنى المعطوف عليه ذو

(1) . المثل السائر، ج2، ص229.
(2) . ينظر: الكشاف، ج4، ص652، والتحرير والتنوير، ج29، ص309.
(3) . الكشاف، ج4، ص561.

درجات متفاوتة مع أنّ التأكيد يكسب الكلام قوّة، فالتراخي هنا تراخي رتبة لا تراخي زمن لأنّ نظره وعبوسه وبسره وإدباره واستكباره مقارنة لتفكيره وتقديره.

فـ"ثمّ" حيث لا يُقصد مهلة الزّمان تحرز تنبيها على حال ما يعطف بها ومحلّه والإشارة إلى أنه بحيث أنه لو لم يذكر ما قبله لكان كافيا في المقصود هذا ما تحصله حيث لا يُقصد مهلة الزّمان. (1)

وعلى نحو هذا جاء قوله تعالى: ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ ﴾ [طه: 60].

حيث جاء الأسلوب القرآني معبّرا عن تولي فرعون، وجمعه الحشود والأعوان، وكلّ ما يستطيعه من كيد، بحرف العطف "الفاء"، فقال: ﴿ فَتَوَلَّىٰ ... فَجَمَعَ ﴾، ثم عدل في تصويره لمواجهته فرعون موسى عليه السلام إلى حرف التراخي "ثم"، حين قال: ﴿ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾.

فكان مقتضى الظّاهر أن تكون هذه الأحداث متعاقبة؛ التولي فالجمع فالإتيان، لا سيما أنّ جمع الناس والإعداد للمواجهة يحتاج إلى مهلة من الزّمن، في حين أنّ الإتيان بعد ذلك هو أيسر وأسهل وكان التعبير في هذا السّياق يقتضي العكس، بأن يقول :"ثم جمع كيده فأتى"، فمثّل التعبير في هذا السّياق خروجًا عن مقتضى الظّاهر؛ وذلك لدلالة نفسية عميقة يوحي بها هذا السّياق، مفادها أنّ الجمع كان أهون على فرعون من مواجهة موسى عليه السلام ، فدلت "الفاء" في قوله: "فَجَمَعَ" إلى سرعة تحقّق الجمع له وحشد الناس؛ لكونه ملكًا جبارًا يخشى سطوته الجميع، فأمره بالجمع نافذ وسريع، وهو مع هذا كله يعيش هزيمة نفسية كبيرة في داخله من مواجهة موسى عليه السلام ، فهو يقدم رجلاً، ويؤخّر أخرى؛ لذا عبّر القرآن عن هذه الهزيمة النّفسية بحرف التراخي "ثم"، بقوله : "ثُمَّ أَتَى" .

فالتعبير بـ"ثمّ" جاء للدّلالة على أنّه استغرق وقتا طويلا في جمع السّحرة ورسم الخطط، وقد أشار إلى هذه النكتة أبو السعود، بقوله: ((وفي كلمة التراخي إيماء إلى أنّه لم يسارع إليه بل أتاه بعد لأيٍ وتلعثم.)) (2)

(1) . ملاك التأويل، ج1، ص99.

(2) . تفسير أبي السعود، ج6، ص24.

كما أنّ "ثمّ" صوّرت في هذا السّياق معنى المهلة الحقيقية والرتبية معا وذلك « لأنّ حضوره للموعد كان بعد مضي مهلة الاستعداد، ولأنّ ذلك الحضور بعد جمع كيده أهمّ من جمع الكيد لأنّ فيه ظهور أثر ما أعدّه. »(1)

ومن مفاتن اللّغة ودقّة إحكامها أنها اختارت الفاء المكونة من حرف واحد لمعنى المسارعة و"ثمّ" على ثلاثة أحرف لعدم المسارعة ليتناغم طول النّطق بحرف المهلة مع التراخي، على عكس الفاء.

وبتدبّر هذه المواضع ندرك أنّ التراخي والمهلة في "ثم" يقع بين المعطوف والمعطوف عليه، إلا أنّ هذه المهلة قد تتجاوز الزمن الفعلي إلى تعلّقها بزمن نفسي واستعداد روحي يقصر في أحوال الأمن والشّوق، ويطول في مقامات المشاقّ، والخوف، والتردّد.

(1) . التحرير والتنوير، ج16، ص248.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الموضع الثالث:

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [السجدة: 22]

وقال أيضا: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ ﴾ [الكهف: 57].

يقول الإسكافي في توضيح نكتة العدول بعد تساؤله عن سبب التفريق بين الموضعين: ((والجواب أن يقال: إنّ "الفاء" و "ثم" مشتركان في أنّ ما بعدهما في اللفظ متأخر عمّا قبلها في المعنى، ومختلفان في أنّ "الفاء" قرُب ما بعدها ممّا قبلها، وفي "ثم " تراخ عنه وبُعْد، فكان استعمال الفاء في سورة الكهف أولى، واستعمال "ثم" هناك أحقّ وأحرى، وذلك أنّ ما في سورة الكهف في ذكر قومٍ يُستدعَون إلى الإيمان، ولم تختم أعمالهم بالكفر لقوله تعالى: ﴿ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴾ [الكهف: 56].وليس كذلك قوله: ﴿ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ﴾ الآية، في وصف الكفار بعد موافاتهم القيامة لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [السجدة: 12] إلى قوله: ﴿ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ﴾، أي: ذكّر مدّة عمره بآيات ربّه، وتطاول الأمر بزجره ووعظه، ثم ختم ذلك بترك القبول وبالإعراض، فكان هذا قولاً يقال فيهم عند الانتقام منهم كما حكى قولهم: ﴿ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [السجدة: 12]، فقد بان بما ذكرنا أن "ثمّ" هنا مكانها، والفاء هناك مكانها.))[1]

لكن الزمخشري لم يصرف "ثمّ" هنا على حقيقتها، بل رأى أنّ (("ثمّ" في قوله: ﴿ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ﴾ للاستبعاد. والمعنى: أنّ الإعراض عن مثل آيات الله في وضوحها وإنارتها وإرشادها إلى سواء السّبيل والفوز بالسّعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعد في العقد والعدل، كما تقول

(1) . درة التنزيل، ج1، ص877.

لصاحبك: وجدت مثل تلك الفرصة ثم لم تنتهزها استبعاداً لتركه الانتهاز. ومنه "ثمّ" في بيت الحماسة [(1)]:

لاَ يَكْشِفُ الغُمَّاءَ إلاَّ ابْنُ حُرَّة ... يَرَى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ثُمَّ يَزُورُهَا.

استبعد أن يزور غمرات الموت بعد أن رآها واستيقنها واطّلع على شدّتها.))[(2)]

ولا يضير الإسكافي أن أجرى ثمّ على حقيقتها بخلاف الزمخشري ومن تابعه ممن جعلوها مجازا بالاستبعاد لأنهما يلتقيان في أنها أكثر تشديدا وزجرا من الفاء والإعراض بها أقبح وأفظع، إما لغرابته وبعده في ترتبه على ما يوجب الإقبال؛ في مدلول المجاز، وإما لما فيه من الإصرار والتمادي على الباطل بعد طول التذكير، كما في مفهوم الحقيقة. [(3)]

ومن الشّواهد التي دلّت فيها "ثمّ" على هذا المعنى قوله عزّ وجلّ: ﴿ يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٨﴾ ﴾ [الجاثية: 8].

فمعنى "ثمّ" في قوله: ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا ﴾ ؟ كمعناها في قول القائل: "يَرَى غَمَرَاتِ المؤتِ ثُمَّ يَزُورُها" وذلك أنّ غمرات الموت حقيقة، بأن ينجو رائيها بنفسه ويطلب الفرار عنها. وأمّا زيارتها والإقدام على مزاولتها فأمر مستبعد، فمعنى ثمّ: الإيذان بأن فعل المقدّم عليها بعدما رآها وعاينها شيء يستعبد في العادات والطباع، وكذلك آيات الله الواضحة الناطقة بالحق من تُليت عليه وسمعها: كان مستبعداً في العقول إصراره على الضلالة عندها واستكباره عن الإيمان بها. [(4)]

وقد تابع الزمخشري في كونها للاستبعاد أبو السعود، وابن عاشور؛ إلا أنه زاد فيها معنى التعجّب من الحال، فأثبت لـ"ثم" معنى تراخي الاستبعاد والتعجيب من حالهم، فقال في تعليقه عن البيت السابق بأنّ قوله مِن ((عجيب إقدامه على مواقع الهلاك بعد مشاهدة غمرات الموت تغمر الذين أقدموا على تلك المواقع.))[(5)]

([1]) . ينظر: شرح أبيات الحماسة، أحمد المرزوقي، ت: غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ ص39.

([2]) . الكشاف، ج3، ص522.

([3]) . ينظر: من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم، ص278.

([4]) . الكشاف، ج4، ص289-290.

([5]) . التحرير والتنوير، ج21، ص234.

وفي هذا قوله صلى الله عليه وسلم: ((لا يَجلِدُ أحدُكُمْ امرأتهُ جلدَ العبدِ ثُمَّ يُجامِعُها في آخرِ اليومِ))[1]، قال العيني[2] في شرح هذا الحديث: ((وفيه استبعاد وقوع الأمرين من العاقل أنْ يبالغ في ضرب امرأته ثم يجامعها في بقية يومه أو ليلته.))[3]

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ ﴾ [النّساء: 17] فلو كان المقصود بـ"ثم" التراخي في الزمان لتناقض ذلك مع قوله: ﴿ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ ﴾ ولكنها دخلت لبعد ما بين الحالين: عمل السّوء والتوبة من قريب. [4]

وقد ذكر البقاعي إضافة إلى معنى الاستبعاد معنى آخر تبعا لأصلها، واستحسن مسلكه وهو أن تكون "ثم" على بابها للتّراخي في المهلة، والمعنى أنّ من وقع له التذكير بها في وقت ما، فأخذ يتأمّل فيها ثمّ أعرض عنها بعد ذلك ولو بألف عام فهو أظلم الظالمين، ويدخل فيه ما دون ذلك عن باب الأولى لأنّه أجدر بعدم النّسيان، ورأى أنّ معنى "ثم" هنا أبلغ من التعبير بالفاء، أمّا العدول عن "ثمّ" إلى الفاء في سورة الكهف، فلأنَّ السّياق مختلف؛ وذلك بكون الفاء شرحاً لما يكون من حالهم، عند بيان سؤالهم الذي جعلوا بأنّه آية الصّدق، والعجز عن آية الكذب. [5]

إنّ "الفاء" و "ثمَّ" وإن اشتركا في أنّ مَا بعدهما في اللّفظ متأخّر عمّا قبلها في المعنى، فإنهما يختلفان في أنّ "الفاء" قُرب ما بعدها ممّا قبلها، وفي "ثم " تراخ عنه وبُعْد.

وعودا على ما جاء في سورة الكهف في ذكر قومٍ يُستدعَون إلى الإيمان، ولم تختم أعمالهم بالكفر فهي تتحدّث في الأحياء من الكفار، إذ ذكروا فأعرضوا عقيب ما ذكروا ونسوا ذنوبهم وكان متوقعا منهم أن يؤمنوا، لقوله تعالى: ﴿ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا ﴾ [الكهف: 56] وما في السّجدة في الأموات من الكفار ووصفهم بعد

---

(1) . صحيح البخاري، ج7، ص32، برقم (5204) .

(2) . هو محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد، أبو محمد، بدر الدين العيني الحنفي مؤرخ، علامة، من كبار المحدثين، ولد سنة: 762هـ، أصله من حلب ومولده في عينتاب، من كتبه: عمدة القاري في شرح البخاري، ومغاني الأخيار في رجال معاني الآثار وعقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، توفي سنة: 855هـ، ينظر: الأعلام، الزركلي، ج7، ص163.

(3) . عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ج20، ص193 .

(4) . ينظر: معاني النحو، ج3، ص210.

(5) . ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج15، ص262.

موافاتهم القيامة بدليل قوله ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ ﴾ [السّجدة: 12] أي ذكّروا مرّة بعد أخرى وزمانا بعد زمان ثم أعرضوا عنها بالموت فلم يؤمنوا وانقطع رجاء إيمانهم فكان هذا قولاً يقال فيهم عند الانتقام منهم كما حكى قولهم: ﴿ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ١٢ ﴾ [السجدة: 12]. [1]

إنّ لحروف العطف أسرارا لا يدركها إلا الحاذق في البيان فلا ينبغي أن نضع بعضها موضع بعض فالنّظم القرآني لما عدل إلى ثمّ في موضع دون آخر يوحي بخصيصة بيانية محكمة استأثرت بها دون أي حرف آخر، فحرف "ثمّ" جاء ليصوّر لنا حالة الاستبعاد والتطاول في المدّة وقد ناسب ذكرها في قوله: ﴿ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآ ﴾ لأنّ من أعرض عن آيات الله وهي في غاية الوضوح البيان يعد عمله هذا مستبعدا في حكم المبادئ الثابتة، ومعايير العقول الرّاجحة.

([1]). ينظر: درة التنزيل، الإسكافي، ج1، ص876-877، وأسرار التكرار، الكرماني، ص170.

الصورة الثالثة: العدول من "ثم" إلى"الواو":

الموضع الأول: قال تعالى: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ﴾ [الزمر: 6].

كما قال سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف: 189].

جاء العطف في آية الزّمر عقب الخلق بثمّ في قوله سبحانه: ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ لكنه في آية الأعراف عدل عنه إلى الواو في قوله: ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ وقد خرّج بعض أهل اللغة [1] هذا الاختلاف بتناوب الحرفين يعني أنّ "ثمّ" لا تفيد الترتيب الزمني، فهي في هذه الآية بمنزلة الواو لا ترتّب وأنشدوا في ذلك:

سألت ربيعةَ: من خيرُها ... أباً ثم أمّا؟ فقالت: لِمَهْ. [2]

وقد خطّأ الزجاج الأخفشَ في زعمه أن "ثمّ" تفيد الواو، عند قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ﴾ [الأعراف: 11]، فقال: « هذا خطأ لا يجيزه الخليل وسيبويه وجميع من يوثق بعربيته إنما ثمّ" للشيء الذي يكون بعد المذكور قبله لا غير... أي هذا أصل خلقكم. ثم خلق الله نطفا ثم صوروا، فثم إنما هي لما بعد. »[3]

كما أن طبيعة اللغة تقتضي التفريق بين معاني الحروف المختلفة وإلا فلا معنى لاختيار حرف عن آخر، وفي هذا ننقل كلاما نفيسا للسهيلي ذكر فيه خاصية لفظية ومعنوية لثم لا يشركه أي حرف آخر فيها يقول: « فهذه "ثم" حرف عطف، ولفظها كلفظ الثمّ، والثمّ هو: رمّ الشيء بعضه إلى بعض كما قال: "كنا أهل ثمّة ورمّة "، ويروي " أهل ثمّة ورمّة "، وأصله من: ثَمَمْتَ البيت: إذا كانت

([1]) . ينظر: معاني القرآن، الأخفش، ج1، ص321.

([2]) . ينظر: جامع البيان، ج12، ص322. وقد ذكر المحقق محمود شاكر أنه لم يعرف له قائل، ينظر: الصفحة نفسها.

([3]) . معاني القرآن وإعرابه، ت: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتاب، بيروت، ط1، 1408هـ-1988م، ج2، ص322.

فيه فرج فسد بالثّمام... والمعنى الذي في "ثمّ" العاطفة قريب من هذا، لأنّه ضمّ الشيء إلى شيء بينهما مهلة.))[1]

كما ردّ الطبري بشدّة على من تأوّل الآية على معنى البيت، وذلك أنّ كتاب الله جلّ ثناؤه نزل بأفصح لغات العرب، وغير جائز توجيه شيء منه إلى الشاذّ من لغاتها، وله في الأفصح الأشهر معنى مفهومٌ ووجه معروف. [2]

أما ابن هشام فأورد الخلاف في كون "ثمّ" في الآية مرتّبة، لأنّ خلق حواء من آدم لما لم تجر العادة بمثله جيء بـ"ثمّ" إيذانا بترتّبه وتراخيه في الإعجاب وظهور القدرة لا لترتيب الزّمان وتراخيه. [3]

لكن الزمخشري حلّل وجه العطف بـ"ثمّ" تحليلا رائعا أثبت لثمّ فيها معنى لطيف لغرض ألطف يقول: ((فإن قلت: ما وجه قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وما يعطيه من معنى التراخي؟ قلت: هما آيتان من جملة الآيات التي عدّدها دالاً على وحدانيته وقدرته: تشعيب هذا الخلق الفائت للحصر من نفس آدم، وخلق حواء من قصيراه؛ إلا أنّ إحداهما جعلها الله عادة مستمرّة، والأخرى لم تجرِها العادة، ولم تخلق أنثى غير حواء من قصيرى رجل، فكانت أدخل في كونها آية، وأجلب لعجب السامع، فعطفها بثم على الآية الأولى، للدلالة على مباينتها لها فضلاً ومزية، وتراخيها عنها فيما يرجع إلى زيادة كونها آية، فهو من التراخي في **الحال والمنزلة**، لا من التراخي في الوجود.))[4]

أي أنها للدّلالة على البعد المعنوي بين الأمرين، وهو غير الاستبعاد، فالبعد يقتضي تجانس الأمرين إلا أنّ ما بعد ثمّ متباين حالا وهيئة، فهو بُعدٌ في التفاوت لا في المنافاة والمضادة، ويستعان بمقام السّورتين فالزمر في مقام عرض مظاهر لقدرة الله تعالى ((فلما قصد من الامتنان والإنعام على الجنس الآدمى ولتفاوت ما بين الآيتين العجيبتين من خلق الصنف الإنسانى من شخص واحد وخلق زوجه فجئ بثم المنبهة على معنى الاعتناء بذكر ما عطف بها والتأكيد لشأنه للمزية على المعطوف عليه القائمة مقام التراخى فى الزمان.))[5]

([1]) . نتائج الفكر، ص96.

([2]) . ينظر: جامع البيان، ج12، ص322.

([3]) . مغني اللبيب، ص159.

([4]) . الكشاف، ج4، ص115.

([5]) . ملاك التأويل، ج1، ص98.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وما نلحظه أنّ معنى "البعد المعنوي" في "ثم" أسبغها مدلولا فنيا راقيا، فهي لا تقتصر على بيان أزمان الأحداث بل تتعدّاه إلى تباين هيئات الأحداث، وليس غرض هذا البعد محصورا في علو المرتبة والأفضلية، ولكن المعنى هو أنّ ما بعد "ثم" فيه بعد معنوي زائد عما قبلها، وأكثره في الإعجاب إظهار العظمة، ومن المواضع التي تحوي سمة البعد الأسلوبية ما ذكره الزمخشري في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾ [الأنعام: 8]، حيث بين أنّ "ثمّ" دلّت على بعد ما بين الأمرين: قضاء الأمر وعدم الإنظار، جعل عدم الإنظار أشدّ من قضاء الأمر، لأنّ مفاجأة الشدّة أشدّ من نفس الشدّة. (1)

كما ألمحت "ثمّ" إلى تخصيص المرتبة الثانية معنويا عن الأولى وهي في العادة مبنية ومؤسَّسة على الأولى، ولو قلنا إنّها بمعنى حرف عطف آخر لتلاشت كلّ هذه الإشارات واللّطائف ولأصبح الحكم واحدا يلفّ ويجمع الأمرين؛ وعليه ينقطع وحي الأسلوب من كلّ معاني التّباين والتراخي.

(1) . ينظر: الكشاف، ج2، ص9.

الموضع الثاني: قال تعالى: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ ﴾ [المدثر: 11-15].

ذهب جمع من المفسرين[1] إلى أنّ "ثم" في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴾ للإنكار والتعجّب كما تقول لصاحبك: أنزلتك داري وأطعمتك وأسقيتك ثم أنت تشتمني.

أمّا صاحب الكشاف فيرى أنّ "ثم يطمع" استبعاد لطمعه وحرصه، إما لأنّه لا مزيد على ما أوتي كثرة وسعة، أو لأنّه لا يناسب ما هو عليه من كفران النعم ومعاندة المنعم. [2]

كما لم يفرق ابن عاشور بين معنى الاستبعاد والتراخي الرتبي في هذا السياق يقول: « وثم في قوله: "ثم يطمع" للتراخي الرتبي، أي وأعظم من ذلك أنّه يطمع في الزّيادة من تلك النعم وذلك بما يعرف من يسر أموره. وهذا مشعر باستبعاد حصول المطموع فيه. »[3]

ويرى الألوسي أنّ استعمال ثُمَّ للاستبعاد كثير، قيل وهو غير التفاوت الرّتبي بل عدّ الشّيء بعيدا غير مناسب لما عطف عليه كما تقول تسيء إليّ ثم ترجو إحساني، وكان ذلك لتنزيل البعد المعنوي منزلة البعد الزماني. [4]

فليس الطّمع في ذاته هو المستبعد لأنّ الشّأن في الإنسان أنه نهمٌ لا يشبع وأن حبّه للدّنيا وزينتها لا يقف عند حدّ، وإنما المستبعد هو الطّمع في زيادة الله له وهو على حاله من الكفر وهذا ما يقتضي ردعه وزجره عما طمع "كلا إنه....." فكأنّ هذا العناد هو علّة الاستبعاد، فدلّت ثمّ على استبعاد وقوع ما طمع فيه بعد استكباره وعناده . [5]

قال القرطبي: « و"ثم" في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ ﴾ ليست بـ"ثمّ" التي للنسق ولكنها **تعجيب** وهي كقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام: 1] وذلك كما تقول: أعطيتك ثم أنت تجفوني؛ كالمتعجب من ذلك. »[6]

---

(1) . ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ج30، ص705.

(2) . ينظر: الكشاف، ج4، ص650، وأنوار التنزيل، البيضاوي، ج5، ص260، والبحر المحيط، ج10، ص329.

(3) . التحرير والتنوير، ج29، ص305.

(4) . ينظر:روح المعاني، الألوسي، ج15، ص136.

(5) . ينظر: من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم، محمد أمين الخضري، ص191-192.

(6) . الجامع لأحكام القرآن، ج19، ص72.

أما ابن عطية فإنه يرى في "ثمّ" قبحا وتوبيخا لفعل الذين كفروا «لأنّ المعنى أن خلقه السموات والأرض وغيرهما قد تقرّر وآياته قد سطعت وأنعامه بذلك قد تبين "ثم" بعد هذا كلّه عدلوا بربهم فهذا كما تقول: يا فلان أعطيتك وأكرمتك وأحسنت إليك ثم تشتمني، أي: بعد مهلة من وقوع هذا كلّه ولو وقع العطف في هذا ونحوه بالواو لم يلزم التوبيخ كلزومه بـ"ثمّ".»[1]

ولئن تباينت الآراء في دلالة "ثمّ" بين الإنكار والاستبعاد والتعجيب فهي تتفق في وجود السمة الأسلوبية المتولّدة من الأسلوب العدولي عن استعمال حرف الواو الذي بدأ به السياق إلى كسر أفق التوقع إلى توظيف "ثمّ" الدالة على ملامح القبح والإنكار والاستبعاد.

الموضع الثالث:

قال تعالى: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [الأعراف: 124].

وقال سبحانه: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الشعراء: 49]. وفي: [طه: 71] كذلك.

يرى الإسكافي بأنّ السورتين اللتين اختصا بالواو جاء فيهما التفصيل في الحدث حيث بنيتا على الاقتصاص الأكثر والبسط الأوسع، والواو أنسب لهذا المعنى، لأنه يجوز أن يكون ما بعدها ملاصقا لما قبلها كالتعقيب الذي يفاد بالفاء، ويجوز أن يكون متراخيا عنه كالمهلة التي تفاد بـ "ثم" لا بل يجوز أن يكون ما بعدها مقدما على ما قبلها، إذ لا ترتيب فيها، أما ثم فهي تختص بواحد من مواضع الواو ولا تصلح للموضع الذي للواو.[2]

([1]) . المحرر الوجيز، ج2، ص266.

([2]) . ينظر: درة التنزيل، ج2، ص678-679.

❖ العدول بالاختيار:

الصورة الأولى: العدول إلى الواو:

الموضع الأول: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [النّمل: 15].

يقول الزّمخشري متسائلا: « فإن قلت: أليس هذا موضع الفاء دون الواو، كقولك: أعطيته فشكر ومنعته فصبر؟ قلت: بلى، ولكن عطفه بالواو إشعار بأنّ ما قالاه بعض ما أحدث فيهما إيتاء العلم وشيء من مواجبه، فأضمر ذلك ثم عطف عليه التحميد، كأنّه قال: ولقد آتيناهما علماً فعملا به وعلماه وعرفا حق النّعمة فيه والفضيلة. »(1)

فالسّياق القرآني لم يرتّب القول على الإتيان بالفاء بل عدل عنها متخيّرا الواو مما يوحي بوجود لطيفة تعبيرية أشربها الموقف، وقد عدّ السّكاكي هذا من ضروب الاختصارات البلاغية لطيفة المسلك، فبعد ذكره لكلام الزّمخشري قال: « ويحتمل عندي أنه أخبر تعالى عمّا صنع بهما وأخبر عما قالا كأنّه قال نحن فعلنا إيتاء العلم وهما فعلا الحمد تفويضا استفادة ترتّب الحمد على إيتاء العلم على فهم السّامع. »(2)

وما خولف فيه ظاهر الترتيب قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف: 28]. وفي هذا يقول ابن الأثير: « فقوله "أغفلنا قلبه" ههنا بمعنى صادفناه غافلاً وليس منقولاً عن غفل حتى يكون معناه صددناه لأنّه لو كان كذلك لكان معطوفاً عليه بالفاءِ وقيل فاتّبع هواه وذلك أنه يكون مطاوعاً وفعل المطاوعة لا يعطف إلا بالفاءِ كقولك أعطيته فأخذ أو دعوته فأجابِ ولا تقول أعطيته وأخذِ ولا دعوته وأجابِ كما لا يقال: كسرته وانكسر بالواو، فطريقة أنه لما قال ﴿ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ أن يكون معناه وجدناه غافلاً فقد غفل لا محالة فكأنه قال: ولا تطع من غفل قلبه عن ذكرنا واتبع هواه أي لا تطع من فعل كذا وكذا يعدد أفعاله التي توجب ترك طاعتهِ، وكذلك لو كان معنى: أغفلنا في الآية صددنا ومنعنا

(1) . الكشاف، ج3، ص357.

(2) . مفتاح العلوم، ص278.

لكان معطوفاً عليه بالفاءِ، وكان يقال: ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا فاتبع هواهِ، فلما لم يكن كذلك وكان العطف عليه. ››[1]

فقد يبدو بادئ الأمر أنّ المقام الأنسب للفاء، فيقال: "ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا فاتبع هواه"؛ لأنّ فعل المطاوعة لا يعطف إلا بالفاء، تقول أعطيته فأخذ، ولكن التأمل يدل على أن الآية تعدّد صفات الشخص الذى نهى الرسول عن طاعته، ومن أغفل الله قلبه عن ذكره فقد غفل قلبه، فكأنّه قال: ولا تطع من غفل قلبه عن ذكرنا، واتبع هواه، ومن هنا كانت الواو أبلغ معنى من الفاء.

الموضع الثاني: قال تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾ [النساء: 3].

عدل التعبير القرآني عن حرف "أو" إلى حرف العطف الواو، ولا شكّ أن هذا العدول يحمل معه نكتة أسلوبية وسرّا بلاغيا، وهذا ما التمسه الزمخشري حين قال: ‹‹فإن قلت: فلم جاء العطف بالواو دون "أو"؟ قلتُ: كما جاء بالواو في المثال الذي حذوته لك، ولو ذهبت تقول: اقتسموا هذا المال درهمين درهمين أو ثلاثة ثلاثة أو أربعة أربعة أعلمتَ أنّه لا يسوغ لهم أن يقتسموه إلا على أحد أنواع هذه القسمة وليس لهم أن يجمعوا بينها فيجعلوا بعض القسم على تثنية وبعضه على تثليث وبعضه على تربيع، وذهب معنى تجويز الجمع بين أنواع القسمة الذي دلّت عليه الواو وتحريره أنّ الواو دلّت على إطلاق أن يأخذ الناكحون من أرادوا نكاحها من النّساء على طريق الجمع إن شاءوا مختلفين في تلك الأعداد وإن شاءوا متفقين فيها محظورا عليهم ما وراء ذلك. ››[2]

فالزمخشري انطلق من معنى الحرفين ليؤصّل إثبات حكم شرعي بحرف الواو الذي عدل إليه النّظم والمفيد للتشريك في الحكم، فدلّ على جواز الجمع بين أنواع القسمة لجملة الناكحين في مجتمع مسلم على حسب الرّغبة في القدر المباح لهم، وهذا التحليل لا يصدق مع حرف التخيير "أو" الذي يقتضي عدم الجمع بين الأقسام واختيار لون واحد منها على سبيل اللّزوم، وهذا ما لم تقصد إليه الآية، وعرف الشّرع الإسلامي.

([1]). المثل السائر، ج2، ص48.
([2]). الكشاف، ج1، ص499.

ولا جرم أنّ المتفحّص لخصائص هذا التركيب العدولي يستشفّ ما للتشريع الإسلامي من مقاصد سامية في تقرير النّكاح بوضعه أُطُر التجويز لما يصلح للمجتمع المسلم « فالآية تخاطب جماعة المسلمين، بقرينة قوله: فانكحوا، أي أنها تقرّر التشريع للجماعة الإسلامية لا للفرد المسلم الواحد ولذلك فالآية حريصة على إبراز معنى تجويز الجمع بين الحالات الثلاث للمجتمع الإسلامي وليس للفرد الواحد. ولو استعملت أو" لذهب معنى التجويز ولكان المعنى أنّه لا يجوز الزواج في الإسلام إلا على حالة واحدة من الحالات الثلاث، أي يكون حتما على المسلمين جميعا أن يخيّروا حالة واحدة من الحالات الثلاث ويتركوا الحالتين الأخريين، والمعلوم أنّ الحالات الثلاث كلّها جائزة لجماعة المسلمين؛ ذلك لأنّ "أو" لا تفيد الجمع بين جزئيات القسمة، وإنما تفيد إدخال إحدى الجزئيات تحت الحكم الكلي دون سائرها. وقد قال النّحاة: إنّ التخيير بأو يتحتّم فيه أحد المتعاطفين، ولا يجوز الجمع بينهما نحو: "تزوّجْ هندا أو أختها". »[1]

وكذلك لم تستعمل الآية الحرف "إما" للحصر؛ فلا يصحّ فهم الآية على نحو: "إما مثنى وإما ثلاث وإما رباع". هنا يمنع التركيب الجمع، ولكنّه يمنع الخلوّ أيضا، وليس هذا مطلوبا في الآية لأنّ في الشرع حالة رابعة هي الزواج من واحدة، وقد كان القرآن حريصا على فصلها عن هذه القسمة.

(1). أساليب العطف في القرآن، ص58.

الصورة الثانية: العدول إلى "ثمّ":

الموضع الأول: قال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [النّساء: 62].

عدل النظم القرآني في قوله: ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ﴾ عن كل حروف العطف وبخاصة حرف الواو القريب في الظاهر من المعنى المذكور واختار حرف "ثم" في عطف مجيء المنافقين عن إصابتهم بمصيبة مما يشعر الدارس بفضل المذكور عن المحتمل، ففيم تكمن فضيلته؟

بيّنت لنا هذه الآية من خلال صورتها اللفظية معان نفسية تحتاج إلى تأمّل وتبصر، حيث أومأت إلى كيفية خلاص المنافق من مصيبتة وأنه يمكث زمنا يفكّر في حيلة توافقية ليحقق ذاته ويخدم مصالحه، وهذا ما قام به حرف العطف "ثمّ"، إضافة إلى أنّ ((نفسية المنافق مريضة، لا تستجيب للضربات التي تقع عليها، فصاحب النّفس السوية يمكث زمنا يتأمّل للخروج من مصابه ولكنّ المنافق أغلق قلبه دون الاعتبار والتذكّر، فلم يتب، ولم يذكر عظمة الله وقدرته، فهو شخص سلبي أمام ما يجري.))[1]

ولو قيل "وجاءوك يحلفون" فأفرغ التعبير من تجسيد حالة الضيق النفسي بدلالة الزمن المدبّر، ((لأنّ الزمن إحساس ينبض به القلب، ويفيض به الشعور؛ قبل أن يكون قبل أن يكون دقات ساعات وحركة عقارب، فيستقصر الطويل من الزمن في لحظات السعادة وليالي الأنس، وتطوال الثواني القليلة في عين الضائق المهموم ... وذلك غاية الصدق وقمة البيان حين يطو الزمن في للتعبير عن انقباض النفس وانبساطها.))[2]

وإضافة إلى هذا ما بينه محمود شاكر من أنّ العطف بالواو يجعل الكلام كأنه إخبار عن أفعال كانت في زمن وانقضت، ولا يراد بها غير الخبر أما ثم فهي بطبيعتها تحمل معنى الحركة والتتابع بلا نظر إلى الزمن المقيد، كما تقول: صعد في الجبل ثم وقف على قمته، ثمّ نظر، ثم رمَى بنفسه فهوى ورأى شاكر معنى الحركة والتتابع ظاهرا كلّ الظهور فيما ذكر الله سبحانه وتعالى من أمر الوليد بن المغيرة لما تعرض لرسول الله ثم سمع القرآن: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ

(1) . دلالات التعبير القرآني ودورها في التحليل النفسي لشخصية المنافق، أمل إسماعيل صالح، ص156.
(2) . من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم، ص166.

﴿ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣﴾ [المدثر: 18-23]، ويختتم كلامه عن هذا المعنى اللطيف بأن ما يقوله النّحاة في "ثمّ" من أنها حرف عاطف يقتضي الترتيب والمهلة فهو نظرُ نحاة يحتاج إلى بيان. (1)

وخير ما جسدت فيه ثم هذه الحركة والصراع الداخلي قوله تعالى في المنافقين حين تنزل الآيات: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ۝١٢٧﴾ [التوبة: 127]

فإنّ قوله ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟﴾ دلّت على أنّ المنافق ينسحب من مجالس الذّكر بعدما يتلبث زمنا يعاني من الصّراع والإحباط "فقد قام بردّ فعل على الصّراع النفسي والإحباط تمثّل في الانسحاب من ذلك المجلس؛ لعدم قدرته على مواجهة الحقّ، وملابسته للجهل وعدم الفقه."(2)

وانطلاقا من معنى الحركة والتتابع يمكن لنا من خلال التعبير بثم أن نرى الحركة من نظر المنافق بعضه إلى بعض ونحسها في خطرات الأنفس وتدبيرها ونفرتها من الحق وما تكشفه عن مكنونات مغيّبة وأفعال مُبطنة، أما لو جاء التعبير بالواو لم يفد لنا إلا صورة خبرية منقضية تقف فيها على أخبار منقطعة الوحي، ومنه فإننا لا نرتاب إذا قلنا إنّ عدول النظم إلى حرف "ثم" خوّل للنظم أن ينقل لنا مشاعرا وأحاسيسا بما دلت عليه من تحريك زمن الأحداث.

فمما لا شكّ فيه أنّ "ثم" تدلّ على أنّ بين المعطوفين في الكلام تراخيا ومهلة "لكن هذا التراخي يخضع لاعتبرات نفسية وعقلية وتقديرات في تصوّر المتكلم حينا وفي عقل المخاطب وحسه حينا آخر ولأحوال ودواع يقتضيها مقامات الكلام وسياقاته حينا ثالثا، ووراء هذا تكمن أسرار الحرف وبقدرة استجابته لهذه الطموحات يتفاضل كلام على كلام."(3)

(1) . ينظر: نمط صعب ونمط مخيف، دار المدني، جدة، ط1، 1416هـ- 1996م، ص212.

(2) . دلالات التعبير القرآني ودورها في التحليل النفسي لشخصية المنافق، أمل إسماعيل صالح، ص156.

(3) . من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم، ص159.

الموضع الثاني:

قال عزّ وجلّ: ﴿ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ١١١ ﴾ [آل عمران: 111].

نلحظ في هذه الآية ما يوهم ظاهره أنه خارج عن قواعد العربية وذلك من جهة عطف ما ليس بمجزوم على مجزوم، وذلك لأنّ المعنى المراد بشارة المسلمين أنّ عدوّهم متى قاتلهم كان مخذولا ومجيء الكلام على غير ما ذكر لا يوفي بذلك المعنى، فإنه لا يعطي إلا عدم النصر حالة المقاتَلة فقط، فلذلك عدل عن ذلك إلى ما جاء به التنزيل منبِّها السامع إلى السبب الذي من أجله عدل عن قاعدة الإعراب، فيتفطن إلى أن ذلك إشارة إلى خذلان العدو أبدا ما قاتل المسلمين، لمجيء الفعل دالا على الحال والاستقبال، أما الحال فخلان العدوّ حالة القتال، وأما الاستقبال فالبشارة بأنه كذلك ما وقع منه القتال« ولذلك عطف بـ"ثمّ" من دون حروف النّسق لما تدلّ عليه من التراخي والمهلة ليأتي بعض الألفاظ ملائما لبعض، فإنّ "ثم" دون حروف العطف ملائمة لما عطفته من الفعل الدال على الاستقبال. »[1]

يقول الزمخشري: « لو جزم لكان نفى النصر مقيدا بمقاتلتهم، كتولية الأدبار. وحين رفع كان نفى النصر وعدا مطلقا، كأنه قال: ثم شأنهم وقصتهم التي أخبركم عنها وأبشركم بها بعد التولية أنهم مخذولون منتف عنهم النصر والقوة. »[2]

ومن عجائب هذا العدول « أنّ لفظة "ثمّ" على انفرادها وقع فيها من ذلك تسعة أضرب، وهي: الاحتراس، والتنكيت، والمقارنة، والإيضاح، والائتلاف، والإدماج، والتكميل، وحسن النسق والترشيح يوجد بوجودها ويعدم بعدمها، فإنه لو قدرت الواو موضع "ثم" بحيث يقال: ولا ينصرون" لسقطت هذه الضروب التسعة. »[3]

وإنما ذكر لفظ "ثم" لإفادة معنى التراخي في المرتبة، لأن الإخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الاخبار بتوليتهم الأدبار. »[4]

([1]) . بديع القرآن، ص133.

([2]) . الكشاف، ج1، ص430.

([3]) . بديع القرآن، ص133.

([4]) . مفاتيح الغيب، ج8، ص328.

و"ثم" لترتيب الأخبار دالة على تراخي الرتبة. ومعنى تراخي الرتبة كون رتبة معطوفها أعظم من رتبة المعطوف عليه في الغرض المسوق له الكلام. وهو غير التراخي المجازي، لأن التراخي المجازي أن يشبه ما ليس بمتأخر عن المعطوف بالمتأخر عنه. ››[1]

وقد جاءت صورة هذا العدول أيضا في قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: 15].

يقول الزمخشري: ‹‹ فإن قلت: ما معنى "ثمّ" هاهنا وهي التراخي وعدم الارتياب يجب أن يكون مقارناً للإيمان لأنه وصف فيه، لما بينت من إفادة الإيمان معنى الثقة والطمأنينة التي حقيقتها التيقن وانتفاء الريب؟ قلتُ: الجواب على طريقين، أحدهما أنّ من وجد منه الإيمان ربما اعترضه الشيطان أو بعض المضلِّين بعد ثلج الصدر فشككه وقذف في قلبه ما يثلم يقينه، أو نظر هو نظراً غير سديد ويسقط به على الشكّ ثم يستمرّ على ذلك راكباً رأسه لا يطلب له مخرجاً، فوصف المؤمنون حقاً بالبعد عن هذه الموبقات. ونظيره قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ [فصلت: 30]، والثاني: أنّ الإيقان وزوال الريب لما كان ملاك الإيمان أفرد بالذّكر بعد تقدّم الإيمان، تنبيهاً على مكانه؛ وعطف على الإيمان بكلمة التراخي إشعاراً باستقراره في الأزمنة المتراخية المتطاولة غضاً جديداً. ››[2]

ومما عدل فيه عن ظاهر الترتيب قوله تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾ [الأحزاب: 60].

ولنا أن نتطلّب وجه الحكمة من العدول إلى "ثمّ" واختيارها من كلّ مثيلاتها في الحكم، وخاصة الفاء المفيدة لترتيب المعطوف بها على المعطوف عليه، وفي هذا يتساءل الزمخشري ويجيب بقوله: ‹‹ فإن قلت: أما كان من حقّ لا يجاورونك أن يعطف بالفاء، وأن يقال لنغرينك بهم فلا يجاورونك؟ قلت: لو جعل الثاني مسبّباً عن الأوّل لكان الأمر كما قلت: ولكنه جعل جواباً آخر للقسم

([1]) . التحرير والتنوير، ج4، ص55.

([2]) . الكشاف، ج4، ص380.

معطوفاً على الأوّل وإنما عطف بـ"ثمّ"، لأنّ الجلاء عن الأوطان كان أعظم عليهم، وأعظم من جميع ما أصيبوا به فتراخت حاله عن حال المعطوف عليه.))[1]

وعليه فحقّ لنا أن نتأمّل مثل هذه المواضع العدولية وما تنبض به النّسق القرآني من إيحاءات وما يحمله من لطائف وتنبيهات تفصح عن أسرار ودقائق تعكس لنا إعجاز القرآن الكريم وبيانه الخالد فحين يعدل النظم إلى حرف "ثمّ" ويتخيّره من بدائله فاعلم أنّه قد احتلّ مكانة في التعبير ومقاما في السّياق وترك تأثيرا في الذّوق والنّفس، لن يستطيع أيّ حرف أن يحلّ مكانه، أو ينوب منابه.

([1]) . الكشاف، ج3، ص571.

الصورة الثالثة: العدول إلى الفاء:

قال تعالى: ﴿ وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [الأعراف: 4]

إنّ أصل الفاء العاطفة أن تفيد ترتيب حصول معطوفها بعد حصول المعطوف عليه، ولما كان مجيء البأس حاصلا مع حصول الإهلاك أو قبله، إذ هو سبب الإهلاك، عسر على جمع من المفسرين معنى موقع الفاء هنا، حتى قال الفراء إنّ الفاء لا تفيد الترتيب مطلقا « لأنّ الهلاك والبأس يقعان معا كما تقول: أعطيتني فأحسنت، فلم يكن الإحسان بعد الإعطاء ولا قبله: إنما وقعا معا فاستجيز ذلك. »[1]، فالإهلاك عند الفراء هو مجيء البأس ومجيء البأس هو الإهلاك فلما تلازما لم يبال أيهما قدّم في الرتبة، وعنه أيضا إذا كان معنى الفعلين واحدا أو كالواحد قدّمْت أيهما شئْتَ كقولك: شتمني فأساء، وأساء فشتمني، وكذا قالوا في آية: ﴿ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ ﴾ [الأعراف: 136]، فإنّ الإغراق هنا هو الانتقام، وعن بعضهم أنّ الكلام جرى على طريقة القلب، والأصل: جاءها بأسنا فأهلكناها، وهو قلب خليّ عن النّكتة فهو مردود[2]، وقيل إنّ الفاء ذكرت تجوّزا بأنْ تكون بمعنى الواو؛ وهو ضعيف، أو تكون لترتيب القول فقط، فكأنّه أخبر عن قرى كثيرة أنّه أهلكها ثم قال: فكان من أمرها مجيء البأس، وقيل: الفاء ليست للتعقيب وإنما هي تفسيرية، أي فسّرت صورة الإهلاك، كقولك: توضأ فغسل كذا ثم كذا. [3]

وذهب جمع من المفسّرين[4] إلى أنّ دلالة الإهلاك مستعملة في معنى إرادة الفعل والمعنى أردنا إهلاكها بقرينة: "فجاءها بأسنا"، والبأس الإهلاك، كقوله تعالى: ﴿ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ ﴾ [المائدة: 6]، وقوله: ﴿ فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ [النحل: 98]، أي فإذا أردت القراءة، وإذا أردتم القيام إلى الصلاة.

(1) . معاني القرآن، ج1، ص371.

(2) . ينظر: التحرير والتنوير، ج8، ص20-21.

(3) . ينظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ج2، ص347، والبحر المحيط، ج5، ص11. وقد أورد الزركشي في توجيه معنى الفاء؛ عشرة أوجه، ينظر: البرهان، ج4، ص294-295.

(4) . ينظر: الكشاف، ج2، ص84، والتحرير والتنوير، ج8، ص20.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وقيل إنّ نكتة هذا العدول هو أن معنى "أهلكناها" قرُبت من الهلاك ولم تهلك بعد، لأنّه قد يُطلق الفعل والمراد مشارفته ومقاربته، كما أنّه لقربها من الهلاك ودنوّها وقع عليها لفظ الماضي، لمقاربتها له ونظير هذا قولهم: قد قامت الصلاة، وإن لم تقع التحريمة بها، للقرب من التحريمة بها، وعليه فإنّ المعنى: كم من قرية قاربت الهلاك فجاءها البأس ليلاً أو نهاراً فأهلكناها. [1]

ومعنى قرب الفعل ودنوه في هذا الأسلوب أنسب من معنى إرادة الفعل، كما يتجلى في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ ﴾ [الطلاق: 2]، أي: قاربْن انقضاء العدة، ويستبعد معنى أردن بلوغ الأجل.

وحكمة مجيء حرف التعقيب عند ابن عاشور هو دلالته « على عدم التريث، فدلّ الكلام كلّه: على أنّه تعالى يريد فيخلق أسباب الفعل المراد فيحصل الفعل، كلّ ذلك يحصل كالأشياء المتقارنة وقد استفيد هذا التقارن بالتعبير عن الإرادة بصيغة تقتضي وقوع الفعل، والتعبير عن حصول السبب بحرف التعقيب، والغرض من ذلك تهديد السامعين المعاندين وتحذيرهم من أن يحل غضب الله عليهم فيريد إهلاكهم، فضَيّق عليهم المهلة لئلا يتباطأوا في تدارك أمرهم والتعجيل بالتوبة. »[2]

وهذا المعنى يتجاوب مع قوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الإسراء: 16].

فإطلاق المسبّب وإرادة السّبب تعبيرا بالإهلاك عن الفسق فيه تحذير شديد من الوقوع في المعاصي، وإيحاءً بقوّة العلاقة بين المعصية والهلكة، وشدة التلازم بينهما.

فجاء تقديم الهلاك هنا لأهميته والتنبيه من أول الأمر أن إرسال العذاب لم يكن بقصد الزجر والابتلاء وإنما كان دليل غضب وانتقام إبادة لا يترك معه من باقية وهو سر التعبير بالقرية دون أهلها وكأن الله تعالى قد محاها من الوجود فهو عذاب استئصال لا تخويف وإنذار.

(1) . ينظر: إعراب القرآن، الزجاج، ج1، ص97، ومعترك الأقران في إعجاز القرآن، السيوطي، ج1، ص191.
(2) . التحرير والتنوير، ج8، ص20-21.

أو يكون تأخير المعطوف على سبيل التدرج والارتقاء لأنه بدلالته على الإهلاك المباغت في أوقات الأمن والدَّعة المعبر عنه بالبيات والقيلولة صار أشد وأفظع من الإهلاك الفاء مستعارة للترتيب الرتبي.[1]

الموضع الثاني: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الحج: 63].

الظاهر من قوله تعالى: هو تعقيب اخضرار الأرض على إنزال المطر دون مهلة وطول وقت، لكن الاخضرار في العادة يحتاج إلى نمو تدريجي حتى يصلح عليه هذا الوصف، ومنه فقد يقال إن ثم" هنا أنسب للدلالة على التدرج الذي يليق بمقام الإنبات.

لذلك تنوعت آراء المفسرين في سرّ هذا العدول والمخالفة في التعبير، فذهب بعضهم إلى أنّ الفاء هنا للسببية؛ لأن السببية لا تستلزم التعقيب ((فقد تكون سببية وهي مع ذلك عاطفة جملة على جملة، نحو: يقوم زيد فيغضب عمرو، لكن لا يلازمها العطف نحو إن لقيته فأكرمه))[2] كما يدلّ قولك: "إن يسلم فهو يدخل الجنة" ولا شك في وجود مهلة بين إسلامه ودخوله الجنة، هناك من قال بأنّ الفاء وقعت موقع "ثم" فنابت منابها.

كما ذهبوا إلى تأويل فعل "تصبح" بـ"تصير" يقول أبو حيان: ((وإذا جعلنا فتصبح بمعنى فتصير لا يلزم أن يكون ذلك الاخضرار في وقت الصّباح، وإذا كان الاخضرار متأخّرا عن إنزال المطر فثَمَّ جُمل محذوفة التقدير: فتهتزّ وتربو فتصبح، يبين ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت: 39].))[3]

وإذا كان النّحاة قد قرّروا أن التعقيب هو أخصّ معاني الفاء ولازم لها، وبه افترقت عن "ثم" التي تفيد انفصال معطوفها عن المعطف عليه فإنهم في مثل هذه المواضع قد يضطروا إلى إخراجها مخرج الاتساع والاستعمالات العرفية المقيدة بأساليب خاصة للتعبير عما يشبه الإمهال بالتعقيب، فقالوا في هذا العطف وأضرابه إنه ((في كلّ شيء بحسبه ألا ترى أنه يقال: تزوج فلان فولد له إذا لم يكن

(1). ينظر: من أسرار حروف العطف في الذّكر الحكيم، ص 22-23.

(2). شرح الرضي على الكافية، ج4، ص388.

(3). البحر المحيط، ج7، ص533.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بينهما إلا مدة الحمل؛ وإن كانت متطاولة، ودخلت البصرة فبغداد إذا لم تقم في البصرة ولا بين البلدين، وقال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾.))[1]

ولهذا ذهب الرضي يوضّح العلاقة بين التعبير بالفاء والإمهال في المعنى، بقوله: ((ثم اعلم أنّ إفادة الفاء للترتيب، لا ينافيها كون الثاني المترتب يحصل بتمامه في زمان طويل، إذا كان أول أجزائه متعقبا لما تقدم، كقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ فإنّ اخضرار الأرض، يبتدئ بعد نزول المطر، لكن يتمّ في مدة ومهلة فجئ بالفاء نظرا إلى أنّه لا فصل بين نزول المطر وابتداء الاخضرار، ولو قال: "ثم تصبح" نظرا إلى تمام الاخضرار، جاز.))[2]

و كلام الرضي هذا لا يعدو أن يكون استنساخا لضروب تعبيرية متعددة ثم تخصيص كلّ ضرب منها بحرف لا يتضارب ومعناه اللغوي وكلها جائزة لأنها تتوافق مع معيار الصّحة والخطأ وهذا في حدود الدرس النحوي وطبيعته، فقوله: بجواز "ثم تصبح" في هذا السّياق؛ باعتبار الصّحة النحوية التركيبية لا المناسبة السياقية وما جرى مجرى البلاغة والبيان، فهذه الأخيرة تهم بالتفاضل بين كلامين صحيحين بتقديم أيهما أنسب للموقف وأليق بالمقام وبذلك يتضح سرّ عدول التعبير عن أحدهما دون الآخر، أما القول بتساوي الفاء وثم في سياق واحد فلا يصلح في مقتضى البلاغة وتذوق البيان فكلّ حرف مختصّ بموضعه اللّغوي والسّياقي ولا يمكن لغيره أن يبلغ عنه معناه.

ومن هنا نقول إنّ العدول إلى الفاء جاء مشحونا بملامح الجمال وفرائد الأساليب الراقية فقد جاءت الفاء في هذا السياق لتطوي الزمن الطويل وتقربه وتخفيه بدلالتها على التعقيب كما نلمح من خلالها عظمة القدرة الربانية التي يتلاشى معها الزمن؛ حين يكون الشيء بالإرادة، ويقع بأمر التكوين ويصبح الزمن بين أفعال الله تعالى معدوم الأثر لتحقق ما قضاه الله تعالى على وفق ما أراد بلا بطء أو تخلّف، وأمّا ما قيل من أن الفاء دخلت مراعاة لأول زمن الاخضار الذي يعقب نزول الماء لا يسمو إلى رونق البلاغة المعجزة ودلائل الإعجاز إذ أن غاية هذا القول هو تناوب الفاء وثمّ

([1]) . مغني اللبيب، ص214.

([2]) . شرح الرضي على الكافية، ج4، ص389.

هذا الموقع بين بداية الاخضرار وتمام المدة، هذه المدة التي نقلتنا بسرعة من نزول الماء إلى اخضرار الأرض في سياق تعديد النعم وصرف تفكير الخليقة إلى اللطيف الخبير؛ هي نفسها في سياق آخر تنقلنا من النظارة إلى الهشيم ومن الحياة إلى الموت في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ [الأعلى: 4-5] ولا جرم أنّ استحالة النبات الأخضر إلى يابس متكسر مُسوَدّ وإن احتيج التصوّر البشري إلى زمن وإمهال، فإنّه في النّظم القرآني بحكمته ومقاصده السّامية أسرع ما يكون ليثير في النّفس والوجدان مقاربة بينها وبين سرعة الفناء لئلا تركن النّفوس إلى الدنيا وتتعلّق بملذاتها في نحو قوله جلّ ذكره: ﴿ بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿١٦﴾ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعلى: 16-17]. [1]

([1]) . ينظر: من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم، ص56-57.

الصورة الرابعة: العدول إلى "أو":

الموضع الأول: قال تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإنسان: 24].

قد يستشكل وقوع "أو" في النهي الوارد في الآية، إذ لو انتهى عن أحدهما لم يمتثل، ولهذا قالت طائفة بأنّ "أو" هنا بمعنى الواو مستدلّين بقول الشّاعر:

نَالَ الخِلافَةَ أَوْ كَانت لَهُ قَدَرا ... كَمَا أتى ربّه مُوسى عَلَى قَدَر.

وقال أبو عبيدة: أَوْ بمعنى الواو، وليس في هذا تخيير. (1)

لكن الزّجاج لم يرتض بهذا التأويل وأشار إلى النكتة التي هيئت لأو أن تكون بليغة في هذا المقام حين قال: " و"أو" بليغة في هذا المعنى، لأنّك إذا قلت: لا تطع زيدا وعمرا فجائز أن تكون نهيتني عن طاعتهما معا في حال إن أطعت زيدا على حدته لم أكن عصيتك، وإذا قلت: لا تطع زيدا أو عمرا أو خالدا، فالمعنى أنّ هؤلاء كلّهم أهل ألا يطاع فلا تطع واحدا منهم ولا تطع الجماعة. "(2)

وفي سبيل تقرير هذا المعنى يقول الزمخشري: " فإن قلت: معنى "أو": ولا تطع أحدهما، فهلا جيء بالواو ليكون نهياً عن طاعتهما جميعاً؟ قلت: لو قيل: ولا تطعهما، جاز أن يطيع أحدهما؛ وإذا قيل: لا تطع أحدهما، علم أنَّ الناهي عن طاعة أحدهما: عن طاعتهما جميعاً أنهى. كما إذا نهى أن يقولا لأبويه: أف، علم أنه منهي عن ضربهما على طريق الأولى. "(3)

ويوضّح الطبري أنّ "أو" جاءت على بابها وإنما التعيين المفهوم منها إنما جاء من القرينة والمضمون وليس من اللفظ " لأنّ المعنى قبل وجود النهي تطيع آثما أو كفورا أي واحدا منهما، فإذا جاء النّهي ورد على ما كان ثابتا في المعنى فيصير المعنى ولا تطع واحدا منهما فيجيء التعميم فيهما من جهة النّهي الدّاخل وهي على بابها فيما ذكرناه لأنّه لا يحصل الانتهاء عن أحدهما حتى ينتهي عنهما بخلاف الإثبات، فإنّه قد يفعل أحدهما دون الآخر قال فهذا معنى دقيق يعلم منه أنّ "أو" في الآية على بابها وأنّ التعيين لم يجئ منها، وإنما جاء من جهة المضموم إليها. "(4)

(1) . مجاز القرآن، ج2، ص280.
(2) . معاني القرآن وإعرابه، الزجاج، ج2، ص302.
(3) . الكشاف، ج4، ص675.
(4) . جامع البيان، ج2، ص235.

فعدول النّظم إلى "أو" مع تقديم النّفي ليحتمل الكلام النّهي في حالين حال اجتماع الوصفين معا وحال انفرادهما، لأنّ "أو" لم تستعمل في الإثبات حتى تدلّ على أحد الأمرين ((ومن هنا قيل إنّ "أَوْ" في الإثبات تفيد أحد الأمرين، وفي النّفي تفيد نفي كلا الأمرين جميعا.))[1]

ومن المواضع التي تخيّر فيها النّظم حرف العطف "أو" دون الواو التي تأوّل بها في الظاهر، هي قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة: 74].

في ظاهر استعمال "أو" في الآية قد يستشكل التعبير بها في عطف شدّة القسوة على الحجارة فيفهم في الظّاهر أنّه شكٌّ أو استدراك؛ وهذا لايليق، لذا ذهب أهل اللّغة إلى تأويلها بحروف أخرى كالواو وبل.

وقد ذكر الطبري إشكال استعمال الواو التي في قوله: ﴿ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ مع أنّ "أو" في الكلام تأتي لمعنى الشكّ، والله تعالى جلّ ذكره غير جائز في خبره الشكّ؟

وأجاب عن ذلك بعدة أوجه[2] وأصوبها عنده: أنّ هذا الاستعمال خبر منه سبحانه عن قلوبهم القاسية أنها: عند عباده الذين هم أصحابها الذين كذّبوا بالحقّ بعد ما رأوا العظيم من آيات الله كالحجارة قسوة، أو أشدّ من الحجارة؛ عندهم وعند من عرف شأنهم.

وقريب منه قيل أنّها على بابها في الشكّ، والمعنى: عندكم أيّها المخاطبون وفي نظركم، أن لو شاهدتم قسوتها لشككتم أهي كالحجارة، أو أشدّ من الحجارة. [3]

والوجه الآخر: إنما معناه: فقلوبهم لا تخرج من أحد هذين المثلين، إمّا أن تكون مثلا للحجارة في القسوة، وإمّا أن تكون أشدّ منها قسوة. ومعنى ذلك على هذا التأويل: فبعضها كالحجارة قسوة وبعضها أشدّ قسوة من الحجارة.

ومن ألطف ما قيل في هذا العدول هو دلالة "أو" على التخيير والتنويع، ومقتضى ذلك أنّ الله عز وجل أراد أنها كانت كالحجارة يترجّى لها الرجوع والإنابة، كما تتفجّر الأنهار ويخرج الماء من

(1) . روح المعاني، ج15، ص182.
(2) . جامع البيان، ج2، ص237.
(3) . المحرر الوجير، ج1، ص166.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الحجارة، ثم زادت قلوبهم بعد ذلك قسوة بأن صارت في حدّ من لا ترجى إنابته، فصارت أشدّ من الحجارة، فلم تخل أن كانت كالحجارة طورا أو أشدّ طورا. (1)

والمقصود من التخيير عند ابن عاشور هو « أنّ المتكلّم يشير إلى أنه لا يرمي بكلامه جزافا ولا يذمّهم تحاملا بل هو متثبت متحرّ في شأنهم فلا يثبت لهم إلا ما تبين له بالاستقراء والتقصي فإنه ساواهم بالحجارة في وصف ثم تقصّى فرأى أنهم فيه أقوى، فكأنّه يقول للمخاطب إن شئت فسوِّهم بالحجارة في القسوة، ولك أن تقول هم أشدّ منها وذلك يفيد مفاد الانتقال الذي تدلّ عليه بل وهو إنما يحسن في مقام الذمّ، لأنّ فيه تلطفا وأمّا في مقام المدح فالأحسن هو التعبير بـ"بل". »(2)

ومما سبق يمكن توضيح أنّ معنى الحرف المذكور كان دقيقا في وصف ما هم عليه من الكفر وقسوة القلوب فالله تعالى قد أحاط علمة قلوب العالمين ويعلم علما مطلقا ما درجات التفاوت التي يختلفون فيها لذا جاءت "أو" لتصف حال كفرهم أثناء فترة القساوة، فكأنّ مقتضى الكفر فيه ما يتسمّ بمجرّد القسوة وفيه ما هو أشدّ منها قسوة على اختلاف مراحلهم في الكفر وفي هذا المقام لا يمكن للواو أن تشير إلى معنى الانتقال في الوصف.

لذلك يوضّح الطبري هذا المعنى لئلّا يلتبس بأنهما متماثلين في الاستعمال، فيعلّل هذا التقارب بقوله: « لأنّ "أو"، وإن استعملت في أماكن من أماكن "الواو" حتى يلتبس معناها ومعنى "الواو" لتقارب معنييهما في بعض تلك الأماكن؛ فإنّ أصلها أن تأتي بمعنى أحد الاثنين، فتوجيهها إلى أصلها ما وجدنا إلى ذلك سبيلا أعجب إليّ من إخراجها عن أصلها، ومعناها المعروف لها. »(3)

وهذه اللّفتة من الطبري لمعاني الحروف صائبة فيما نرى، فإذا ما وجد مخرجا لدلالة حرف ما فلا ضرورة تدعوا إلى جعله بمعان حروف أخرى، لأنّ لكلّ حرف من لفظه ورسمه نصيب دلالي لا يشركه فيه غيره؛ وإلا فليس للعدول معنى؛ لأنّ الأدوات لو تساوت في الدلالة والإشارة على المعنى لقدح ذلك في تنوّعها وثرائها وخصوصياتها ولأوهم نقصا في لغة القرآن الدقيقة؛ لأن المستعمل لهيئة حرف معين في سياق محدد وهو يريد حرفا آخر يجعل الكلام أكثر التباسا وإبهاما عوض الإيضاح والبيان.

(1) . المحرر الوجيز، ج1، ص166-167.

(2) . التحرير والتنوير، ج1، ص564.

(3) . جامع البيان، ج2، ص237.

وتتميما لهذا ذكر ابن أبي الأصبع في باب صحّة الأقسام نكتا لطيفة في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا ﴾ [يونس: 12]. استوحى من خلالها نكت الأسلوب في التعبير القرآني حين يعدل إلى حرف العطف "أو" مع أنّ مقتضى الظاهر يتطلب الواو ومن ذلك أخذ يعدد محاسن هذا التعبير، يقول: « فإن قلت: هذا التأويل لا يتمّ إلا إذا كانت الواو هي العاطفة، فِلِمَ عدل عنها وبها يحصل في الكلام حسن النّسق وإئتلاف الألفاظ مع المعاني إلى "أو" التي يسقط معها ذلك؟ قلت: تأثير الضّر على أقسام: فإنّ من الضرّ ما يصرع المضرور عند وروده ومنه ما يقعده، ومنه ما يأتي وصاحبه قائم ولا يبلغ به شيئا من هذه الحالات، والدعاء عند أوّل مسّ الضرّ، فإنّ الضرّ والجزع عند الصّدمة الأولى، فوجب العدول عن الواو لأو لتوخّي الصّدق في الخبر والكلام على ذلك موصوف بالائتلاف وبحسن النّسق، والخبر بذلك التأويل الأوّل عن شخص واحد، وبالتأويل الثاني عن أشخاص، فغلبت الكثرة، فوجب الإتيان بأو، وابتدئ بالشخص الذي يصرعه، لأنّ ضرّه أشدّ، فهو أكثر تضرّعا فوجب تقديم ذكره لأنّ تقديمه الأهمّ، وإذا تقدّم ذِكر المضطجع أوجب حسن الترتيب أن يليه ذِكر القاعد وأن يَلِي ذكر القاعد ذِكر القائم، فحصل حسن الترتيب، وائتلاف الألفاظ بمعانيها، وترجّح مجيء أو على مجيء الواو، ولِما تدلّ عليه من تعدّد المضطرين دون الواو. »[1]

لذلك نقول إنّ الإحساس بقصور الأفهام عن إدراك وجه حكمة العدول لا يعني انعدامها فالنكت اللطيفة بطبعها لا تكون إلا في ضروب الأساليب اللطيفة والتراكيب المتخفية، وفي هذا تظهر مزية أهل التذوق والبيان ممن عنايتهم بالفهم الظاهري للنصوص.

(1). تحرير التحبير، ص 175-176.

❖ العدول بالحذف:

الصورة الأولى: العدول إلى الفاء:

الموضع الأوّل: قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾ [الكهف: 71]

وقال أيضا: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ ﴾ [الكهف: 74].

كان في مقتضى الظاهر أن يستمر النسق في التعبير عن الأفعال الواردة في الآية فتأتي الآية الثانية كالأولى من دون فاء كأن يقال: "حتى إذا لقيا غلاما قتله" لكن النّظم آثر الفاء في السّياق الثاني دون الأول مما يوحي بوجود اختلاف في مقتضى العطف والترتيب وما يترتّب عليه من أثر معنوي.

يقول سيبويه في معنى الفاء أنها « تضمّ الشيء إلى الشيء كما فعلت الواو، غير أنها تجعل ذلك متسقاً بعضه في إثر بعض؛ وذلك قولك: مررت بعمرٍ فزيدٍ فخالدٍ، وسقط المطر بمكان كذا وكذا فمكان كذا وكذا. وإنما يقرو أحدهما بعد الآخر. »(1)، فهي توجب أَنَّ الثاني بعد الأَوّل وأَنّ الأَمر بَينهمَا قريب.(2)

وانطلاقا من هذا المعنى استخرج الزمخشري علّة المخالفة بحذف العاطف من موضع دون الآخر يقول: « فإن قلت: لم قيل: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾ [الكهف: 71] بغير فاء و﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ ﴾ [الكهف: 74] قلت: جعل خرقها جزاء للشرط، وجعل قتله من جملة الشّرط معطوفاً عليه، والجزاء ﴿ قَالَ أَقَتَلْتَ ﴾ [الكهف: 74]. فإن قلت: فَلِمَ خولف بينهما؟ قلت: لأنّ خرق السفينة لم يتعقّب الركوب، وقد تعقّب القتل لقاء الغلام. »(3)

وقد فصل الألوسي في ذكر نكتة العدول وسر الحذف فأبرز كون مجي العطف « بالفاء التعقيبية ليفيد أنّ القتل وقع عقيب اللّقاء من غير ريث كما يشعر به الاعتراض، إذ لو مضى زمان بين اللّقاء والقتل أمكن نظرا للأمور العادية اطلاع الخضر فيه من حاله على ما لم يطلع عليه موسى عليه السّلام فلا يعترض عليه هذا الاعتراض، ولا يضر في هذا ادعاء أن الخرق أيضا كذلك، لأن المقصود

(1) . الكتاب، ج4، ص217.

(2) . المقتضب، المبرد، ج1، ص10.

(3) . الكشاف، ج2، ص687.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

توجيه اختيار الفاء دون الواو أو ثمّ بعد توجيه اختيار أصل العطف بأنّ ذلك يتأتى جعل الاعتراض عمدة، والحاصل أنه لما كان الاعتراض في القصة الثانية معتنى بشأنه وأهم جعل جزاء لإذا الشرطية وبعد أن تعين للجزائية لذلك لم يكن بد من جعل القتل من جملة الشّرط بالعطف، واختيرت الفاء من بين حروفه ليفاد التعقيب، ولما لم يكن الاعتراض في القصّة الأولى مثله في الثانية جعل مستأنفا وجعل الخرق جزاء.»[1]

وبهذا يتضحّ أنّ لهذا العدول مقاصد أسلوبية تتوافق مع مقتضى الحدث ومقام الحادثة، إذ إنّ حذف الفاء الدّالة على موالاة المعطوف للمعطوف عليه جاء مشعرا بأنّ الخضر عليه السّلام انتظر في أمر السّفينة حتى تختفي الأنظار ليكون خرقها في غيبة عن الأعين لئلا يحال بينه وبين مراده منها فجاء الكلام وفق هذا المعنى مفصولا متولّدا عن الفعل لا مسّببا عنه.

أمّا عطف قتل الغلام بالفاء ففيه إشارة إلى المسارعة بقتله وتركيز على ردّ فعل موسى عليه السّلام بعد أن اعتذر في الأولى، وكأنّ هذا الفعل الغريب كان متوقّعا بعد أن مهدت الحادثة الأولى له، فلم يكن ينتظر المتلقي لاختبار إرادة موسى وصبره حين سمع "حتى إذا لقيا غلاما"، لذلك دخلت الفاء لتمرّر القتل بسرعة؛ وصولا إلى ما يرتقبه المتلقي من تصرف موسى وردّ فعله. [2]

يقول ابن عاشور: « فقتله تعقيب لفعل لقيا تأكيدا للمبادرة المفهومة من تقديم الظرف، فكانت المبادرة بقتل الغلام عند لقائه أسرع من المبادرة بخرق السّفينة حين ركوبها.»[3]

([1]) . روح المعاني، ج8، ص320.

([2]) . ينظر: من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم، ص148-149.

([3]) . التحرير والتنوير، ج15، ص377.

الموضع الثاني:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [آل عمران: 90-91].

قال سبحانه عن الذين ازدادوا كفرا بعد كفرهم: ﴿ لَّن تُقْبَلَ ﴾ لكنّه في الذين كفروا وماتوا كفارا قال: ﴿ فَلَن يُقْبَلَ ﴾ فلِمَ عدل عن الفاء في الأول وذكرها في الثاني؟

قال الزمخشري: « فإن قلت: فلِمَ قيل: في إحدى الآيتين: ﴿ لَّن تُقْبَلَ ﴾ بغير فاء وفي الأخرى: ﴿ فَلَن يُقْبَلَ ﴾ قلت: قد أوذن بالفاء أنّ الكلام بني على الشّرط والجزاء، وأنّ سبب امتناع قبول الفدية هو الموت على الكفر، وبترك الفاء أنّ الكلام مبتدأ وخبر ولا دليل فيه على التسبيب كما تقول: الذي جاءني له درهم، لم تجعل المجيء سببا في استحقاق الدرهم، بخلاف قولك: فله درهم فإن قلت: فحين كان المعنى ﴿ لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ ﴾ بمعنى الموت على الكفر، فهلا جعل الموت على الكفر مسبّبا عن ارتدادهم وازديادهم الكفر لما في ذلك من قساوة القلوب، وركوب الرَّين وجرّه إلى الموت على الكفر؛ قلت: لأنّه كم من مرتد مزداد للكفر يرجع إلى الإسلام ولا يموت على الكفر. »[1]

وإذا أنعمنا النّظر فيما عطف على الكفر في الآيتين تجده في الأولى ﴿ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا ﴾ وفي الثانية: ﴿ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ فهو في الأخير قطع باستحقاقهم عدم القبول واستيجابهم العذاب لموتهم على الكفر، وانقطاع الأمل في إيمانهم فدخلت الفاء للإشارة إلى أنهم استحقوا بموتهم على الكفر عدم قبول التوبة وتبعه الحكم عليهم بعذاب النار: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أمّا في

([1]) . الكشاف، ج1، ص409-410.

الأولى فلم ينقطع الرجاء في إيمانهم وإن كانوا قد ازدادوا كفرا، فهم لم يستوجبوا بعْدُ عدم قبول التوبة استيجاب من ماتوا على الكفر لذا حكم عليهم بالضلال دون استيجاب العذاب. (1)

وفي سبيل تقرير هذا المعنى يقول أبو حيان: «ولم تدخل: الفاء في: "لن تقبل" هنا، ودخلت في: "فلن تقبل"، لأنّ الفاء مؤذنة بالاستحقاق بالوصف السّابق، وهناك قال: "وماتوا وهم كفار"، وهنا لم يصرّح بهذا القيد.»(2)

الصورة الثانية: العدول إلى الواو:

الموضع الأول:

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ [البقرة: 49]

وقال أيضا: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾ [إبراهيم: 6].

موضع العدول في الآيتين؛ هو قوله في الأولى من دون واو: ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ ﴾ وفي الثانية قال بواو العطف: ﴿ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ ﴾ .

يقول الفراء موضحًا الفرق بين الأسلوبين: «فمعنى الواو أنّه يمسهم العذاب غير التذبيح، كأنّه قال: يعذّبونكم بغير الذّبح وبالذّبح. ومعنى طرح الواو كأنّه تفسير لصفات العذاب، وإذا كان الخبر من العذاب أو الثواب مجملًا في كلمة، ثم فسّرته فاجعله بغير الواو، وإذا كان أوّله غير آخره فبالواو»(3) وسر هذا العدول هو أنّ قوله يذبّحون بلا واو، وفي إبراهيم بالواو «لأنّ الأولى من كلامه تعالى لهم فلم يعدّد عليهم المحن تكرّما في الخطاب، والثانية من كلام موسى فعدّدها.»(4)

(1) . من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم، ص139.
(2) . البحر المحيط، ج3، ص254.
(3) . معاني القرآن، ج2، ص69.
(4) . الإتقان، ج3، ص392.

فإذا كان العطف بالواو يقتضي المغايرة، فإنها جعلت التذبيح غير سوم العذاب، وعدم ترك العاطف في الآية الثانية له سمة أسلوبية تتناسب والمقام، وعليه فإنّ الآية الأولى إخبار من الله تعالى بإنجائه بني إسرائيل من بطش فرعون وآله.

وفي الثانية أخبر تعالى عن تذكير موسى – عليه السّلام – بني إسرائيل بنعَم الله، وتعدادها، فلم يكتف بذكر الإنجاء. بل مهُد له من أوّل الأمر للتذكير فناسب ذلك تَعداد النّعَم، والفصل بين آحادها، فكأنّه جعل سومهم العذاب محنة مستقلّة نجّاهم الله منها، وعطف عليها غيرها، لذلك جيء بالواو بين النوعين. ومعروف، ولو ترك هذا العطف لصار السَّوم والتذبيح نوعاً واحداً. [1]

وحاصل ذلك أنّه حيث طرح الواو قُصد تفسير العذاب وبيانه فلم يعطف لما بينهما من كمال الاتصال وحيث عطف لم يقصد ذلك، والعذاب إن كان المراد به الجنس فالتذبيح لكونه أشدّ أنواعه عطف عليه عطف جبريل على الملائكة عليهم السّلام تنبيها على أنّه لشدّته كأنّه ليس من ذلك الجنس، وإن كان المراد به غيره كالاستعباد فهما متغايران والمحلّ محلّ العطف. [2]

الموضع الثاني:

قال تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٥٣ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٥٤ ﴾ [الشعراء: 153-154]

وقال أيضا: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٨٥ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ١٨٦ ﴾ [الشعراء: 185-186].

مما ذكر في الفرق بين الفصل والوصل في الموضعين هو اختلاف معنى لفظة "المسَحَّرِين" ففي قصة صالح عليه السلام قصد بها الذين لهم رئات يأكلون ويشربون، وهذا وصف له بالبشرية؛ لهذا جاء عقبه "ما" من غير عاطف لأنّ هذه الجملة جاءت تأكيدا لما قبلها، وأما معنى المسحرين في قصة شعيب عليه السّلام هو من السّحر وهذا يختلف معناه في الجملة التي تأتي بعده؛ وهي أنه بشر؛ لذا وصلت الثانية بالأولى لأنّ لكلّ منها معنى. [3]

([1]) . ينظر: درة التنزيل، ج1، ص233، وخصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، ج2، ص13.

([2]) . روح المعاني، الألوسي، ج7، ص180.

([3]) . ينظر: البلاغة فنونها وأفنانها، فضل عباس، ص428.

وليس بعيدا عن هذا المعنى يذكر الزمخشري السرّ البلاغي وراء هذا العدول؛ فيقول: ((فإن قلت: هل اختلف المعنى بإدخال الواو هاهنا وتركها في قصة ثمود؟ قلت: إذا أدخلت الواو فقد قصد معنيان: كلاهما مناف للرسالة عندهم: التسحير والبشرية، وأن الرسول لا يجوز أن يكون مسّحرا ولا يجوز أن يكون بشرا، وإذا تركت الواو فلم يقصد إلا معنى واحد وهو كونه مسحرا، ثم قرّر بكونه بشرا مثلهم.))[1]

وقد وافق الزمخشري فيما ذهب إليه طائفة من المفسرين منهم أبو حيان[2] والرازي[3] والألوسي[4] حيث اعتمدوا في توجيههم لهذا الاختلاف على قول الزمخشري دون تعقيب.

أمّا أبو السعود[5] فيضيف إلى رأي الزمخشري لطيفة أخرى وهي أنّ الواو التي عدل إليها النظم في قصّة شعيب أفادت دلالة خاصة وهي أنّ كلا من التسخير والبشرية مناف للرّسالة مبالغة في التكذيب، فكأنّ الواو قد أضفت نفَسا جديدا لهم، فيثبتوا له البشرية إبطالا للرّسالة.

ومن المعنى الذي انتهى منه أبو السّعود يبتدأ الإسكافي تحليله للمعاني المنثنية تحت هذا الانحراف الأسلوبي، فيرى أنّ الموضع الذي لا واو فيه هو بدل من الجملة التي قبله: ﴿ فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [الشعراء: 154]، وهم أن يقولوا ذلك.

وأمّا قوم شعيب فإنهم في خطابهم المحكى عنهم مُشِطُّون ومبالغون في ردّه وتكذيبه، فقالوا: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ فدلّ على خبرين عُطف أحدهما على الآخر، وقالوا بعده: ﴿ وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ إذ لم يجعلوا الخبر خبراً واحداً، بل جعلوه أخباراً ثلاثة، على نحو ما تقدّم ذكره.

إضافة إلى أنّ الحالة التي كانت فيها ثمود عند مخاطبة نبيّها لها، لم يقارنها من التمرّد ما قارن حال قوم شعيب حين ردّوا عليه في خبر بعد خبر، فكان موضع الواو في قصّتهم لذلك، ولم يكن لها

([1]) . الكشاف، ج3، ص338.
([2]) . البحر المحيط، ج7، ص187.
([3]) . مفاتيح الغيب، ج24، ص528.
([4]) . روح المعاني، ج10، ص117.
([5]) . تفسير أبي السعود، ج6، ص262.

موضع في الأولى لما بينا من إبدالهم الجملة الثانية من الأولى، واقتصارهم على بعض ما انبسط فيه غيرهم.[1]

الموضع الثالث:

قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الزخرف: 73]

وقال أيضا: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [المؤمنون: 21].

ما الفرق بين قوله تعالى: ﴿ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ من دون واو، وقوله تعالى: ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ بواو العطف، وكيف عدل النّظم في موضعين متشابهين.؟

ورد قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ في القرآن الكريم في أربعة مواضع[2]، ولم يرد قوله: "منها تأكلون" إلا مرّة واحدة في سورة الزّخرف: ﴿ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الزخرف: 73].

والفرق بين التعبيرين أنّ قوله تعالى:"منها تأكلون" التي وردت في سورة الزخرف هي في سياق الكلام عن الجنّة وفيها الفاكهة هي للأكل فقط ولا يستفاد منها بشيء آخر.

أمّا في الآيات التي وردت فيه "ومنها تأكلون" هي في أنعام وفاكهة الدنيا . فالأنعام يستخدمها الإنسان إمّا للركوب أو التجارة أو الانتفاع بلبنها أو أكلها فالأكل جزء من منافع الأنعام في الدّنيا.
وبالنسبة للفواكه في الدّنيا فقد تُؤكل أو يؤخذ عصيرها أو يصنّع منها مربيات أو الخلّ أو غيرها فإذن أكلُها هو جزء من استفادة النّاس بها في الدنيا.

يقول الكرماني " وقال في هذه السّورة ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ بزيادة الواو لأنّ تقدير الآية منها تدخرون ومنها تبيعون وليس كذلك فاكهة الجنّة، فإنها للأكل فحسب، فلذلك قال في الزخرف:

---

[1]. ينظر: درة التنزيل، ج1، ص972-974.
[2]. ينظر: [النّحل: 5]، [المؤمنون: 19]، [المؤمنون: 21]، [غافر: 79].

﴿ مِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴾ ووافق هذه السّورة ما بعدها أيضا وهو قوله: ﴿ وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٢١ ﴾ فهذا القرآن معجزة وبرهان.))[1]

والذي يبدوا من خلال ماسبق من ضروب العدول في العطف في لغة القرآن الكريم أنّ دلالات حروف العطف قد تتجاوز اللّغة المعيارية لهذه الأدوات؛ من التشريك والترتيب والإمهال فتجيء على معان عدّة وإيحاءات متكاثرة نحو الاستبعاد الدّوام التنكيت، وحسن النسق، ولا يتأتى ذلك إلا حين تستثار دفائن العدول ويُتبصّر في معرفة المناسبات، وهو ضربٌ دقيق مأتاه، لطيف معناه، يكاد لا يتكشّف من دقّته وخفاء مسلكه، ويبقى منحى العدول أسلوبٌ له آفاق أسلوبية وبيانية ماتعة تسمو على كلّ مصطلح عامّ وفهم ظاهري.

([1]) . أسرار التكرار في القرآن، ص183.

الفصل الثالث:

العدول في حروف الشّرط والاستفهام

ويندرج تحته مبحثان:

المبحث الأول: العدول في حروف الشّرط

المبحث الثاني: العدول في حروف الاستفهام

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول:

العـدول في حـروف الشّرط

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأوّل: العدول في حروف الشّرط:

تتميّز أحرف الشّرط في آي الذّكر الحكيم ببدائع الفوائد الأسلوبية ومكامن المواطن البلاغية وذلك بما تحدثه من تحوّلات وعدولات دقيقة أقرتها الظّواهر القرآنية وخالفتها المقتضيات المعيارية فالنّاظر في الوجوه والفروق المعنوية والمتفحّص في نظم العبارة الشّرطية يهتدي إلى عجائب الدّقة ودلائل الإعجاز؛ التي تتبوّأ منها أحرف الشّرط محلّ المِفْصل في بناء الأسلوب راميةً إلى تصوير المواقف ومحاكاة الأصوات البنائية، واحتواء المقاصد التوخاة من الجملة.

وقد التزمت بإدراج الحروف الخاصّة بالشرط دون الأسماء وفقا لطبيعة البحث، لكنني سأدرج ـ ضرورةً ـ في هذه الدراسة "إذا" الشّرطية مع كونه ظرفا وليس بحرف، سأدرجها مع حرف "إنْ" وذلك لأنهما يتقاربان في الوظائف العامّة ويختلفان في الخصوصيات، وكذا لاجتماع رودهما في الجمل الشّرطية في القرآن ـ كما سيأتي ـ لذلك أوردته معدولا عنه إلى حرف الشّرط "إنْ" متحسّسا مواضع البلاغة في التعبير ومواطن البيان في الأسلوب.

وفيما يأتي عرض لأهم المواضع التي يتجلى فيها عدول النظم في استعمال أحرف الشرط ودقائقه الأسلوبية في القرآن الكريم.

❖ العدول بالمخالفة:

الصورة الأولى: العدول من "إذا" إلى "إنْ":

اهتمّ العلماء من خلال القرآن ببيان الفروق بين الاستعمال الشرطي للأداتين "إن" و"إذا" في ضوء سياقات كلّ منهما، وقد ذكر سيبويه (1) أنّ إذا لما يستقبل من الدهر مبينا إنها تجيء وقتا معلوما كنحو قولك آتيك إذا احمرّ البسر ولو قلت آتيك إن احمرّ كان قبيحا فـ"إن" أبدا مبهمة.

فإذا انطلقنا من إبهام "إنْ" فهي إذاً للشرط في المستقبل من دون جزم بوقوعه، أما إذا فهي للشرط المستقبلي؛ لكنها تفيد الجزم والتحقق بوقوعه، وهي «النّكتة في تغليب لفظ الماضي على المستقبل في الاستعمال لكون الماضي أقرب إلى القطع من الاستقبال في الجملة نظرا إلى اللفظ.»(2)

(1). ينظر: الكتاب، ج3، ص60.

(2). مفتاح العلوم، ص241.

ولذلك سنّ علماء البلاغة قاعدة أغلبية مفادها أنّ "إذا" تستعمل فيما هو محقّق الوقوع لذلك يستعمل معها في الغالب الفعل الماضي، و"إنْ" تستعمل فيما يخالطه الشكّ. (1)

كما قال المتنبي: إذا أَنتَ أَكرَمْتَ الكَرِيمَ مَلَكْتَه ... وإنْ أَنْتَ أَكرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا.

لذا عابوا(2) على عبد الرّحمن بن حسّان قوله:

إِذَا هِيَ حَثَّتْهُ عَلَى الْخَيْرِ مَرَّةً ... عَصَاهَا، وإِنْ هَمَّت بِشَرٍّ أَطَاعَهَا. (3)

فالشّاعر هنا في سياق هجاء لمن قصُر رأيه وضاقت بالخير نفسه، لكنه استعمل "إذا" في النّفس التي تحدِّثُ على الخير قطعا، كما استعمل "إنْ" في النّفس التي لا تهمّ بالشرّ إلا نادرًا، وشكّ أنّ هذه نفس كريمة خيّرة، فكيف يتناسب هذا مع غرض الكلام ومقامه؟ ولو عَكَس الأداتين لأصاب.

لكنّ مراس اللّغة بنظامها المتكامل لا تحدّه القواعد ولا تلجمه المعايير البلاغية بقدر ما هو فنّ ذوقي وفراسة طبعية يعتمد النّظام الأسلوبي الآخذ بعضه برقاب بعض مع عدم إهمال القاعدة والأصل النّحوي، لأنّ اعتماد المشهور من الأساليب اللغوية "القاعد البلاغية" قد يُنقص من مزايا النّادر في الاستعمال "العدول عن القاعدة" ـ مع دقّة فصاحته ولطف مسلكه ـ وكلّه عربي ومعهود لذلك يقول محمّد أبو موسى: ((وقد سمعت من بعض شيوخنا أنّ ابن حسّان أعلم بطبائع اللّغة من البلاغيين، وأنّ الزمخشري مع سعة ذرعه لم يتنبّه إلى قوله: "مرّة" ومهما كانت النّفس قد أضاق الله بالخير باعها، فإنّ حثّها على الخير مرّة أمرٌ متوقّع؛ لأنّ الله ألهمها فجورها وتقواها، وهو كلام واقع.))(4)

ومن هذا المنحى في استعمال الأداتين يمكننا استجلاء بعض الملامح الأسلوبية من خلال الآيات القرآنية والأسرار البلاغية وراء عدول النّظم إلى حرف دون آخر في السّياق القرآني.

---

(1) . ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، ج2، ص117.

(2) . الكشاف، ج2، ص136.

(3) . العقد الفريد، ج7، ص214.

(4) . خصائص التراكيب، ص324.

الموضع الأوّل: قال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾ [الأعراف: 131].

فالملاحظ أنّ التعبير استعمل أداة "إذا" مع الحسنة ثم عدل عنه إلى حرف "إنْ" مع السّيئة ولم يقل: "وإذا أصابتهم سيئة" كالأوّل فما السرّ؟

وفي هذا يقف الزمخشري متأمّلا في براعة هذا العدول، يقول: « فإن قلت: كيف قيل: "فإذا جاءتهم الحسنة" بإذا وتعريف الحسنة، "وإنْ تصبهم سيّئة" بإنْ وتنكير السّيئة؟ قلت: لأنّ جنس الحسنة وقوعه كالواجب لكثرته واتساعه، وأمّا السيئة فلا تقع إلاّ في النّدرة، ولا يقع إلاّ شيء منها ومنه قول بعضهم: قد عدّدت أيام البلاء، فهل عدّدت أيام الرّخاء ؟ »[1]

ومن شواهد هذا الضرب من العدول؛ قوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الروم: 36] وكذا قوله سبحانه: ﴿ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الشورى: 48].

فجيء بإذا في جانب الرحمة للإشارة إلى أنّ إذاقة الناس قدرا قليلا من الرحمة أمر مقطوع به ولإفادة هذا المعنى جاءت لفظة "رحمة" نكرة فتفيد التعليل، فيكون التقليل أقرب إلى القطع بالوقوع وجيء في جانب السيئة بإنْ لإفادة أنّ إصابة السيئة لهم أمر غير مقطوع به وليس مجزوما بوقوعه وأنّ الله تعالى لا يؤاخذهم دائما بما قدّمت أيديهم، ولكنّه يعفو عن كثير.[2]

وهذه من الاعتبارات الدّقيقة التي قلّما تراعى في غير القرآن، ولما تشير إليه من لطائف تتطلّب تمعّن وتأمّل، ودراية بفقه البلاغة القرآنية، وحسن تذوّقها.

---

[1]. الكشاف، ج2، ص136.

[2]. ينظر: خصائص التراكيب، ص323.

ويقول سبحانه مخبرا عن المنافقين: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ [المنافقون: 4] حيث استعمل القرآن "إذا" فيما يختصّ بالرؤية، و"إنْ" فيما يتعلّق بالقول، وكلّ من يرى المنافقين تعجبه أجسامهم، لكن ليس كلّ ما يقولونه حريٌّ بأن يُستمع له. (1)

ثم انظر كيف تقابل الحرفان في سبيل تحقيق مزايا خاصّة لا يحقّقها إلا الحرف المنظوم قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾ [غافر: 12].

فجاءت "إنْ" في حالات الشّذوذ العقلي والعقائدي وهي الشّرك، والشّرك غباء وبلاء ومحنة سقط فيها الناس منذ زمن نوح عليه السّلام، وجاء المضارع مع "إذا" في صيغة الماضي، لأنّ دعوة الله وحده هي الحقّ، ومادام كذلك فالذي سيقع في هذه الدّعوة كالواقع بخلاف الشّرك، ثم لاحِظ الإشارة إلى المسارعة إلى الكفر وذلك بالتعبير عن المضارع بالماضي في قوله: "كفرتم" يعني: سارعتم إلى الكفر، وصار ما لم يقع منكم كأنّه وقع، لأنّه بالقطع سيقع. (2)

وأمّا عند قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الروم: 33].

فقد جيء بلفظ "إذا" مع الضرّ وهذا بخلاف المسلك في الآية السابقة، وذلك لأنّه ذكر هنا لفظ المسّ، والمسّ أقلّ من الإصابة، ونكّر الضرّ ليفيد قدْرا يسيرا من الضرّ، وذكر لفظ الناس المستحقين أن يلحقهم كلّ ضرّ والحديث عن النّاس الذين إذا مسّهم الضرّ دعوا ربهم منيبين إليه وإذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون، فكان في هذا إشارة إلى أنّ مسّ قدر يسير من الضرّ لأمثال هؤلاء حقّه أن يكون في حكم المقطوع به. (3)

ومن هذا المسلك أيضا قوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ ﴾ [فصلت: 51]

(1) . البلاغة فنونها وأفنانها، ص340.

(2) . ينظر: آل حم غافر- فصلت: دراسة في أسرار البيان، محمد أبو موسى، ص55-56.

(3) . ينظر: مفتاح العلوم، ص242، وخصائص التراكيب، ص323.

فالذي تقتضيه البلاغة أن يكون الضمير في مسّه للمعرض المتكبّر، ويكون لفظ "إذا" للتنبيه على أنّ مثله يحقّ أن يكون ابتلاؤه بالشرّ مقطوعا به. [1]

فالملاحظ أنه جيء فيها بإذا الدّالة على أنّ ما دخلت عليه متوقّع، ونِعم الله على عباده من هذا المتوقّع، وأنّ رحمته وسعت المطيع والعاصي، ثم دلّت الآية على عظم هذه النّعمة ووجوب تلقيها بالشّكر، وذلك بإسناد "أنعم" إلى ضمير العظمة، وأنّ هذا الشّرط يوجب عند أصحاب الفطرة المبرأة الإقبال والرضى والتواضع والرفق بعباد المنعم جلّ شأنه.

أمّا في قوله: ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ فجاء بإذا في مسّ الشرّ على غير الأكثر وذلك إشارة إلى أنّ هذا الإنسان الذي تطغيه النّعمة جدير بأن يكون مسّ الشرّ له أمرا متوقعا ففيها إذا شوب من اللّوم والمعاتبة لهذا الإنسان، ثمّ جاء الجواب الدّال على ملازمته الدّعاء وكأنّه يملأ الأفق من حوله ضراعة ورجاء أن يفرج ما به، وهذا جيّد لأنّ الله تعالى قد تبتلي عباده بالضّراء لعلّهم يتضرّعون وهذا الذي في الآية من هذا الضّرب، وليس من الجنّس الذي إنْ مسّه الشرّ فيئوس قنوط لأنّ الذي امتلكه اليأس بعيد من الله، أمّا الذي يركن على جنّات ربّه ويرفع يديه ويملأ الطّول والعرض راغبا إلى ربه فهو ضرب قريب من الله، والفرق بينه وبين الأوّل هو الفرق بين اليأس والرّجاء وهما متعارضان. [2]

وقد جاء في سورة الإسراء ما يبدو المعنى فيه متقاربا مع الأول، قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا ﴿٨٣﴾ ﴾ [الإسراء: 83].

فالإنسان في حالتي النّعمة ومسّ الشرّ ملاوم لنكران الجميل، ففي حال إنعام الله تعالى عليه يعرض عن ذكره ويتباعد بطرا وتكبّرا « فإذا زالت النعمة عنه لم يقلع عن الشّرك والكفر، ويتب إلى الله، ولكنّه ييأس من الخير ويبقى حنقا ضيق الصدر لا يعرف كيف يتدارك أمره. »[3]

(1) . مفتاح العلوم، ص242.

(2) . ينظر: آل حم غافر- فصلت: دراسة في أسرار البيان، محمد أبو موسى، ص491-492.

(3) . التحرير والتنوير، ج15، ص193.

كما ذكر الزركشي نكتة لطيفة تبرز سرّ العدول إلى "إذا" دون "إنْ" وهي أنها دلّت على أنّ هذا شأنهم أبدا ومستمرّ فيما سيأتي، فمن الفوائد التي تتميز بها "إذا" هو الاستمرارية فيما بعدها، وهذا كقوله سبحانه: ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا ﴾ [البقرة: 14].

الموضع الثاني: قال تعالى: ﴿ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْ ﴾ [النّساء: 6]

جاءت الآية في سياق يقرّر بلوغ رشد اليتيم كشرط لدفع ماله، فلا يتحقّق الثاني إلا بالأوّل ومنه فإنّ الأداة المناسبة في الظّاهر هي "إذا" الدّالة على التحقيق، لكن النّظم عدل إلى "إنْ" في قوله: ﴿ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا ﴾ فما نكتة هذا العدول؟

نقول بأنّ تحري بلوغ اليتيم مبلغ الرشد أمر حتمي حتى لا يدفع إليه ماله قبل ذلك؛ فيكون مظنّة التضييع، وذلك لعدم اكتمال دعائم الرّشد فيه، ولكن في الأمر مزلقا خطرا حيث قد يتساهل الأوصياء في زمن الدفع لحاجة في أنفسهم فيلحق باليتيم الظلم، ولذا جاء جواب الشّرط الأوّل شرطا ثانيا منبّها إلى المسارعة إليه بـ"إنْ" التي اشترطت إيناس الرشد منكّرا فتضافر السّياق مؤكدا على المبادرة في ذلك بـ"إنْ" التي تدلّ على احتمالية وجود الرّشد، ولفظة "آنستم" الدالة على ظهور أول بوادره، والتنكير الذي يدل على وجود أي بادرة منه مهما صغرت؛ لأنّ « أوّل أحوال البلوغ قد يقارنه السّفه باعتبار أثر الصّبا »[1] ولذا افتتحت الآية بابتلائهم ثم إذا ظهرت بوادر الخير تسلم إليهم باقي أموالهم [2]

أمّا في سياق تقرير بلوغ النّكاح الذي يعني الحلم[3] فقد استعمل النّظم الأداة "إذا" المحقّقة لمضمون ما بعدها، لأنّ الحلم أمر لا يتطرّق إليه الاحتمال عند حصوله لأنه شيء طبعي في الإنسان وقرائنه متساوية عند كلّ الناس، وهذا على عكس الرشد الذي هو ظني الحصول ويكتسبه الإنسان بتدرّج، لذا يختلف الاستعداد البشري ويتفاوت في سياسة التصرّف وحسن الاستغلال.

([1]) . روح المعاني، ج2، ص417.

([2]) . ينظر: سورة النساء: دراسة بلاغية تحليلية، خديجة محمد أحمد البنّاني، ص137.

([3]) . ينظر: جامع البيان، ج7، ص575.

❖ **العدول بالاختيار:**

الصورة الأولى: العدول إلى "إنْ":

الموضع الأول: قال تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور: 33].

يقول الزمخشري: « فإن قلت: لم أقحم قوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ قلت: لأنّ الإكراه لا يتأتى إلا مع إرادة التحصن، وآمر الطيعة الموانية للبغاء لا يسمى مكرها ولا أمره إكراها. وكلمة "إنْ" وإيثارها على "إذا" إيذان بأنّ المساعيات كنّ يفعلن ذلك برغبة وطواعية منهن، وأنّ ما وجد من معاذة ومسيكة من حين الشاذ النادر. »[1]

إلا أنّ ابن المنيّر في حاشيته على الكشاف لم يقتنع برأي الزمخشري، ورأى أنّ جوابه لم يشف العليل، فعقّب عليه بقوله: إنّ فائدة ذلك- والله أعلم- أن يبشع عند المخاطب الوقوع فيه، لكي يتيّقظ أنّه كان ينبغي له أن يأنف من هذه الرذيلة وإن لم يكن زاجر شرعي. ووجه التبشيع عليها: أنّ مضمون الآية النّداء عليه بأنّ أمّته خير منه، لأنها آثرت التحصّن عن الفاحشة، وهو يأبى إلا إكراهها عليها. ولو أبرز مكنون هذا المعنى لم يقع الزّاجر من النّفس موقعه، وعسى هذه الآية تأخذ بالنّفوس الدنيّة، فكيف بالنّفوس العربية.[2]

وقد اقترن حرف الشّرط في الآية مع الفعل الماضي لا المضارع وذلك أنّ طالب الشيء يكثر تصوّره إيّاه حتى يخيّل إليه غير الواقع واقعا، وقد جاء القرآن الكريم على طريقة العرب في كلامهم وخطابهم بما يخاطبون به أنفسهم، فآثر الماضي على المضارع لإظهار الرغبة في وقوع في إرادة التحصّن من الفتيات المؤمنات حيث إنها الصّفة المرغوبة والتي ينبغي أن يكنَّ عليها.[3]

ومن لطائف هذا العدول واصطفاء "إنْ" مع الماضي؛ الذي يفيد تحقّق إرادة التحصّن؛ إشعارا بوجوب الانتهاء عن الإكراه بمجرّد كون إرادة التحصّن متردّد فيها، فكيف إذا كانت متحقّقة الوقوع

([1]) . الكشاف، ج3، ص245.

([2]) . حاشية الانتصاف ضمن كتاب الكشاف، ج3، ص239.

([3]) . خصائص التراكيب، 337.

كما هو الواقع[1]. وإذا جاء النّظم بـ"إذا" لأوهم المعنى أنّ النّهي عن إكراه البغاء لا يكون إلا إذا تحقّقت وثبتت إرادة التحصّن، وهو بعيد عن أغراض القرآن ومقاصده السّامية.

لهذا الغرض عدل النّظم القرآني إلى حرف الشّرط "إنْ" ليفيد لمسة أدبية رفيعة تسمو بأرواح العفيفات لبلوغ غايتهن وتحقيق مرادهنّ وذلك من حصول أدنى ملامح الإرادة، وهذا دأب الطاهرات بما ينص عليه الشرع الحنيف وتسنّه الفِطر السويّة، وتقرّره الأخلاق الحميدة.

وفيما جرى هذا المجرى الأسلوبي؛ قوله تعالى: ﴿ فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ﴾ [النّساء: 25].

حيث آثر التعبير القرآني مع الإحصان حرف الشّرط "إذا"، لكنّه عدل عنه إلى "إنْ" في شرط إتيان الفاحشة، ما يتطلّب عدولا في المعنى تبعا لهذا العدول اللّفظي.

فالملاحظ أنّ هذه الآية جاءت في شأن الإماء المؤمنات، شدّد المولى عزّ وجلّ في وصف حالتهن بالإحصان بـ"إذا" وزاده تشديدا وتأكيدا بدخولها على الفعل الماضي، وقلّل احتمال إتيانهن الفاحشة بعد ذلك وهن مسلمات تنبيها على أنّ ذلك الخُلق غير متوقّع منهنّ.

ومن المواضع التي يجري فيها هذا المعنى، قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥ ﴾ [النساء: 15].

والشّاهد فيها هو ورود "إنْ" بدل "إذا" في قوله عز وجل:﴿ فَإِن شَهِدُواْ ﴾، لأنّ المقام مقام تشريع، واليقين مطلوب لما يترتّب عليه من الحدّ الشرعي، لكن الدّاعي لمثل هذا الخروج في استعمال "إنْ" ندرة توفّر هذه الشّهادة لما في الأمر من خفاء يرجّح الشكّ، ومما يقوي هذا الاحتمال مضاعفة عدد الأشهاد إلى حدّ الأربعة مع أنّ الشهادة عادة تقبل باثنين عدول وحسب، وفيه لطف من الرحمان الرّحيم بعباده فهو حليم ستّير حتى مع العصاة رجاء التوبة والإنابة إليه سبحانه، ولذا أردفت

---
(1) . تفسير أبي السعود، ج6، ص173.

الآية بقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: 16].

الموضع الثاني: قال تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾ [الحجرات: 9].

فإن قيل: ما طبيعة وقوع الشرط بإنْ في قوله تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ [الحجرات: 9]، حيث لم يستعمل الأسلوب القرآني في هذا السّياق حرف الشرط "إذا"؟

ذكر الرازي أنّ "إنْ" الواردة في قوله تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ «إشارة إلى ندرة وقوع القتال بين طوائف المسلمين، فإنْ قيل: فنحن نرى أكثر الاقتتال بين طوائفهم؟ نقول قوله تعالى: "وإنْ" إشارة إلى أنه ينبغي أن لا يقع إلا نادرا.»[1]

ثم جاء قوله تعالى: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: 9].

وفي هذا «إشارة إلى نادرة أخرى وهي "البغي" لأنّه غير متوقّع، فإن قيل: كيف يصحّ في هذا الموضع كلمة "إنْ" مع أنها تستعمل في الشّرط الذي لا يتوقّع وقوعه، وبغي أحدهما عند الاقتتال لا بدّ منه، إذ كلّ واحد منهما لا يكون محسنا، فقوله: "إنْ" تكون من قبيل قول القائل: "إنْ طلعت الشّمس"، نقول فيه معنى لطيف، وهو أنّ الله تعالى يقول: الاقتتال بين طائفتين لا يكون إلا نادر الوقوع، وهو كما تظنّ كلّ طائفة أنّ الأخرى فيها الكفر والفساد، فالقتال واجب كما سبق في الليالي المظلمة، أو يقع لكلّ واحد أنّ القتال جائز بالاجتهاد، وهو خطأ، فقال تعالى: الاقتتال لا يقع إلا كذا، فإنْ بان لهما أو لأحدهما الخطأ واستمرّ عليه فهو نادر، وعند ذلك يكون قد بغى فقال: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ﴾ يعني بعد استبانة الأمر وحينئذ فقوله: "فإنْ بغت" في غاية الحسن، لأنّه يفيد النّدرة وقلّة الوقوع.»[2]

---

(1) . مفاتيح الغيب، ج28، ص104.

(2) . المصدر نفسه، ج28، ص105.

ويطّرد التعبير القرآني في ذكر هذه الخصوصيات لحرف الشّرط "إن"، وذلك في ذكره بأنّ الفئة الباغية قد تفيء إلى أمر الله بعد قتالها، فما وجه النّدرة في هذا؟ نقول كما ذكر الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات: 9] ((لما كان الواقع فيئتهم من تلقاء أنفسهم، فلمّا لم يقع دلّ على تأكيد الأخذ بينهم، فقال تعالى: فإن فاءت بقتالكم إيّاهم بعد اشتداد الأمر والتحام الحرب فأصلحوا، وفيه معنى لطيف وهو أنّه تعالى أشار إلى أنّ من لم يخف الله وبغى لا يكون رجوعه بقتالكم إلا جبرا.))[1]

ولهذا اعترض الفخر الرازي على الزّمخشري؛ الذي أوّلَ حرف الشّرط "إذا" الوارد في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ [الحجرات: 28] أوّله بـ"إنْ"، ورأى أنها الأوْلى في التعبير يقول الزّمخشري: ((وحقّه أنْ يجيء بـ"إن" لا بـ"إذا" كقوله: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ [محمد : 38].))[2]

ويقول الرازي معقّبا على كلام الزمخشري: ((واعلم أنّ هذا الكلام كأنّه طعن في لفظ القرآن، وهو ضعيف لأنّ كلّ واحد من "إنْ" و"إذا" حرف شرط، إلا أنّ حرف "إنْ" لا يستعمل فيما يكون معلوم الوقوع، فلا يقال: إنْ طلعت الشّمس أكرمتك، أمّا حرف "إذا" فإنّه يستعمل فيما كان معلوم الوقوع، تقول: آتيك إذا طلعت الشّمس، فهاهنا لما كان الله تعالى عالما بأنه سيجيء وقت يبدّل الله فيه أولئك الكفرة بأمثالهم في الخلقة وأضدادهم في الطاعة، لا جرم حسن استعمال حرف "إذا".))[3]

(1) . المرجع نفسه، ج28، ص106.

(2) . الكشاف، ج4، ص676.

(3) . مفاتيح الغيب، ج30، ص671.

الموضع الثالث: قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ [البقرة: 23].

فالأمر الذي يحتاج إلى تأمّل وتفكّر في هذه الآية هو استعمال "إنْ" في الشرط المقطوع بوقوعه حيث عدلت عن أصل استعمالها، فعلى اعتبار مقتضى الظاهر أن يأتي النظم بإذا دون "إنْ"، لأنّ ريب المخاطبين متحقّق وقوعه، الأمر الذي يدعوا إلى استثارت الدفائن المعنوية لهذا العدول وتفحّص النّكات الأسلوبية المتحجّبة وراء العدول عن استعمال السياق لحرف القطع بالخبر.

والمغزى من ذلك هو توبيخ هؤلاء المعاندين على الريب والشكّ، والإيحاء بأنّ هذا المقام يشتمل على ما يقلعه من أصله، ويجلي حقائق الرسالة وصدقها تجلية كاشفة، فوقوع الرّيب منهم لا ينبغي أن يكون إلا على سبيل الفرض كما يفرض المحال. [1]

ويعلّل ابن عاشور عدول النّظم إلى "إنْ" بأنّ « مدلول هذا الشّرط قد حفّ به من الدّلائل ما شأنه أن يقلع الشّرط من أصله بحيث يكون وقوعه مفروضا فيكون الإتيان بإن مع تحقّق المخاطب علم المتكلم بتحقّق الشّرط توبيخا على تحقّق ذلك الشّرط، كأنّ ريبهم في القرآن مستضعف الوقوع.

ووجه ذلك أنّ القرآن قد اشتطت ألفاظه ومعانيه على ما لو تدبّره العقل السليم لجزم بكونه من عند الله تعالى فإنّه جاء على فصاحة وبلاغة ما عهدوا مثلهما من فحول بلغائهم، وهم فيهم متوافرون متكاثرون حتى لقد سجد بعضهم لبلاغته واعترف بعضهم بأنه ليس بكلام بشر. وقد اشتمل من المعاني على ما لم يطرقه شعراؤهم وخطباؤهم وحكماؤهم، بل وعلى ما لم يبلغ إلى بعضه علماء الأمم. ولم يزل العلم في طول الزمان يظهر خبايا القرآن ويبرهن على صدق كونه من عند الله فهذه الصفات كافية لهم في إدراك ذلك وهم أهل العقول الراجحة، والفطنة الواضحة التي دلّت عليها أشعارهم وأخبارهم وبداهتهم ومناظرتهم، والتي شهد لهم بها الأمم في كلّ زمان، فكيف يبقى بعد ذلك كلّه مسلك للريب فيه إليهم، فضلا عن أن يكونوا منغمسين فيه. »[2]

كما يمكن توجيه هذا العدول من باب التغليب، أي تغليب غير المتصف بالريب من المخاطبين على المتصف به منهم فإنه كان في الكفار من يعرف الحق وينكره عنادا، واعترض على هذا بأنه جمع

---

(1) . خصائص التراكيب، ص333- 334.

(2) . التحرير والتنوير، ج1، ص336.

بين مرتاب يقينا وغير مرتاب يقينا، وكلاهما لا يصلح موقعا لـ"إنْ" لأنها إنما تكون في غير المقطوع به لا في المقطوع بعدمه. (1)

ومن هذا يأتي قوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾[البقرة: 24] فعدم إتيانهم بسورة مثل القرآن أمر متحقّق، بقرينة التّحدي والإعجاز، لكن التعبير آثر "إن"، وعدل عن حرف "إذا"، مما دعى بالمفسرين إلى الاجتهاد في الكشف عن سرّ هذا العدول.

يقول الزمخشري: « فإن قلت انتفاء إتيانهم بالسورة واجب؛ فهلا جيء بـ "إذا" الذي للوجوب دون "إن" الذي للشكّ. قلت: فيه وجهان؛ إحدهما: أن يساق القول معهم على حسب حسبانهم وطمعهم وأنّ العجز عن المعارضة كان قبل التأمّل كالمشكوك فيه لديهم لاتّكالهم على فصاحتهم واقتدارهم على الكلام.

والثاني: أنّ يتهكّم بهم كما يقول الموصوف بالقوّة الواثق من نفسه بالغلبة على من يقاويه: إنْ غلبتك لم أبق عليك، وهو يعلم أنه غالبه ويتيقّنه تهكّما به »(2)

ووافقه الألوسي على أنّ النظم أتى « بإنْ والمقام لـ"إذا" لاستمرار العجز- وهو سبحانه وتعالى اللّطيف الخبير- تهكّما بهم كما يقول الواثق بالغلبة لخصمه إنْ غلبتك لم أبق عليك، وتحميقا لهم لشكّهم في المتيقّن الشديد الوضوح، ففي الآية استعارة تهكّمية تبعية حرفية، أو حقيقة وكناية كسائر ما جاء على خلاف مقتضى الظاهر، وقد يقال عبّر بذلك نظرا لحال المخاطبين فإنّ العجز كان قبل التأمّل كالمشكوك فيه لديهم لاتّكالهم على فصاحتهم. »(3)

ولهذا الغرض أعقبه بقوله: "ولَنْ تَفْعَلُوا" وفيه إثارة لهممهم وتحريك لنفوسهم، ليكون عجزهم بعد ذلك أبدع، وهو أيضا من الغيوب التي أخبر بها القرآن قبل وقوعها. (4)

ولما كان سبحانه عالماً بأنّ الأنفس الأبية والأنوف الشّامخة الحمية التي قد لزمت شيئاً فمرنت عليه حتى صار لها خلقاً يصعب عليها انفكاكها عنه ويعسر خلاصها منه عبّر عن هذا الإخبار بالعجز

(1) . ينظر: خصائص التراكيب، ص 334.

(2) . الكشاف، ج1، ص131.

(3) . روح المعاني، ج1، ص199.

(4) . المحرر الوجيز، ج1، ص107.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مهدداً في سياق ملجىء إلى الإنصاف بالاعتراف، أو تفطر القلوب بالعجز عن المطلوب بقوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ ﴾فأتى بأداة الشكّ تنفيساً لهم، وتهكّماً في نفس الأمر بهم، واستجهالاً لهم، ثمّ لم يتمّم ذلك التنفيس حتى ضربهم ضربة قصمت ظهورهم وقطعت قلوبهم، فقال لتكون الآية كافلة لصحّة نسبة النّظم، والمعنى آيد وآكد لادعائهم المقدرة؛ بقوله تعالى: ﴿وَلَن تَفْعَلُواْ ﴾فألزمهم الخزي بما حكم عليهم به من العجز. (1)

وكلّ هذا يؤكد لنا أنّ اختيار حرف "إنْ" دون غيره هو عدول مقصود، وذلك لأنّ الغرض كما ذكر ابن عاشور(2) هو إظهار هذا الشرط في صورة النادر مبالغة في توفير دواعيهم على المعارضة بطريق الملاينة والتحريض واستقصاء لهم في إمكانها وذلك من استنزال طائر الخصم وقيد لأوابد مكابرته ومجادلة له بالتي هي أحسن حتى إذا جاء للحقّ، وأنصف من نفسه يرتقي معه في درجات الجدل.

ولنتأمّل سرّ هذا العدول أيضا في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [الرّعد: 5].

ألا ترى أنّ العجب أمر متحقّق؟ لكن لما كان هذا القول غريبا؛ بعيدا عن مواطن التأمّل جيء بإنْ الدّالة على الشكّ. (3)

كما يحتمل اللّفظ منزعا آخر، وهو إن كنت تريد عجبا فلهم، فإنّ من أعجب العجب قولهم.(4)

وقد جُوّز كونُ هذا الخطاب موجها إلى كلّ من يصلُح له، أي: إن تعجبْ يا من ينظُر في هذه الآيات من قدرة من هذه أفعالُه فازددْ تعجّباً ممن ينكر مع هذه الدّلائلِ قدرتِه تعالى على البعث وهو أهونُ من هذه. (5)

(1) . ينظر: نظم الدرر، ج1، ص179-170.

(2) . التحرير والتنوير، ج1، ص342.

(3) . البلاغة فنونها وأفنانها، ص346.

(4) . المحرر الوجيز، ج3، ص295.

(5) . ينظر: تفسير أبي السعود، ج5، ص6.

ويقول ابن عاشور: « فليس المقصود من الشّرط في مثل هذا تعليق حصول مضمون جواب الشّرط على حصول فعل الشرط كما هو شأن الشّروط، لأنّ كون قولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾ عجبا أمر ثابت سواء عجب منه المتعجّب أم لم يعجب، ولكن المقصود أنّه إنْ كان اتّصاف بتعجّب فقولهم ذلك هو أسبق من كلّ عجب لكلّ متعجّب. »[1]

[1]. التحرير والتنوير، ج13، ص89.

الصورة الثانية: العدول من "إنْ" إلى "لو":

ذكر الفراء أنّ "لو" و"إنْ" متقاربان في المعنى، ولذلك جاز أن يجازى "لو" بجواب إنْ، و"إنْ" بجواب "لو" في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الروم: 51]. (1)

كما أشار إلى التناوب بين "أنْ" و"لو" في المعنى كما في قوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ﴾ [البقرة: 266].

فيرى بجواز قولك في "وددت": أتود أن تصيب مالا فضاع، والمعنى: فيضيع، لأنّ العرب تلقاها مرّة بـ"أن" ومرة بـ"لو"، فيقولون: وددْت لو ذهبت عنا، ووددْت أنْ تذهب عنا، فلمّا صلحت بـ"لو" وبأنْ، ومعناهما جميعا الاستقبال استجازوا أن يردوا فعل بتأويل "لو"، على يفعل مع "أنْ". (2)

ولئن ذهب الفراء هذا المذهب بعلّة مجيء الحرفين للاستقبال، فإننا نراه يثبته أيضا مع انتفاء العلة المذكورة، وذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ [البقرة: 145].

فإنه ذكر أنّ "لئن" أجيبت بما يجاب به "لو" ولو في المعنى ماضية ولئن مستقبلة، ولكن الفعل ظهر فيهما بفعل فأجيبتا بجواب واحد، وشبّهت كلّ واحدة بصاحبتها. (3)

ولنا أن نقول إنّ الفراء مال من خلال رأيه إلى مسألة التناوب في الحروف، وهو رأي لا يتوافق ومبدأ العدول في الحروف المتقاربة، وإلا لغابت النكتة وزالت بهجة التخير.

فما قرّره الفراء هو بناء على مذهبه أنّ القسم إذا تقدم على الشّرط، جاز أن يكون الجواب للشّرط دون القسم. (4)

قال ابن فارس: "وكان الفرّاء يقول: "لو" يقوم مقام "إنْ"، قال جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: 32] بمعنى: وإنْ كره، ولولا أنها بمعنى "إن" لاقتضت جواباً. لأنّ لولا بدّ

(1) . معاني القرآن، ج1، ص143.

(2) . المرجع نفسه، ج1، ص175.

(3) . معاني القرآن، ج1، ص84.

(4) . البحر المحيط، ج2، ص26-27.

لها من جواب ظاهر أو مُضْمَر كقوله جلّ ثناؤه: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ... ﴾ [الأنعام: 7] وإنّما وُضِعت مقامَ "إنْ" لأنَّ في كلّ واحد منهما معنى الشّرط.» ([1])

ويرى العكبري أنّ "لو" الواردة في قوله تعالى: ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [البقرة: 96] هي بمعنى "أنْ" الناصبة للفعل، ولكن لا تنصب. ([2])

والرأي نفسه الذي صرّح به الزركشي أنه « مِن أوجه "لو" أن تكون شرطية وعلامتها أن يصلح موضعها "إنْ" المكسورة، وإنما أقيمت مقامها لأنّ في كلّ واحدة منهما معنى الشّرط. »([3])

فالزركشي هنا اتبع طريقة التناوب في تحديد استعمال "لو" الشرطية إلى أن تساويا عنده في الدلالة بحجّة كونهما يدلان على الشّرط، لكن المستدرك على هذا الكلام هو العموم وعدم الدقّة، فلا ينبغي أن نجعل كلّ حرفين ينتميان إلى أسلوب نحوي مشترك؛ نجعلهما مترادفين وإن تقاربا، فلكلّ خصوصياته وتركيبه المميز، وسياقه الأنسب.

ولهذا نجد أبو حيان يحدّ من اتباع هذا المنهج الذي يسنّ الاشتراك والتداخل والنيابة، فيصرّح لنا بقلّة استعمال "إنْ" بمعنى "لو" فلا ينبغي أن يحمل على ذلك، إذا ساغ إقرارها على أصل وضعها ([4])

فمن طبائع النّحاة هو اتباع الطريقة الظاهرية في الفهم لذا يذكر ابن هشام([5]) أنّ كثير من النّحاة يقولون إنّ "لو" هي بمعنى "إنْ" في نحو قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النّســـاء: 82] وقولـــه: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [يوسف: 17].

لكن طبيعة دراسة العدول لا تتوقّف عند الرأي السّطحي للظاهرة، بل تبني عليه لتفرق بين الحرف المنظوم المختار والحرف المقدّر المعدول عنه، ليميز الباحث ما عدل إليه مما عدل عنه، وبذلك تبرز

([1]) . الصاحبي في فقه اللغة، ص119.

([2]) . التبيان في إعراب القرآن، أبو البقاء العكبري، ج1، ص96.

([3]) . البرهان في علوم القرآن، ج4، ص373.

([4]) . البحر المحيط، ج2، ص27.

([5]) . ينظر: مغني اللبيب، ص348.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مزايا النّظم ودقائق البيان، وتقصيا لهذه الرؤية نجد السامرائي يفرق بين الشّرط بإنْ والشرط بـ"لو" فيقول: « والحق أنها لا تطابق "إنْ"، فإنّ شرط "لو" بعيد الوقوع وهو أبعد من "إنْ". »[1]

ويعزّز هذا قول الكفوي: « والأصل في فرض المحالات كلمة "لو" دون "إن" لأنها لما لا جزم بوقوعه ولا وقوعه والمحال مقطوع بلا وقوعه. »[2]

ويتضح هذا في قوله عز وجلّ: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النّساء: 78].

فقد جاء النّظم فيه بـ"لو" دون "إن"، لأنّ الإنسان قصارى ما يستطيع حفظ نفسه أن يكون في برج مشيّدة فجاء بـ"لو" الدّالة على البعد.[3]

ومن شواهد الثّقل والبعد الذي لوّحت به "لو" وعدول النظم إليها باستحقاقها هذا المعنى هو قوله تعالى: ﴿ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ [النساء: 135] فالإنسان أبعد شيء أن يشهد على نفسه.

ومنه أيضا قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ ﴾ [التوبة: 113].

فأولي القربى هم أولى بالاستغفار من غيرهم، فإذا كان منهيا عن ذلك معهم، فالنّهي مع غيرهم أولى، وهذا أبعد شيء في النّهي، وهكذا في كلّ ما ذكر أنه أولى من غيره.[4]

فطبيعة دراسة العدول لا تميل إلى تساوي الأداتين في الدّلالة على الشرط، بل لا بدّ من امتياز لحرف عن آخر تبعا لسياقاته وتنوع أساليبه في تقرير معناه، فإننا في ضوء هذا لو رجعنا إلى الشرط بـ"لو" نجد له مميّزا على الشّرط بـ"إنْ" في دلالة الارتباط، وذلك كونها « تدلّ على امتناع الثاني لامتناع الأول. »[5]

([1]) . ينظر: معاني النحو، ج4، ص 468.

([2]) . الكليات، ص125-126.

([3]) . معاني النّحو، ج4، ص469.

([4]) . المرجع نفسه، ج4، ص469.

([5]) . ينظر: الجنى الداني، ص276.

ومن خصائص "لو" أنها للشرط في الماضي « مع القطع بانتفاء الشرط فيلزم انتفاء الجزاء، كانتفاء الإكرام في قولك: لو جئتني لأكرمتك. »[1]

كما يمكن التفريق بين الأداتين من ناحية أخرى أشار إليها صاحب "التطوّر النّحوي" ويتمثل في أمرين أولاهما أنه إذا قلت: إن أكرمتني شككتَ في هل يُكرم المخاطب أو لا، وإذا قلت: لو أكرمتني كنت عارفا بأنّ المخاطب لم يكرمني، فالفرق المشار إليه بـ"لو" فرض ضدّ الواقع أو المتوقّع والغرض المشار إليه بأنه فرض ما يُتردّد في وقوعه، والفرق الآخر أن تأتي "إنْ" دائما للمستقبل أو على الأكثر للحاضر، و"لو" للماضي[2] وقليلا ما تكون للحاضر أو المستقبل، وقواعد عمل "لو" أقلّ تحدّدا من قواعد عمل "إنْ" وخصوصا بشأن الجواب عن "لو"، وكثيرا ما نجد فيه اللام المؤكّدة؛ نحو: "لو جئتني لأكرمتك" على جواز حذفها، فنرى هنا عبارة معينة نافية للشكّ في حالة الحدوث والانكشاف. [3]

([1]) . الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني، ج2، ص125.

([2]) . ولكونها تصرف المضارع إلى المضي اختلف في عدّها من حروف الشرط، فقال الزمخشري وابن مالك: "لو" حرف شرط. وأبى قوم تسميتها حرف شرط، لأنّ حقيقة الشّرط إنما تكون في الاستقبال، ولو إنما هي للتعليق في المضي، فليست من أدوات الشرط. ينظر: الجنى الداني، ص 283.

([3]) . ينظر: التطور النحوي، ص 200.

المبحث الثّاني:

العـدول في حـروف الاستفهام

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثاني: العدول في حروف الاستفهام:

يتميّز أسلوب الاستفهام في القرآن خاصّة بإيحاءاته الكثيرة والمتنوّعة والتي يقصدها النّظم بدلا من المباشرة والتصريح بما يناسب مقتضى الأحوال والمقامات، فيعمد في كثير من صوره إلى تخطّي المستوى المباشر للخطاب إلى إثارة الدّلالات الكامنة في نفوس المخاطبين فيخرجها منظومة بصورة الاستفهام لتتولّد في التراكيب الاستفهامية أساليب مضمّخةً بالجمال والأصالة، إضافة إلى دقّة معناها واصابتها وصفها.

وبالرّغم من الاشتراك العام لحروف الاستفهام في المعنى، فإنّ لكلّ أداة خصائص تنفرد بها عن كلّ حرف آخر وفرائد بلاغية يقصر عن وصفها أيّ عنصر غير متخيّر، ومن الدّلائل البلاغية لهذا الأسلوب في القرآن الكريم هو مجيء أساليبه على غير معانيه الأصلية، ويدلّ السّياق وقرائن الأحوال على دلالاتها الخفيّة ولطائفها الأسلوبية، الأمر الذي يقنع العقل، ويثير الخاطرة، ويصيب الوصف والهدف، « والأدخل في باب دراسة مزايا الأسلوب والكشف عن جوانبه ذات الظلال والايماض هو بحث ألوان الحسّ وما يخطر في القلب مما يثيره الاستفهام حين لا يراد به طلب الفهم. »[1]

وفيما يأتي نذكر ما جاء كاشفا عن ظاهرة العدول في حروف الاستفهام وملامحه الأسلوبية من خلال النّماذج القرآنية المتنوعة.

❖ **العدول بالمخالفة:**

العدول من "هل" إلى الهمزة:

الموضع الأوّل: قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ ﴾ [المائدة: 60]

وقال أيضا: ﴿ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الحج: 72]

(1). دلالات التراكيب، ص 215.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ورد الاستفهام مع الفعل "نبأ" في القرآن الكريم في أكثر من موضع، ومما يلاحظ في أكثر استعمالاته هو وروده بحرف الاستفهام "هل"، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ ﴾ [المائدة: 60]، وفي قوله: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) ﴾ [الكهف: 103]، وكذا قولـه: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) ﴾ [الشعراء: 221]، لكنّه في سورة الحجّ عدل التعبير القرآني عن حرف "هل" إلى همزة الاستفهام، وذلك في قوله: "أفأنبئكم" ولم يقل: "هل أنبئكم" بناء على مقتضى الظاهر، فهل هذا من باب النيابة في الحروف، أو في العدول إلى الهمزة مقاصد أسلوبية يحكيها الحرف المذكور؟

وبالرجوع إلى كثير من المفسرين في الآية المذكورة ب"هل" والأخرى الواردة بالهمزة، فإننا لا نجد الإشارة إلى هذا العدول، بالرّغم من أهميته ودقته وخفاء مسلكه، بل الوارد في التفاسير هو تأويل موضع الهمزة بـ"هل". (1)

يقول ابن عاشور في قوله: "أفأنبئكم": ((والاستفهام مستعمل في الاستئذان، وهو استئذان تهكّمي، لأنّه قد نبأهم بذلك دون أن ينتظر جوابهم.))(2)

ذكر سبحانه وتعالى على جهة التوبيخ لفعل الكفرة في أنهم يَعْبدون من الأصنام مِنْ دُون اللَّه ما لَمْ ينزِّل الله فيه حجّة ولا برهانا. ثم توعّدهم بقوله "وما لِلظَّالِمِين مِن نصِيرٍ"، ثم ذكر معرفة الإنكار والمنكر في وجوه الكفار المساءة في وجوههم والمنكر من معتقدهم وعداوتهم وأنهم يتسرّعون إلى السطو والمباطشة ثم أمر الله تعالى نبيه أن يقول لهم على جهة الوعيد والتقريع ﴿ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم ﴾أي أخبركم بِشَرٍّ مِنْ ذلِكُمُ، والإشارة بـ" ذلكُمُ" إلى السّطو، ثم ابتدأ ينبيء، كأنّ قائلا قال له: وما هو قال النّار. (3)

ولما استحقوا – بإنكارهم وما أرادوه من الأذى لأولياء الله – النكال، تسبب عنه إعلامهم بما استحقوه، فقال مؤذناً بالغضب بالإعراض عنهم، آمراً له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتهديدهم: "قل أفأنبئكم" أي أتَعُون فأخبركم خبراً عظيما. (4)

(1) . ينظر: جامع البيان، القرطبي، ج12، ص96، والبحر المحيط، ج7، ص536.
(2) . التحرير والتنوير، ج17، ص336.
(3) . ينظر: المحرر الوجيز، ج4، ص133.
(4) . ينظر: نظم الدرر، البقاعي، ج13، ص94.

وقد فرّق السامرائي بين الموضعين تفريقا سياقيا، فرأى أنّ سياق آية المائدة فيه قوّة وتبكيتا لا تجده فيما قبله فذكر أنّ الكفار اتخذوا الدّين والنّداء والصلاة هزؤا ولعبا، وقد وصفهم بالفسق وعدم العقل، وأنهم لعنهم الله وغضب عليهم ومسخ منهم قردة وخنازير وأنهم عبدوا الطاغوت، ثم قال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٦٠ ﴾ ويمضي في تبكيتهم، ووصفهم بأقبح الوصف. وليس الأمر كذلك في الآية التي قبلها، ولذا جاء في الأولى بالهمزة "قل أفأنبئكم"، وفي الثانية بهل "قل هل أنبئكم". [1]

وقد انطلق في تحليله لأساليب الاستفهام من أنّ الهمزة أقلّ توكيدا وقوّة من حرف "هل" معتمدا قول المستشرق الألماني برجشتراسر:"والهمزة هي المألوفة الكثيرة الاستعمال، و"هل" أشدّ قوّة في الاستفهام"[2]

ومن خلال هذا المنحى يتضح لنا أنّ القرآن قد استخدم الحروف ذوات الخصائص الصوتية الانفجارية أو الاهتزازية بما يضاهي المعاني والمقاصد التي أراد التعبير عنها "حذوا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث" [3]

الموضع الثاني: قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ٨٠ ﴾ [الأنبياء: 80].

جاء الاستفهام في قوله:﴿ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ﴾ بـ"هل" دون الهمزة، فلم يقل مثلا: "أفأنتم شاكرون"، فما الفرق في الاستفهام بالأداتين.؟

قيل بأنّ قوله سبحانه: ﴿ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ﴾ "أدلّ على طلب الشّكر من "أفأنتم شاكرون" بإدخال همزة الاستفهام على الجملة الاسمية وإن كان هذا القول وهو "أفأنتم شاكرون" للثبوت أيضا لكونه جملة اسمية وإنما كان أدلّ على هذا القول الذي كان فيه الاستفهام بالهمزة، لأنّ "هل" أدعى وأقوى طلبا للفعل من الهمزة فترك الفعل مع "هل" أدلّ على كمال العناية والاهتمام بحصول ما

(1) . ينظر: معاني النحو، ج3، ص624.

(2) . ينظر: التطور النحوي للغة العربية، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1414هـ-1994م، ص166.

(3) . ينظر: حروف المعاني بين الأصالة والحداثة، ص152.

سيتجدّد ولأنّ "هل" أدعى للفعل من الهمزة، لا يحسن "هل زيد منطلق" إلا من البليغ، لأنّه الذي يقصد به الدّلالة على الثبوت وإبراز ما سيوجد في معرض الموجود.»[1]

فهذا الكلام الدّقيق يحاول البحث في طبيعة "هل" وتعليل نزوعها إلى الأفعال فهي للتصديق والتصديق حكم والحكم إنما يتوجه إلى الصفات والأفعال، كما أنها تعمل في الأفعال من حيث إنها تخلص المضارع إلى الاستقبال وهذا نوع من التأثير ولا يكون التأثير إلا حيث يكون الاختصاص، وما دام قد ثبت هذا الميول للفعل أفاد ذلك أنّك إذا أدخلتها على الجملة الاسمية كان ذلك دليلا على أنّ رغبتك في معنى الاسمية، أي الثبوت والدوام؛ أقوى من استعمال الهمزة، فلو أنّ الآية جاءت بالهمزة لأفادت الثبوت والدّوام لأنّ هذا من دلالة الاسمية، ولكن الصياغة ستكون خالية من تلك اللّفتة التي تجدها مع "هل" من حيث إنّ "هل" نزاعة إلى الأفعال، وصياغة الاسمية معها يعني أنّك خالفت ما تنزع إليه، فالفرق لا يعود إلى الطّلب؛ لأنه مضمون الاستفهام، وإنما الفرق راجع إلى الثبوت والدوام وأنك مع "هل" أكثر حرصا على هذا المعنى لأنها تنزع على غيره، وقارن بين قولك: أزيد منطلق وقولك: هل زيد منطلق، ستجد أنّ الجملة الثانية فيها حسّ زائد وهوى خاص ليس في الأولى هو زيادة العناية بالثبوت والدوام، فكأنّ الأنسب مع "هل" أن تقول: هل انطلق زيد، والعدول على هذه الملائمة اللّفظية أدلّ على إبراز الاهتمام، فهذه دقائق تخفى وتدقّ حتى لا يكاد يتفطّن لها إلا اللَّقِن.[2]

كما يمكن القول بأنّ هناك فرقا آخر[3] قائما على أساس من الصّوت واللفظ؛ وذاك يتمثل في اختلاف أصوات كلّ من الأداتين، فالهمزة تختلف صوتا عن الهاء واللام في "هل" مما يجعل لكل منهما مدخلا خاصا على البنية النّحوية بحسب ورودها في السّياق، فالهمزة مثلا حين تختصّ بدخولها على مواضع كأدوات النفي مثلا، نحو ما جاء في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ ﴾ [الفجر: 6]، وتقدّمها على العاطف، نحو ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ

([1]) . مختصر التفتازاني على تلخيص المفتاح ضمن شروح التلخيص، ج2، ص271.

([2]) . ينظر: دلالات التراكيب، ص214-215.

([3]) . ينظر: البنى النحوية وأثرها في المعنى، أحمد عبد الله حمود العاني، أطروحة دكتوراه، جامعة بغداد، 1423هـ- 2003م، ص319.

ٱلْعَهْدُ ﴾ [طه: 86]، إنما جاء من طبيعة لفظها صوتا وعدد حروف، ولعلّ ذلك يتبين فيما لو قدر استبدال "هل" بها، إذ لا يصحّ أبدا أن يقال: "هل لم تر" أو "هل فطال".

وكذلك شأن الأداة "هل" فإنّ تقدم العاطف عليها جاء من طبيعة لفظها ونطقها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾ فقد شكّل هذا الحرف بُنية لا تحقّقها الهمزة، لأنّ النّطق بها هنا يؤدي إلى مشكل صوتي، فلا يمكن أن يقال : "فأأنتم منتهون".

إذ تفيد "هل" في مثل هذه المواضع المبالغة في طلب الفعل والحضّ عليه، وعلى هذا جاء قوله تعالى: ﴿ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة: 91].

وأفاد الزمخشري أنّ الاستفهام بـ"هل" ((من أبلغ ما ينهى به، كأنّه قيل: قد تلى عليكم ما فيهما من أنواع الصوارف والموانع، فهل أنتم مع هذه الصوارف منتهون. أم أنتم على ما كنتم عليه، كأن لم توعظوا ولم تزجروا.))[1]

كما أشار الزمخشري إلى أنّ هذا الاستفهام ((استقصار، وتعيير بالمعاندة وقلّة الإنصاف، لأنّ المنْصِف إذا تجلّت له الحجّة لم يتوقّف إذعانه للحقّ، وللمعاندة بعد تجلّي الحجّة ما يضرب أسدادا بينه وبين الإذعان.))[2]

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

([1]) . الكشاف، ج1، ص708.

([2]) . المصدر نفسه، ج1، ص375.

❖ **العدول بالاختيار:**

الصورة الأولى: العدول إلى الاستفهام بــ"هل":

الموضع الأوّل: قال تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ١﴾ [الإنسان: 1].

نقل الرازي[1] الاتفاق على أنّ "هل" هاهنا وفي قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ١﴾ [الغاشية: 1] بمعنى "قد"، فالمقصود هو التقرير وليس الاستفهام.

لكن السّؤال الموجّه لأهل الاتفاق هو إذا كان الاستفهام غير مقصود لماذا جاء النّظم بصورته وبأهمّ أداة معبّرة عنه؟ وإذا اعتبرنا أنّ ما يؤول إليه الاستفهام هو التقرير؛ ألا يمكن إظهار وجه الربط بين التقرير ومعنى الاستفهام على اعتبار أنّ ((ما في هذا الاستفهام شيء يختلف عن محض التقرير وإنْ أفاده، وإلا لكانت وسيلة التقرير هي طريق أدائه.))[2]

وقد تفطّن ابن عاشور إلى هذا الفرق فأبرز أنّ الاستفهام هنا ((مستعمل في تحقيق الأمر المقرّر به على طريق الكناية، لأنّ الاستفهام طلب الفهم، والتقرير يقتضي حصول العلم بما قرر به وذلك إيماءً إلى استحقاق الله أن يعترف الإنسان له بالواحدانية في الربوبية إبطالا لإشراك المشركين.))[3]

وهذه النّظرة برأيي ألمحت إلى نكتة العدول عن معنى التقرير الخبري إلى التقرير بطريق الإنشاء، ولا مانع من الجمع بين ثوابت الصورة اللفظية وما يؤول إليه الكلام، بل هو الأحقّ والأولى لئلا تصرف حقائق التنزيل عن وجهها ولا يعدل بظواهر الحروف عن أصلها ومعدنها.

فمن ألطف نكت العدول إلى الاستفهام في الآية هو أنّ ((فيها إثارة هذا السّؤال الذي يلفت الوجدان على التفكير والغوص في الموقف والبحث فيه عن وجه الصّواب ثم نجد سلسلة من التداعيات والرؤى تثار في القلب والخاطر حول هذه الحقيقة ثم عن هذا السّؤال يبقى بقاء كلمة الله يلحّ على ضمير الإنسان، وهذا كما ترى شيء غير محض التقرير والتّحقيق، ومدلول عليه بـ "هل".))[4]

([1]) . ينظر: مفاتيح الغيب، ج30، ص739، جامع البيان، ج24، ص87.

([2]) . دلالات التراكيب، ص217.

([3]) . التحرير والتنوير، ج29، ص371.

([4]) . دلالات التراكيب، ص217.

وقد أشار الرازي إلى لفتة معنوية في الاستفهام الوارد في قوله تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ ﴾ [طه: 9]، يقول في توجيه الآية: «المقصود منه تقرير الجواب في قلبه، وهذه الصيغة أبلغ في ذلك، كما يقول المرء لصاحبه: هل بلغك خبر كذا؟ فيتطلع السامع إلى معرفة ما يرمي إليه ولو كان المقصود هو الاستفهام؛ لكان الجواب يصدر من قبل النبي عليه السلام لا من قبل الله تعالى.»[1]

فالمعنى البلاغي في حقيقته ليس في معرفة كون الخطاب للتقرير فحسب، فهذا وإن عُلم لا يعدو أن يكون مضمون الآية وتفسيرها، وإنما تظهر دواعي الجمال حين يستثار رابط الاشتراك بين التقرير والاستفهام، وتوخّي الفرق بين التقرير المحض والتقرير عن طريق الاستفهام، فالنكتة الأسلوبية لا تتوقّف عند إدراك أنّ مقتضى الخطاب هو تقرير، بل تبحث في سرّ عدول الصيغة اللّفظية في التعبير القرآني عن إخراج معنى التقرير بأداة "قد" مثلا. وعليه نقول أنّ الملاحظ في مثل هذه الأساليب هو طبيعة اسعمال الاستفهام وما يحدثه في نفس متلقيه من إثارة وتطلّب تهدي بك إلى ترييض العقل والإدراك لتتطلّع إلى مقاصد الكلام وغاياته ثم الإقرار بعد ذلك، وهذا يؤكد لنا أنّ تأويل الاستفهام بالتقرير حمل على المعنى وتقريب له، أمّا الألفاظ فلها لفتاتها وخصائصها، فقولهم: هل أتاك بمعنى قد أتاك؛ تقديرٌ وإنْ صحّ بمقاييس النّحاة فإنّه لا يليق في لغة الأدب والجمال.

لذلك لا يستبعد ابن عاشور[2] أن تكون "هل" حرف يفيد الاستفهام ومعنى التحقيق، ومراد الآية: هل يقرّ كلّ إنسان موجود أنه كان معدوما زمانا طويلا، فلم يكن شيئا يذكر، أي لم يكن يسمى ولا يتحدّث عنه بذاته، وهم لا يسعهم إلا الإقرار بذلك، فلذلك اكتفي بتوجيه هذا التقرير إلى كلّ سامع.

---

(1) . مفاتيح الغيب، ج22، ص16.

(2) . ينظر: التحرير والتنوير، ج29، ص372.

الموضع الثاني:

قال عزّ وجلّ: ﴿ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ٨٩ ﴾ [يوسف: 89]

يحلّل الزمخشري هذا الاستفهام على أنّه من أخلاق الأنبياء ورزانة عقولهم، فلذلك خاطبهم عليه السّلام من جهة الدّين فكلّمهم مستفهما عن معرفة وجه القبح الذي يجب أن يراعيه التائب: ((يعني: هل علمتم قبحه فتبتم إلى الله منه، لأنّ علم القبح يدعو إلى الاستقباح، والاستقباح يجرّ إلى التوبة، فكان كلامه شفقة عليهم وتنصّحا لهم في الدّين، لا معاتبة وتثريبا، إيثارا لحق الله على حقّ نفسه.))[1]

ويرى الرازي بأنّ هذا الاستفهام يفيد تعظيم الواقعة، ومعناه: ما أعظم ما ارتكبتم في يوسف وما أقبح ما أقدمتم عليه، وهو كما يقال للمذنب: هل تدري من عصيت، وهل تعرف من خالفت؟[2]

لكن ورود التعظيم بهذا الأسلوب أبلغ في التأثير على المخاطب وأوقع زجرا في النّفس من أن يقرّر له النّفي مسبقا كأنه مخبرا له.

فيوسف عليه السّلام لا ينتظر جوابا من إخوته، لأنّه يعلم ذلك، وإنما يريد بالاستفهام أن يحرّك مشاعرهم، ويثير عواطفهم وأفكارهم إلى تذكر هذه الحادثة الأليمة التي تصور مؤامرة الإخوة على أخيهم، فكأنه يوبخهم ويؤنبهم بأن لا ينبغي منهم هذا الفعل، ولا يليق بهم هذا الصّنيع.[3]

وينقل أبو حيان عن المفسّرين أنّ ((غرض يوسف توبيخ إخوته وتأنيبهم على ما فعلوا في حق أبيهم وفي حق أخويهم، والصحيح أنه قال ذلك تأنيسا لقلوبهم، وبسط عذر كأنه قال: إنما أقدمكم على ذلك الفعل القبيح جهالة الصبا أو الغرور، وكأنّه لقّنهم الحجّة كقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦ ﴾ [الانفطار: 6].))[4]

([1]) . الكشاف، ج2، ص472.

([2]) . ينظر: مفاتيح الغيب، ج18، ص504.

([3]) . ينظر: من بلاغة النظم العربي، ج2، ص116.

([4]) . البحر المحيط، ج6، ص319.

فالاستفهام النابع من نفس نبي الله يوسف عليه السّلام لا ينتظر من خلاله ردّا ولا جوابا، لأنّه قد اتخذ منحى عدولي متميّز ليفيد من خلاله دلالة التقريع والعتاب بتوقع جواب النفي، ولهذا تخيّر النّظام اللّغوي للآية حرف الاستفهام "هل" دون الهمزة، لأنّ الهمزة وإن كانت مألوفة الاستعمال إلا أنّ "هل" في هذا المقام أنسب للمعنى وأليق أسلوبا، فجواب "هل" لما يتوقّع جوابه بالنفي، بخلاف الهمزة فإنّ الأصل فيها لما يتوقّع حصوله. [1]

الموضع الثالث: قال تعالى: ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الرحمن: 60].

هذه الآية من شواهد العدول عن النّفي المباشر المستفاد من المعنى إلى حرف الاستفهام "هل" الوارد في بنية الأسلوب القرآني، فهل يكون حرف الاستفهام "هل" يفيد نفس المعنى الذي يؤديه أي حرف نفي آخر؛ ليمكّن لنا عدُّه حرف نفي مفرغ من معنى الاستفهام؟ ويصير قوله: "هل جزاء" بمعنى قولنا "ما جزاء"، أو أنّ العدول إلى الاستفهام استأثر بإيحاءات أسلوبية تُفقد لو على غير هذا الطريق جاء النّظم؟

ذهب جمع من المفسّرين[2] إلى أنّ الاستفهام مستعمل في النفي، أي ما جزاء من أحسن في الدنيا إلا أن يحسن إليه في الآخرة. ولذلك عقّب بالاستثناء فأفاد حصر مجازاة الإحسان في أنها إحسان.

لكن هناك من فرّق بين النفي المحض والنفي المستفاد من الاستفهام، ومن المؤيدين لهذا المعنى السامرائي، إذ فرّق بين النفي الصِّرف والنفي المستفاد من الاستفهام وذلك من وجهين:

الأوّل: أنّ النّفي بـ"هل" ليس محضا بل هو استفهام أُشرب معنى النّفي فقد يكون مع النفي تعجّب أو استنكار أو نحوها، فقوله تعالى: ﴿ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴾ [الإسراء: 93]، لا يفهم منه مضمون النّفي المجرّد، وأنّه لو جاء بالنّفي فقال: "ما كنت إلا مَلَكا رَسُولا"؛ ما كان يؤدّي ما أداه الاستفهام من استنكار قولهم والتعجّب من طلبهم ، فهو يسألهم: هل كنت إلا بشرا رسولا وسيكون الجواب حتما "لست إلا بشرا"، ومن هنا يكون التعجّب والاستنكار ، وهو أنه إذا كنتم تعلمون أني بشر، فكيف تطلبون مني مثل هذا؟

([1]) . ينظر: معاني النحو، ج، 4، ص623.

([2]) . ينظر: معاني القرآن وإعرابه، ج5، ص103، والجامع لأحكام القرآن، ج17، ص182، التحرير والتنوير، ج27، ص71.

وعلى نحو هذا الأسلوب جاء الاستفهام في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يونس: 102].

فالنّفي المفهوم من صورة الاستفهام ليس نفيا محضا، لذلك لا يجوز أن نقرر أنّ "هل" هنا بمعنى "ما" بل إنّ النظرة الأسلوبية تستدعي قراءة للاستفهام ابتداء من أصله ومعناه، وإلا فلا معنى لعدول النظم إليه واختياره عن الحروف الأصيلة في النفي، فحرف الاستفهام يبلّغ إثارة نفسية مشوبة بمعان أخرى لا يؤدّيها صريح النّفي.

والوجه الآخر: أنّ النّفي الصّريح إنما هو إقرار من المخبِر، فإذا قيل: "ما جزاء الإحسان إلا الإحسان" كان هذا إخبارا من المتكلّم، أما إذا قال ذلك من طريق الاستفهام فإنّ المقصود إشراك المخاطب في الأمر فهو يريد إصدار الجواب منه. (1)

لذلك جاء قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن: 60] جاء بطريق الاستفهام، لما كان المخاطب مدعوّا لأنّ يجيب، والجواب حتما سيكون على وفق ما قرّر في الكلام، لأنّ عادة القرآن في مثل هذه الأساليب أن يخاطب العقول الواعية، والفِطر السويّة، ومَن تتوفّر فيه دواعي الإستجابة، فردّ الجميل يكون لمن أحسن لا لمن أساء، وطلب خصائص القوّة من الخالق القويّ لا من البشر الضّعيف، ونحوها من الأساليب كلّ هذا مما تقرّه العقول الصريحة، ولهذا أوكل الجواب إليها فإقرارها إياه بأنفسها.

أمّا إذا نظرنا من ناحية خصائص حرف "هل" ومعانيه الفطرية؛ فقد أشار إلى لطائفها حسن عباس حين بين أنّ الهاء فيها هي مخفّف هاء التنبيه فمن شأن صورتها المهتز أن يثير انتباه السامع إلى ما سيأتي بعدها، أمّا حرف اللام فيها فللدّلالة على الإلصاق والإلزام، ومحصّلة خصائص حرفيها تتوافق مع معانيها في الطّلب من وضوح وإلزام.

وعلى هذا فالاستفهام الوارد في الآية وإن ورد بمعنى النفي إلا أنّ خاصية الإلصاق في هل" لا تزال على حالها من حيث المعنى العام، فكأنّ المعنى يؤول إلى ما تقديره: "أنّ جزاء الإحسان هو الإحسان مؤكّدا". (2)

---

(1) . ينظر: معاني النحو، ج4، ص617-618.

(2) . ينظر: حروف المعاني بين الأصالة والحداثة، ص153-154.

ومما نحن بسبيله قوله سبحانه وتعالى: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ١٧ ﴾ [سبأ: 17].

فالفرق بين الدّلالة على النّفي بالاستفهام والدلالة عليه بالنفي المعهود هو أنّ نفي المستفهم يحرّك فكر المخاطب وينبّه عقله، ويستثير وجدانه، ويحضّه على النّظر والفِكر والتأمّل، أمّا النّفي المطلق فمفرغ من لطائف هذه المعاني.

ولعلّ السرّ في جمال أسلوب الاستفهام هنا، والعدول إليه عن أسلوب النّفي، هو أنّ الاستفهام في أصل وضعه يتطلّب جوابا يحتاج إلى تفكير، يقع به هذا الجواب في موضعه، ولما كان المسئول يجيب بعد تفكير ورويّة عن هذه الأسئلة بالنّفي، كان في توجيه السّؤال إليه حملا له على الإقرار بهذا النّفي وهو أفضل من النّفي ابتداء. [1]

إنّ سبيل القرآن في طرح معنى النّفي في صورة الاستفهام يستدعي احتواء الخصم بدفعه إلى الإقرار بما تفرضه عليه القضية التي تحملها تركيبة الاستفهام، وهذا هو الذي يمهّد سبيل إقرار المخاطب بما يعرض عليه من قضايا بواسطة الاستفهام إقرارا لا يتطلّب منه طول تفكير ورويّة، لذا فالمخاطَب بالاستفهام سرعان ما ينخرط في دورة الخطاب وينسلك في ثناياه خاضعا لسلطانه متجاوبا معه. وإنّ أبلغ الحجج وأشدها إلزاما للخصم ما نطق بها هو نفسه وأسهم في صنعها من خلال إجابته الاستفهام الموجه إليه، فعلى هذا يبدو الاستفهام أبلغ حجاجا من مجرّد النفي. [2]

(1) . ينظر: من بلاغة القرآن، أحمد بدوي، ص126.

(2) . ينظر: الحجاج في القرآن، عبد الله صوله، ص428-429.

الموضع الرابع: قال تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأعراف: 53].

جاء التعبير القرآني معبرا بلفظ "ينظرون" عن انتظار تأويل القرآن، فكأنّ النّاظر إلى مجيء شيء في مقام من يرتقبه وينتظره، لكن اللافت في الآية هو مجيء الاستفهام على غير معنى الطلب، لذلك يذكر ابن قتيبة أنّ المفسرين يجعلون "هل" هنا بمعنى "ما"، وهو عند أهل اللّغة تقرير. [1]

كمـــا جـــاء أيضـــا في قولـــه تعـــالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ ﴾ [البقرة: 210].

فالذي يتبادر في معنى"هل" الواردة في الآية هو معنى النّفي، أي: "ما يَنْظُرُونَ"، ولذلك دخلت "إلا" وكونها بمعنى النفي إذ جاء بعدها: "إلا"؛ كثير الاستعمال في القرآن، وفي كلام العرب. [2]

فالإنسان إنما ينتظر ما يعلم، أو يظنّ وقوعه، لكن المخاطبين لم يكونوا كذلك، لأنهم لم يصدّقوا ويؤمنوا به؟ والجواب عن هذا هو أنه لما كان واقعا لا محالة؛ كانوا في الحقيقة كالمنتظرين له في المعنى ولذلك جاء تهديدا لهم. [3]

وفي المجرى الأسلوبي نفسه يأتي قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ﴾ [الأنعام: 158].

ذكر أبو هلال العسكري أنّ أهل التفسير قد قالوا على مثل هذه الأساليب أنها بمعنى: ما ينظرون إلا ذلك، وهو عند أهل العربية بمعنى الزّجر والتهديد. [4]

فبتفحّص مواضع الاستفهام الواردة في مثل هذه الأساليب نجد أنها معدولة عن دلالة الاستفهام ــ وإن وردت بلفظه ــ إلى معنى الزجر، لذا توجب علينا أن نتحسّس ونستثير مواطن الزجر وملامحه في السّياق، والزّجر هو منع بتهديد. فالآيات السابقة قد أشربت فيها ملامح تهديد الكفار، فحين

(1) . ينظر: تأويل مشكل القرآن، ص288، وينظر: البرهان في علوم القرآن، ج4، ص433.

(2) . ينظر: البحر المحيط، ج2، ص342.

(3) . ينظر: كشف المعاني، ابن جماعة، ص114.

(4) . ينظر: الوجوه والنظائر، ت: محمد عثمان، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 1428هـ- 2007م، ص500.

تحدَّث سبحانه عن ميعادهم يوم القيامة وأنهم سيشهدون تأويل القرآن بأنفسهم، فيستيقنوا أنه الحق من ربهم، وإيحاءً تهديدهم بأنهم سيقعون في وبال أمرهم، وخبال أعمالهم.

وكذا ما يستشفّ من السّياق من معاني التهديد والوعيد في قوله تعالى بعدها: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأنعام: 158]، والمعنى: إنا منتظرون ما يحلّ بكم، وستعلمون أيها المكذبون لمن تكون العاقبة وهو أمر للرسول صلى الله عليه وسلم بأن يهددهم ويتوعدهم على الانتظار، وحُذف المفعول به المنتظر لزيادة التخويف والترويع، كأنه أكبر من أنْ يدخل في حدود الحدس والتخمين. [1]

أما الجزء الآخر من الآية هو قوله تعالى: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ﴾ [الأعراف: 53]. فـ"هل" تفيد الممكن القريب الوقوع، أما "ليت" فتفيد معنى التمني البعيد الحصول.

وقد دلّت "هل" في البنية السطحية أي الوحدة اللّفظية؛ دلّت على الاستفهام والطلب، لأجل الحصول على شيء ممكن أولا، وقريب وقوعه ثانيا، أمّا المعنى من هذا الاستفهام فيدلّ على ابتعاد حصوله إذ لم ولن يتواجد شفيع ليشفع لهم، لكن القائل يودّ لو كان لديه شفيع من الشفعاء، فيعدل بكلامه عن "ليت" الأصلية إلى "هل" المعنوية، لتحقيق ما بين الأسلوبين، والجامع بين ليت و"هل" هو البطلان.

وهذا ما يزيدنا تأكيدا لضرورة الاحتفاظ بالحرف على معدنه الأوّل وعدم خروجه كليا إلى أبواب أخرى « لأنّ البلاغة والجمال في التعبير يتركزان أساسا في هذا الترجح بين هذا الاستفهام وما خرج إليه فالاستفهام أساس فيها ينصرف إليه الذهن ابتداء، والمعنى البلاغي كساء له وجمال يدرك بالتأمّل والتذوّق، ولكنّه لا يمكن الفصل بينهما. »[2]

(1) . ينظر: البحر المحيط، ج4، ص700، ونظم الدرر، ج7، ص334، والتحرير والتنوير، ج8، ص191.

(2) . الأدوات النحوية في كتب التفسير، ص674.

الصورة الثانية: العدول إلى الاستفهام بـ"أم":

قال تعالى: ﴿ أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا ﴿٥٤﴾ ﴾ [النساء: 54]

ذهب الزمخشري [1] وابن عطية [2] والبيضاوي [3] إلى أنّ "أم" الواردة في الآية بمعنى "بل" أي: بل يحسدون النّاس، وهي بذلك عدلت عن معنى الاستفهام إلى معنى التقرير.

أما أبو حيان فلم يرتض وجه التقرير وإنما ذكر أنّ الاستفهام عدل عن معناه الصِّرف إلى معنى الاستفهام المصاحب للإنكار، والتوبيخ، والتقريع، أي: أنكر عليهم أولا البخل، ثم ثانيا الحسد. [4]

وهذا هو الأصل في التخريج فلا يمكن للحرف أن يتخلّى عن معناه أو ينسلخ ويتجرد من دلالته الأصلية وإن بدا غير ذلك في مقتضى الظّاهر، ولو قدّرنا عدول النّظم إلى حرف "بل" وجاءت الآية "بل يحسدون" لأوهم المعنى مجرد الإخبار عن مقتضى الحسد فيهم وحسب وهذا غير المقصود، ولكن المعنى الذي أحدثته أم كما يرى الطبري[5] هو الإنكار عليكم وتوجيه الخطاب ضمنا إلى سرائرهم فمعنى الآية: أم يحسد هؤلاء اليهود الذين وصف صفتهم في هذه الآيات الناسَ على ما آتاهم الله من فضله، من أجل أنهم ليسوا منهم؟ فكيف لا يحسدون آل إبراهيم، وقد أعطي آل إبراهيم، يعني: أهله وأتباعه على دينه الكتاب، يعني كتاب الله الذي أوحاه إليهم، وذلك كصحف إبراهيم وموسى والزّبور، وسائر ما آتاهم من الكتب، فكيف لم يحسدوهم على ذلك، وحسدوا محمدًا عليه السلام؟

وفي هذا ما يدلّل على عدم دقّة فكرة التناوب والتداخل بين الحروف فالمعنى الواضح في "أم" هو الإنكار والنهي عن طريق التقريع لا التقرير والتثبيت وهما ضدان. لذلك بيّن ابن يعيش الفرق بينهما فقال: « من حيث كانت مقدرة بـ"بل" والهمزة على ما تقدم فـ"بل" للإضراب عن الأول، والهمزة للاستفهام عن الثاني، وليس المراد أنّها مقدرة بـ"بل" وحدها، ولا بالهمزة وحدها؛ لأنَّ ما بعد "بل" متحقّق، وما بعد "أم" هذه مشكوك فيه ومظنون، ولو كانت مقدرة بالألف وحدها لم يكن بين

([1]) . ينظر: الكشاف، ج1، ص554.

([2]) . ينظر: المحرر الوجيز، ج2، ص68.

([3]) . ينظر: أنوار التنزيل، ج2، ص79.

([4]) . ينظر: البحر المحيط، ج3، ص678ص682.

([5]) . ينظر: جامع البيان، ج8، ص481.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الأول والآخر عُلْقة، والدليل على أنَّها ليست بمنزلة "بل" مجردة من معنى الاستفهام قوله تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الزخرف: 16]، وقوله تعالى: ﴿ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الطور: 39]، إذ يصير ذلك محقَّقًا، تعالى عن ذلك.)) (1)

كما أشار العدول في الآية على معنى النهي؛ الذي دلّ عليه الاستفهام والذي جاء ليؤشّر على وجود معنى خاص مشكّل من صورة مرئية ظاهرة وهي الاستفهام ومعنى مستوحى من السّياق غير ظاهر وهو النفي، غير أنّ هذا النفي لم يأت وفق النظام اللغوي التركيبي المعهود والمكون من أداة النفي ثم الفعل المنهي عنه، بل جاء النّهي ضمن أسلوب الاستفهام فصار الأسلوب بأسلوبين استفهام عن حسد مقيت، ونهي لهم عن إتيان الأفعال البغيضة، ومن لطائف العدول من النفي إلى الاستفهام هو مراعاة الأسلوب القرآني لحال المخاطبين بتفحّص نفوسهم وفضح دسائس قلوبهم المبعثة منها أقبح الرذائل المهلكة، فبعد وصفهم بالبخل ترقّى القرآن وانتقل إلى توبيخهم بالحسد فجاء الاستفهام ليغشيهم بشعار الإنكار والتقريع.

ثم إنّ الاستفهام النّاهي جاء متماشيا وطبيعة السياق القرآني فالحديث عن اليهود والمخاطبون هم اليهود وهم في موقعهم منكرون لِما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ومنه القرآن، لذا فإنّ اليهود في حالتهم هذه ليسوا في مناط التكليف الإسلامي فلا الأمر يوجب عليهم شيئا ولا النهي يفرض عليهم تركا لذا جاء أسلوب القرآن الكريم مستفهما منهم استفهاما كي يصلوا بقرارة أنفسهم إلى النهي والإنكار الذي خرج إليه الاستفهام في الآية، فحين يسمع المتلقي هذا الاستفهام يدفعه إلى الإجابة عنه، فإذا ما سمع اليهود هذا الاستفهام انتهوا بقرارة أنفسهم عما كانوا فيه من الغيّ، وإن لم يعملوا بمقتضى الاستفهام الطلبي. (2)

في نفس هذا المجرى العدولي يأتي قوله تعالى: ﴿ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النجم:24] فالاستفهام في"أم" للإنكار، والمعنى ليس له كلّ ما يتمنّاه، والمراد نفي طمعهم في شفاعة الآلهة وقيل هو تمني بعضهم أن يكون هو النبي(3) فلو كان المعنى على تأويل معنى "بل" لأثبت للإنسان ما

(1). شرح المفصل، ج5، 18.

(2). ينظر: بنية الأساليب النحوية في الأداء القرآني، عبد الله محمد خلف القراراعة، (أطروحة دكتوراه) جامعة مؤتة، 2013م، ص96-97.

(3). أنوار التنزيل، ج5، ص159.

يتمناه وهذا واضح بأنه خلاف للمعنى المراد، وبالتالي فالعدول إلى هذا الحرف الصغير له مغزى عجيب إذ تتشكل فيه أطياف المعاني الخادمة لمقام الآية فهو يمسك بطرف من الاستفهام ويدلّ على الإنكار ولا يتخلى عن النّفي. وبالتالي لا يستطيع أي حرف آخر أن يبلّغ معناه، أو يوحي بوحيه.

فمن خلال ما سبق يمكننا القول بأنّ "أم" لا يمكن أن تكون إلا على بابها وأصلها الأوّل من المعادلة والاستفهام حيث وقعت، وتقديرها بـ"بل" التي للإضراب خارج عن أصول اللغة العربية، فإنّ أم للاستفهام وبل للإضراب وبعيد ما بينهما، والحروف لا يقوم بعضها مقام بعض على أصحّ الطريقتين وهي طريقة إمام الصناعة والمحقّقين من أتباعه، ولو قدّر قيام بعضها مقام بعض فهو فيما تقارب معناهما لا غير.[1]

فاستعمال "أم" المتصلة أوالمنقطعة يفيد إشراك المخاطب بما جاء بعدها؛ لأنها متضمنة معنى الاستفهام، أمَّا "بل" فتفيد تفرد قائلها بالحكم الذي يجيء بعدها؛ فحين يراد في الخطاب إشراك المخاطب بالحكم يستعمل "أم" وإذا أريد الانفراد بالحكم استعمل "بل"، وهذا بعينه ما ترجمته الآيات القرآنية، فلا مكان ولا مقام إلا للحرف المنظوم فقد استعمل التعبير القرآني "أم" لمَّا أراد معناه، كقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ ﴾[الزخرف: 15-16]،وقوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الطور: 39-40] واستعمل "بل" لمَّا أراد تحقيق معناه، وذلك كقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الطور: 33]، وقوله تعالى: ﴿ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الطور:36].

[1] . ينظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم، عضيمة، ج1، ص409.

الصورة الثالثة: العدول إلى همزة الاستفهام:

الموضع الأوّل: قال عزّ وجلّ: ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [الإسراء: 40]

شاهد العدول في الآية هو الاستفهام الوارد في قوله: ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ ﴾ حيث لم يرد به ما ظهر من معنى الهمزة وهذا لطبيعة اللغة وقرائن الاستعمال.

وقد قال النحويون إهذه الهمزة هي همزة تدلّ على الإنكار على صيغة السّؤال عن مذهب ظاهر الفساد لا جواب لصاحبه؛ إلا بما فيه أعظم الفضيحة. [1]

وهذا الضّرب كثير في القرآن ما يفصح عن تحوّل مضمون الاستفهام من معناه الأوّل إلى تبليغ معان مستتبعة تنطلق في فحواها من معنى الاستفهام، لكنّها لا تقف عنده حتى توصل دلالات موحية بالإنكار والإبطال، ومما نحن بسبيله ما جاء في قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [الصافات: 149]، وكذا قوله عزّ وجلّ: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ [الحجرات: 12]

فالأسلوب المدلّل عليه بحرف الاستفهام جاء للإنكار مع بقاء معنى الاستفهام قائما، فالله تعالى أنكر على المشركين القائلين – الملائكة بنات الله– قولهم، كما أشرب هذا الأسلوب مؤشّرات النفي لهذا الإدعاء، وثقل القول وعظمته، فنفى الأسلوب بالاستفهام أن يتّخذ الله من الملائكة إناثا ويخصّهم بالذكور، كما قال لهم في أنفسهم قولا بليغا؛ بقدر افترائهم؛ ما يدلّل على قوّة شناعتة وشدّة فضاعتة. وقرينة ذلك تمام الآية: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾.

ومن مواضع العدول من الاستفهام الأصلي إلى معنى الإنكار؛ قوله تعالى: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ [البقرة: 266]

يقول ابن القيم بأن هذا الأسلوب " أخرجه مخرج الاستفهام الإنكارى، وهو أبلغ من النفي والنهي وألطف موقعاً، كما ترى غيرك يفعل فعلاً قبيحاً؛ فتقول: لا يفعل هذا عاقل، لا يفعل هذا من يخاف

(1) . مفاتيح الغيب، ج20، ص345.

الله والدار الآخرة. وقال تعالى: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ ﴾بلفظ الواحد لتضمّنه معنى الإنكار العام، كما تقول: يفعل هذا أحد فيه خير؟ وهو أبلغ فى الإنكار من أن يقول أيودون. وقوله: "أَيَوَدُّ" أبلغ فى الإنكار من لو قيل: أَيريد، لأنّ محبّة هذا الحال المذكورة وتمنيها أقبح وأنكر من مجرّد إرادتها. ››[1]

فلماذا هذه الآيات لم تلتجئ إلى أسلوب الإنكار المباشر بأدواته البارزة ومعانيه الظاهرة، أليس هذا أدعى إلى الإبلاغ عن معاني الإنكار؟ ثم لا يحتاج بعدها إلى تأويل أوتمحّل.

وهذا ما يوحي بأنّ الآيات عدلت عن المعاني المكشوفة المصرّح بها، فجانبت أن تتبرّج عن معانيها حتى كأنّك لا تراها وتحسّها، وأبت أن يكشف الكلام عنها اللثام، وإنما يتحسّسها من ارتقى حسّه ويلتقطها أهل الوعي بمآلات الكلام، لتستثير في نفوسنا السّؤال، وتَكِل الإجابة إلينا بيننا وبين أنفسنا، وهذه المعاني المتحجّبة لم يظهرها النّظم، ولم يجهر بها النّظام اللغوي بقدر ما كانت معان شعورية ضاربة في أعماق النّفس نشعر بها ولا نكاد نصفها، ‹‹ والاستفهام هنا يهيّء النّفس لتتلقّى من السّياق ما يجيش به من خواطر ومشاعر وصور هي التي جاشت في نفس متلقيه. ››[2]

يقول عبد القاهر الجرجاني: ‹‹ واعلم أنّا وإن كنّا نفسر الاستفهام في مثل هذا بالإنكار فإنّ الذي هو محض المعنى: أنّه ليتنبه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعيي بالجواب. ››[3]

فعند التحقيق تبين للجرجاني أنّ الغرض الحقيقي ليس لمجرد الإنكار؛ وإلا لجاء النّظم على صورته وإنما الغرض التنبيه للتدبّر، فإنّ الحُكم الذي ينضج من نفسك، ويتربّص بمداخل تفكيرك؛ أدعى لقبوله من الأحكام الموجّهة.

ولتوضيح هذا المعنى قارن الجرجاني بين موقفين[4] للمتبي في وصف الحمى اشتركا غرضا وجنسا لكن خصوصية في الأوّل ليست للآخر، وما ذاك إلا لأنّ الأوّل أخرجه مخرج السّؤال والآخر سلك به مسلك التقرير والبيان، يقول الجرجاني معلّقا: ‹‹ إلا أنّ ذلك الإيهام أحسن من هذا البيان، وذلك التعجُّبُ موقوفاً غيرَ مجاب، أولَى بالإعجاب، وليس كلّ زيادة تُفلح، وكل استقصاء يَمْلُح. ››[5]

([1]) . طريق الهجرتين وباب السعادتين، دار السلفية، القاهرة، مصر، ط2، 1394هـ، ص371.

([2]) . دلالات التراكيب، ص244.

([3]) . دلائل الإعجاز، ص119.

([4]) . قال في الأول: أعْجَبْتَها شَرَفاً فَطَال وُقُوفُها ... لتأَمُّلِ الأعضاءِ لاَ لأَذَاتِها.

وقال في الآخر: وجسمُك فَوْق هِمَّةِ كُلِّ داءٍ ... فقُرْبُ أقلِّها منه عجيبُ. ينظر: أسرار البلاغة، ص282-283.

([5]) . أسرار البلاغة، ص283.

الموضع الثاني: قال سبحانه وتعالى: ﴿أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣﴾ [التوبة: 13].

ذكر النيسابوري[1] أن الفاء في قوله: "فَالله"؛ نوع من تعليل، لأنّ الاستفهام السابق له ﴿أَتَخۡشَوۡنَهُمۡ﴾ فيه معنى النّهي، كأنه قيل: "لا تخشوهم" لأنّ الله أحقّ بالخشية وأحرى بالطاعة.

ومن أدلّة العدول في أسلوب الاستفهام هو ماجاء في هذه الآية عند قوله: ﴿أَتَخۡشَوۡنَهُمۡ﴾ حيث لم تخرج الهيئة اللفظية مخرج النّهي عن فعل شيء ما؛ مع اقتضاء المعنى له، فكأنه أراد: "لا تخشوهم" بدليل قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ﴾ [المائدة: 44]. ومن أسلوب الاستفهام للنهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦﴾ [الانفطار: 6]. أراد "لا تغتر بالله ورحمته واعمل لأخرتك"... وهذا يوضحه سياق سورة الانفطار ولا سيما الآية الأخيرة التاسعة عشرة ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ [الانفطار: 19]. فالسياق في أسلوب الاستفهام السابق أصبح متمّماً لدلالة المنهي عنها في بُعد إيحائي يعبّر عن رمزية اللّغة باعتبار ما تحمله من وظائف بلاغية وفكرية.

ويرى الرازي[2] أنّ إخراج المعنى بهذا الأسلوب؛ مِن ضروب الترغيب وإيقاض لهمم مما يقوي داعية القتال لأنّ تعديد الموجبات القوية وتفصيلها مما يقوي هذه الداعية، وأنّ قولك للرجل: أتخشى خصمك يكون ذلك تحريكا منك لأنْ يستنكف أن ينسب إلى كونه خائفا من خصمه.

ثم حاول التفريق بين أسلوب النهي المباشر والنهي المستوحى من الهيئة الاستفهامية بما حكاه عن الواحدي أنّ أهل المعاني قالوا: إذا قلت: "لا تفعل كذا"، فإنما يستعمل ذلك في فعل مقدّر وجوده وإذا قلت: ألست تفعل، فإنما تقول ذلك في فعل تحقّق وجوده، والفرق بينهما أنّ "لا" ينفى بها المستقبل، فإذا دخلت عليها الألف صار تحضيضا على فعل ما يستقبل، وليس إنما تستعمل لنفي الحال. فإذا دخلت عليها الألف صار لتحقيق الحال.[3]

---

(1). غرائب القرآن، ج3، ص437.

(2). ينظر: مفاتيح الغيب، ج15، ص536.

(3). ينظر: مفاتيح الغيب، ج15، ص536.

وهذا من لطائف العدول باستعمال الاستفهام دون النهي بصوره المعهودة، لأنّ في الاستفهام زيادة معنى وهو التحريض على القتال وعدم الخشية مع بقاء معنى النّهي بدلالة السّياق، والتقدير: ((أينتفي قتالكم إياهم لخشيكم إياهم.))[1]

وهذا ما يؤكّد لنا أنّ ((التركيب تختبئ في خصائصه وأحواله إشارات ودلالات مختلفة، وأنّ السّياق هو الذي يستخرج من هذه الخصائص مقتضياته، وكأنّ التركيب النّفيس أشبه بقطعة من معدن نفيس تعطي ألوانا متكاثرة كلّما أَدَرْتها إدراة جديدة، والسّياق هو القوّة التي تحرّك هذه القطعة لتشيع من ألوانه ما يراد إشعاعه.))[2]

الموضع الثالث: قال عزّ وجلّ: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ٢٠﴾ [آل عمران: 20].

أوضح بعض النحاة والمفسرين[3] وعلى رأسهم ابن هشام أنّ من المعاني التي يعدل إليها الاستفهام معنى الأمر، وأنّ مدلول الاستفهام من "أأسْلَمتم": اسْلِمُوا. [4]

وذهب الزجاج إلى أنّ الاستفهام في الآية توقيف وتهديد، ووجهه الإيحاء بالتوعد في المسألة وفي هذا دليل أنّك تأمره بأن يفعل [5]، ووسمه ابن عطية بالحسن، لأنّ المعنى أأسْلمتم أم لا؟. [6]

فاللّفظ استفهام ومعناه أمر، أي: أسلموا، فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية، فقال أهل الكتاب: أسلمنا. فقال للنصارى: أتشهدون أنّ عيسى كلمة من الله وعبده ورسوله، فقالوا: معاذ الله، وقال لليهود: إنّ عزير هو عبد الله ورسوله، قالوا: لا نشهد، فذلك هو معنى قوله: فإن تولّوا فإنّما عليك البلاغ. بتبليغ الرسالة. [7]

([1]) . التحرير والتنوير، ج10، ص134.

([2]) . دلالات التراكيب، ص238.

([3]) . ينظر: معاني القرآن، الفراء، ج1، ص202، والمحرر الوجيز، ج1، ص414،

([4]) . ينظر: مغني اللبيب، ص27.

([5]) . ينظر: معاني القرآن وإعرابه، ج1، ص390.

([6]) . ينظر: المحرر الوجيز، ج1، ص414.

([7]) . ينظر: معالم التنزيل، البغوي، ج1، ص422.

فهو إذا استفهام في معرض التقرير، ومجيء معنى الأمر في صورة الاستفهام إجراء مستساغ يتناسب ومعنى كلّ منهما وهو الطّلب، فيصير بمنزلته طلب الفعل والاستدعاء إليه، إلا أنّ في العدول في الأسلوب عن صورة الأمر إلى لفظ الاستفهام فائدة متوخّاة، ونكتة أسلوبية ينبض بها السّياق وإلا فلا مانع من ورودها بصيغة الأمر، وقد أشار الرازي إلى هذه النكتة بأنّ التعبير يشير بالاستفهام إلى كون المخاطب معاندا بعيدا عن الإنصاف. [1]

وفي هذا الاستفهام منحى أسلوبي لطيف وهو أنّ الله تعالى قد سألهم إن كانوا قد أسلموا بعد أن أبان لهم مسألة الإسلام بالإذعان والانقياد له وحده، بيانا يوجب حصوله لا محالة، وهذا كقولك لمن لخّصت له المسألة ولم تبق من طرق البيان والكشف طريقا إلا سلكته؛ هل فهمتها، لا أمّ لك؟ ومنه فإنّ هذا الاستفهام استقصار لهم، وتوبيخ، وتعيير بالمعاندة، وقلّة الإنصاف، لأنّ المنصف إذا تجلّت له الحجة لم يتوقف إذعانه للحقّ وللمعاندة بعد تجلّي الحجّة ما يضرب أسدادا بينه وبين الإذعان، وكذلك في "هل فهمتها" توبيخ بالبلادة وكِلّة القريحة. [2]

والعدول المستوحى من قول الزمخشري ليس على مستوى حرف الاستفهام بأنْ عدل إلى معنى حرف آخر يقتضية السياق، إنما العدول وقع في خروج الاستفهام عن معنى الاستعلام ليرسم ملامح التعيير والبلادة التي غشيت المعاندين والمتباطئين في الدخول إلى الإسلام بعد استكمال الحجج واستبيان الدلائل.

وعندما يتلطّف المتكلم بالمخاطب فإنّه يوجه إليه أمرا حاكيا له بأسلوب الاستفهام، والأمر لا يشتمل إلا على التكليف، بل هو شامل لكلّ ما تستعمل له صيغة الأمر من تكليف، أو نصيحة أو موعظة، أو إرشاد، أو دعاء، أو التماس، أونحوها، وذلك كمن قدم له طعاما، فقيل له: أتأكل؟ ألا تأكل؟. وإذا أراد أن يأمره بالصلاة وقد حان وقتها قال له: أتصلي؟ ألا تصلي، وهكذا. [3]

لكن الاستفهام عند ابن عاشور[4] ليس تعييرا وتوبيخا لأنّ هذا المعنى قد ينصرف إلى من لا يُرجى إسلامه، بل الاستفهام عنده مستعمل في الاستبطاء والتحضيض، وهو ما أفاده معنى الأمر

([1]) . ينظر: مفاتيح الغيب، ج7، ص175.

([2]) . ينظر: الكشاف، ج1، ص375.

([3]) . ينظر: البلاغة العربية، الميداني، ج1، ص288.

([4]) . ينظر: التحرير والتنوير، ج3، ص202.

كما في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: 91]، واستلهم هذا المعنى من التركيب النّحوي وذلك بأن مجيء: "أأسْلَمتم" بصيغة الماضي دون قوله: "أتسلمون" للتنبيه على أنّه يرجو تحقّق إسلامهم، حتى يكون كالحاصل في الماضي، بدليل قوله تعالى بعدها: ﴿فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْ﴾.

وما ذهب إليه ابن عاشور لا يستبعد وجاهته باعتبار الصيغة الدالة على الأمر المضمن معنى العرض على الخصم أن يجيب داعي الله ويرتدع ويعود إلى الحقّ، ولكن لما كان الخصم معاندا وهو في معرض المجادلة فهو حقيق بالتوبيخ لذا أخرجت العبارة مخرج التهديد كي يرتدع ويزدجر ويعود إلى الإسلام.

ومما أخرج هذا المخرج البليغ هو قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ [الحديد: 16]، وهذه الآية واضح فيها معنى الحضّ والتقريع، قال ابن عباس: عوتب المؤمنون بهذه الآية بعد ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن.(1)

فالعدول من الأمر المباشر إلى الأمر في صورة الاستفهام لتحقيق معاني سياقية هامة وفوائد لا تتأتى بغير ها من الصيغ، إذ فيها استبطاء بتطلف في الأمر يحزّ في قلوب المؤمنين ويلين من قسوة القلوب وهي من دواعي الإنابة والاستجابة، وهذا يختلف عن الأمر الصّريح بلفظه.

فالتعبير القرآني لما يستعمل الاستفهام ترى المفسرون يقدِّرون عدّة معاني له رجاء وصفه وتفسيره فيقولون مثلا: هو توبيخ وتقريع، وتعجب، واستبطاء، وأمر، « وهذا التعدّد دليل على ما نريد أن نؤكّده من أنّ المعنى الذي يفيده الاستفهام خفيّ وسانح ومتفلّت وأننا نحاول السيطرة عليه بمثل هذه الأوصاف الكثيرة الناقصة التي نتوهّم أنها تحيط به ولكنها لا تستخرج منه إلا بعض إشاراته أو لا تصف منه إلا ما يظهر، وترى ذلك كثيرا في الأساليب الثرية والسّياقات الحيّة.»(2)

وهذا ما يترجم لنا دقّة التعبير القرآني في وصف الظواهر والأحوال والتعبير عن حقائقها بأنسب الألفاظ وأحكم الأساليب لتبقى الحروف المستفهم بها وإن أُوّلت بمعان عدة تبقى أصيلة متمكّنة معدولا بها عن كلّ المعاني القاصرة عن تجسيد المواقف وتصوير الحالات.

(1) . ينظر: المحرر الوجيز، ج5، ص264.

(2) . دلالات التراكيب، ص218.

الموضع الرابع: قال سبحانه وتعالى: ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الحِجر:54].

أشار بعض المفسرين[1] إلى أنّ معنى الآية أنّ إبراهيم عليه السّلام قد عجب بالبشرى التي جاء بها الملائكة، وهذه البشرى تمثّلت في أنّ الله تعالى سيرزقه بإسحاق على كبر فيه وامرأته فعجب إبراهيم عليه السلام من هذه البشرى، على سبيل الاستبعاد لما جرت به العادة، ومع إشارتهم إلى هذا لم يفصّلوا في العدول من معنى التعجّب الصّريح إلى معنى الاستفهام التعجبي.

أما الزمخشري فقد صرّح في هذه الآية بوجود العدول في الاستفهام، حين قرّر أنّ "ما" الواردة هنا استفهامية دخلها معنى التعجّب، يقول: « كأنّه قال: فبأيّ أعجوبة تبشرونني أو أراد أنكم تبشرونني بما هو غير مقصور في العادة فبأي شيء تبشرون يعني لا تبشرونني في الحقيقة بشيء، لأنّ البشارة بمثل هذا بشارة بغير شيء. »[2]

ومن المؤشّرات الدّالة على قوّة هذا التعجّب الذي صدر من نفس إبراهيم عليه السلام، هو تميّز النّظم القرآني إذ حذف المفعول به من "تبشّرونَ" وبقيت النون مفتوحة، وهذا في قراءة الجمهور، لما في ذلك من زيادة في التعجّب.

فجاء الكلام على جهة الاحتقار وقلّة المبالاة بالمسرة الدنيوية لمضي العمر واستيلاء الكبر.[3]

يقول ابن عاشور مقرّرا هذا المعنى « نُزّل الأمر العجيب المعلوم منزلة الأمر غير المعلوم لأنّه يكاد يكون غير معلوم، وقد علم إبراهيم عليه السلام من البشارة أنهم ملائكة صادقون فتعين أنّ الاستفهام للتعجب... وجواب الملائكة إياه بأنهم بشروه بالخبر الحقّ، أي الثابت لا شكّ فيه إبطالا لما اقتضاه استفهامه بقوله: فبم تبشّرون من أنّ ما بشّروه به أمر يكاد أن يكون منتفيا وباطلا. فكلامهم ردّ لكلامه وليس جوابا على استفهامه، لأنّه استفهام غير حقيقي. »[4]

ومن خلال ما سبق يتبين أنّ الاستفهام الوارد في الآية هو معنى معدول إليه من صورة التعجّب فالصّيغة النّحوية الظّاهرة هي صورة استفهام، والمعنى الأسلوبي العميق هو تعجّب، فيكون بذلك

([1]) . ينظر: البحر المحيط، ج5، ص447، الرازي، مفاتيح الغيب، ج19، ص151.

([2]) . الكشاف، ج2، ص543.

([3]) . المحرر الوجيز، ج3، ص366.

([4]) . التحرير والتنوير، ج14، ص59.

السّياق قد أشرب المعنيين، فهو يحمل استعلام إبراهيم عليه السّلام من الملائكة عن إمكانية أن يولد له، مع عدم توفر أسبابه، كما يحمل معنى تعجّبه مما لو حدث ذلك.

وعلى هذا النّحو قوله سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [يونس: 77].

وهذا كأنْ "تقول لفرس تراه يجيد الجري: "أفرس هذا" على سبيل التعجيب والاستغراب، وأنت قد علمت أنّه فرس، فهو استفهام معناه التعجيب والتعظيم." [1]

الموضع الخامس: قال تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾ [ق: 2- 3].

الشاهد في عدول الاستفهام قوله: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ ولنا أن نتساءل عن مراد الكفار من هذا الاستفهام وما الشيء الذي طواه الاستفهام وحكته الهمزة؟

فلا شكّ أنّ قولهم هذا هو استبعاد لمعنى البعث بعد الموت، والاستبعاد وهو عدّ الشيء بعيدا ويقع البعد في الزمن وفي المتعلّق، وهو غير الاستبطاء الذي متعلّقه متوقّع الحصول غير أنّه بطيء في زمن انتظاره.

ففي قوله تعالى حكاية عن الكفار:﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾يتعجّب الكفار من فكرة البعث ويوضحون سبب تعجبهم بقولهم: هل حين نموت، ونصير ترابا نرجع ثانية أحياء ؟! ذلك الرجوع الذي يقول به محمد غير ممكن، فرد سبحانه تعجبهم واستبعادهم بقوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ [ق: 4]، فلا يستبعد علينا جمعها بعد تفرّقها.

فالاستفهام في الآية الكريمة ليس مرادا به المعنى الحقيقي، ولكنه خرج إلى معنى الاستبعاد، وسرّ التعبير بالاستفهام في مقام الاستبعاد أنّ الاستفهام يوحي بحيرة الكفار واستبعادهم لأمر هذا البعث ولا ريب في أنه أبلغ وأجمل من أن يعرض قول الكفار في صورة خبرية، كأن يقول: "إذا متنا وكنا ترابا لا يمكننا الرجوع"، لما في الاستفهام من إيجاز، وإلهاب وجذب للاتنتباه، وإرهاف للمشاعر والحث على التفكير والدعوة إلى المشاركة، وتصوير لحال المتكلمين. [2]

([1]). البحر المحيط، ج6، ص91.

([2]). ينظر: من بلاغة النظم العربي، عبد العزيز عرفة، عالم الكتب، بيروت، ج2، ص105-106.

ومن الدّلائل المصوّرة لملامح الاستبعاد وكاشفة عن أغوار العناد؛ ما جاء في قوله تعالى حكاية عن قوم شعيب: ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ ﴾ [هود: 87].

حيث جاء الاستفهام هنا بالهمزة دون "هل" وذلك أنهم في الوقت الذي يتهكّمون فيه بشعيب يكابدون هاجسا في النّفس يثبت ما يستفهمون عنه، ويستند في ذلك إلى ما حكاه أبو حيان عن بعضهم أنّ الهمزة لا يستفهم بها حتى يهجس في النّفس إثبات ما يستفهم عنه، بخلاف "هل" فإنه لما لا يترجّح عنده فيه نفي ولا إثبات. [1]

الموضع السادس: قال تعالى: ﴿ قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ ١٨ ﴾ [الشعراء: 18].

ففرعون يعلم يقينا أنّ موسى عليه السلام قد عاش في مصر وليدا، ما يُفهِم أن الغرض ليس لحقيقة الاستفهام، وإنما المراد حمل موسى عليه السّلام على الإقرار بذلك أو تذكيره به على الأقلّ، فتذكّر آلاء فرعون عليه في صغره، وتربيته له أملا في أن يراجع سيدنا موسى عليه السلام نفسه، ويقلع عن العمل على تقويض عبادة المصريين له، وأنّى لموسى أن يرجع، وهو مأمور من الله الواحد الأحد.

ومجيء الكلام على صورة الاستفهام تعبير حي عن نفسية فرعون ومحاولته الدفاع عن عرشه بكلّ وسيلة سواء أكانت حربا نفسية أم حربا مسلّحة، وفي هذا أيضا محاولة لجذب مشاعر المصريين وإثارة انتباههم. [2]

(1) . ينظر: الإتقان في علوم القرآن، ج2، ص168.

(2) . ينظر: من بلاغة النظم العربي، ج2، ص114.

❖ **العدول بالحذف:**

قال تعالى: ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [الأعراف: 113]

وقال أيضا: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الشعراء: 41]

السّامرائي[1] من عادة القرآن أن يرصد للسياق كلّ ما هو أليق به

إنّ موقف سورة الشعراء موقف تحدّ كبير ومحاجّة شديدة طويلة أشدّ وأطول مما هي في سورة الأعراف فقد سأل فرعون موسى فيها ربّ العالمين وأجابه جوابا طويلا ثم رمى فرعون فيها بالجنون قائلا: ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الشعراء: 27]، وهدّده بالسّجن قائلا: ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الشعراء: 29]

وليس الأمر كذلك في سورة الأعراف.

إنّ ذكر الهمزة في قوله؛ تدلّ على قوّة الاستفهام وشدّة اللّهفة إلى استماع الجواب من فرعون نفسه، ولما كان المقام مقام إطالة ومبالغة في المحاجة جيء بهمزة الاستفهام لتشترك في الدّلالة على قوّة الاستفهام والتصريح به.

ففي الآية الأولى إضافة إلى إضمار الهمزة فقد أضمر المقول له، أما في الأخرى فقد صرّح بالمقول له والهمزة معا، وما يؤكد هذا أيضا هو قوله في سورة الأعراف: ﴿ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴾[الأعراف: 113]، أما قوله في سورة الشعراء: ﴿ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴾ [الشعراء: 41] بزيادة "إذا" الذي يحاكي ضراوة فرعون في المغالبة.

وقد جاء في سورة الأعراف: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [الأعراف: 123]، وقال في سورة الشعراء: ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ

[1]. ينظر: معاني النحو، ج4، ص611-613.

﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الشعراء: 49] بزيادة اللام في "فلسوف" زيادة في التوكيد، وهي نظيرة ذكر الهمزة في الأولى وحذفها في الأخرى.

وكلّ هذه الملامح تكشف عن التطابق الأسلوبي بين السياق ومجيء الهمزة في سورة الشعراء، وهو المناسب لأسلوبها، كما أنّ حذفها من الأعراف هو المناسب لسياقها.

وقيل: لما كان المقصود في الأعراف اقتصاص الخبر وتسجيل التأريخ؛ اكتفي بذكر مجيء السحرة لفرعون ومبادرتهم بتأكيد حصولهم على الأجر.

قال الزمخشري: ((فإن قلت: هلا قيل: وجاء السّحرة فرعون فقالوا: قلت: هو على تقدير سائل سأل: ما قالوا إذ جاؤوه؟ فأجيب بقوله: ﴿أَبِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ جعلا على الغلبة: وقرىء: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ على الإخبار وإثبات الأجر العظيم وإيجابه: كأنهم قالوا : لا بدّ لنا من أجر.))[1]

فيكون المقصود من القراءتين على الاستفهام، كما بان من ظاهره قوله: "نعم"، ولا يفيد هذا حجّة في تغاير القصتين، بل سرّ هذا العدول يكمن في تغاير الأسلوبين، واختلاف الملامح السياقية في تقرير كلّ منهما.

فقوله: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ لم يفد رسم الهيئة المقتضية للطلب؛ بقدر ما أفادت تأكيد خبر المطلوب وهو المال والأجر، وهذا يتناسب مع سياق الأعراف الوارد في سياق إخبار بمجي السّحرة لفرعون لا حكاية سؤالهم لفرعون، لذلك لم يقال: "قالوا لفرعون إنّ لنا لأجرا".

وفائدة إخراج قولهم على الخبرية ((لأنهم وثقوا بحصول الأجر لهم، حتى صيّروه في حيّز المخبر به عن فرعون، ويكون جواب فرعون بـ"نعم" تقريرا لما أخبروا به عنه.))[2]

أمّا قولهم في سورة الشعراء: ﴿أَبِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ إضافة إلى إفادتها معنى الخبر، فقد أكّدت على صورة الاستفهام لتأكيد الهيئة المبيّنة لحال السّحرة. والله أعلم.

أمّا عن قول فرعون "نعم" في الموضعين، فهو إما أن يكون إجابة عما استفهموا، أو تقريرا عما توسّموا فحرف الجواب يقرر مضمون الكلام الذي يجاب به، فهو تصديق بعد الخبر، وإعلام بعد الاستفهام بحصول الجانب المستفهم عنه. [1]

([1]) . الكشاف، ج2، ص131.
([2]) . التحرير والتنوير، ج9، ص46.

وبعد هذه الكنوز المتكاثرة المتثنية في باطن الاستفهام وما يشعّ به من دلالات؛ نقول بأنّ الاستفهام من خلال المدوّنة القرآنية أفاد معاني بلاغية كثيرة:كالإنكار والنفي والتقرير والتهديد والتعجّب، ومع هذه الإفادات يظلّ متمسّكا بلحمته اللّغوية ليفيد معنى التنبيه، ويثير ذهن المخاطب ويرصد ملامح حسه ليفعّل رده ويوقظ ضمائره بعد الأناة والتروي في طبيعة هذا الاستفهام.

وقد استطاع أسلوب الاستفهام بسماته الأسلوبية الواضحة أن يقنع العقل بالخطاب ويمتع الوجدان بالتأثير، وكان له القدرة على تشريك المتلقي في تفعيل الموقف القرآني، وما درّه من لطائف ونُكت تنشّط الخيال وتحرّك العقول والأذهان.

([1]). ينظر: التحرير والتنوير، ج9، ص46.

الفصل الرابع:

العدول في حروف النفي والاستثناء

ويندرج تحته مبحثان:

المبحث الأول: العدول في حروف النّفي

المبحث الثاني: العدول في حروف الاستثناء

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول:

العـدول في حـروف النّـفي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأوّل: العدول في حروف النفي:

يعدّ أسلوب النّفي في العربية من أهم الأساليب الحيّة التي تنبض بمعاني البعد والإنكار، والجحد وعدم الإقرار، كما يعدّ من خلال أنماطه القرآنية أسلوبا يعتمد تخيّر المفردات للتعبير عن المعنى المقصود فيعدل إلى العنصر المختار ليشكّل منه مؤشرا أسلوبيا يحاكي المعنى ويقرّب القصد، وما يزيد في أثره ويوضّح مقتضاه هو حروفه التي تعبر وتبلّغ عنه معناه وتصوّر لنا أبعاده ومغزاه، وما يرتبط بتوظيف هذه الحروف من لطائف وأسرار تعكس دقّة في اللّغة، وتلوّح بثقلها إلى وعورة في دراستها ومراسها، يقول العلوي عن أحرف النفي: « واعلم أنّ لحروف النّفي تعلّقا بالبلاغة لما يلحقها من الأسرار القرآنية والمعاني الشّعرية بحسب مواقعها ومواردها لها. »(1)

ولو أنّ قولنا في نفي القيام مثلا: ما قام أحد، أو لم يقم أحد، أو ما قام من أحد، فلو أنّ هذه الصور جميعا كانت متساوية في الوصول إلى نفي القيام؛ لانتفت الفائدة من تعدّدها، ولنُسب إلى اللغة العربية أنها لغة مُسرفة مبذّرة لا تعرف الاقتصاد في تصريف وسائلها. الأمر الذي يوحي بأن لكلّ صورة مقصد معين أراد المتكلم أن يبلّغه السامع. (2)

وفيما يأتي ذكر لشواهد العدول في حروف النّفي في القرآن الكريم:

❖ العدول بالمخالفة:

الصورة الأولى: العدول من "لم" إلى "ما":

الموضع الأوّل: قال تعالى حكاية عن مريم عليها السّلام: ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ ﴾ [مريم: 20] في حين كان خطاب قومها: ﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ ﴾ [مريم: 28].

فلِم عدل النّظم من نفي الفعل كان بـ"لم" إلى نفيه بـ"ما"؟

يقول ابن يعيش: « فإنّ قيل: فما الحاجة إلى " لَمّ" في النفي؟ وهلّا اكتُفي بـ"ما" من قولهم: "ما قام زيدٌ" قيل: فيها زيادةُ فائدة ليست في "ما"، وذلك أنّ "ما" إذا نفتِ الماضي، كان المراد ما قرب من الحال، ولم تنفِ الماضي مطلقًا. »(3)

---

(1). ينظر: الطراز، العلوي، ج2، ص110.

(2). ينظر: البيان في روائع القرآن، ص 489.

(3). شرح المفصل، ج5، ص35.

ونجد هذا المعنى في تأكيد النّفي بـ"لم" واضحًا أيضًا في قول العذراء: ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم : 20]، فهو إمعان في النّفي من أن تكون قد تلبّست بهذا الوصف في أيّ مرحلة من مراحل حياتها فضلاً من أن يكون هذا وصفًا معروفًا لها. في حين كان خطاب قومها لها: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: 28]، فجاء النّفي منهم بـ"ما"، فلم يقولوا: "ولم تك أمّك بغيا"؛ لأنه ليس بمقدورهم الإطلاع على كلّ أزمنة حياة أمها حتى يصدر النّفي منهم بصيغة التجدّد والحدوث؛ وإنما جاء النفي منهم بصيغة العموم، فقالوا:﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ فهذا هو المعروف والمشهور للناس من حال أمّها بصفة العموم؛ لذا كان النّفي منها أبلغ وأدقّ، وأنفى للتهمة؛ لكونها أدرى وأعلم بكلّ لحظات حياتها وتصرّفاتها.

فإنّ مريم عليها السّلام كأنها قالت: إني تفكّرت في أزمنة وجودي ومثلتها في عيني: "لم أك بغيا" فهو أبلغ في التنزيه فلا يظنّ ظانّ أنها تنفي نفيا كليّا مع أنها نسيت بعض أزمنة وجودها، وأما هم لما قالوا: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ ما كان يمكنهم أن يقولوا: نحن تصوّرنا كلّ زمان من أزمنة وجود أمّك وننفي عن كلّ واحد منها كونها بغيا، لأنّ أحد لا يلازم غيره فيعلم كلّ زمان من أزمنة وجوده وإنما قالوا لها إنّ أمّك اشتهرت عند الكلّ حتى حكموا عليها حكما واحدا عامّا أنها ما بغت في شيء من أزمنة وجودها. (1)

وقد ذكر سيبويه أنّ "ما" أوسع من "لم" في النّفي يقول: « إذا قال: "فَعَل" فإنّ نفيه "لم يفعل"... وإذا قال: "لقد فعل" فإنّ نفيه "ما فعل"، لأنه كأنّه قال: "والله لقد فعل" فقال: "والله ما فعل". »(2)

وهذا كما جاء في الإتقان: « ومقتضى كلام سيبويه أن فيها معنى التأكيد، لأنّه جعلها في النّفي جوابا لقد في الإثبات فكما أنّ "قد" فيها معنى التأكيد فكذلك "ما جعل" جوابا لها. »(3)

(1) . ينظر: البرهان في علوم القرآن، ج2، ص380.
(2) . الكتاب، ج3، ص117.
(3) . الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ج2، ص289.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ومما يعزز كون "ما" أبلغ نفيا من "لم" هو أنها تختص بجواب القَسَم، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 23]، وقال: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟﴾ [التوبة: 74].

وكذا مما يلاحظ في استعمالها أنها يقترن منفيها بمن المؤكّدة، وهذا لا نجده في استعمال أداة النفي "لم"، قال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ [المؤمنون: 91]. وقال:﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: 4].

ومما يصاحب هذا العدول في النفي هو عدول صيغتي الفعل، فإنّ "لم" تدخل على المضارع فتقلب زمنه إلى ماض، كقولك: "لم أكن" أما "ما" فإنها تدخل على الماضي فتقول: "ما كنت".

والماضي يدلّ على الزّمن الفائت الذي انقضى فيه الفعل، أما المضارع فيدلّ على التكرار والتجدّد « فإذا دخلت "ما" على الماضي دلّ على انتفاء الحدث بصيغة الماضي، وإذا دخلت لم على المضارع دلّ على انتفاء الحدث في المضي لكن بصيغة التجدّد والاستمرار، فدخول "لم" يدلّ على أنّ الحدث لم يحصل في الماضي على تطاول المدّة واستمرارها، ومن هذا قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾﴾ [الكهف: 90]، ولم يقل: "ما جعلنا لهم"، لأنّ ذلك متكرّر متطاول إذ كلّ يوم تطلع عليهم الشّمس وليس لهم ستر دونها فجاء بالفعل المضارع مع "لم"، بخلاف قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: 60]. فجاء بالفعل الماضي مع "ما" لأنّ الرؤيا وقعت مرة واحدة، ثم إنّ هذه الآية فيها ردّ على الكفرة الذين سخروا من رؤياه بخلاف الآية الأولى فإنها إخبار لا ردّ، فجاء في الأولى بـ"لم" وعدل عنها في الثانية إلى "ما". [1]

ومن هذا المسلك العدولي أيضا قوله تعالى:﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [المدثر: 32-34]. ولم يقل بصيغة الماضي: "ما كنّا من المصلين، وما كنا نطعم المسكين" بل جاء بـ"لم" مع المضارع لأن فعل الصلاة وإطعام المسكين يتكرّر ويستمرّ ما بقي فاعله.

(1) . ينظر: معاني النحو، السامرائي، ج4، ص571-572.

الموضع الثاني: **قال تعالى**: ﴿ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ٢٠ ﴾ [مريم: 20]

وقال في موضع آخر: ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ ٣٨ ﴾ [ق: 38].

فاستعمل الفعل مسّ منفيا بـ"لم" ثمّ عدل عنه في الثانية إلى "ما" في قوله: "وما مسّنا".

نقول إنّ في الآية الأولى ردّ على اليهود الذين يقولون إن الله تعب من خلق السماوات والأرض فاستراح في اليوم السّابع- تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا- فردّ عليهم بـ"ما"، وجاء بـ"من" الاستغراقية للدلالة على أنّه لم يحصل شيء من ذلك بخلاف الثانية فإنها ليست ردّا على من قال إنها مسّها بشر، ولكن إخبار عن نفسها بذلك.

وأمر آخر هو أنّ الآية الأولى جاءت بصيغة الماضي، لأنّ الأمر حدث وانقضى مرّة واحدة وهو خلق السّماوات والأرض، أمّا الآية الثانية فهي في مسّ الرّجال للنّساء، وهو أمر قد يتكرّر ويتجدّد حصوله، فذَكَرت أنّ ذلك لم يحصل فيما انقضى من عمرها. (1)

فلمّا كان مسّ الرّجل للمرأة قضية متجدّدة جيء لنفيها بـ"لم" مع الفعل المضارع لنَفي الحدث في مدّة متطاولة مستمرّة، أما قوله: "ما مسّنا" جاءت "ما" نافية للفعل الماضي مفيدا للقطع والحسم في مرة واحدة لأنّ الفعل الماضي تمّ وانقضى، وهذا من دقائق لغة القرآن العجيبة.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ﴾ [الأنعام: 131] وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا ﴾ [القصص: 59]

فإنه سبحانه لما قال: "بظلم" كان سبب حسن الهلاك قائما وأما الظّلم فكان يتوقّع في كلّ زمن الهلاك سواء كانوا غافلين أم لا، لكن الله برحمته يمسك عنهم في كلّ زمان وافقته غفلتهم، وأما قوله: "وأهلها غافلون" وإن وجد الظّلم لكن لم يبق سببا مع الإصلاح فبقي النّفي العامّ بعدم تحقيق المقتضى في كلّ زمان. (2)

(1) . ينظر: معاني النحو، السامرائي، ج4، ص572.

(2) . ينظر: البرهان في علوم القرآن، ج2، ص380.

وقد ينفى الماضي بـ"ما" إذا أريد نفي الحدث بصورته المنقضية التامة، وينفى المضارع بـ"لم" إذا أريد نفي الحدث في الماضي بصورة التغير والتجدد، فيشخص الحدث في الذّهن بصورته التجددة ثم ينفيه بهذه الصورة في الماضي، ونحو هذا قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡ﴾ [البقرة: 259] فعدل عن "ما" النافية إلى "لم" لأنّ تغيّر الطعام والشّراب يحصل تدريجيا، ويتسنه باستمرار، وليس دفعة واحدة، فعدل إلى "لم" للدّلالة على أنّه لم يحصل شيء من ذلك، ولو جاء النّظم نافيا بـ"ما" أي "ما تسنّه"؛ لأفاد نفي التسنّه وهو التغيّر بصورته النّهائية التامة وذلك مناف للمقصود، وغير المناسب. (1)

الموضـع الثالـث: قال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون: 91].

وقال أيضا: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ﴾ [الإسراء: 111].

إنّ الصّورة التي ورد بها العدول في النّفي تمثّلت في المخالفة بين "لم"، و"ما" في موضعين متشابهين وذلك ما جاء في الموضع الأوّل: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ﴾ أما في الآخر فعدل إلى "لم"﴿ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا﴾ وعلماء النّحو يذكرون أنّ "لم" تدخل على المضارع، فتقلب زمانه إلى الماضي، و"ما" تنفي الفعل الماضي، فتقول: "لم أذهب" و"ما ذهبت"، فيفيدان الدّلالة على المضي.

ولكن، هل النّفي بـ"لم"، و"ما" يتماثلان، فيكون النّفي في قولنا: "لم أذهب" هو معنى النّفي في قولنا: "ما ذهبت" ؟ وأنّ جملة "لم أذهب" هي في المعنى: "ما ذهبت"؛ لتحوّل الفعل المضارع إلى الماضي مع "لم"، أم أنّ هناك فرقا دلاليًّا بينهما. ؟

ذهب بعض علماء اللّغة المعاصرين إلى التفريق بينهما؛ فإبراهيم أنيس يرى: أنّ "لم" منحوتة من: " لا"، و "ما"، ويترتب على هذا التأصيل أنها آكد من النّفي بأداة بسيطة مثل "ما". أو على الأقل لا يمكن أن يصبح النّفي بـ"لم " أضعف من النّفي بـ"ما". (2)

(1) . ينظر: معاني النحو، السامرائي، ج4، ص573.

(2) . ينظر: من أسرار اللغة، ص184ص187.

ومن هذا المبدأ يذهب البقري على أنّ "ما" أقلّ تأكيدا في النّفي من "لم"، وفي هذه الآية يشير إلى أنّ أسلوب النّفي في الآيتين يكاد أن لا يختلف، إلا أنّ مع "لم" والفعل المجزوم بعدها سكونا يصكّ ذهن السامع أقوى وأعمق من "ما". [1]

وإذا تجاوزنا الخلاف في صحّة التركيب في "لم" من عدمه؛ فإنّ الباحث لا يعتقد أنّ استنباط حكم على اختلاف حرفين في مقتضى المعنى يكون من مجرّد التركيب والبساطة، ولا معيار غيره، وإلا لاعتمدت في كلّ الحروف المركبة، وهذا ما لم يبح به التراث النّحوي.

أمّا الزركشي فقد بيّن من خلال المعطيات اللّغوية أنّ قولك: ما قام زيد معناه: أنّ وقت الإخبار ما فَعل، فيكون النّفي في الماضي، أما قولك: لم يقم: تجعل المخبر نفسه بالعرض متكلّما في الأزمنة الماضية، وكأنّه يقول: في كلّ زمان في تلك الأزمنة أنا أخبرك بأنه لم يقم، ومن هذا المنطلق فرّق الزركشي بين وجهي النّفي في الآيتين، فهو يرى أنّ الأوّل في مقام طلب الذّكر والتّشريف به للثّواب والثاني في مقام التعليم وهو لا يفيد إلا بالنّفي عن جميع الأزمنة. [2]

إنّ الفرق بين الحرفين في نفي الفعل هو أنّ "ما" تنفي الفعل في لحظة معينة في زمن ماضي وانقطعت، أما "لم" فتدخل على المضارع، والمضارع بصيغته يفيد التجدّد والاستمرار، فهي تنفي المدة المتطاولة في الماضي، فـ"ما" ذهبت للماضي المنقطع، و"لم" ليس لها وظيفة فيما عدا النفي والجزم من النّاحية الشكلية، أمّا "ما" فمعانيها الوظيفية كثيرة ومتنوعة « فقد تكون نافية، أو مصدرية، أو موصولة أو مؤكّدة، أو تعجبية، أو استفهامية، أو شرطية، وقد أثر عن ابن خالويه قوله: "ما" تنقسم في كتاب الله وفي كلام العرب إلى خمس وعشرين قسما وقد أفردت لها كتابا. »[3]

ومنهج التفريق هو الذي أميل إليه، وأستبعد أنّ "لم"، و "ما" متساويتان في النّفي؛ بل بينهما فروق دقيقة، ولطائف خفية تستثار من السياق ووفقا للمواقف والحالات، إذ إنّ من طبيعة العربية أن لا تجعل أداتين متشابهتين تمامًا في المعنى، فلا بدّ أن يكون لكلّ حرف معنى مستقلّا وفرائد لا يمكن تعديها إلى غيرها، بل وإيحاءات أسلوبية شعورية وصوتية ليست في أي حرف آخر محتمل.

(1). ينظر: أساليب النفي في القرآن، ص119.
(2). ينظر: البرهان في علوم القرآن، ج2، ص379.
(3). الأدوات النحوية ودلالاتها في القرآن، ص .

ومما سبق يتضح أنّ النفي بـ"لم" للفعل المضارع يفيد نفي أدنى درجات حدوث الفعل في زمنه الماضي، فالفعل في حدوثه يمر بمراحل متفاوتة في التحقق والحصول. ونفيه بـ"لم" يقع على أُولى فترات تشكّله وحدوثه، كما أنه يفيد استغراق النفي للزمن الماضي بكل جزئياته، في حين أنّ النفي بـ"ما" يفيد نفي الحدث في الماضي، بصورته النهائية وبعمومه.

الصورة الثانية: العدول من "لم" إلى"لما":

قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: 14].

اللافت في هذه الآية هو عدول النّظم إلى النّفي بـ"لما" حين نفى دخول الإيمان: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ﴾ ولم يستعمل الأسلوب "لم"، كما استعملها قبلُ في نفي الإيمان في قوله: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ فهل لهذا العدول مغزى، أو هو زيادة مبنى من دون مساس بالمعنى؟

وقد أفصح النّحاة [1] عن الفرق بين "لم"، و"لمّا " في حدود الدّرس النّحوي إذ أنهم أشاروا إلى أنّ الحرفين يشتركان في الحرفية، والنفي، والجزم، والقلب للمضي، وتنفرد "لم" بمصاحبة الشرط؛ نحو قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: 67] وبجواز انقطاع نفي منفيها؛ ومن ثمَّ جاز قولك: " لم يكن ثمّ كان"، وامتنع في: "لمّا يكن ثم كان"؛ لأنّ النّفي بها محدود متصل بزمن النّطق بها وتنفرد "لمّا" بجواز حذف مجزومها، كقولك: "قاربت المدينة ولمّا "؛ أي: ولما أدخلها.

أمّا الفرق بينهما من ناحية تعلّقهما الفعل فإنّ لم" تدخل على المضارع فتارة تنفيه نفيا منقطعا وتارة يكون محدودا متصلا بالحال وتارة يكون الانتفاء غير محدود؛ كقوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾ [الإخلاص: 3]. [2]، أمّا "لما" فهي لنفي المضارع فتنقل معناه إلى ماض. [3]

---

(1). ينظر: ضياء السالك إلى أوضح المسالك، محمد عبد العزيز النجار، ج4، ص40.

(2). ينظر: شرح الكافية الشافية، ج3، ص1572-1573.

(3). يرى بعض النحاة أنّ "لما" تدخل على لفظ الماضي وتنقله إلى المضارع ليصحّ عملها، والأظهر ما نقلناه، لأنه كما ذكر ابن يعيش أن الغالب في الحروف تغيير المعاني لا الألفاظ نفسها. ينظر: شرح المفصل، ج5، ص35.

يقول سيبويه في بيان الفرق بين النّفيين: ((إذا قال: فعل فإنَّ نفيه: "لم يفعل"، وإذا قال: قد فعل فإن نفيه لمَّا يفعل.))[1]

وبيان ذلك أنك تقول: "قام"، فيصلح ذلك لجميع الأزمنة المتقدمة، ونفيُه: "لم يقم"، وإذا قلت: "قد قام"، فيكون ذلكَ إثباتًا لقيامه في أقربِ الأزمنة الماضية إلى زمن الوجود، ونفيه: "لَمّا يقم" فزدتَ على "لَمْ"، "ما"، كما زدت في الواجب حرفًا، هو "قَد"؛ لأنّهما للحال، ولِما فيه تطاول يُقال: "ركب زيدٌ وقد لبِس خُفّهُ"، و"ركب زيدٌ ولما يلبس خُفّهُ". فالحالُ قد جمعهما. فكأنّ "ما" لما رُكبت مع "لَمْ"، حدث لها معنًى بالتركيب لم يكن لها؛ وهو الاستطالة في الزّمن المنفي، وتضمّنها غالبا معنى التوقّع والانتظار.[2]

قال المبرد: ((إذا قال القائل: لم يأتني زيد، فهو نفي لقولك أتاك زيدٌ، وإذا قال: لما يأتني، فمعناه أنه لم يأتني بعد وأنا أتوقعه.))[3] وجعل من ذلك؛ قول النابغة الذبياني:

أَزِفَ التَّرَحُّلُ غَيْرَ أَنَّ رِكَابَنَا ... لمَّا تَزُلْ بِرِحَالِنَا وَكَأَنْ قَدِ.[4]

وقد فحص الزمخشري وجه دلالة التوقّع في "لما" من خلال آية الحجرات، وتتبع سرّ المخالفة والتحوّل بين الأداتين، قائلا: ((إنه تعالى عند فعلهم قال: ﴿لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾ بحرف ليس فيه معنى الانتظار لقصور نظرهم وفتور فكرهم، وعند فعل الإيمان قال: ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ﴾ بحرف فيه معنى التوقّع لظهور قوّة الإيمان، كأنّه يكاد يغشى القلوب بأسرها.))[5]

ولعلّ معنى التوقّع فيها واستمرارها في استصحاب معنى النّفي جعلها أبلغ في تأكيد النفي من "لم" وهذا ابن جني يعلّل لنا كيف كانت "لمّا" أشدّ توكيدا من "لم" بأنّ الأصل في (("لمّا" لم، زِيدَ عليها "ما" فصارت نفيا، لقوله: قد كان كذا، و"لم" نفي "فعل"، تقول: قام زيد، فيقول المجيب بالنفي: "لم يقم"، فإنْ قال: "قد قام"، قلت: "لما يقم"، لما زاد في الإثبات "قد" زاد في النفي "ما".))[6]

---

(1). الكتاب، ج3، ص117.

(2). ينظر: شرح المفصل، ج5، ص35.

(3). مفاتيح الغيب، الرازي، ج6، ص378.

(4). ينظر: ديوانه، ص41، وقد جاء فيه: أَفَدَ الترحّل بدل: أزفَ، وكلا بمعنى دنا وقرُبَ.

(5). مفاتيح الغيب، ج28، ص116-117.

(6). المحتسب، ابن جني، ج2، ص312.

وأفاد العلوي أنّ نفي "لما" أبلغ من نفي لم، والسّبب في ذلك أن "لما" أنفس فى حروفها من "لم" فلا جرم حصلت المبالغة فيها من أجل ذلك. (1) وعلل أبو حيان بلاغتها بأنها تدلّ على نفي الفعل متصلا بزمان الحال، فهي لنفي التوقّع. (2)

ثم إنّ الألف اللّينة في نهاية "لمّا " تشكّل لنا امتداداً صوتيّاً يترجَم إلى فاصل زماني أو مكاني بينهما وبين منفيّها، ثم إنّ منفيَّها مستمرّ النفي إلى الحال، نحو: "لمّا يأت زيد"، أي حتى الآن. ولكنّه قد يأتي. أمّا "لمْ" فيحتمل نفيها الاتصال، أي الاستمرار مثل "لما"، كقوله تعالى: ﴿وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا﴾ [مريم: 4]، بمعنى ولا أزال كذلك. كما يحتمل نفيها الانقطاع، أي عدم الاستمرار كقوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ١﴾ [الإنسان: 1] ولكنه صار "شيئاً مذكوراً". ولهذا جاز القول: "لم يكن، ثم كان"، ولا يجوز: "لما يكن ثم كان" بل يقال "لمّا يكن وقد يكون".

فالمنحى صوتي يمكن الاهتداء به إلى وجه استمرار النفي في "لمّا "، بأن يعود ذلك إلى الألف اللّينة الفاصلة بين "لم" والفعل المضارع المقلوب إلى ماضي؛ فصارت "لمّا "، وأعطت النّفي فسحة في الزمن يستمرّ من الماضي إلى اللّحظة الحاضرة. (3)

ولنتأمّل هذا في الأداة "لما" في قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٣﴾ [الجمعة: 3].

فالملاحظ أنّ النفي بـ"لما" اقتضى أنّ المنفي بها مستمر الانتفاء إلى زمن التكلّم، فيشعر بأنه مترقّب الثبوت، والمعنى: أنّ آخرين هم في وقت نزول هذه الآية لم يدخلوا في الإسلام ولم يلتحقوا بمن أسلم من العرب وسيدخلون في أزمان أخرى.

وإذا أوهم هذا العدول بين الحرفين تكريرا مُفرغا من أيّ نكتة، بأنّ نفي الإيمان عنهم هو نفسه نفي دخول الإيمان في قلوبهم! فإنّ الزمخشري تصدّى لهذا الوهم، بأنّه "ليس كذلك، فإنّ فائدة قوله: ﴿لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾،هو تكذيب دعواهم، وقوله:﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ توقيت لما أمروا به

(1). ينظر: الطراز، ج2، ص110.

(2). ينظر: البحر المحيط، ج2، ص373.

(3). ينظر: حروف المعاني بين الأصالة والحداثة، ص111-112.

أن يقولوه، كأنّه قيل لهم: ولكن قولوا أسلمنا حين لم تثبت مواطأة قلوبكم لألسنتكم... وما في "لما" من معنى التوقّع؛ دالّ على أنّ هؤلاء قد آمنوا فيما بعد. ››[1]

فقد أشار هنا الزمخشري إلى دلالة خاصّة في حرف "لما" وهو معنى التوقّع، فكأنّ "لمَّا " توقّعت أنّ إيمان الأعراب مرتقب الحصول مستقبلا لتوافق دلالة القرآن اللّفظية دلالة الحال الذي آل إليه الإسلام بعد ذلك.

ففي سورة الحجرات ينكِر الله عز وجلّ على الأعراب الذين جاءو للرّسول صلّى الله عليه وسلم بالأثقال والعيال[2]، ينكِر إدعائهم الإيمان وعدم مواطئة قلوبكم لألسنتكم، في إشارة إلى أنّ الإيمان مرتبة شريفة وسامية لا تتأتّى بمجرد النّطق، ولا تتوقّف على التصريح اللّفظي فحسب، لكن اللافت والمبهر في العدول إلى "لما" دون غيرها هو دلالتها على النَّفَس المعنوي التي تضفيه على السّياق فهي لم تكد تنف بقدر ما توقعت حصول الحدث، فالحدث الذي هو الإيمان قارب أنْ يقع منهم لكنّه ما زال لم يقع بعد، وهذا من خصوصية استعمال هذا الحرف الدقيق فإنّه يدلّ على نفي الشيء متّصلا بزمان الإخبار، لذلك يمتنع قولنا مثلا: لما يقم زيد وقد قام للتكاذب. [3]

ولئلا يتوهّم من قوله "لم تؤمنوا" أنهم جاءوا مضمرين الغدر للنبي صلى الله عليه وسلم، جيء بحرف الاستدراك "لكن" لرفع هذا الإيهام، ولتعليمهم الفرق بين الإيمان والإسلام. [4]

ومما سبق يتبين سرّ العدول في التعبير القرآني من "لم يدخل" إلى "لما يدخل" بأنّه إذا استعملت لما معدولة عن "لم" كان ذلك دليلا على قرب وقوع ما دخلت عليه، يعزّز هذا قول ابن هشام أنّ ‹‹ منفي "لما" متوقّع ثبوته بخلاف منفي "لم"، ألا ترى أنّ معنى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ [ص: 8] أنهم لم يذوقوه إلى الآن وأنّ ذوقهم له متوقّع. ››[5]

(1). الكشاف، ج4، ص379-380.

(2). ينظر: مدراك التنزيل، ج5، ص137.

(3). ينظر: البحر المحيط، ج9، ص524.

(4). ينظر: التحرير والتنوير، ج26، ص264.

(5). مغني اللبيب، ص368.

كما أنّه من ناحية صوتية يتضح أنّ الاختلاف بين استعمالات "لم" و"لما" ومعانيهما ترجع جميعًا إلى الامتداد الصّوتي في الألف اللّينة في "لما"، وهذا الاختلاف هو من أقوى الأدلّة على أنّ العربي استعمل الألف اللينة للفاصل الزماني في "لما" وللفاصل المكاني في"إلى". [1]

وإذا نظرنا إلى قوله تعالى: ﴿ بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥ ﴾ [يونس: 39] فإننا نجد الزمخشري يجيب عن معنى التوقّع من جهة، ويعطي لـ"لمّا" الجازمة اسماً جديداً لم نعهده عند النّحاة أو المفسرين قبله، حيث يقول: ((فإن قلت: ما معنى التوقّع في قوله: ﴿ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥ ﴾؟ قلت: معناه أنهم كذّبوا به على البديهة قبل التدبّر ومعرفة التأويل؛ تقليداً للآباء، وكذّبوه بعد التدبّر؛ تمرّداً وعناداً فذمّهم بالتسرعّ إلى التكذيب قبل العلم به، وجاء بكلمة التوقّع ليؤذن أنهم علموا بعد علوّ شأنه وإعجازه.))[2]

فالعدول إلى "لما" دون "لم" أفاد سرا عجيبا وهو إفادة التوقع بعد نفي الإحاطة بعلمه ((وكان التكذيب قبل الإحاطة بعلمه ربما يوهم عذرا ما للمكذّب، فجاءت كلمة "لما" مشعرةً بأنهم قد أحاطوا بعلمه حتى تنحسم أعذارهم ويتحقّق شقاؤهم.))[3]

ومن الشواهد أيضا قوله تعالى: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُم ﴾ [البقرة: 214].

أشار كثير من المفسّرين[4] إلى أنّ "لما" هنا أفادت معنى التوقّع، وهي في النّفي نظيرة "قد" في الإثبات، وعليه فالإتيان الوارد في الآية مع "لما" لا يدلّ على القطع بنفي حصوله، وإلا لجاءت "لم" المقرّرة لهذا المعنى، ولكن النّظم الحكيم لما أراد بيان أنّ هذا الإتيان متوقّع منتظر عدل عنها إلى "لما" فتمايزت المعاني لتمايز الهيئات.

---

(1). ينظر: حروف المعاني بين الأصالة والحداثة، ص111-112.

(2). الكشاف، ج2، ص331.

(3). ينظر: حاشية الانتصاف فيما تضمنه الكشاف ضمن كتاب الكشاف، ج2، ص348.

(4). ينظر: الكشاف، ج1، ص283، ومفاتيح الغيب، ج6، ص378.

أمّا من قال بأنّ "لما" هي "لم" وما زائدة، فقد أبطله سيبويه[1] بأنّ "ما" ليس زائدة بل هي مغيّرة لها عن حال "لم"، كما غيّرت "لو" إذا قلتَ: "لوما" ونحوها. ألا ترى أنّك تقول: لما، ولا تُتبعها شيئاً ولا تقول ذلك في "لم"، كأنْ يقول الرجل لصاحبه: أقدم فلان؟ فيقول: "لما" ولا يقول: "لم" مفردة.

ومن هنا ندرك أنّ تأويل معنى النفي بـ"لما" هو معنى النّفي بـ"لم" هو تأويل لا تقرّه طبيعة اللّغة ولا عرف الاستعمال، وكفى بالقرآن شاهدا على هذه الفروق، وإذا ما سلكنا في مثل هذه المواضع مسلك التناوب فإننا بهذا الإجراء نزيل عن الحروف طِباعها وخصوصياتها، ثم إننا قد نحجب هذه الحروف كلّها بغطاء واحد لا يُفهم منه إلا معنى النّفي، وهذا ما لا ينبغي أن نرضى به وجها لتذوق بلاغة القرآن الفائقة الوصف، كما لا يليق بمقام لغة الدقائق والفروق، ويزداد الأمر تأكيدا على ما نقول لما يُصرِّح بعض أهل اللّغة بتأويلات الحشو والزوائد، كما نقل عنهم الطبري بلهجة المستنكر حين قال: ((وأما قوله:﴿ وَلَمَّا يَأْتِكُم ﴾ فإنّ عامّة أهل العربية يتأوّلونه بمعنى: ولم يأتكم، ويزعمون أنّ "ما" صلة وحشو.))[2]

الصورة الثالثة: العدول من "لن" إلى "لا":

الموضع الأوّل: قال تعالى: ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [البقرة: 95]

وقال أيضا: ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [الجمعة: 7].

جاء النّظم القرآني في قوله تعالى: ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ ﴾ نافيا فعل التّمني بحرف النّفي "لن" ثمّ عدل عنه التعبير القرآني في نفي الفعل نفسه عند قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ ﴾ إلى حرف "لا"، ما يدعو الباحث في سرّ الأساليب إلى بيان وجوه الفرق وتذوّق اللّطائف المتحجّبة في ثنايا هذه الأساليب العدولية.

(1). ينظر: الكتاب، ج4، ص223.

(2). جامع البيان، ج4، ص289.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ذهب الزمخشري[1] ووافقه العلوي[2] إلى أنّه لا فرق بين "لا" و "لن" في أنّ كل واحدة منهما نفي للمستقبل، إلا أنّ في "لن" تأكيداً وتشديداً ليس في "لا"، فأتى مرّة بلفظ التأكيد ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ﴾[البقرة: 95] ومرّة بغير لفظه: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ﴾ [الجمعة: 7].

وقد تعقّب أبو حيان على قول الزمخشري بأنّ ما صدر منه هو رجوع عن مذهبه في أنّ "لن" تقتضي النّفي على التأبيد إلى مذهب الجماعة في أنها لا تقتضيه، وأما قوله: إلا أنّ في "لن" تأكيدا وتشديدا ليس في "لا" فيحتاج ذلك إلى نقل عن مستقري اللّسان.[3]

ولم يبتعد الرازي كثيرا عن هذه الرّؤية فقد تساءل عن نكتة ذكره في سورة البقرة "لن" وفي سورة الجمعة "لا"، وكان جوابه بأنهم في هذه السّورة، ادّعوا أنّ الدار الآخرة خالصة لهم من دون النّاس وادعوا في سورة الجمعة أنهم أولياء لله من دون الناس والله تعالى أبطل هذين الأمرين بأنه لو كان كذلك لوجب أن يتمنّوا الموت، والدعوى الأولى أعظم من الثانية إذ السعادة القصوى هي الحصول في دار الثواب، وأمّا مرتبة الولاية فهي وإن كانت شريفة إلا أنها إنما تراد ليتوسل بها إلى الجنة فلمّا كانت الدّعوة الأولى أعظم لا جرم بين تعالى فساد قولهم بلفظ: "لن" لأنّه أقوى الألفاظ النافية ولما كانت الدّعوى الثانية ليست في غاية العظمة لا جرم اكتفى في إبطالها بلفظ "لا" لأنّه ليس في نهاية القوّة في إفادة معنى النّفي.[4]

فقد ذهب الإمامين إلى أنّ "لن" هي أقوى في بيان حصول النفي من "لا" بحجة أنّ دعوى الكافرين في الأولى أقوى وأعظم من دعواهم في الأخرى. وقد بالغ إبراهيم أنيس حين نقل إجماع ((النّحاة على النّفي بـ"لن" آكد من "لا".))[5]

يقول أبو حيان إنّ ((مذهب سيبويه والجمهور أنّ "لنْ" لنفس المستقبل من غير أن يشترطا أنْ يكون النّفي بها آكد من النّفي بـ"لا".))[6]

---

(1). ينظر: الكشاف، ج4، ص532.

(2). ينظر: الطراز، ج2، ص112.

(3). البحر المحيط، ج10، ص173.

(4). ينظر: مفاتيح الغيب، ج3، ص608.

(5). من أسرار اللغة، ص185.

(6). ارتشاف الضرب من لسان العرب، أبو حيان الأندلسي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1418هـ-1998م، ص1644.

ورأى الكرماني أنّ العدول بين حرفي النفي سببه أنّ دعواهم في سورة البقرة بالغة قاطعة وهي كون الجنّة لهم بصفة الخلوص فبالغ في الردّ عليهم بـ"لن"، وهو أبلغ ألفاظ النّفي، أما في قوله تعالى:﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًا ﴾ لليهود حين قيل لهم: "فتمنّوا الموت"فدعواهم في الجمعة قاصرة متردّدة وهي زعمهم أنهم أولياء الله فاقتصر على "لا". (1)

أمّا ابن الزبير الغرناطي فقد خالف التفريق الأوّل حين أرجع وجه العدول بين حرفي النفي إلى تغاير أزمنة الأحداث، مستندا في بيان ذلك إلى سياق العبارتين فإنّ الكلام في الآية الأولى على الآخرة: ﴿ قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ ﴾ [البقرة: 94]، لما كان الوارد فيها جوابا لحكم أخراوي يستقبل وليس فى الحال منه إلا ما زعم مجرد واعتقاد أنّ الأمر يكون كذلك ناسبه النفي بما وضعه من الحروف لنفي المستقبل لأنّ "لن" يفعل جواب سيفعل.

ولما كان الوارد فى سورة الجمعة جوابا لزعمهم أنهم أولياء الله من دون الناس:﴿إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ ﴾ [الجمعة: 6]، وهذا حكم دنياوي ووصف حالي، لا استقبال فيه ناسبه النفى بـ"لا" التى لنفي ما يأتي من غير اختصاص إلا بغير الماضي، فهذا أمر مطلق فنفى بـ"لا" وهو حرف يفيد الإطلاق والعموم. (2)

وزاد السامرائي من جهة أخرى أنّه لما كان الزّمن في آية الجمعة عامّا مطلقا غير مقيّد بزمن نفاه بـ"لا" التي آخرها حرف إطلاق وهو الألف، ولما كان الزّمن في الآية الثانية للاستقبال وهو زمن مقيّد نفاه بـ"لن"؛ التي آخرها حرف مقيّد وهو النّون الساكنة وهو تناظر في جميل. (3)

لكن هذا التوجيه الأخير قد استوحاه ممن قبله ابن القيّم وقبله السهيلي، فتذوّقا خصائص الحرفين ومعناهما وفقا لمبناهما، إذ إنّ من خواصّ "لن" أنها تنفي ما قرب، ولا يمتدّ معنى النّفي فيها كامتداد معنى النّفي في حرف "لا" إذا قلت: لا يقوم زيد أبدا. (4)

(1). أسرا التكرار، ص76.

(2). ينظر: ملاك التأويل، ج1، ص47.

(3). ينظر: التعبير القرآني، السامرائي، ص202.

(4). ينظر: بدائع الفوائد، ج1، ص95.

ويفصّل لنا ابن القيّم في بيان الفرق المعنوي تبعا للفرق البنيوي فيقول: « وتأمّل حرف "لا" كيف تجدها لاما بعدها ألفا يمتد بها الصوت ما لم يقطعه ضيق النّفس فآذن امتداد لفظها بامتداد معناها و"لنْ" يعكس ذلك فتأمّله فإنّه معنى بديع، وانظر كيف جاء في أفصح الكلام كلام الله: ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا ﴾ بحرف "لا" في الموضع الذي اقترن به حرف الشّرط بالفعل فصار من صيغ العموم فانسحب على جميع الأزمنة، وهو قوله عزّ وجل: ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ ﴾ [الجمعة: 6]،كأنّه يقول: متى زعموا ذلك لوقت من الأوقات أو زمن من الأزمان، وقيل لهم: تمنّوا الموت فلا يتمنّونه أبدا، وحرف الشّرط دلّ على هذا المعنى، وحرف "لا" في الجواب بإزاء صيغة العموم لاتّساع معنى النّفي فيها، وقال في سورة البقرة "ولن يتمنّونه" فقصر من سعة النّفي وقرب، لأنّ قبله: ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ ﴾ [البقرة: 94]، لأنّ "إنْ" و"كان" هنا ليست من صيغ العموم، لأنّ "كان" ليست بدالة على حدث وإنما هي داخلة على المبتدأ والخبر، عبارة عن مضيّ الزّمان الذي كان فيه ذلك الحدث فكأنّه يقول عزّ وجل: إنْ كان قد وجبت لكم الدّار الآخرة وثبتت لكم في علم الله فتمنّوا الموت الآنَ، ثم قال في الجواب: ولن يتمنّوه فانتظم معنى الجواب بمعنى الخطاب في الآيتين جميعا. »(1)

وتأمّل قوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [الأنعام: 103]،كيف نفى فعل الإدراك بـ"لا" الدّالة على طول النّفي ودوامه، فإنّه لا يدرك أبدا وإن رآه المؤمنون فأبصارهم لا تدركه تعالى عن أن يحيط به مخلوق وكيف نفى الرؤية بـ"لن" فقال: ﴿لَن تَرَىٰنِى ﴾ [الأعراف: 143]، لأنّ النّفي بها لا يتأبّد، وقد كذّبهم الله في قولهم بتأبيد النّفي بـ"لن" بقوله: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ [الزخرف: 77]، فهذا تمنّ للموت، فلو اقتضت "لن" دوام النّفي تناقض الكلام.(2)

ومن أجل ما تقدّم من قصور معنى النّفي في "لن" ودلالتها على القرب في أكثر الكلام، لم يكن للمعتزلة حجّة على نفي الرؤية في قوله عزّ وجل: ﴿لَن تَرَىٰنِى ﴾ [الأعراف: 143]، ولم يقل: "لا

(1). بدائع الفوائد، ج1، ص96.

(2). المصدر نفسه، ج1، ص96-97.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تراني" فلو كان النفي بـ "لا" لكان لهم بعض التعلّق، ولم يكن حجة بجواز تخصيص العموم بنصّ آخر من الكتاب والسّنة. [1]

ولعلّ من هذا السّبب العقدي صرّح كلّ من الزمخشري والرازي في قوليهما بأنّ "لن" أقوى من "لا" في النّفي، وإلا فإنّ من تكلّم على عرف استعمال العرب لهذه الأساليب في خطابها صرّح بغير ما رأى الإمامين، فهذا الإمام السهيلي يفرّق بذكاء ناقلا عن العرب قوله: « على أني أقول إنّ العرب إنما تنفي بـ"لن" ما كان ممكنا عند المخاطب مظنونا أنه سيكون فتقول له: "لن يكون" لما يمكن أن يكون لأنّ "لن" فيها معنى "أن" وإذا كان الأمر عندهم على الشكّ لا على الظنّ كأنّه يقول: أيكون أم لا؟ قلت في النفي: "لا يكون" وهذا كلّه مقول لتركيبها من "لا" و"أن". »[2]

الموضع الثاني: قال سبحانه: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الجن: 20-22].

استعمل التعبير القرآني في هذه الآية حرف النفي "لا" في فعلي أشرك وأملك ثم عدل عنه إلى حرف "لنْ" في فعلي يجير وأجد، ولم يواصل السّياق نفيه بأداة واحدة مما يمكن أن يبحث عن الفرق بين النّفيين.

أفاد الفراء[3] بأنّ "لا" النافية هي أصل كلّ من لنْ ولم، فأُبدلت الألف نونًا في "لن"، وميمًا في"لم"، لكن ابن هشام[4] استبعد هذا الرأي، لأنّ المعروف إنما هو إبدال النّون ألفا لا العكس، نحو قوله تعالى: ﴿ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴾ [العلق: 15] بدلا من "لنسفعن".

كما حُكي عن الخليل والكسائي بأنّ "لن" أصلها "لا أنْ"، فحذفت الهمزة تخفيفًا والألف للساكنين. وإن ردّ على هذا سيبويه وقال: « لو كان كذا لما جاز: زيدا لن أضرب. »[5]

---

(1). ينظر: نتائج الفكر في النحو، ص102.

(2). المصدر نفسه، ص103.

(3). ينظر: معاني القرآن، ج1، ص224.

(4). ينظر: مغني اللبيب، ص373-374.

(5). ينظر: إعراب القرآن، النحاس، ج1، ص37، ومغني اللبيب، ص374.

ويقول حسن عباس في ظاهرة الإبدال: « أما محاولة الفرّاء بصدد إعادة "لم" إلى أصلها المزعوم في "لا"، فذلك يعود إلى عدم انتباهه الى الخصائص الإيمائية في الميم للجمع والضم، مما ينفي كلّ قربى بينها وبين الألف. »[1]

يقول الزمخشري: « فإن قلت: ما معنى "لَن" ؟ قلت: تأكيداً النفي الذي تعطيه "لا"، وذلك أنّ "لا" تنفي المستقبل تقول: لا أفعل غداً، فإذا أكّدت نفيها قلتَ: لن أفعل غداً، والمعنى: أنّ فعله ينافي حالي،كقوله: ﴿لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ [الحج: 73]. »[2]

وقد تابع العلوي[3] فكرة الزمخشري في أنّ "لا" و "لن" وهما موضوعان لنفي الأزمنة المستقبلة وإنما يفترقان من جهة أنّ "لن" آكد من "لا" في نفي المستقبل مطلقا.

لكن ابن هشام لم يعتمد هذا الطّرح، فـ"لن" لا تكون أقوى في النّفي من "لا"، لا معنويا ولا صوتيا، فممّا ذكره ابن هشام بمعرض إثبات ضعف النّفي بـ"لن"، أنها لا تفيد توكيد النّفي ولا تأييده. وكذلك جواز تعليق منفيها على شرط، نحو: "لن آتيك إلا إذا دعوتني". ولا يقال ذلك مع "لا".

إضافة إلى أنّ الخصائص المعنوية للحرفين المكونين لحرف النّفي "لن" هي أنّ اللام للإلصاق والجمع والإلزام، أما النون فمن معانيها في نهاية المصادر الرقّة والخفاء والاستقرار، وهي مؤشّرات على عدم الشدّة في النّفي الصادر منها، على عكس "لا" الدالة على إطلاق النّفي فيها بما يناسب إطلاق الألف على نحو مابيّنا في المثال السابق.

(1). حروف المعاني بين الأصالة والحداثة، ص96.

(2). الكشاف، ج2، ص145-146.

(3). ينظر: الطراز، العلوي، ج2، ص111.

الموضع الثالث: قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ ﴾ [الكهف: 60].

وقال سبحانه: ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [يوسف: 80].

ما نلحظه هو توظيف حرف النفي "لا" مع الفعل برَحَ في الأولى ثم العدول عنه إلى "لن" مع الفعل نفسه في الآية الأخرى، فهل هو تناوب للحرفين بإمكان إحلال إحداهما موضع الأخرى أو هو عدول بالأحسن إلى الأنسب؟

يري النسفي أنّ « "لا" و"لن" أختان في نفي المستقبل إلا أنّ في "لن" تأكيداً، وعن الخليل أصلها لا أنْ، وعند الفراء "لا" أبدلت ألفها نوناً وعند سيبويه حرف موضع لتأكيد نفي المستقبل. »(1)

ففكرة تأكيد النّفي(2) بـ"لن" هي امتداد لرأي الزمخشري السابق، على اعتبار أنّ "لن" أكثر توكيدا وتشديدا، تقول لصاحبك: لا أقيم غدا، فإنْ أنكر عليك؛ قلت: لن أقيم غدا، كما تفعل في: أنا مقيم، وإنني مقيم، وهذا ما قاله الزمخشري.(3)

وقد تعقّبه أبو حيان(4) بأنّ ما ذكره هنا مخالف لما حكي عنه أنّ "لنْ" تقتضي النّفي على التأبيد. وأمّا ما ذهب إليه ابن خطيب زملكي من أنّ "لن" تنفي ما قرب وأنّ "لا" يمتدّ النّفي فيها، فكاد يكون عكس قول الزمخشري.

كما بيّن أبو حيان أنّ هذه الأقوال؛ أعني التوكيد والتأبيد ونفي ما قرب هي أقاويل المتأخّرين، وإنما المرجوع في معاني هذه الحروف وتصرّفاتها لأئمّة العربية المقانع الذين يرجع إلى أقاويلهم. فهذا سيبويه يقول: "ولن نفي لقوله: سيفعل، وقال: وتكون "لا" نفيا لقوله: تفعل، ولم تفعل" ويعني بقوله: تفعل، ولم تفعل المستقبل، فهذا نصّ منه أنهما ينفيان المستقبل إلا أنّ "لن" نفي لما دخلت عليه أداة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1). تفسير النسفي، ج1، ص66.

(2). ينظر: البرهان، ج4، ص387.

(3). ينظر: الكشاف، ج1، ص131.

(4). ينظر: البحر المحيط، ج1، ص174.

الاستقبال، و"لا" نفي للمضارع الذي يراد به الاستقبال. فـ"لن" أخصّ، إذ هي داخلة على ما ظهر فيه دليل الاستقبال لفظا. (1)

وإذا أنعمنا النّظر في معنى الفعل الذي دخلت عليه أداتي النّفي نجده مختلف، فمعنى قوله تعالى: ﴿لَآ أَبۡرَحُ﴾ يريد: لا أزال أمضي حتى أبلغ مجمع البحرين ولم يرد: لن أبرح مكاني.

أما قوله: ﴿فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ﴾ تعني لا أفارق أرض مصر، وهي غير معنى أزال، هذه إقامة وهذا كقوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ۝٩١﴾ [طه: 91]، يعني لن نزال عليه عاكفين. (2)

وفي ما جرى هذا المجرى أيضا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا ۝١٥ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ وَإِذٗا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الأحزاب: 15-16].

حيث استعمل القرآن "لن" في قوله: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ﴾ ولمْ يقل: "قلْ لا ينفعكم" كالنفي الأوّل، ولعل هذا تابع لطبيعة كل فعل بما يلائم الموقف والغرض ((فالعهد هو التزام بأداء عمل في المستقبل، وفي استعمال "لا" كأنّهم ماثلون للأمر وما عاهدوا عليه الله من الثبات في المعركة كأنّ طبعا فيهم الصّبر عند اللّقاء، ولكن المعنى المقصود في المستقبل، ولذا جاء التحذير من عدم الوفاء بصيغة المستقبل في الآية التالية:﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ وَإِذٗا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الأحزاب: 16].

والمعنى يستقيم لو قيل:"لا ينفعكم الفرار" أي في أيّ حال، ولكنّه تعالى خصّص المستقبل، لأنّ احترام العهد يكون فيما سيأتي من أمور، وفي: ﴿وَإِذٗا لَّا تُمَتَّعُونَ﴾معنى مستقبلي الحدوث أيضا أي: لن تمتّعوا بدليل استعمال "إذن" بعد حرف العطف كنتيجة لإخلالهم بالعهد ونقضه.))(3)

(1) . البحر المحيط، ج1، ص174.

(2) . معاني القرآن، ج2، ص153.

(3) . أساليب النفي في القرآن، ص27.

الصورة الرابعة: العدول من "ما" إلى "لا":

قال تعالى: ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس: 61].

وقال أيضا: ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ: 3].

عدل النّظم القرآني من استعمال أداة النفي "ما" في قوله: ﴿ وَمَا يَعْزُبُ ﴾ إلى استعمال "لا" في قوله: ﴿ لَا يَعْزُبُ ﴾ وإن كانا في موضعين مختلفين إلا أنهما في تقرير مضامين متقاربة مما يستدعي تتبعا للنّكتة التي اختصّ بها كلّ حرف في المقام الذي ذكر فيه دون غيره.

يرى السامرائي[1] أنّ استعمال "لا" في سورة سبأ لأنّ الكلام جاء على السّاعة، والسّاعة استقبال فجاء النظم بـ"لا" الدّالة على الاستقبال في النفي، أمّا النفي في سورة يونس فجاء معدولا عن استعمال "لا" إلى توظيف الحرف المناسب لمقامه وهو النفي بـ"ما" لأنّ سياق الآية ما جاء للاستقبال وإنما جاء للحال و"ما" هي الأنسب والأخصّ لنفي الحال.

وعليه فلا تناوب بين الحرفين لأنهما وإن اتفقا في الشيء المنفي، فهما مختلفان في طريقة النفي لفظا ومدلولا، وذلك بما يتلائم مع الغرض والمقام.

وقرينة هذا هو النّفي في بداية الآية، إذ قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ﴾ [سبأ: 3] فنفي بـ"لا" لما كان الكلام على السّاعة، ولم يقل: "ما تأتينا" لأنّ السّاعة استقبال.[2]

(1) . ينظر: التعبير القرآني، ص 257-258.

(2) . ينظر: التعبير القرآني، ص 257-258.

الصورة الخامسة: العدول من "إنْ"[1] إلى "ما":

الموضع الأوّل:

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأحقاف: 17].

وفي موضع آخر يقول سبحانه: ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [النّمل: 68].

ولو تأمّلنا في ختام هاتين الآيتين لوجدنا أنّ الآية الأولى ختمت بقوله تعالى: ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾، أمّا الآية الثانية فقد ختمت بقوله تعالى: ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ فما الفرق بين هذين الأسلوبين من أساليب النفي؟!

ذهب أهل اللّغة إلى أنَّ "إنْ" هي أقوى أدوات النفي على الإطلاق، خصوصاً إذا اقترنت بأداة الاستثناء "إلا". وذهبوا أيضاً إلى القول إنّ أداة النفي "ما" أقل منها في قوة النفي. ولو تتّبعنا المواضع التي ورد فيها قول الله عزَّ وجل: ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ لوجدنا أنَّ جميع هذه المواضع تتعلّق بإنكار الكفار للآيات والمعجزات أو للبعث والنشور أو لما جاء به الأنبياء.

قال عزّ وجلّ: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنعام: 25].

أمّا قوله تعالى: ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ فلم يرد إلا في موضع واحد، وذلك في قصة الولد الذي أنكر البعث والنشور، ودليله كثرةُ القرون التي خلت من قبله، فكيف يعقل أن يرجعوا

(1). اتفق جمع من المفسّرين على وقوع "إنْ" للنفي في مواضع كثيرة، وحملوا معناها في ذلك على معنى "ما"، ينظر: معاني القرآن الفراء، ج2، ص200، ومعاني القرآن وإعرابه، الزجاج، ج3، ص387، ومجاز القرآن، ج2، ص105، وجامع البيان، ج17 ص43، والبحر المحيط، ج3، ص428.

بعد الموت. ووالداه يدعونه إلى الإيمان، ويذكّرانه بوعد الله عزَّ وجل، وهو يأبى عليهما ويقول: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾.

ولا شكّ أنّ إنكار الكفار على الأنبياء رغم ما جاؤوا به من الآيات البيّنات والمعجزات الباهرات أشدّ من إنكار الولد على والديه اللذين لا يملكان شيئاً من تلك المعجزات التي جاء بها الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام. كما أنّه لا مقارنة في الذّنب بين من أنكر على والديه ومن أنكر على نبي من الأنبياء. فناسب أن يُؤتى بأداة النفي "إنْ" في سياق إنكار الكفار على الأنبياء. وبأداة النفي "ما" في سياق إنكار الولد على والديه، والله أعلم

وهو ما يظهر لنا جليًّا أيضا في خطاب نبي الله شعيب عليه السّلام لقومه بقوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُ﴾ [هود: 88] فعدل في النفي عن "ما" إلى "إن"، فقال:﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ﴾، ولم يقل: "وما أريد إلا الإصلاح" فيطرد النفي بـ "ما"؛ لأنّ نبرة التأكيد قد ارتفعت لدى نبي الله شعيب عليه السلام، فأمعن في التأكيد لقومه المكذبين له بقوله :﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ﴾، مؤكّدًا بذلك هدفه من رسالته ودعوته.

نجد أنّ التعبير القرآني قد خالف في الاستعمال بين أداتي النفي بـ"ما"، و"إِنْ"، فعدل في الأسلوب عن "ما" إلى "إنْ" كثيرًا . وقد ذكر النحاة أنَّ "إنْ": حرف نفي يدخل على الجملة الفعلية والاسمية نحو قوله تعالى:﴿وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [التوبة: 107]. أي: ما أردنا إلا الحسنى. وقال مجاهد: « كلّ شيء في القرآن "إنْ" فهو إنكار. »[1]

وما ذكره الراغب في وجه "إنْ" النافية أنها « أكثر ما يجيء يتعقبه "إلا"؛ نحو: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا﴾ [الجاثية: 32]. و﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ٢٥﴾ [المدثر: 25]. »[2]

---

(1) . الإتقان في علوم القرآن، ج2، ص200.

(2) . المفردات في غريب القرآن، ص93.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وكذلك الحال مع حرف النّفي "ما" فهو يدخل على الجملة الفعلية والاسمية، ويذكر النّحاة أن "إنْ" بمنزلة "ما" في نفي الحال. ويقول برجشتراسر: « و"إنْ" تكاد تطابق "ما" في وظيفتها، وأكثر وقوعها قبل "إلا" للجناس بينهما؛ نحو: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف: 40]. »[1]

ويجب أن نقرّ أنّ هناك اتحاد بين الأداتين في كثير من الوجوه، ولهذا السّبب يصرّح النّحاة أنهما بمنزلة واحدة، ومن شدّة التشابه الدّلالي بين الأداتين يصرّح أحمد ماهر البقري بأنّ الفرق يكاد يكون معدوما، فيقول: « لا نكاد نجد فرقًا بين "إنْ" و"ما"؛ إذ هما لنفي ما في الحال غالبًا. »[2]

والحقيقة أنّ التعبير القرآني قد فرّق بينهما في الاستعمال، من خلال ما نلحظه من المخالفة بينهما والعدول عن حرف إلى آخر منهما . وقد تتبع فاضل السامرائي[3] المخالفة بين الأداتين في الاستعمال القرآني، فوجد أنّ النّفي بـ"إنْ" آكد من "ما" ، والذي يدلّ على ذلك هو اقترانها الكثير بـ"إلا". وهذا ما يعطيها قوّة وتأكيدًا؛ فإنّ في القصر قوّة؛ وذلك نحو قوله تعالى :﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ [إبراهيم: 10]. وقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: 44].

الموضع الثاني: قال تعالى:﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ٢٤﴾ [الجاثية: 24].

وقال أيضا: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ٣٧﴾ [المؤمنون: 37]

شاهدُ العدول في الآيتين هو النّفي بما في الآية الأولى﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ والعدول عنه إلى "إنْ" في الآية الأخرى: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ ولا يمكن في بلاغة القرآن الدّقيقة، وأسلوبه المعجز أن تتطابق الأدوات في توصيل المعنى وإن اشتركا في معناه العام، وهذا ما ستكشف عنه السّياقات الواردة فيه من خلال خصوصية كلّ أداة في التعبير عن المعنى المناسب.

---

(1) . التطور النحوي، ص174.

(2) . أساليب النفي في القرآن، ص93.

(3) . ينظر: معاني النحو، ج4، ص576.

فعند النّظر والتبصر في الاستعمالين يتضح أنّ حرف النفي "إنْ" أبلغ وأشدّ نفيا من "ما"، وهذا تبعا لاختلاف درجة التكذيب في الموضعين، لهذه النّكتة عدل النّظم الحكيم إلى الحرف الحاكي للموقف والأنسب للسياق.

ومن خلال الأسلوب اتضح أنّ التكذيب في الآية الأولى أقوى منه في الأخرى وهذا من وجوه:
- إسناد التكذيب والإنكار في الآية الأولى إلى ضمير الكفرة "وقالوا"، في حين جاء الإسناد في الآية الأخرى إلى الكفرة صراحة، وقد زاد عليهم صفات تزيد في تكذيبهم وإنكارهم: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [المؤمنون: 33].
- المجادلة في صدق الأنبياء فقد ذكر هؤلاء الكفرة أن الرسل إنما هم بشر مثلهم يأكلون كما يأكل الناس ويشربون كما يشربون، فلا ينبغي أن يُطاعوا البتة.
- وخلوّ الآية الأولى أيضا من سخرية الكافرين، في حين وقعت تلك السخرية في الآية الأخرى ﴿أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ ٣٥﴾ [المؤمنون: 35].
- هناك استبعاد شديد في الآية الأخرى دون الأولى، وهي قوله تعالى على لسانهم: ﴿هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ٣٦﴾ [المؤمنون: 36]. (1)

فكان طبيعيا أن يكون إنكارهم أشدّ وآكد مما في الآية الأولى، ولذا جاء بإنْ وإلا وهو المناسب للسياق بخلاف الآية الأخرى فإنه جاء بما وإلا لأنه أقلّ توكيدا، فدلّ ذلك على أنّ "إنْ" آكد من "ما". (2)

وهذا الأمر يكاد يكون الأمر الغالب في استعمالات الأسلوب القرآني ، فالنّفي بإنْ أشدّ تأكيدا من النفي بـ"ما". ومن الشواهد المعززة لهذا قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ ٢٢ إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ٢٣﴾ [فاطر: 22-23].

فاستعمل الأسلوب القرآني في حرف النّفي "ما" في نفي استواء الأحياء والأموات، كما نفى بالحرف نفسه إسماع موتى القبور، لكنّه حين نفى غير الإنذار عدل إلى حرف "إنْ"، ولم يقل: "ما

(1) . ينظر: التعبير القرآني، السامرائي، ص151.
(2) . ينظر: معاني النحو، ج4، ص579.

أنت إلا نذير"، والذي يبدوا من خلال مقتضى النّفيين أنّ إسماع الموتى أمر مستبعد وقوعه، والقطع بالوظيفة الحقيقية للنبي وإثباتها تسلية له؛ آكد من من إثبات مستتبعاتها وهي عدم إدخال الإيمان في القلوب ولهذا جاء النّظم الحكيم ليحقّق الانسجام المعنوي من خلال العدول إلى "إن"، في قوله: ﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾؛ يقول ابن عاشور: « وجملة: "إنْ أنتَ إلا نذير" أفادت قصرا إضافيا بالنسبة إلى معالجة تسميعهم الحقّ، أي أنت نذير للمشابهين من في القبور ولست بمدخل الإيمان في قلوبهم. »(1)

ومن لطائف هذا التعبير(2) أيضا أنّ السّماع المنفي ليس للموتى الذين ماتوا بالفعل، بل هو خصوصية للسّماع المعتاد الذي ينتفع صاحبه به فموتى القلوب يسمعون الصّوت لكن لا يسمعون سماع قَبول بفقه واتباع، فهكذا الموتى لا يجب أن ينفى عنهم جميع أنواع السّماع كما لم ينف ذلك عن الكفار بل قد انتفى عنهم السّماع المعتاد الذين ينتفعون به، وأمّا سماع آخر فلا، وفي هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم لا تسمع من أضلّه الله إسماع هدى وقبول إلا من هديناهم للإيمان بآياتنا فهم مسلمون. لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الروم: 53].

ومن المواضع التي جسّدت هذا الفرق الدقيق بين الآداتين قوله تعالى: ﴿ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ ﴾ [الشعراء: 112-115]. ثم جاء في سورة الأحقاف قوله سبحانه: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ ﴾ [الأحقاف: 9].

موضع الشاهد هو استعمال حرف النفي "إن" في الآية الأولى: ﴿ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ لكنّه عدل النظم عن توظيفه إلى "ما" في الآية الأخرى: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾.

(1) . التحرير والتنوير، ج22، ص296.

(2) . ينظر: أضواء البيان، الشنقيطي، ج6، ص127-128.

فالذي نلحظه أنّ النذير المقصود في الآية الأولى هو نوح عليه السّلام، وإذا تحسّسنا السّياق فإنّنا نجده سياق مجادلة ومحاجة فلمّا كان في السياق إنكار وشدّة ومجادلة، فيليق أن يأتي حرف النفي المناسب لهذه الشدة وهو "إنْ" بدل "ما"، فنفى نوح عليه السّلام نفيا قاطعا، وقرينة ذلك استعمال "إنْ" النافية.

وأمّا النذير في الآية الأخرى هو محمّد صلى الله عليه وسلم وقد كان يخاطب قومه بما جاءه من أمر به ولم يكن السّياق فيه شدّة وقوّة ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ﴾ ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الأنبياء: 109]. فالملاحظ هو نفي الدراية بإنْ، لكنّه عدل عنه إلى حرف "ما" في قوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ﴾ [الأحقاف: 9].

وهذا لأنّ الآية الأولى أبعد في عدم الدراية وأقعد من الأخرى فقد أطلع الله رسوله فيما بعد على ما سيفعله به وبهم في الدنيا والآخرة فقد وعده بالفتح والنّصر والمغفرة وكسر شوكة الكفر في الدنيا وأطلعه على ما سيفعل به وبهم في الآخرة، ولذلك قيل الآية منسوخة[1] ((في حين لم يطلع الله سبحانه رسوله ولا أحدا من خلقة على موعد يوم القيامة فإن هذا مما اختص الله به نفسه ولم يظهره لأحد غيره فأكد عدم العلم بالساعة بـ"إن"، والآخرة بـ"ما".))[2]

(1) . ينظر: الكشاف، ج4، ص302.

(2) . معاني النحو، ج4، ص580.

❖ **العدول بالاختيار:**

الصورة الأولى: العدول من "لا" إلى "ما":

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾[فصلت: 34-35]

﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الممتحنة: 4]

وفي التفريق بين "ما" و"لا" يقول سيبويه: « وإذا قال: لقد فعل فإنَّ نفيه ما فعل. لأنه كأنَّه قال: والَّله لقد فعل، فقال: والله ما فعل. وإذا قال: هو يفعل، أي هو في حال فعل، فإنَّ نفيه: ما يفعل. وإذا قال هو يفعل ولم يكن الفعل واقعاً فنفيه "لا يفعل". وإذا قال: ليفعلنَّ، فنفيه: لا يفعل، كأنه قال: والَّله ليفعلنَّ، فقلت: والَّله لا يفعل. »(1)

ووجّه المرادي قول سيبويه على أنه فرّق بين النفي بـ"ما" التي قَصر معناها على الزّمن الحاضر والنفي بـ"لا" المختصّة عنده بزمن الحال والاستقبال جميعا. (2)

وجاء في الإتقان: « ومقتضى كلام سيبويه أنّ فيها معنى التأكيد لأنه جعلها في النفي جوابا لقد في الإثبات، فكما أنّ "قد" فيها معنى التأكيد فكذلك "ما" جعل جوابا لها. »(3)

الموضع الثاني: قال عزّ وجلّ: ﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ﴾ [يونس: 16].

ففي هذه الآية يأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يقول للمنكرين بكتابه إن تلاوة القرآن ليست إلا بمشيئة الله تعالى، لأنه كتابه وكلامه،إذ كيف لرجل أمي لم يتعلم ولم يشاهد العلماء أن يأتيهم بكل هذا البيان الفصيح الذي يعلو على كل منثور ومنظوم، والناطق بالغيوب التي لا يعلمها إلا الله والمشحون بأخبار الأولين والآخرين فيقول لهم الرسول صلى الله عليه وسلم: لولا مشيئة الله ما تلوته عليكم، ولا أدراكم به، أي: ولا أعلمكم الله إياه على لساني. (4)

(1) . الكتاب، ج3، ص117.

(2) . الجنى الداني، ص296-297.

(3) . الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ج2، ص289.

(4) . ينظر: الكشاف، ج2، ص319.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ويرى العكبري أنّ الفعل في: "ولا أدراكم به" هو فعل ماض من "دريت" والتقدير لو شاء الله لما أعلمكم بالقرآن [1]

فـ"لا" هنا دخلت على الفعل الماضي وجاءت معطوفة على حرف النفي "ما" وقد اشترط النحاة[2] في "لا" النافية أن تتكرر نفسها أو مع غيرها من أدوات النفي، نحو قوله تعالى: ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ ﴾ [القيامة: 31] ومنه فإن تكرار "لا" بعد "ما" أفاد النفي، فلو لم تتكرر "لا" لفهم منها معنى غير النفي، فيمكن التباسها بمعنى الدعاء.

وإذا تأكد نحويا أنّ "لا" في قوله تعالى:﴿ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦ ﴾ نافية، فلنا أن نتسائل عن سرّ مجيء النظم بها دون "ما"، فالعدول إلى النفي بها دون غيرها يستدعي مفارقة معنوية متوخاة ونكتة أسلوبية معينة، ومن غير الدقة واللطافة أن يكون قوله "ولا أدراكم به" مطابقا لقول مفترض "وما أدراكم به" لذلك فإن النفي بـ"ما" المفترض والمعدول عنه قد يوهم غير المقصود ويفهم غير ما يتوخى السياق وينشده، ففي « قوله: ﴿ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦ ﴾ عدول مقصود عن استعمال "ما" في موضع "لا" لأنّ استعمالها يجعل الكلام على صورة "ما أدراكم به" فيلتبس بالتعجّب »[3]

وذكر الرازي أنّ "لا" أعم في النفي من "ما" لأنها موضوعة لهذا المعنى، وأنها قد تكون لغرض التعظيم والتفخيم في نحو قوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الواقعة: 75].

يقول الرازي: « "لا" في النفي هنا كهي في قول القائل: لا تسألني عما جرى عليّ، يشير إلى أن ما جرى عليه أعظم من أن يشرح، فلا ينبغي أن يسأله، فإنّ غرضه من السؤال لا يحصل ولا يكون غرضه من ذلك النهي؛ إلا بيان عظمة الواقعة، ويصير كأنّه قال: جرى علي أمر عظيم. »[4]

فالمعنى النحوي لـ"ما" مجمع على أنه نفي للحال مع المضارع « لأنّ كلمة "لا" أدلّ على النفي لكونها موضوعة للنفي وما في معناه... وأما "ما" فغير متمحضة للنفي لأنها واردة لغيره من المعاني

(1) . التبيان في إعراب القرآن، ج2، ص668.

(2) . ينظر: الجنى الداني، ص297-298.

(3) . البيان في روائع القرآن، ص 437.

(4) . مفاتيح الغيب، ج29، ص425.

حيث تكون اسما والنفي في الحال لا يفيد النفي المطلق لجواز أن يكون مع النفي في الحال الإثبات في الاستقبال، كما يقال: ما يفعل الآن شيئا، وسيفعل إن شاء الله. ››[1]

الموضع الثالث: قال تعالى: ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧ ﴾[السّجدة: 17].

ورد النّظم القرآني للدّلالة عن نفي العلم بقرة الأعين؛ ورد بحرف النفي "لا" دون "ما"، فجاء بقوله: "لا تعلم" بدل قولك: "ما تعلم"، لأنّ "لا" موضوعة لنفي المستقبل لا غير، فناسب معنى قصور العلم البشري عن إدراك الجزاء والنعيم.

أما عن خصائص حرفي "لا" النافية فتستوحى من اللام التي تمثل الإلصاق والجمع والإلزام، وكذا من الألف اللينة التي تمثل فاصلا صوتيا ممتدا يحول دون مباشرة اللام وبذلك يكون النفي هو محصلة الخصائص المتناقضة لهذين الحرفين.[2]

ومن أسباب الاختلاف بين حرفي النفي ما أرجعه عباس حسن إلى طبيعة الخصائص الإيمائية لحرفي "اللام والميم" فطريقة النطق بـ"لا" تتطابق مع طريقة النطق باللام المفتوحة أصلا. فبمجرد ما ينفصل اللسان عن سقف الحنك يخرج صوت "لا" فكانت بذلك أسرع الإشارات إطلاقًا للدلالة على الرفض أو النفي، بما يتوافق مع متطلبات الإنسان العربي من السرعة في البيان. وهكذا خصّها بالنفي من قبيل: "وضع الشيء المناسب في المكان المناسب".

أما طريقة النطق بـ"ما" فهي أعقد وأطول زمنًا إذ تتم على مرحلتين اثنتين متباينتين: ضمّ الشفة إلى الشفة بشيء من التأني حبسًا للنفس، ثم بانفراجهما وفتح الفم واسعا. ولما كانت هاتان الحركتان تستغرقان زمنًا أطول مما يستغرقه النطق بـ"لا" فقد انصرف العربي عن استعمال "ما" للنفي، وجنح إلى تحميلها معان أخرى يتطلب تحقيقها زمنًا أطول مما يتطلبه الرفض أو النفي، وبما يتوافق مع طول مرحلتي خروج صوتها.[3]

---

(1) . مفاتيح الغيب، ج28، ص140.

(2) . حروف المعاني بين الأصالة والحداثة، ص113.

(3) . المرجع نفسه، ص118-119.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الصورة الثانية: العدول من "لن" إلى "لا":

الموضع الأول: قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ٢٣ ﴾ [القصص: 23].

موضع العدول في النفي بـ"لا" دون لن" في قوله تعالى حكاية عن قول المرأتين: ﴿لَا نَسۡقِي﴾ مما يوحي بأنّ فرقا أسلوبيا متوخّيا باختيار نسق النّفي بحرف "لا" دون "لن" مع احتمال وجودها في الظاهر، فهل نفي السّقاء يتحقّق بورود الأسلوبين أو التعبير بـ"لا" له خصوصية في النّظم؟

قد يراد بـ"لا" هنا نفي الحاضر إذ أنّ من طبعهما في كلّ مرة أنهما كذلك لا يسقيان ريثما يصدر الرعاء كما يحتمل إرادة نفي المستقبل وقد يعين على الفهم قولهما بعد: "حتى يصدر الرعاء" ومن هنا يتضح لنا الفرق بين النفي بـ"لا" و"لن" كونهما أداتين لنفي المستقبل، فالتعبير القرآني وظف "لا" لنفي السّقيا وعدل عن "لن" وهذا لما استأثرت به "لا" من خصوصية معنى النفي فيها بما يتناسب وحال السّاقيتين فإنّ حاجتهما إلى الماء شديدة بحيث لا تبلغ أن تنفيا بقوّة أنّهما "لن تسقيا"، ففي نفسيهما لو أتيح لهما السُّقيا لحظة كلامهما قبل غيرها، هذا من ناحية، ومن منحى آخر أن قوله: "لا نسقي" بليغ لصدوره من امرأتين ضعيفتين وأبوهما شيخ كبير، ففي "لن" من القوّة ما ليس في "لا"، ولأن "لا" أصلا لنفي الحاضر وهو في غير حاجة غالبا إلى قوة تأكيد لأنه ماثل للعيان وحاضر في الأذهان، أما العمل مستقبلا فلا يكاد يعرفه إلا من يقوم به لهذا فهو محتاج إلى أداة أقوى للنفي والإثبات. [1]

فهذا التحليل هو ملخّص رأي الباحث أحمد ماهر البقري، وهو منطلق في النفي لا أميل إليه لأنّ تعليله كون "لن" أقوى من "لا" غير وجيه، كما أني لا أعتقد بأنّ نفي الحاضر الذي هو زمن "لا" غير محتاج إلى قوة تأكيد، ونفي المستقبل الذي هو زمن "لن" يحتاج لما أثبت وأقوى، لأنّ – فيما أراه- أنّ معاني القوّة والضّعف في النّفي تستوحى من مضمون النّفي ومتعلّقه ومقامات المنفي وسياقاته، وليس بأصل دلالة الحروف، إنما المتعلق بأصل دلالة الحرف هو طول الزّمن وقصره باعتبار اختلاف أزمنة الأفعال، إذ ليس مطلق الزّمن كالزمن المقيّد، وإذا بحثنا في زمن الحرفين "لا" و"لن"

(1). ينظر: أساليب النفي في القرآن، ص27-28.

نجد أنّ "لا" تدلّ في النّفي على مطلق الزمن، أما "لن" فللزمن المستقبل، والحرف الذي ينفي مطلق الزمن أطول زمنا، وأبلغ لمعنى النفي من الحرف النافي للزمن المحدد، لذلك نتأمل كما ذكرنا سرّ العدول إلى "لا" في قوله تعالى: ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾ [الأنعام: 103]،كيف نفى فعل الإدراك بـ"لا" الدّالة على طول النّفي ودوامه، فإنّه لا يدرك أبدا وإن رآه المؤمنون فأبصارهم لا تدركه أبدا تعالى الله أن يحيط به مخلوق، ولو قيل: لن تدركه الأبصار لأوهم قصور معنى النفي إلى زمن ليس ببعيد، وهذا ما لا شكّ في بطلانه، ولما أراد تعالى قصر معنى النفي ومحدوديته في قوله تعالى: ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾ [الأعراف: 143]، جاء بما يناسبه فلم يقل: "لا تراني" لأنّه يوهم دوام نفي الرؤية وهذا يتصادم مع المقررات اللّغوية والاستعمالات العرفية والحقائق الشّرعية العقدية.

وحاصل الكلام أنّ كلّ حرف يؤكّد ما يتلائم مع معناه ويتناسب مع مقتضاه، فلما كان المضارع في الإثبات يدلّ على تعدّد الأزمنة وفق سياق الأسلوب استعمل معه في النّفي ما يستغرق تلك الأزمنة فكان لطول النّفي أثبت، ولما كان المستقبل زمن محدود ناسبه استعمال "لن" الدّالة بأصل وضعها على الاستقبال، وأهل البيان يتتبعون وجوه دلالة كلّ منهما على معناه اقتضاء للأحوال وهذا من براعة اللّغة وفصاحتها.

فإذا أوضحنا أنّ الفرق في حرفي النفي يتبع الزّمن قصرا وطولا، يعلم أنّ معنى التأكيد غير مستفاد من الزّمن، لكنه معنى بلاغي يؤتى به زيادةً في تقرير المثبَت على حسب المناسبات والأحوال.

فمن غير اللائق فيما أرى أن نصنع من النّفي قاعدة يقاس عليها للتأكيد، إذ لم يصرح أئمّة النّحو بأنّ "لا" في النفي أوكد من "لن"، يقول أبو حيان: ((مذهب سيبويه والجمهور أنّ "لن" لنفس المستقبل من غير أن يشترطا أن يكون النّفي بها آكد من النّفي بـ"لا".))[1]

فقوهما: "لا نسقي" ليس المعنى لا نريد أن نسقي، بل هو نفي لاستطاعة السقي، لذلك جاء بعدها الاستجابة لهذا النّداء الخفيّ لما استشعر عليه الصلاة والسلام ضعفهما "فَسَقَىٰ لَهُمَا"، ولو قالتا: "لن نسقي" لأوهم لنا المعنى عدم الاستطاعة وعدم الإرادة وأنهما مع توفر الدواعي لن يفعلا إلا أن يُخلّى الناس عن الماء وليس هذا بمناسب، لعدّة قرائن: منها أنه ذكر الخطب؛ وهو لا يذكر إلا

(1). ارتشاف الضرب من لسان العرب، ص1644.

في مصاب أو من يشقّ عليه[1]، أيضا: قولهما ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ فمعناه: لا يستطيع لضعفه، وأنهما لا تقدران لضعفهما على مزاحمة الأقوياء، ومن قرائن عدم الاستطاعة هو وصف إحداهن غلبة موسى على الماء بالقوّة: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: 26].

فالنّظم القرآني آثر "لا نسقي" بدل "لن نسقي" لنكتة لطيفة شخّصت لنا تعطل مطلوب امرأتين ضعيفتين وأبوهما شيخ كبير، غير قادر على مباشرة أمر غنمه، فهذه كما يبدو -والله أعلم- ملامح ضعف معنوي عميق طويل تأثيره في النّفس وهذا القصور الذي توفرت كل معانيه صوّره القرآن في هيئة لفظية محكمة مع لمسة النفثة التي أحدثتها الألف مع اللام المفتوحة، فإنّ "لا" كما يرى فضل عباس أنها مؤلفة من "اللام" المرنة الصّوت المتعدّدة الخصائص والمعاني، ومن الألف اللينة الأكثر مرونة والأطوع تكيفًا في النّطق بمعرض التعبير عن مختلف الأغراض والمعاني، فكثرت بذلك معاني "لا" واستعمالاتها.[2]

فالنفي بـ"لا" هنا وإن كان موجّها إلى نفي حالة حاضرة ليست طويلة زمنيا لأنها مقيّدة بحرف غاية بعدها "حتى"، فإنه طويل في صفة المنفي وهي القوّة والقدرة، فواضح أنّ مجيئهما بنية السّقاء وإرادته لكنّه تعطّل مطلوبهما، كما سبق ذكره.

وإذا تتبعنا هذا المنطلق في التحليل سنجده في آيات أخرى منها قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (١٢٣) ۞ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤)﴾ [البقرة: 123-124].

يقول البقري: « وإنما عُبّر ب"لا" بدل "لن" لكي يتمثّل السامع أو القارئ اليوم أمامه وتكون تقوى الله نصب عينيه، أو بمعنى آخر: واتقوا يوما الحال فيه لا تجزي نفس عن نفس شيئا.. وكذلك

(1). ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج13، ص269.

(2) . حروف المعاني بين الأصالة والحداثة، ص114.

قوله: ﴿لَا يَنَالُ﴾، المراد به المستقبل إذ الحديث عن الذرية وهي تكون بعد إبراهيم في الآية، وإما كان التعبير بـ"لا" لأنّ الخبر مطرد في الحاضر والمستقبل، أمّا "لن" فتخصّص للاستقبال. ››(1)

الموضع الثاني:

قال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾﴾ [الكافرون: 1- 3].

يمكن أن نتساءل عن موطن النكتة في مجيء النّظم في قوله: ﴿لَآ أَعْبُدُ﴾ بحرف النفي "لا" دون قول: "لن أعبد" مع إمكانية اقتضائها في ظاهر الحال.

وللإجابة عن ذلك يبين لنا ابن القيّم سرّ إتيان النّفي في سورة "الكافرون" بالحرف "لا" دون "لن" بقوله: ‹‹ وذلك لأنّ النّفي بـ "لا" أبلغ منه بـ "لن" وأنّ "لا" أدلّ على دوام النّفي وطوله من "لن" وأنها للطّول والمد الذي في نفيها؛ طال النفي بها، واشتدّ، وأنّ هذا ضدّ ما فهمته الجهمية والمعتزلة.››(2)

وهذا المنحى العدولي أيّده الطبري في مجمله، لأنّه أَمْيَل إلى البلاغة، وأحفظُ لدلالة الحروف ومعانيها، فيرى الطبري أنّ ‹‹ لكلّ حرف من حُرُوف المعاني وجهًا هو به أولى من غيره فلا يصلح تحويل ذلك عنه إلى غيره إلا بحجة يجب التّسليم لها. ››(3)

وفي هذا العدول دلالة أيضا على أنّ من كان الكفر وصفا ثابتا ولازما لا يفارقه فهو حقيق أنْ يتبرأ الله منه ويكون هو أيضا بريئا من الله، فكأنّه يقول كما أنّ الكفر لازم لكم ثابت لا تنتقلون عنه فمجانبتكم والبراءة منكم ثابتة دائما أبدا، ولهذا أتى فيها بالنّفي الدّال على الاستمرار مقابلة الكفر الثابت المستمرّ فحرف النفي "لا" توحي دلالته بامتداد زمن نفي حدوث الفعل وطول النفي ودوامه.

(1). أساليب النفي في القرآن، ص26.

(2) . بدائع الفوائد، ج1، ص145.

(3) . جامع البيان، ج1، ص199.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ومن هذا أيضا قوله تعالى: ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣ ﴾ [الأنعام: 103].

تشير لنا الأداة "لا" إلى عدم حصول الادراك على الإطلاق، يقول ابن القيم -رحمه الله- : بأن التعبير هنا نفى فعل الإدراك بـ "لا" الدالة على طول النفي ودوامه، فإنّه لا يدرك أبدا، وإنْ رآه المؤمنون؛ فأبصارهم لا تدركه - تعالى عن أن يحيط به مخلوق- (1)

ونرى السهيلي بسياسته اللّغوية المقنعة يفرّق بين النفي بـ"لا" في فعل الإدراك، وبين "لن" مع فعل الرّؤية ومن خلال الاستعمال القرآني للفعلين يكشف عن إشارات وقواسم النفي في حرفي النفي فيرى أنّ الإدراك لما كان لا يمكّن منه الإنسان بحال نفاه بـ"لا" فقال: فالأبصار لا يمكنها إدراكه بأيّ حال، فالإدراك منفي بلا نفيا مطلقا، بخلاف الرّؤية لما كان بالإمكان تحقيقها بحاستها نفاها القرآن بـ"لن" دون "لا"، وبذلك يصرح السّهيلي بميله إلى التفريق بين الفعلين لا إلى ترادف دلالتيهما، وهذا بقرينة قول النبي صلى الله عليه وسلم: "إنّكم سترون ربَّكُم عَيَانا يوم القَيامة"(2) ولو قال: إنكم تدركون ربّكم يوم القيامة لم يحسن.

ومن خلال هذا الاستعمال الدّقيق لحرفي النّفي وعدول النظم إلى ما هو أحسن وأنسب؛ واصل السّهيلي في استجلاء معالم الاستعمال العرفي في لغة العرب للنفي بـ"لن" وتوضيح خاصية النفي بها دفعا لإيهام ما قد يتلبس بدلالتها من بعض مثيلاتها في معناها العام، يقول: ((على أني أقول: إن العرب - مع هذا - إنما تنفي بـ "لن" ما كان ممكناً عند الخطاب مظنونا أن سيكون، فتقول له: "لن يكون"، لما يمكن أن يكون، لأنّ " لن " فيها معنى " أن " وإذا كان الأمر عندهم على الشكّ لا على الظنّ، كأنّه يقول: أيكون أم لا يكون؟ قلت في النفي: "لا يكون" وهذا كلّه مقوّ لتركيبها من "لا" و"أنْ".))(3)

(1) . بدائع الفوائد، ج1، ص96.

(2) . ينظر: صحيح البخاري، ت: محمد زهير بن ناصر، دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ، ج9، ص127، رقم الحديث: 7435.

(3) . نتائج الفكر، ص103.

ومن دقائق المناسبات[1] التي وافقت النّفي في مؤدّاه وجرت إلى غاية مغزاه، هو أنه سبحانه لما قدّم نفي إدراك الأبصار له، عطف على ذلك قوله: "وَهُوَ اللَّطِيف" خطاباً للسامع بما يُفهم، إذ معترف العادة أن كلّ لطيف لا تدركه الأبصار، و لما قال: " وهو يدرك الأبصار " عطف على ذلك قوله " الخبير " تخصيصاً لذاته سبحانه بصفات الكمال، لأنّ كلّ من أدرك شيئاً كان خبيراً بذلك الشيء فجاء تتميم الكلام مناسبا معناه لما ابتدأ به، فحين تنسجم الظواهر اللّفظية والدّلائل المعنوية والمقتضيات السّياقية في تأدية المعنى، يتجلّى حينها عظمة هذا الكتاب بوضوح معناه، وحسن بيانه.

ومن دقّة النفي بـ"لا" دون "لن" هو أنّ المنفي في الآية هو الإدراك المشعر بالإحاطة بالكنه؛ لا مجرد الرؤية، لأنّك قد ترى الشيء ولا تدركه، فلمّا كان الإدراك من خصائص الرؤية؛ لا يستلزم من نفي الأخصّ نفي الأعمّ. وهذا ما صرّح به العقل وقرّره الشّرع، ولو قال: "لن تدركه الأبصار" لأفاد المعنى قصور النفي في خاصية الرؤية وبهذا يوهم لنا أنه تعالى قد يمكن إدراكه ولو بعد حين طويل فكأنه بهذا الخطاب قد يُقذف في ذهن المخاطب قبسات أمل فيما يمكن أن يكون، لكن القرآن العظيم لم يترك لنا هذه الأوهام وحسم النفي بأداته الظاهرة، فبانت العبارة وظهر المعنى.

وفي كلّ هذا تظهر لنا أنّ قضية العدول في الحروف أنها لا تقتصر على كونها قضية جمالية فنية تباينت في تذوقها الأراء والمذاهب باعتبار نظرة كلّ واحد، ولا يتعدى أثر ذلك إلى المعنى، بل إنّ العدول هو التعبير باللّفظ المناسب في مقامه المناسب، فهو ترك التعبير لكلّ حرف تبدوا مناسبته ظاهرة وحضّه في المعنى وفير؛ لكنّه مع شدّة التقارب والمناسبة لا يناسب ولا يليق، ويوهم غير المراد ويخدش المعنى.

فالذي يعتقد أنّ الحروف المتقاربة متماثلة في تأدية المعنى؛ هو واهم، لأنّ حروف المعاني وإن تقارضت واشتركت في كثير من خصائصها فإنّ لها وظائف معنوية مكتمة؛ هي كالشّرف والعرض الذي لا يمكن النيل منه، أو المعدن الذي لا يمكن انسلاخه.

ويمكن أن نخلص من خلال وقوفنا على بلاغة حروف النفي وتقلباتها في النظم القرآني إلى أنّ العدول في حروف النّفي هو من أهمّ الظواهر الأسلوبية في التعبير القرآني، والتي تمثل مظهرًا من مظاهر الإعجاز البياني في القرآن الكريم. كما اتّضح أنّ حرف النفي حين تنصهر صورته اللفظية

---

(1). ينظر: تحرير التحبير، ابن أبي الأصبع، ص363، والبرهان في علوم القرآن، ج1، ص80.

والصّوتية بمقتضياتها المعنوية والسياقية؛ تقوّي وجوده في النّظم وحضوره في رسم ملامح الخطاب وهذا ما يعكس الدور البارز الذي يتبنّاه في تحديد الدلالة المناسبة لهذا العدول. وأنه من خلال تحليل أساليب النّفي المختلفة في النّص القرآني، نخلص إلى أنّ كلّ عدول عن مقتضى الظاهر في استعمال أحرف النّفي يهدي إلى إثارة مكامن الجمال في النّص بما يخدم الموقف ويناسب السياق.

وبما أنّ الدّراسات الأسلوبية لا تتعامل مع اللّغة المعيارية بل مع لغة الأدب والتأثير، فإنّ حروف النّفي باستعمال المخالفة استطاعت أن تشكّل إثارة أسلوبية صنعت التأثير، وصوّرت الشعور النّفسي وفي هذا كلّه بيان لأسرار التركيب القرآني، وإعجاز بيانه الخالد.

المبحث الثاني:

العـدول في حـروف الاستثناء

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثاني: العدول في حروف الاستثناء:

يعدّ الاستثناء أحد الأساليب النّحوية الدّقيقة وذلك من خلال وظيفته الخاصّة في الجملة فبوجوده يمكننا أن نحدّ من إطلاق الحكم في الأسلوب لنخرج منه ما يتوهم أنّه داخل فيه، ولأجل تفعيل خاصية هذا الأسلوب تأهلّت بعض حروفه لتحمل هذا المعنى ثم تؤديه على وجه يتباين فيه مدلول ما قبلها مما بعدها، لكن الأمر الذي يلفت نظر المتأمّل في استعمال القرآن الكريم لحروف الاستثناء وبخاصة "إلا" هو الدقّة في الانتقاء، لما تضفيه هذه الحروف من ظلال واستأثرت به من لطائف ويتضح ذلك حين تقارن بين أسلوب الاستثناء بالحرف المستعمل مع الأسلوب بالحرف البديل، فقد حملت "إلا" على معان حروف عدة تنتسب أغلبها إلى أبواب نحوية أخرى، وأشربت معان أدوات يتضح بها معنى الاستثناء العام، لكنّها لا تتّفق مع الحرف الأصيل في خصوصية أدائه.

وقد وقف علماء التفسير والبيان والنّحو أمام هذه الفروق وكان لهم مناقشات بارزة وتأويلات تقترب إلى الصّواب حينا وتبتعد حينا آخر.

وسأحاول إبراز بعض مظاهر العدول في الحروف في ضوء هذا الأسلوب، وقد لا يبتعد كثيرا هذا البحث عما أسماه النّحاة بالتقارض[1] يعني أنّ كلّ واحد من الحرفين يستعير من الآخر حكما هو أخصّ به، وأولى به من غيره، وذلك بمسوّغ الاتّساع الدّلالي والتجوّز في الاستعمال.

❖ **العدول بالمخالفة:**

الصورة الأولى: العدول من "إلا" إلى "غير":

قال تعالى: ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ ﴾ [النساء: 95]

وقال عزّ وجلّ: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: 22]

من خلال الموضعين هل يمكن إحلال لفظ "غير" محلّ "إلا" على الاستثناء أو العكس.؟

يقول أبو حيان: أصل "غير" أن تكون صفة، وأصل "إلا" أن تكون استثناء، ثمّ قد تحمل إحداهما على الأخرى فيما هو أصل فيها.[2]

(1) . ينظر: شرح المفصل، ابن يعيش، ج2، ص70، ومغني اللبيب، ابن هشام، ص915.

(2) . ارتشاف الضرب، ص1526.

كما قيل بأنّه لا يصح أن تكون "إلا" هاهنا استثناء، لأنّ المعنى يؤول على الاستثناء بأنّه ((لو كان فيهما آلهة ليس فيهم الله لفسدتا، وذلك يقتضي بمفهومه أنّه لو كان فيهما آلهة فيهم الله لم تفسدا، وهذا باطل.))[1]

وفي مثل هذا يقول سيبويه: ((باب ما يكون فيه "إلا" وما بعده وصفاً بمنزلة مثل وغير، وذلك قولك: لو كان معنا رجل إلاّ زيدٌ لغُلِبنا. والدليل على أنّه وصف أنّك لو قلت: لو كان معنا إلا زيدٌ لهلكْنا وأنت تريد الاستثناء لكنت قد أحلتَ.))[2]

ويرى ابن يعيش أنّ ((كلّ موضع يكون فيه "غير" استثناء، يجوز أن يكون صفة فيه، وليس كل موضع يكون فيه صفة يجوز أن يكون استثناء. والفرق بين "غير" إذا كانت صفة، وبينها إذا كانت استثناء، أنها إذا كانت صفة لم توجب للاسم الذي وصفته بها شيئا، ولم تنف عنه شيئا، لأنه مذكور على سبيل التعريف. وأمّا إذا كانت استثناء، فإنّه إذا كان قبلها إيجاب، فما بعدها نفي، وإذا كان قبلها نفي، فما بعدها إيجاب، لأنها ههنا محمولة على "إلا".))[3]

فقد ذهب سيبويه[4] وأكثر النّحويين إلى أنّ "إلا" في الآية أفادت معنى الوصف، وعلّل الأخفش كونها وصفا بأنها استثناء مقدم، فتقول: "لو كان فيهما آلهة لفسدتا".

وقد بين الرضي معنى حمل "إلا" على "غير" بقوله: ومعنى الحمل: ((أنه صار ما بعد "إلا" مغايرا لما قبلها ذاتا أو صفة كما بعد "غير" ولا تعتبر مغايرته له نفيا وإثباتا، كما كان في أصلها.))[5]

لكن الجرجاني نفى كون "إلا" تأتي بمعنى "غير" لعلل نحوية، ورأى أنّ القول بالتناوب؛ توّهم باطل بحجّة أنه ((يلزم عليه أن تكون "إلا" في قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الشعراء: 77]، وقوله: ﴿ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء: 67]، استثناء وأن تكون بمنزلة "غير"، وذلك لا يقوله أحد، لأنّ "إلا" إذا كانت صفة كان إعراب الاسم الواقع بعدها إعراب

(1) . معاني النحو، ج2، ص224.
(2) . الكتاب، ج2، ص331.
(3) . شرح المفصل، ج2، ص70-71.
(4) . ينظر: الكتاب، ج2، ص331.
(5) . شرح الرضي على الكافية، ج2، ص126.

الموصوف بها وكان تابعا له في الرفع والنصب والجر، وقال: والاسم بعد "إلا" في الآيتين منصوب كما ترى وليس قبل "إلا" في واحد منهما منصوب بإلا. »[1]

ف"إلاَّ" لم ترد بمعنى "غير" إلاَّ أنَّها وقعت مثلها صفة، واشتراكهما في هذا الوصف لا يقدح في قيام الفرق بينهما، وهذا ما صرَّح به المرادي حين قال: « اعلم أنّ أصل "إلاَّ" أن تكون استثناء وأصل "غير" أن تكون صفة، وقد تُحمَل "إلاَّ" على "غير" فيوصف بها، كما حُملت "غير" على "إلاَّ" فاستثني بها، وللموصوف ب"إلاَّ" شرطان أحدهما: أن يكون جمعًا أو شبهه، والآخر أن يكون نكرة أو مُعرَّفًا بأل الجنسية كقوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ فإن قلت: كيف يوصف ب"إلاَّ" وهي حرف؟ التحقيق أنَّ الوصف إنَّما هو بها وبتاليها لا بها وحدها وهي حرف ولذلك ظهر الإعراب في تاليها ومن قال: إنَّ "إلاَّ" يوصف بها فقد تجوَّز في العبارة، وإنَّما صح أن يوصف بها وبتاليها؛ لأنَّ مجموعهما يؤدي معنى الوصف وهو المغايرة، واعلم أنَّ "إلاَّ" التي يوصف بها تفارق "غير" من وجهين: أحدهما أنَّ موصوفها لا يُحذَف وتقام هي مقامه، فلا يقال: جاءني إلاَّ زيد بخلاف غير، والآخر أنَّها لا يوصف بها إلاَّ حيث يصحّ الاستثناء، فلا يجوز: عندي درهم إلاَّ جيد بخلاف "غير". »[2]

فمؤدّى كلام المرادي ليس لمعنى الوصف المستوحى من الآية، وإنما لإسناد الوصف إلى "إلا" الاستثنائية وحدها إذا جردت من تاليها، لذلك فإنّ إجراء المقارضة بينهما لا يعدوا أن يكون حملا على المعنى لا اللّفظ. وهذا يبصرنا في عدم دقّة من صرّح بصحّة دخول "إلا" مكان "غير" في الجملة فالأولى أن يقال إنه قد يحمل معنى الوصف على جملة ملفوظها "إلا"، لكن أن يقال إنّ إلا بمعنى غير فليس دقيقا، ولذلك وصفه المرادي بالتجوّز في العبارة.

ولهذا فالذي ينبغي أن تُخرَّج عليه الآية كما ذكر ابن هشام هو أنّ « المعنى: لو كان فيهما آلهة لفسدتا، أي: أنَّ الفساد يترتب على تقدير تعدد الآلهة، وهذا هو المعنى المراد. »[3]

فالقائلون بأنّ "إلا" جاءت بمعنى "غير" غاية حجّتهم هو أنّ "إلا" أفادت مغايرة ما بعدها لما قبلها، والحقيقة أن ليس هناك مغايرة، لأنّ المغايرة تكون بين أمرين قائمين أو بين أمرين يمكن

(1) . البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ج4، ص239.
(2) . الجنى الداني، ص517-518.
(3) . مغني اللبيب، ص100.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وقوعهما، أو الأول قائم والثاني ممكن وقوعه وليس بين أمرين الأوّل مفترض الوجود ولا يمكن وقوعه والثّاني موجود وأخذ النحويون بالأخير، فإنهم ذهبوا إلى أنّ الآلهة المفترضة الوجود موصوفة بمغايرتها لله، وهذا فيه نظر، لأن الآلهة في الآية مفترضة الوجود ممتنعة الوقوع، فلا يمكن وصف شيء ممتنع وقوعه بالموجود وبصفات مغايرة، وإذا قيل إنّ المشركين يقولون بوجود الآلهة، وجاء الكلام على لسانهم، فهذا مردود لأنّه لو كان هذا قول المشركين لجاز لنا حذف حرف الامتناع "لو" ويكون المعنى فيهما آلهة غير الله، والتركيب صحيح وهو على غرار فيها رجال غير زيد، لكنّ هذا المعنى لا يقول به المشركون لأنهم لا ينفون وجود الله سبحانه وتعالى، وإنما أشركوا مع الله آلهة أخرى والقرآن يشهد بهذا ، كقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: 22].

ومنه يبطل قول من ذهب إلى أن "إلا" تفيد الصّفة. [1]

إنّ الأصل في معنى "غير" أنها تستعمل للمغايرة مطلقا، وبتطوّر الدّلالة اقتربت المغايرة من معنى الاستثناء، حتى كاد ينمحي معنى المغايرة من الذّهن في الاستثناء، فلا يفهم إلا بالتأوّل والتأمّل فقولك مثلا: "ما حضر غير علي" كاد أن يفهم: "ما حضر إلا علي" ولا يفهم منه أنّ أي شخص غير علي لم يحضر، فعند قوله تعالى: ﴿ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الذاريات: 36]، فإنّ معنى المغايرة كاد أن لا يظهر ولا يفهم إلا بالنّظر وإعمال الفكر لعقد الصّلة بين الاستثناء والمغايرة. [2]

يقول الرازي في تفسير هذه الآية: ((فكأنّه تعالى قال: أخرجنا المؤمنين فما وجدنا الأعمّ منهم إلا بيتا من المسلمين ويلزم من هذا أن لا يكون هناك غيرهم من المؤمنين، وهذا كما لو قال قائل لغيره: من في البيت من النّاس؟ فيقول له ما في البيت من الحيوانات أحد غير زيد، فيكون مخبرا له بخلوّ البيت عن كلّ إنسان غير زيد.))[3]

وعليه نقول بصّحة مجيء "غير" صفة، وعدم جوازه في "إلا"، وذلك كقولنا: في الدار باب غير مفتوح، وعدم جواز: في الدار باب إلا مفتوح.

(1) . الاستثناء في التراث النحوي والبلاغي، كاظم إبراهيم كاظم، ص117-118.

(2) . ينظر: معاني النحو، ج4، ص588.

(3) . مفاتيح الغيب، ج28، ص181.

ومن المواضع التي حملت فيها غير على معنى الاستثناء قوله تعالى: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود: 63].

ففي قوله تعالى: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ حملت "غير" على أسلوب الاستثناء، أي هي بمعنى "إلا"، وبذلك يؤول المعنى إليها، على أنه: إذا كان ذلك فما دعاؤكم إياي إلا سعي في خسراني. (1) وبذلك تكون "غير" قد خرجت عن الأصل، وعدلت إلى معنى "إلا" على سبيل الاتساع في الاستعمال، وقرينة كونها للاستثناء أنّ ما قبلها مناف لما بعدها، فما قبلها نفي وما بعدها إثبات.

يقول ابن عاشور: "والمراد بالزيادة حدوث حال لم يكن موجودا، لأنّ ذلك زيادة في أحوال الإنسان أي فما يحدث لي إن اتبعتكم وعصيت الله إلا الخسران."(2) ويكون هذا مقارن لمعنى قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ٦﴾ [نوح: 6] والمعنى "كنت أدعوهم وهم يسمعون فلمّا كررت دعوتهم زادوا على ما كانوا عليه ففروا، وليس المعنى أنهم كانوا يفرون فزادوا في الفرار، لأنّه لو كان كذلك لقيل هنالك: فلم يزدهم دعائي إلا من فرار."(3)

ويرى العكبري أنّ الأقوى في المعنى أن تكون "غير" هنا استثناء في المعنى؛ أي: فما تزيدونني إلا تخسيرا، وضعّف أن تكون "غير" صفة لمحذوف، إذ التقدير: فما تزيدونني شيئا غير تخسير، وهو ضدّ المعنى. (4)

إنّ غيرا وإنْ دخلها معنى الاستثناء قد تحمل معها معناها الخاصّ بها أحيانا فلا تطابق "إلا" تماما فقولك: "ما قام إلا محمّد" و"ما قام غير محمّد" ليسا متطابقين في المعنى تماما، فإنّك في الجملة الأولى أثبت القيام لمحمد وحده ونفيته عمن عداه، وأمّا الثانية فتحتمل هذا المعنى وتحتمل معنى آخر وهو أنّ غير محمد لم يقم، فيكون نفي القيام عن غير محمّد وسكت عن محمّد.

بمعنى أنّ ما بعد "إلا" هو المقصود بالاستثناء وهو الذي يدور عليه الحكم، أمّا في "غير" فإنّ الكلام قد يدور على ما بعد "غير"، وقد يدور على "غير" نفسها لا على المجرور بها، فعند قوله

(1) . ينظر: التحرير والتنوير، ج12، ص112.
(2) . ينظر: المصدر نفسه، ج12، ص112.
(3) . ينظر: المصدر نفسه، ج12، ص112.
(4) . ينظر: التبيان في إعراب القرآن، ج2، ص704.

تعالى: ﴿ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الشعراء: 99]، معناه أنّ المجرمين هم الذين أضلّوهم ولو قيل: "وما أضلّنا غير المجرمين" لاحتمل هذا المعنى، واحتمل معنى آخر وهو أنّ غير المجرمين لم يضلوهم، أي: نفي الضلال عن غير المجرمين، أمّا بالنسبة إلى المجرمين فلم يتعرض لهم، وكذا الأمر عند قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا ﴾ [نوح: 24] فلو جاء النّظم بغير لاحتمل المعنى السّابق، واحتمل ألا يزيدهم شيئا غير الضّلال، أمّا الضّلال فمسكوت عنه.[1]

ثم إنه يمكن استخراج وجه الفرق بينهما بأنّه يجوز التفريغ في "غير" في الإثبات، ولا يجوز في "إلا" تقول: "قام غير محمد"، ولا يجوز أن تقول: قام إلا محمد، وذلك لأنّ غيرا وإن كانت تعني كلّ ما عدا المذكور في الوجود قد تعني أيضا بها شخصا معيّنا غير محمد، أو أشخاصا معينين، فقولك: "قام غير محمّد" يحتمل أن يكون معناه: قام خالد، أما الاستثناء بإلا فيفيد في نحو هذا ما عدا محمّدا من النّاس، ولذا فإنّ "غير" لا تطابق "إلا" تماما في معنى الاستثناء.[2]

فالقاعدة العامّة من خلال الأمثلة القرآنية في استعمال غير وإلا، أنّ غيرا لا تقع موقع "إلا" في الاستثناء، إلا أن تكون "غير" صفة على أصلها، كما أنّ "إلا" لا تقع إلا ومعنى الاستثناء واقع فيها فكلاهما في الحقيقة لا يفارق أصله.

وعليه نقول إنّ تقرير مسألة تناوب الأدوات، وأنْ لا مزية في استعمال أحد الحرفين دون الآخر وإن كانت تتناسب مع طبيعة الدّرس النّحوي، فإنها لا تليق بمقام الدّرس البلاغي ودقّة أساليبه وبخاصة إذا كان الكلام عن بلاغة القرآن العالية وبيانه السّاحر، كما أنّ القول بتناوب معاني الحروف يثبّط همم الدّارسين عن التحقيق والتدقيق والفِكر والتأمّل، فلنا أن نتسائل مثلا إذا كانت "إلا" الواردة في القرآن على معنى الاستثناء لا تختلف في مدلولها على "غير"؛ إلا رسما وصورة، فلِمَ عدل إليها النّظم وتخيرها من بدائلها؟ فليس في العدول إليها إذًا وتخيّرها من بدائلها أيّ مزية تتوخّى، ثم لا يكون لاصطفائها لخاصّ معناها في مقام معين أيَّ نكتة أسلوبية معيّنة. ولا شكّ أنّ هذا المنطلق يحتاج إلى فحص ومراجعة، لأنّ دقّة المشابهة لا تعني الملابسة، كما أنّ خفاء مسلك العلّة لا يدلّ على عدمها، وهذا بعينه ما تفاضلت فيه الأفهام، وتنافس في إدراك حكمته المفسّرون وأهل البيان.

(1) . معاني النحو، ج2، ص227-228.

(2) . المرجع نفسه، ج2، ص229.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الصورة الثانية: العدول من "إلا" إلى "لمّا":

قال تعالى: ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ ﴾ [ص: 14]

وقال عزّ وجلّ: ﴿ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الزخرف: 35]

ذكر الزمخشري في آية الزخرف أنّ «"لـمّا" بالتشديد بمعنى إلا، وإنْ نافية. وقرئ: إلا. وقرئ: وما كلّ ذلك إلا.»(1)

والذي يظهر من خلال رؤية الزمخشري أنه يصرح بأنّ "لَمّا" إذا كانت مشدّدة فإنه يتضح معنى الاستثناء فيها، و"إنْ" التي تسبقها نافية ليتم عنده أسلوب الاستثناء الهادي إلى معنى الحصر.

وإلى هذا يذهب الألوسي عند قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [يس: 32].

وهو من الذين أقرّوا بهذا التناوب غير آبه برفض الكسائي له، يقول: «و"لـمَّا" بمعنى "إلا" ومجيئها بهذا المعنى ثابت في لسان العرب بنقل الثقات فلا يلتفت إلى زعم الكسائي أنه لا يعرف ذلك.»(2)

وفي تقرير المعنى نفسه يقول الهروي: «والوجه الثالث أن تدخل لما بتشديد الميم موضع "إلا" ويكون معناها "إلا"، كقولك: "إن زيد لما قائم" و"إن زيد لما في الدار"، تريد "ما زيد إلا قائم" و"ما زيد إلا في الدار"»(3)

وقد بيّن أبو حيان أنّ هذا التقارض قليل الدوران في كلام العرب وهي متوقفة على ما ورد منها وذكر ما مفاده الإنكار قائلا: «وزعم أبو القاسم الزجاجي أنه يجوز أن تقول: لم يأتني من القوم لما أخوك، ولم أر من القوم لما زيدا، تريد إلا أخوك، وإلا زيدا، وينبغي أن يتوقف في إجازة مثل هذه التراكيب حتى تَثْبُت.»(4)

لذلك لا يمكننا في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [هود: 111] أن نتأوله بقولنا "إلا ليوفينهم"، ولو كانت بمعناها ومطابقتها لجاء بها النظم؛ إضافة إلى أنها من استعمالات القرآن.

(1) . الكشاف، ج4، ص253.

(2) . روح المعاني، ج12، ص7.

(3) . الأزهية في علم الحروف، ص54.

(4) . ارتشاف الضرب، ص1556.

وفي هذا ينكر الفراء أن تكون "لما" بمعنى "إلا" في الاستثناء خاصّة وذلك بقوله: « وأما من جعل "لما" بمنزلة "إلا" فإنه وجه لا نعرفه، وقد قالت العرب: بالله لما قُمتَ عنا، وإلا قُمت عنا، فأمّا فى الاستثناء فلم يقولوه في شعر ولا غيره، ألا ترى أنّ ذلك لو جاز لسمعت في الكلام: ذهب الناس لما زيدا. »(1)

لكنّه في موضع آخر أشار إلى أنّ "لما" المشدّدة تأتي بمعنى "إلا" المسبوقة بنفي، وجاءت مركبة من "لم" و"ما" يقول: « والوجه الآخر من التثقيل أن يجعلوا "لما" بمنزلة "إلا" مع "إنْ" خاصّة، فتكون في مذهبها بمنزلة "إنما" إذا وضعت في معنى إلا، كأنها "لم" ضمت إليها "ما" فصارا جميعا استثناء وخرجتا من حدّ الجحد. »(2)

ومما تقدّم من شواهد في "لما" يمكننا القول إن "لما" وإت أفادت في هذه الشواهد معنى الاستثناء جريانا على مذهب الزجاجي فإنّه لا يمكن القول بأنها مطابقة لمعنى إلا في باب الاستثناء، كما أنّ مجيئها في معنى الاستثناء لا يمنع وقوعها، يقول أبو حيان: « وكون العرب خصصت مجيئها ببعض التراكيب لا يقدح ولا يلزم اطرادها في باب الاستثناء، فكم من شيء خص بتركيب دون ما أشبهه. »(3)

وكلّ هذا يشير إلى التنوع المعنوي التي تفيده "لما" منه ما يفيد الطلب، ومنه ما يفيد الاستثناء ومنه ما يفيد القصر، ومجي "لما" في هذه المواقع لا يمنع وقوعها. (4)

---

(1) . معاني القرآن، ج2، ص29.

(2) . المصدر نفسه، ج2، ص377.

(3) . البحر المحيط، ج6، ص219.

(4) . ينظر: الاستثناء في التراث النحوي والبلاغي، كاظم إبراهيم كاظم، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط1، 1998م، ص81.

الصورة الثالثة: العدول من الواو إلى "إلا":

قال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [البقرة: 150].

ذكر النحاة أنّ "إلا" في هذه الآية خرجت من معنى الاستثناء إلى معنى العطف، فمعنى "إلا" في الآية هو معنى الواو، فتكون دلالة الآية: ولا الذين ظلموا، يعني ولا الذين ظلموا لا يكون لهم أيضًا حجة. (1)

وكذا عند قوله تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ﴾ [النّساء: 148] أي: ومن ظلم لا يحب أيضًا الجهر بالسوء منه.

واستدلّ أيضا من رأى بهذا التحوّل في حرف الاستثناء؛ بقول الشاعر(2):

وَكُلُّ أَخٍ مُفَارِقُهُ أَخُوهُ ... لَعَمْرُ أَبِيكَ إِلَّا الفَرْقَدَانِ.

لكن الأشهر في معنى "إلا" في هذا الموضع كما يرى الزمخشري هو الاستثناء، وتوجيه: (("إلا من ظلم"، أي: إلا جهر من ظلم، استثنى من الجهر الذي لا يحبه الله جهر المظلوم، وهو أن يدعو على الظالم ويذكره بما فيه من السّوء، وقيل: هو أن يبدأ بالشتيمة فيردّ على الشّاتم.))(3)

فتفسيره بالاستثناء هو الأصل في الاستعمال اللّغوي والتركيب القرآني، فكيف يتجرّد من معناه الأصلي وينسلخ عن دلالته لفيد حرف عطف يفيد الاشراك والإتباع !

لذلك أنكر الطبري مجيء "إلا" بمعنى الواو، وكذا رأي أبو جعفر النحاس بأنّه لا يجوز هذا في شيء من الكلام، ومعنى "إلّا" عنده ((خلاف معنى الواو، لأنّك إذا قلت: جاءني إخوتك إلّا زيدا أخرجت زيدا مما دخل فيه الإخوة. وإذا قلت: جاءني إخوتك وزيد، أدخلت زيدا فيما دخل فيه الإخوة فلا شبه بينهما ولا تقارب.))(4)

---

(1) . ينظر: الإنصاف في مسائل الخلاف، ج1، ص216.

(2) . ينسب هذا البيت إلى عمرو بن معد يكرب ، والصواب لحضرمي بن عامر بن مجمع ،كما في: شرح أبيات سيبويه، السيرافي، ج2، ص59. والبيت من شواهد الكتب النحوية، منهم: سيبويه، ج2، ص334، والمقتضب، ج4، ص409، والإنصاف، ج1، ص217.

(3) . الكشاف، ج1، ص616.

(4) . إعراب القرآن، ج3، ص137.

وقد صرّح المرادي وابن هشام بأنّ هذا المعنى لحرف الاستثناء قد نفاه الجمهور، لظهور تأويله على الاستثناء المنقطع، ولا يمكن أن يكون بمنزلة الواو في التشريك في اللفظ والمعنى، ولا حجّة فيما استدلّ به من ذهب هذا المذهب. (1)

كما أنكر أبو حيان على من قال بهذا المعنى، وذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ [النمل: 10- 11] ووسم ذلك بالضّعف، لعدم وجود الدليل عليه ولتباين المعنى بين الحرفين إذ الواو للإدخال، وإلا للإخراج، فلا يمكن وقوع أحدهما موقع الآخر.(2)

فتوجيه معنى الآية بأن يقال: ((لكن المظلوم يجهر بالسّوء؛ لما يلحقه من الظّلم، فيكون في ذلك أعذر ممن يبدأ بالظلم، وعلى ذلك أيضا يحمل قول الشاعر:

وَكُلُّ أَخٍ مُفَارِقَهُ أَخُوهُ ... لَعَمْرُ أَبِيكَ إِلَّا الفَرْقَدَانِ.

أراد لكن الفرقدان فإنهما لا يفترقان، على زعمهم في بقاء هذه الأشياء المتأخّرة إلى وقت الفناء.))(3)

(1) . ينظر: الجنى الداني، ص519، ومغني اللبيب، ص101.

(2) . ينظر: البحر المحيط، ج8، ص214.

(3) . الإنصاف في مسائل الخلاف، ج1، ص220.

الصورة الرابعة: العدول من "لكن" إلى"إلا":

قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ ﴾ [يونس: 98].

المعنى: فهلا كانت قرية –أي أهل قرية– آمنوا، والمعنى معنى النّفي، أي: ما كانت قرية آمنوا عند نزول العذاب بهم فنفعهم إيمانهم، ثم قال: إلا قوم يونس، استثناء ليس من الأوّل، كأنه قال: لكن قوم يونس لما آمنوا انقطعوا من الأمم الذين لم ينفعهم إيمانهم عند نزول العذاب بهم، ومثله قول النابغة (1):

... عَيّتْ جَواباً، وَمَا بالرَّبْعِ من أَحدِ.

إلَّا أَواريَّ لأْياً مَا أُبَيِّنُها... (2)

وقد جعل الأخفش ذلك مطّردا في "إلا" المنقطعة من المتصلة فقال: ((ف"إلا" تجيء في معنى "لكن" وإذا عرفت أنها في معنى "لكنّ" فينبغي أن تعرف خروجها من أوله.))(3)

ويقول الزركشي مقرّرا هذا المعنى ((إذ لو كان متصلا لكان المعنى: فهل آمنت قرية إلا قوم يونس فلا يؤمنون، فيكون طلب الإيمان من خلاف قوم يونس وذلك باطل، لأنّ الله تعالى يطلب من كل شخص الإيمان فدلّ على أنّ المعنى: لكن قوم يونس. وقال الزجاج: يمكن اتّصاله، لأنّ قوله: "فلولا" في المعنى نفي فإنّ الخطاب لما يقع منه الإيمان وذلك إذا كان الكلام نفيا كان ما بعد إلا يوجب إنكاره قال: ما من قَرْيَة آمنت فَنَفَعها إيمانُها إلا قوْمَ يُونس.))(4)

وقد اتّسع بعض النّحاة في مجيء إلا بمعنى "لكن" ذاهبين إلى أنه ((متى كان ما بعد "إلا" جملة فإلا بمعنى "لكن" ولو كان الاستثناء متصلا.))(5)

(1). ينظر: ديوانه، ص25–26. وتمام البيتين: وقفتُ فيها أُصَيلاناً أُسائِلُها... عَيّتْ جَواباً، وَمَا بالرَّبْعِ من أَحدِ

إلَّا أَواريَّ لأْياً مَا أُبَيِّنُهـا ... والنُّؤي كالحَوْضِ بالمظلومةِ الجَلَدِ.

(2). ينظر: لسان العرب، ابن منظور، ج15، ص433.

(3). معاني القرآن، ج1، ص123.

(4). البرهان في علوم القرآن، ج4، ص237.

(5). حاشية الصبان، ج2، ص209.

ولعلّ وجه التشابه والمشاركة الجزئية بين الأداتين جعلت النحاة يقررون هذا الإجراء يقول ابن السراج معلّلا مبادلة الأداتين ((وإنما ضارعت "إلا" "لكن"، لأن "لكن" للاستدراك بعد النفي، فأنت توجب بها للثاني ما نفيت عن الأول، فمن ههنا تشابها.))[1]

لكن هذا المضارعة ليست من كلّ الوجوه وعلى كل الأحوال، فمن وجوه المفارقة ((أنّ "لكن" لا يشترط أن يكون ما بعدها بعضا لما قبلها بخلاف "إلا"، فإنه لا يستثنى بها إلا بعض من كلّ.))[2]

وقد قسّم النحاة الاستثناء بـ"إلاَّ" على قسمين: استثناء منقطع واستثناء متصل و"إلاَّ" حتى تكون معوضة لـ"لكن" يجب أن تدخل ضمن الاستثناء المنقطع، ومع ذلك فقد أجازوا في مثل الشاهد المذكور أن تكون للاستثناء المتصل أيضًا.[3]، وقد صرح الزمخشري وابن عطية بجواز كونه متصلاً والجملة في معنى النفي، كأنه قيل : ما آمنت قرية من القرى الهالكة إلاّ قوم يونس. [4]

وجعل إلاَّ بمعنى "لكن" لا يخرجها من معنى الاستثناء، فيجب أن نحمل "إلا" في كل موضع على معناها في الاستثناء، وأنها لا بدّ من أن تخرج بعضًا من كلّ، فإذا كان الاستثناء منقطعًا، لا بدّ من أن يكون الكلام الذي قبل "إلا" قد دلّ على ما يُستَثْنى منه. [5]

ومن المواضع التي حملت فيها إلا على لكن قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ [سبأ: 37].

نقل النّسفي عن ابن عباس رضي الله عنهما في توجيه قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ﴾ أنّ "إلا" بمعنى لكن، أي: "لكن من آمن". [6]

أمّا الفراء فقد بيّن أنّ هذا التقارض بين الحرفين لا يعني أنهما في نفس المرتبة النحوية، وإنما هو تفسير معنى، وإما أن تصلح "إلا" مكان "لكن" فلا ألا ترى أنّك تقول: ما قام عبد الله ولكن زيد

(1) . الأصول في النحو، ج1، ص290.
(2) . شرح المفصل، ج2، ص54.
(3) ينظر: الدر المصون، ج6، ص269.
(4) ينظر: الكشاف، ج2، ص353، والمحرر الوجيز، ج3، ص144.
(5) . الأصول في النحو، ج1، ص291.
(6) . ينظر: مدارك التنزيل، ج3، ص67.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فتظهر الواو، وتحذفها. ولا تقول: ما قام عبد الله إلا زيد، إلا أن تنوي: ما قام إلا زيد لتكرير أول الكلام. [1]

ومن المواضع التي حملوا فيها الاستثناء على الاستدراك قوله تعالى: ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: 112].

فعند قوله تعالى: ﴿ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ ردّ الطبري على بعض النّحاة القائلين بأنّ الاستثناء الوارد في الآية استثناء متّصلا، فيؤول قولهم إلى معنى قولك: "ضُربت عليهم الذلّة في الأمكنة إلا في هذا المكان".وأوضح ابن جرير أنّه لو كان استثناء متصلا كما زعموا، لوجب أن يكون القوم إذا ثقفوا بحبل من الله وحبل من الناس غير مضروبة عليهم الذلّة والمسكنة. وذلك خلاف ما وصَفهم الله به من صفتهم، وخلافُ ما هم به من الصّفة، لأنهم أينما ثقفوا بحبل من الله وحبل من الناس، أو بغير حبل من الله عز وجل وغير حبل من الناس، فالذلّة مضروبة عليهم.

فلم يوجّه الطبري ذلك على وجه الاتّصال بالأوّل، ولكن على الانقطاع. ومعناه: ولكن يثقفون بحبل من الله وحبل من النّاس، كما قيل: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ﴾ [النساء: 92]، فالخطأ وإن كان منصوبًا بما عمل فيما قبل الاستثناء، فليس قوله باستثناء متصلّ بالأوّل بمعنى: "إلا خطأ"، فإن له قتله كذلك. ولكن معناه: ولكن قد يقتله خطأ.

وقد ضعّف الرازي هذا الحمل، وردّ على المسارعة إلى مثل هذا التأويل غير المسوغ الحمل عليه حين قال: ‹‹ واعلم أنّ هذا ضعيف لأنّ حمل لفظ "إلا" على "لكن" خلاف الظاهر، وأيضا إذا حملنا الكلام على أن المراد: لكن قد يعتصمون بحبل من الله وحبل من الناس لم يتم هذا القدر فلا بدّ من إضمار الشيء الذي يعتصمون بهذه الأشياء لأجل الحذر عنه والإضمار خلاف الأصل، فلا يصار إلى هذه الأشياء إلا عند الضرورة فإذا كان لا ضرورة هاهنا إلى ذلك كان المصير إليه غير جائز. ››[2]

فعلى الرّغم من أنّ النّحاة ذهبوا إلى مجيء "إلاّ" بمعنى "لكن" فقد فرّق بينهما العسكري بقوله: ‹‹ إنَّ الاستثناء تخصيص صيغة عامة، فأمَّا "لكن" فهي تحقيق إثبات بعد نفي أو نفي بعد إثبات

(1) . ينظر: معاني القرآن، ج3، ص259.

(2) . مفاتيح الغيب، ج8، ص328.

تقول: ما جاءني زيد لكن عمرو جاءني، وأتى عمرو لكن زيد لم يأت، فهذا أصل "لكن" وليس باستثناء في التحقيق، وقال ابن السرّاج: هو إخراج كلّ من بعض.))(1)

وعند قوله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ ﴾ [الصافات: 38-41] يذهب ابن عاشور في قوله: ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ إلى توضيح دلالة الاستدراك فيها، على اعتبار أنّ الاستدراك ((تعقيب الكلام بما يضادّه))(2)

فإنّ حال عباد الله المخلصين تامّ الضدّية لحال الذين ظلموا؛ الذين هم في العذاب مشتركون ((ولذلك لا يقتصرون على ذكر حرف الاستثناء والمستثنى بل يردفونه بجملة تبين محلّ الاستدراك كقوله تعالى: ﴿ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الأعراف: 11]، وقوله: ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴾ [البقرة: 34]، وكذلك قوله هنا: ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ ﴾ ولو كان المعنى على الاستثناء لما أتبع المستثنى بإخبار عنه لأنه حينئذ يثبت له نقيض حكم المستثنى منه بمجرد الاستثناء، فإن ذلك مفاد "إلا"، ونظيره مع "لكن" قوله تعالى: ﴿ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ [الزمر: 19- 20].))(3)

والرّاجح عندي في هذه المسألة هو ما ذهب إليه الفراء وابن يعيش لما ذكروه من الفروق بين الحرفين فلا يمكن أن تقع إلا للاستدراك حقيقة بحيث تدلّ ما دلّ عليه ويترتّب عليها ما ترتب عليه. وإن سلّمنا بتقاطع الأداتين في موارد معينة، فلا يعني مطلق الاتفاق إلى درجة الملابسة، لأنّه لا بدّ أنْ يبقى لكلّ حرف خصوصياته، وما انفرد به من لطائف تدقّ وتخفى.

(1) . الفروق اللغوية، ص 64.
(2) . التحرير والتنوير، ج23، ص110.
(3) . المصدر نفسه، ج23، ص110.

الفصل الخامس:

العدول في حروف التوكيد والنّداء والتعليل

ويندرج تحته ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: العدول في حروف التوكيد

المبحث الثاني: العدول في حروف النّداء

المبحث الثالث: العدول في حروف التعليل

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول:

العـدول في حـروف الـتوكيد

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول: العدول في حروف التوكيد[1]:

يعدّ أسلوب التوكيد في العربية عنصرا حيويا من عناصر التعبير، وقد ارتبطت بنيته في القرآن الكريم بوظيفته التي تشركه في إنتاج الدّلالة وإنْ تعدّدت طرق تأديته، فإنّ من أهمّها؛ طريق التوكيد بالحروف على اختلاف أبوابها النحوية بما تمنحه للنّصوص من قوّة وتمكين، تبعا لدرجة الخبر الموافقة لحال المخاطب، ومن أبرز ملامح الجمال فيه العدول الأسلوبي الطارئ على استعمال أدواته الخاصة به فهو تحوّل ليس على مستوى باب التوكيد ومأتاه؛ لكنّه عدول في طرق إبلاغه لمعناه وتفاوت قوّة مؤداه، فالتعبير القرآني يؤثر حروف توكيد على أخرى، فنراه في سياق متصلّ يستعمل حرفا ويعدل عنه إلى آخر، وقد نجده في مواضع مشابهة يستعمل حرفين آخرين أو أحدهما دون الآخر، ما يلفت نظر الدارسين ويثير خاطرة المفسّرين عن حِكَم ذلك وأسراره.

❖ العدول بالمخالفة:

الصورة الأولى: العدول من نون التوكيد الخفيفة إلى الثقيلة:

الموضع الأول: قال تعالى: ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [يوسف: 32].

ما نلحظه في استعمال نوني التوكيد في قوله: ﴿ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ هو تأكيد الفعل "يسجننّ" بنون التوكيد الثقيلة، ثم عدل عنها إلى الخفيفة في قوله: "وليكونا" ولم يقل: "وليكوننّ" على نحو الفعل الأول، فما الأثر البلاغي وراء هذا العدول؟

وقد اختلف القراء في قراءة النون الخفيفة في "وليكونا"، حيث يرى جمع من اللغويين والمفسرين[2] أنّ القراءة الجيّدة على تخفيف "وليكونا" والوقف عليها بالألف، لأنّ النون الخفيفة تبدل في الوقف ألفا، تقول: اضربنَّ زيدا، فإذا وقفت، قلت: "اضربا"، يقول الزجاج: وقد قرئت: ولتكونَنَّ بتشديد النُّون، وأكرهها لخلاف المصحف، لأنَّ الشديدة لا يُبدل منها شيء.

([1]) . من خلال ظاهر هذا المبحث حاولت أن أتناول كلّ حرف له علاقة بالتوكيد، وبعد التعمق في البحث ارتأيت أن أخصّ بالدراسة الحروف الخاصة بالتوكيد، وحروف التوكيد الزائدة، وهذا وفقا لطبيعة الدراسة، لأنّ تناول كلّ حرف أفاد التوكيد يوسّع دائرة البحث ويخرج به عن موضوعه الأصلي، كما أنه بعد البحث رأيت أنّ الحروف المذكورة هي التي يتشكل فيها مفهوم العدول، على اعتبار أنه يمكنها في مقتضى الظاهر أن تتناوب، فجاءت هذه الدراسة لتتبع سر استعمال حرف في مواضع دون أخرى.

([2]) . ينظر: معاني القرآن، الأخفش، ج1، ص397، وجامع البيان، ج16، ص 86، ومعاني القرآن وإعرابه، ج3، ص108.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وما يزيدنا إيضاحا لطبيعة العدول هو أنّ استعمال نوني التوكيد يسوّغ النحويون إحلال الواحدة محلّ الأخرى، و((أنَّ كل شيء دخلته الخفيفة فقد تدخله الثقيلة، كما أنّ كلَّ شيء تدخله الثقيلة تدخله الخفيفة.))[1]، ما يدعونا إلى النظر والتفكّر، هل هذه الإباحة جائزة على أيّ اعتبار، أو أنّ دخول الثقيلة مكان الخفيفة والعكس هو إجراء نحوي فقط؛ حيث أنّ التركيب اللغوي يصحّ لكلّ أداة كونهما يدخلان على الأمر والمضارع الطلبي؟

ذهب جمع من اللغويين [2] إلى التفريق بين الأداتين في شدّة التوكيد بالثقيلة، والسّياق هو الذي يتطلّب إحداهن دون الأخرى، ويؤيد هذا ما نقله سيبويه عن الخليل بأنّهما يفيدان التوكيد، فإذا جئت بالخفيفة فأنت مؤكِّد، وإذا جئت بالثقيلة فأنت أشدُّ توكيدا. [3]

فمن خلال منهج المقارنة بين النون الثقيلة والخفيفة في الاستعمال لا يمكننا القول بأنّ تأكيد معنى الفعل الأوّل هو بنفس درجة الفعل الثاني، وهذا لقرائن سياقية أسلوبية استطاعت أن تصنع المفارقة بين تعلّق الأداتين بفعلين مختلفين، وذلك لأنّ زليخة امرأة العزيز كانت تحبّ يوسف عليه السلام وتتحرّق شوقا إلى رؤيته، فطلبت السّجن ليكون بالقرب منها فتستطيع أن تراه، فكان هذا هو طلبها وتحرص عليه، فأكّد القرآن الفعل بالنون الثقيلة إشارة إلى هذا المعنى.

أمّا في الفعل الثاني "وليكونا" عدل النّظم الحكيم عن الثقيلة إلى الخفيفة، وذلك لأنّ إذلال يوسف عليه السّلام ليس مطلبها ولا تميل إليه، وإنما كانت ترغب في السّجن ليكون بالقرب منها فتتمكّن من رؤيته فيكون إذلاله بعد أن لن تتمكّن من رؤيته ليخضع لها، لذلك أكّد بالنون الخفيفة للدلالة على أنّ هذا الفعل ليس هو المطلب الأوّل. [4]

ويعزّز هذا المسلك؛ قول سيبويه السابق [5] فيما نقله عن الخليل بن أحمد: أنّ التوكيد بالثقيلة أشدّ من التوكيد بالخفيفة، وهو ما ترجمته لنا الآية، فإنّ امرأة العزيز كانت أشدّ حرصا على سجنه لغاية في نفسها من كينونته ذليلا صاغرا.

([1]) . البحر المحيط، ج6، ص260.

([2]) . ينظر: الجنى الداني، ص141، وهمع الهوامع، السيوطي، ج2، ص611.

([3]) . ينظر: الكتاب، سيبويه، ج3، ص509.

([4]) . ينظر: أسلوب التوكيد في القرآن، ص166-167.

([5]) . ينظر: الكتاب، سيبويه، ج3، ص509.

وينقل الألوسي وجهين في تخريج هذا العدول، وهما أنّ تأكيد « السّجن بالنون الثقيلة قيل: لتحقّقه، وما بعده بالنون الخفيفة لأنّه غير متحقّق. وقيل: لأنّ ذلك الكون من توابع السّجن ولوازمه، فاكتفت في تأكيده بالنون الخفيفة بعد أن أكدت الأوّل بالثقيلة. »[1]

فالألوسي أحالنا إلى شيء آخر ليس نابعا من نفس الطَّالِب بل من مقتضى الطَّلب، وهو مخرج حسنٌ، فامرأة العزيز أكّدت ما كان في مقدورها وبإمكانها فعله لا محالة؛ لسلطانها، أي أنّ السّجن تستطيع فرضه في الواقع، أمّا إذلال يوسف عليه السّلام وإن كان من مأمورها، لكنها لا تستطيع أن تَضْمن تحقيقه في الواقع؛ لأنّ الصّغار معنى يقع في قلوب الآخرين، فمن هذا المنحى كان غير متحقّق.

أمّا التوجيه الثاني وهو أنّ الصّغار من توابع السّجن فلا أراه مناسبا، لأنه لو كان كذلك، لضُربت الذلّة والصغار وما انجرّ عنها على كلّ من دخل السّجن، والواقع لا يستلزم هذا، فيوسف عليه السّلام بعد دخوله السّجن ومكوثه فيه لم يترتب عليه أي أثر لهذا المعنى، بل أثبت له ضده؛ وهو الرّفعة والسّمو، فقد وُصف بعدها بالصدِّيق وبالمكين أي: ذو المكانة والمنزلة ،كما وصف بالأمين معروف الأمانة والبراءة، وكتبت ليوسف عليه السّلام المكنة في الأرض يتبوّأ منها حيث يشاء. وبهذا يتبين أنّ الإذلال ليس من مقتضيات السّجن لكنّه قد يقع به وقد لا يقع، فلمّا أرادت وقوع ذلك ذكرته على وفق ما أرادت.

فالنون في "وليكونا" قُلبت ألفا وهذا لا يكون إلا في النون الخفيفة، والملاحظ أنّ المد بالألف جاء مناسبا لمعنى التهديد والوعيد الذي استعملته لإرهابه، فهي وضعت مقابل عدم الموافقة جزائين: السّجن والصغار، وكلاهما مذموم، لكن طريقة تأكيد الأوّل أشدّ في لفظها ومعناها من الآخر، فإنها أكّدت الأول بالنون الثقيلة وذلك لتحقّق ما توعّدت به، « وبدأت بالسّجن إبقاء على محبوبها »[2] ليزيد ذلك في قربها إليه رغبة فيه وطمعا، أمّا حين أرادت إثبات الصَّغار عدلت إلى النّون الخفيفة وهذا ما يوحي لنا بخفّة في طلبها وذلك لقرائن منها: أنّ الصغار أمر يُثقل النّفس لما له من أثر عميق فيمن كان شريفا فلا يحتاج إلى تأكيد، فكأنه عظيم بمجرد الإثبات، كما أنّ الإذلال ليس هو المقصد

([1]) . روح المعاني، ج6، ص424.

([2]) . البحر المحيط، ج6، ص260.

والغاية إنما هو وسيلة لتحقيق غرضها المنشود، فهذه طريقتها في التهديد، لأنها هنا صرّحت بالمراودة وطلبت منه أن يطيعها، لذا فهي تريد إيذاءه طمعا في أن يستجيب لأمرها.

ومن إيحاءات الخفّة في أمرها بصغاره هي الألف اللينة في الفعل "وليكونا" التي توحي بليونة وعيدها، كما زاد في إخفات صوت التوكيد هو جانب القراءة والأداء، فالنون الساكنة في الحرف الأخير تُدغم وصلا في الميم بعدها فتصبح حرفا واحدا مشدّدا من جنس الثاني، فإنّ النون استحالت ميما فضَعُف صوتها وإن بقي أثرها الكلام، وهذا من دقائق القرآن الكريم في وصف الظاهرة ورصد ما يختلج في النّفس والفؤاد، فكأنّ لوحة مرئية تحاكي لك خواطر الأنفس ورغباتها، ولن تجد هذا إلا حين تتبصّر في لغة الدّقائق والفروق.

وبهذا ندرك أنّ النّون الخفيفة قد عكست لنا خفّة معنوية في روح المؤكِّد، وإن اختلفت الأذواق في استنباطها، كما أنّ للثقيلة ثِقَلا دفينا أرادت نقله واجتثاثه، وأما قول من قال بأنّ ما دخلته الخفيفة قد تدخله الثقيلة والعكس، فليس للباحث الحكم عليه إلا في لغة المقتضيات والأحوال، وإن كان هذا الحكم قد يتجلّى في البيان الإنساني القاصر؛ فإنّ لبيان القرآن دقّة في التصوير قد تتجاوز التصوّر البشري للغة إلى نظام جديد آخذ بعضه برقاب بعض، لا تحدّه العبارات ولا تشكّله القواعد فعدول النّظم عن ثقل إلى خفّة في نفس الحرف وفي أسلوب واحد وفي تقرير شيء واحد؛ لأدعى إلى تفحّص الموقف ومراس الهيئات؛ من أحكام العموم، وأوصاف العجز والقصور.

الصورة الثانية: العدول بين "إنْ" و"إنّ":

الموضع الأول: قال تعالى: ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ٩١ ﴾ [يوسف : 91]. وقال بعدها: ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ٩٧ ﴾ [يوسف: 97].

صاحب القول في الآيتين هم إخوة يوسف عليه السلام، وقد ذكر الله تبارك وتعالى قولهم الأول موجها إلى أخيهم يوسف عليه السلام مؤكدا خطأهم بإن الخفيفة، أما في الثانية فصدر منهم طلب الاستغفار موجها إلى أبيهم أما عن تأكيدهم الخطأ فقد عدلوا به عن الخفيفة إلى استعمال "إنّ" الثقيلة، فهل لخفة التوكيد وثقله من أثر في المعنى أم هما سواء؟

يقول السامرائي مبينا الفرق بين الأسلوبين: ((وأنت ترى أنّ إخوة يوسف قالوا لأخيهم: ﴿ وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾ بـ"إنْ" المخففة وقالوا لأبيهم: ﴿ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴾ بالمشدّدة وقد يتبادر إلى الذّهن أنه كان ينبغي أن يكون التعبير بالعكس، فإنهم مع من أساؤا إليه إساءة مباشرة وهو يوسف عليه السّلام كان عليهم أن يأتوا بإنّ المشدّدة للدّلالة على زيادة التوكيد بخلاف التعبير مع أبيهم غير أنّك إذا أنعمت النّظر وجدت الطّريقة التي استعملها القرآن هي المثلى فإنّ إخوة يوسف لما رأوا أباهم وما حل به من جراء فعلتم من الوهن واللّوعة، وحرقة الفؤاد، وذهاب عينيه من الحزن دعاهم ذلك إلى توكيد الاعتذار والاعتراف بالخطيئة، بخلاف حالة أخيهم فإنّ الله أكرمه بعدهم وبوّأه مكانة عالية، ومكّن له في الأرض، وكأنَّ فعلتهم تلك عادت عليهم بالخير والرّفعة بعكس ما جرت على أبيهم فهنالك فرق بين الحالتين فكان الشعور بالخطيئة مع والدهم أكبر وأعظم فقالوا ما قالوا.))[1]

فالملاحظ في أسلوب التوكيد من خلال القرآن هو التدرج في شدّة معناه فقد يخفف في المقامات التقتضية لهذا المعنى، والمقرّرة له، والسّياقات الجارية فيه؛ كاستعمال نون التوكيد الخفيفة أو إنْ المخففة للدلالة على هذا المعنى، وقد يزيد معنى التوكيد ويشتد في المواطن المتأكد فيها معناه، ويأتي السياق في خدمة هذا المعنى فأبوهم((لم يستغفر لهم مع طلبهم الاستغفار منه إنما وعدهم به: ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ٩٧ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ

(1). التعبير القرآني، ص159-160.

ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴾ [يوسف: 97- 98]. فوعدهم بالاستغفار في المستقبل، ثم انظر كيف جاء بسوف لا بالسّين، وسوف أبعد في الاستقبال من السّين مما يدلّ على عمق الأثر في نفسه.»[1]

الصورة الثالثة: العدول من السين إلى سوف:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾ [النّساء: 56-57].

تشترك كلّ من السين وسوف في الدّخول على الفعل المضارع فيخلّصانه من الحال إلى الاستقبال إضافة إلى تأديتهما لمعنى التأكيد، لكن مع هذا الاشتراك المعنوي يفترقان في أمور أخرى يمكن من خلالها أن نتوسّم الملامح الخاصّة والإيحاءات المميّزة لكلّ حرف منهما، مع إمكانية إبقاء هذه الفوائد في إطار النّكت التي لا تتزاحم ولا تتعارض.

فهل تكون كثرة الحروف دالّة على كثرة المعنى[2] أم لهذا العدول اعتبارات أخرى؟

اللافت في الآية هو استعمال سوف في إصلاء الكافرين النار ثم العدول إلى السين في إدخال المؤمنين الجنّة، وذلك أنّ المقام يقتضي أن يكون كلّ في موضعه، فإنّ الآيات التي قيلت في الكافرين تسع آيات تبدأ بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾ [النساء: 48]، بخلاف آية المؤمنين فإنها آية واحدة وهي المذكورة، فجاء النّظم بسوف في مقام الإطالة وبالسين في مقام الإيجاز.[3]

ويرى السامرائي أنّ "سوف" أشدّ توكيدا من السين لزيادة حروفها عليها، ومن المواضع التي يتضح فيها مفهوم العدول بين الحرفين قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًاۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾ [النّساء: 10]. فذكر في جزاء أكل مال اليتيم الفعل "يصلى" مقرونا بالسين، في قوله: ﴿ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ ولم يقل: "وسوف

([1]) . التعبير القرآني، ص160.

([2]) . مغني اللبيب، ص185.

([3]) . معاني النحو، ج4، ص407.

يصلون سعيرا"، أما في موضع آخر في السورة نفسها فقد نظم الفعل يصلى مع "سوف" في قوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [النّساء: 30].

ويرى أبو حيان بأنّ جملة الكفار جاءت « مؤكّدة بأنّ على سبيل تحقيق الوعيد المؤكد، ولم يحتج إلى ذلك في جملة المؤمنين، وأتى فيها بالسين المشعرة بقصر مدّة التنفيس على سبيل تقريب الخير من المؤمن وتبشيره به. »[1]

وبالنّظر إلى السّياق فإنّ اختلاف نهاية الآيتين في استعمال السين وسوف يتناسب وما سبقهما من كلام، فالآية الأولى تحدثت عن عقوبة أكل أموال اليتامى، والآية الأخرى تحدثت عن جريمتين: هما أكل الأموال بالباطل، وقتل النفس ظلما، فزاد لهم في التوكيد والتهديد لما زاد الفعل سوءا ونكرا ثم إنه لما قال: "عدوانا وظلما" فزاد العدوان على الظلم زاد لهم التهديد فجاء بسوف التي هي آكد من السين ونسب الإصلاء إلى نفسه سبحانه فقال: ﴿ فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗا ﴾، بخلاف الآية السابقة فإنه قال: ﴿ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ﴾ فنسبه إليهم.[2]

ومما انفردت به سوف على السين من الناحية التأكيدية أيضا، هو دخول لام التأكيد عليها دون "السين" [3]، كقوله تعالى: ﴿ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴿٥﴾ ﴾ [الضّحى: 5] فيزيدها تأكيدا على تأكيدها، حتى إنها قد ترد لتحقيق هذه الدلالة فحسب دون إرادة دلالتها الزمنية على الاستقبال، ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن فرعون: ﴿ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ

(1) . البحر المحيط، ج3، ص681.
(2) . معاني النحو، ج4، ص407.
(3) . ينظر : مغني اللبيب، ص185.

﴾ [الشعراء: 49]. ذكر الزجاج أنّ دخول اللام على سوف هنا لإفادة التأكيد[1] فلم يشأ فرعون أن يبعد في وعيده وعذابه، إنما هو تأكيد منه ومبالغة، ومما يدل على ذلك اتصال نون التوكيد الثقيلة بالفعلين المضارعين "أُقَطِّعَنَّ" و"أُصَلِّبَنَّ"، فضلا عن اختتام قوله بلفظ التوكيد "أَجْمَعِينَ".

وذكر الألوسي في أحد معاني اللام أنها «هي اللام التي في "لأقومن"، ونابت سوف عن إحدى نوني التأكيد، فكأنه قيل: فلتعلمنّ»[2]

لكن قد يقال إنها جاءت نفس القصة في سورة الأعراف من دون اللام، وذلك في قوله: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَاۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [الأعراف: 123-124]، فلِمَ عدل هنا عن ذكره وأثبته في الأولى؟

يرى الإسكافي[3] أنّ قوله: ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ فيه من الوعيد المبهم المعرض بأي: فعلت بجهل ما تعرف من بعد نتيجته، وطرحت بذر شرّ عند حصده تعلم نهايته، وهذا النوع من الوعيد أبلغ من الإفصاح بقدره، على أنه قد قرن إليه بيانه، وهو: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ ﴾ فنطق القرآن بحكاية التعريض بالوعيد والإفصاح بالتهديد معا.

أمّا اختصاص الشعراء بقوله: "فلسوف" فرأى الإسكافي أنّ الجمع بين اللام وسوف التي للاستقبال، إنما هو لتحقيق الفعل، وأدائه من الوقوع، إذ اللام للحال، وهذا لغرض إفادة تقريب الفعل، فجاءت اللام لتقريب ما خوّفهم به من اطلاعهم عليه وقربه منهم، حتى كأنه في الحال موجود، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [النحل: 124]، فجمع بين اللام وبين يوم القيامة، كما جمع بينها وبين سوف؛ على ما قاله عز وجل: ﴿ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ [النحل: 77].

([1]) . ينظر : معاني القرآن وإعرابه، ج4، ص90.
([2]) . روح المعاني، ج10، ص79.
([3]) . ينظر: درة التنزيل، ص674-675.

وهذا إضافة إلى أنّ زيادة اللام فى الشّعراء مناسب لما تضمّنته من الاستيفاء الجارى فى هذه القصّة، وذلك أنّ هذه اللام مقرّبة من زمان الحال وتحقيق الوقوع، ولم يكن تقدم فى الأعراف ما يحرز هذا المعنى فاستوفته هذه السورة ليناسب ذلك استيفائها لما كان بين موسى عليه السلام وفرعون وهذا مع ما تعطيه من التأكيد. [1]

وزعم الزمخشري[2] أنها إذا دخلت على فعل محبوب أو مكروه أفادت أنه واقع لا محالة. ووجهه أنها تفيد الوعد بحصول الفعل، فدخلوها على ما يفيد الوعد أو الوعيد مقتض لتوكيده وتثبيت معناه وقد أشار إلى ذلك في سورة البقرة عند قوله سبحانه: ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: 137]، ومعنى السين أنّ ذلك كائن لا محالة وإن تأخّر إلى حين، كما صرح به في سورة براءة فقال في ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ [التوبة: 71]، السين مفيدة وجود الرحمة لا محالة فهي تؤكّد الوعد كما تؤكّد الوعيد، إذا قلت: سأنتقم منك يعني أنك لا تفوتني وإن تباطأ ذلك.

قال ابن هشام معقّبا على رأي الزمخشري: « ولم أرَ من فهم وجه ذلك. »[3].

ولئن اختلف في التعليلات الموضحة لسرّ العدول بين السين وسوف في مواضع من القرآن، فإنّ هذا الاختلاف لا يقدح في منهج التفريق بين الأداتين من ناحية قوّة تأكيد الفعل وتقريبه، وتبقى دراسة العدول فيهما تحتاج إلى تحميص القرائن الخطابية والمقامات السياقية لإبراز مكامن الوجوه والفروق؛ وليس الاعتماد المطلق على أصل الوضع.

([1]) . ينظر : ملاك التأويل، ج1، ص220.

([2]) . ينظر : الكشاف، ج1، ص222، وج2، 275.

([3]) . مغني اللبيب، ص185.

❖ **العدول بالحذف:**

الصورة الأولى: العدول إلى لام التوكيد:

الموضع الأول: قال تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [المؤمنون: 15-16].

أكّد التعبير القرآني حصول الموت بمؤكدين هما إنّ واللام، لكنّه في السياق نفسه عدل عن اللام وأكّد البعث بأداة واحدة وهي "إنّ" فكيف أكّد الأوّل الذي لا شكّ فيه في الظاهر أكثر من الأمر الذي هو مظِنّة الإنكار والجحود لمن لا إيمان له؟

قال الألوسي: « ولم يؤكّد سبحانه أمرَ البعث تأكيده لأمر الموت مع كثرة المترددين فيه والمنكرين له اكتفاء بتقديم ما يغني عن كثرة التأكيد، ويشيد أركان الدعوى أتم تشييد من خَلْقِه تعالى الإنسانَ من سلالةٍ من طين، ثم نقله من طور إلى طور، حتى أنشأه خلقاً آخر يستغرق العجائب، ويستجمع الغرائب، فإنّ في ذلك أدلّ دليل على حكمته وعظيم قدرته عزّ وجلّ على بعثه وإعادته. »[1]

وقيل إنما بولغ في تأكيد الموت تنبيها للإنسان أن يكون الموت نصب عينيه، ولا يغفل عن ترقبه فإنّ مآله إليه فكأنه أكدت جملته ثلاث مرات لهذا المعنى، لأنّ الإنسان في الدنيا يسعى فيها غاية السّعي كأنّه مخلّد ولم يؤكّد جملة البعث إلا بـ"إنّ" لأنّه أبرز بصورة المقطوع به الذي لا يمكن فيه نزاع ولا يقبل إنكارا. [2]

فكأنّ البعث لما قامت البراهين القطعية عليه صار المنكر له كالمنكر للبدهيات فلم يحتج إلى تأكيد وأما الموت فإنّه وإن أقروا به لكن لما لم يعلموا ما بعده نزلوا منزلة من لم يقرّ به فاحتاج إلى تأكيد ذلك، لأنّه قد ينزّل المنكر كغير المنكر إذا كان معه ما لو تأمّله ارتدع من الإنكار. ولما ظهر على المخاطبين من التمادي في الغفلة والإعراض عن العمل. لما بعده والانهماك في الدنيا وهي من أمارات إنكار الموت فلهذا قال: "ميّتون"، ولم يقل: تموتون وإنما أكد إثبات البعث الذي أنكروه تأكيدا

(1) . روح المعاني، ج9، ص219.

(2) . البحر المحيط، ج، ص، والبرهان في علوم القرآن، ج3، ص88.

واحدا لظهور أدلته المزيلة للإنكار إذا تأمّلوا فيها ولهذا قيل: تبعثون على الأصل، وهو الاستقبال بخلاف "تموتون". [1]

وقيل في توجيه هذا العدول إنّ « شدّة كراهة الموت طبعا التي لا يكاد يسلم منها أحد نزلت منزلة شدة الإنكار فبولغ في تأكيد الجملة الدالة عليه، وأما البعث فمن حيث إنه حياة بعد الموت لا تكرهه النفوس ومن حيث إنّه مظنّة للشدائد تكرهه فلمّا لم يكن حاله كحال الموت ولا كحال الحياة بل بين بين؛ أكّدت الجملة الدالة عليه تأكيدا واحدا. »[2]

فمن الثوابت الأسلوبية أنّ تخصيص الموت بمؤكّدات أكثر من البعث له نكت لطيفة ومقاصد تجمع بين الصور اللفظية والتركيبية والسّياقية، وإن اختلفت أذواق المفسرين في تخريجها وإبرازها من دائرة المحجوب، وليس ذلك فيما أرى على مستوى مراعاة المنكر من المسلّم وحسب بل هو تعبير يعكس ما تنبض به الروح من أحاسيس ومشاعر وما يرتبه العقل من مستلزمات المنطق ومنهج الفكر السليم، فالقرآن الكريم يخاطب العقل والروح في آن معا، وما المؤكدات في درجاتها إلا رسما يحاكي ما هو موجود فيها، فلما يعتقد الإنسان أن الله تعالى خلق الإنسان فأحكمه ثم أماته فأعدمه؛ يدرك اقتضاء أن الله سبحانه قادر على أن يعيده مرة أخرى وهو أهون عليه، ولهذا فالقرآن الكريم أوكل إلى أنفسنا التفكّر والتدبّر في حقيقة البعث لتستيقنه النفوس وتؤكده من داخها، أما الموت فهو الشق الآخر للإحياء، فلا بدّ من تأكيده لأنّ الإماتة ليست من مقتضيات الإحياء، فأكّده القرآن، ولهذا جاء في القرآن: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا ﴿٤٤﴾ ﴾ [النجم: 44]، أمّا في إعادة الإحياء؛ فقال: ﴿ وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ ﴿٤٧﴾ ﴾ [النجم: 47]، ولم يقل: "وأنه هو أنشأ النشأة الأخرى".

([1]) . ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، ج1، ص76، والبرهان في علوم القرآن، ج3، ص87.

([2]) . روح المعاني، ج9، ص220.

الموضع الثاني: قال تعالى: ﴿ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [النّحل: 29]

وقال أيضا: ﴿ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الزمر: 72].

شاهد العدول هو إثبات لام التوكيد في سياق آية النحل في قوله: "فَلَبِئْسَ"، ثم عدل عن ذكره في آية الزمر في قوله: "فَبِئْسَ" وهذا مه تشابه الموضعين مما يوحي بزيادة معنوية أبرزها هذا التحول الأسلوبي.

ويمكن تخريج نكتة العدول بأنّ ((الله عزّ وجلّ وصف قوما أشدّ كفرا وأكثرهم جرما في سورة النّحل من المذكورين في الزّمر وغافر، وذلك أنهم ضلّوا وأضلّوا غيرهم وحملهم أوزار الذين يضلونهم مع أوزارهم فزاد عذابهم، قال تعالى: ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [النحل: 25]، فناسب ذلك زيادة اللام لتوكيد العذاب لهم الذين ذكرهم في سورة غافر، لأنّه لم يصفهم بمثل هذا الوصف، فكما أفاض وتبسّط في الوصف زاد في التوكيد لأنّه هو المناسب لمقام التبسيط والإفاضة.))[1]

ويرى النيسابوري أنّ اللام للتأكيد، جارية بذلك مجرى القسم، موافقة لقوله بعد ذلك: "وَلَنِعْمَ دارُ الْمُتَّقِينَ"، ولا نظير لهما في كلّ القرآن.[2]

إنّ الآية من هذه السورة في ذكر قوم قد ضلّوا في أنفسهم وأضلّوا غيرهم، وهم الذين أخبر الله تعالى عن أتباعهم أنهم سألوهم عن القرآن فقالوا: ليس من عند الله، وإنما هو أساطير الأولين قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [النحل: 25]، وهؤلاء أكثر الناس وأشدهم آثاما، وأشدهم عقابا ومن هذه صفته احتيج

([1]) . التعبير القرآني، ص

([2]) . غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ج4، ص258.

عند تغليظ العقاب له إلى المبالغة في تأكيد لفظه، فاختيرت اللام هنا لذلك، ولأنّ بعدها في ذكر أهل الجنة قوله: ﴿وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٣٠﴾ [النحل: 30]، فاللام في "ولَنِعْمَ" بإزاء اللام في "لبئس".

وليس كذلك الآيتان في سورتي الزمر والمؤمن، لأنهما في ذكر جملة الكفار، قال الله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر: 71]وقال في سورة غافر: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٧٠﴾ [غافر: 70]. إلى قوله: ﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ [غافر: 76].

فلمّا كان المذكورون في سورة النّحل ممن لزمهم وزران عن ذنوبهم التي أتوها وعن ذنوب غيرهم التي حملوا عليها، ولم يذكر من سواهم في الآيتين الأخريين بحمل أثقالهم حسن التوكيد هناك فضل حسن، فلذلك خصّ باللام. (1)

(1) . درة التنزيل، ص837-839.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الموضع الثالث: قال عزّ وجلّ: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾ [يس: 13-18].

قال تعالى مخبرا عن خطاب الرسل لأقوامهم أولا: ﴿إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾وبعد المحاورة أثبت لام التأكيد بقوله: ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ فما سرّ هذا العدول؟

ذكر الرازي أنّ في هذه الآية ((إشارة إلى أنهم بمجرد التكذيب لم يسأموا ولم يتركوا بل أعادوا ذلك وكرّروا القول عليهم وأكدوه باليمين، و﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾وأكدوا باللام لأنّ "يعلم الله" يجري مجرى القسم، لأنّ من يقول: "يعلم الله" فيما لا يكون فقد نسب الله إلى الجهل وهو سبب العقاب كما أنّ الحنث سببه))[1].

كما يرى الألوسي أنهم بقولهم "رَبُّنَا يَعْلَمُ" أنهم ((استشهدوا بعلم الله تعالى وهو جار مجرى القسم في التأكيد والجواب بما يجاب به وذكر أن من استشهد به كاذباً يكفر، ولا كذلك القسم على كذب وفيه تحذيرهم معارضة علم الله تعالى.))[2]

وجاء عن الزمخشري في تعليله لغرض هذا العدول قوله: ((لأنّ الأوّل ابتداء إخبار، والثاني جواب عن إنكار.))[3]

وقد جعل الأوّل ابتداء إخبار، وهذا خلاف المتعارف من أنّ ابتداء الأخبار لا يحتاج إلى شيء عن التوكيد كما أنّ سياق الآية التي معنا ينافي أن يكون الأول ابتداء إخبار لأنهم كذبوا اثنين فجيء بثالث، ولعلّ الزمخشري يقصد بكونه ابتداء إخبار أنهم بدؤوهم بالحديث بأنهم مرسلون إليهم ولم

(1) . مفاتيح الغيب، ج26، ص261.

(2) . روح المعاني، ج11، ص394.

(3) . الكشاف، ج4، ص11.

تكن بينهم محاورة بخلاف مقام الخطاب الثاني فإنّه كان مقام تحاور ومحاجة وإنكار وهذا لا ينافي أن يكونوا مع الأوّل منكرين. [1]

ومع كلّ هذا كانت للام في السّياق المذكور فائدة بلاغية، فقد صوّرت لنا التأكيد بمقدار الإنكار فحضرت في القوّة، واختفت في ما دونها، فاللام حملت معها أرواحا ثقيلة على الأسلوب فناسبت بذلك ثقل الموقف وطريقة المخاطبة والتحاور، فقد جاءت الآية الأولى مؤكدة بـ"إنّ": ﴿إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ﴾وفي الأخرى ﴿إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ﴾ لما بالغوا في التكذيب زاد في التوكيد، فإضافة إلى التأكيد باللام، أكّد بالقسم وهو قوله: "ربّنا يعلم"، وبالجملة الاسمية وهو تقديم ربنا على الفعل والجمل الاسمية آكد من الفعلية، فجاء كلّ تعبير مناسبا لحاله وسياقه.

(1) . البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، ص343.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الموضع الرابع: قال تعالى: ﴿ **أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ٦٤ لَوْ نَشَآءُ**
لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ٦٥ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ٦٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ٦٧ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى
تَشْرَبُونَ ٦٨ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ٦٩ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ
٧٠ ﴾ [الواقعة: 63- 70].

جاء قوله تعالى في مقام منّة الحرث والزرع؛ مؤكّدا باللام في قوله:﴿ **لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ** ﴾ لكنه عدل عن ذكره في سياق ذكر نعمة الماء ﴿ **لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ** ﴾ ولم يقل: "لجعلناه" كالأوّل.

ففي ذكر مسوّغ هذا العدول توسّع الزمخشري[1]، ومفاد رأيه أنّ الحرف إذا كان في مكان، وعُرف واشتهر في ذلك المكان، جاز حذفه لشهرة أمره. فإنّ اللام علم لارتباط الجملة الثانية بالأولى، فجاز حذفه استغناءً بمعرفة السامع. وذكر في كلامه أنّ الثاني امتنع لامتناع الأول.

وقد تعقّبه أبو حيان[2] في كونها للامتناع، وقال بأنّ هذا قول ضعفاء المعربين. والذي ذكره سيبويه: إنها حرف لما كان سيقع لوقوع الأوّل. ويفسد قول أولئك الضّعفاء قولهم: لو كان إنسانا لكان حيوانا، فالحيوانية لا تمتنع لامتناع الإنسانية.

ثم يورد الزمخشري توجيها آخر يرى فيه علّة عدول النّظم عن ذكر اللام في موضع وذكره في آخر وهو أنّ اللام أفادت معنى التوكيد « فأدخلت في آية المطعوم دون آية المشروب، للدلالة على أنّ أمر المطعوم مقدّم على أمر المشروب، وأنّ الوعيد بفقده أشدّ وأصعب، من قبل أنّ المشروب إنما يحتاج إليه تبعا للمطعوم. . »[3]

وقد فصّل الرازي في بيان نكتة العدول فذكر أنّه عندما يكون الجزاء ظاهرا يستغني عن الحرف الصارف، لكن كون الماء المذكور في الآية، وهو الماء المشروب المنزل من المزن أجاجا ليس أمرا واقعا يظن أنه خبر مستقلّ، ويقويه أنه تعالى يقول: "جعلناه أجاجا" على طريقة الإخبار والحرث والزرع كثيرا ما وقع كونه حطاما، فلو قال: "جعلناه حطاما"؛ كان يتوهّم منه الإخبار فقال هناك: ﴿ **لَوْ**

---

(1) . ينظر: الكشاف، ج4، ص465.

(2) . ينظر: البحر المحيط، ج10، ص90.

(3) .الكشاف، ج4، ص465.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ ﴾ليخرجه عما هو صالح له في الواقع، وهو الحطامية، وقال الماء المنزل المشروب من المزن: ﴿ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا ﴾ لأنه لا يتوهّم ذلك فاستغنى عن اللام.

وفيه لطيفة أخرى نحوية، وهي أنّ في القرآن إسقاط اللام عن جزاء "لو" حيث كانت "لو" داخلة على مستقبل لفظا، وأما إذا كان ما دخل عليه لو ماضيا، وكان الجزاء موجبا فلا ، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا ﴾[السجدة: 13]، ﴿ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡ ﴾ [إبراهيم: 21] (1)

ومما يلاحظ في نسق هذه الآيات أنه بشارة للمؤمنين، وذلك أنه سبحانه بدأ بالوعيد الشديد وهو تغيير ذات الإنسان بالكلية في قوله: ﴿ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ ﴾ [الواقعة: 60-61]، ثم ترك ذلك المقام إلى أسهل منه، وهو تغير قوته ذاتا، فقال: ﴿ لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا ﴾ ثم عقبه بأسهل وهو تغيير مشروبه نعتا لا ذاتا، ولهذا حذف اللام في قوله: ﴿ لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا ﴾. (2)

ويبيّن لنا ابن أبي الأصبع بذوقه الرّاقي سرّ اصطفاء اللام في الموضع الأوّل دون الآخر، بأنّ ((الزرع ونباته وجفافه بعد النضّارة حتى يعود حطاما مما يتوّهم أنّه من فعل الزارع، ولهذا قال تعالى: ﴿ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾ أو يتوّهم أنّ خِصَبه من سَقي الماء، وأنّ جفافه من حرارة الشمس وعدم السَّقي، أو تواتر حرور الإعصار، فأخبر سبحانه أنه الفاعل لذلك كلّه على الحقيقة وأنه قادر على جعله لو شاء حطاما في حال نموّه وزمن شبيبته ونضارته، فلما كان هذا التوهّم محتملا أوجبت البلاغة توكيد فعل الجعل فيه وإسناده لزارعه على الحقيقة ومنشئه لرفع هذا التوهّم، ولما كان إنزال الماء من السّماء محالا بما لا يتطرّق احتمال توهّم متوهّم أنّ أحدا من جميع الخلق قادر عليه لم يحتج إلى توكيد الفعل في جعله أجاجا قدرة عليه غير الله تعالى.))(3)

(1) . مفاتيح الغيب، ج29، ص421.

(2) . ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان، النيسابوري، ج6، ص244.

(3) . بديع القرآن، ص69.

فمن المؤكّد أنّ الآيتان فيهما شدّة فقدان النّعمة، الأولى أنّه تعالى لو شاء يجعل الزّرع حطاماً فلا يمكن أن يكون طعاماً أو يستفاد منه وهذه عقوبة أشدّ من جعل الماء أجاجا، لأنّ الماء يمكن أن يُحوّل إلى ماء عذب فكأنّ الخطاب تدرّج في الشدّة إلى الأخفّ فجاء باللام لتأكيد الفعل وهذا في سياق الحديث عن الزرّع، وعدل عنها في مقام التهديد بتغير صفة بالماء، فجاء الحرف لتحقيق غاية معنوية بارزة فارقة بين شدتين أخفّهما شديد، وهذا من عجائب لغة القرآن، ولطائف نظمه.

الموضع الخامس:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾ ﴾ [طه: 15].

وقال في موضع آخر: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [غافر: 59].

ذكر علماء المتشابه أنّ زيادة اللام إنما هي لتأكيد الخبر، ووجه هذا التأكيد هو أنّ الخطاب جاء مع منكري البعث فناسب ذلك زيادة اللام أمّا في الآية الأخرى فالخطاب مع موسى عليه السّلام فلا مناسبة لذكرها.

وقد قرّر أهل البلاغة أنّ الخبر يكون على وفق مقتضى حال المخاطب، فكلّما كان المخاطب أقرب إلى الجحود والإنكار قدّم إليه الخبر على قدر درجة إنكاره، فليس خالي الذهن كالشاكّ، وليس الشاكّ كالمنكر. [1]

يقول الإسكافي: « إنّ اللام التى تقع فى خبر "إنّ أو اسمها إذا حلّت محلّ الخبر تؤكّد الكلام والعرب تحرض على التوكيد فى موضعه، وتركه فى غير موضعه، قال الله تعالى:﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ ﴾ [الحجر: 85-86]، وقال قبل الآية في سورة المؤمن: ﴿ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر: 57]... وهذان من مواضع التوكيد، وتحقيق الخبر أن الساعة حقّ وأنها آتية لا ريب فيها، والخطاب لقومٍ كفّار ينكرونها.

([1]) . ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني، ج1، ص70-17.

والتي فى سورة طه خطاب لموسى عليه السلام، وهى فى ضمن كلام الله تعالى له: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ [طه: 12]، وقال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ١٥﴾ [طه: 14-15]، ولم يكن موسى عليه الصلاة والسلام ممّن ينكر ذلك فيؤكد الكلام عليه توكيده على منكريه والجاحدين له.»[1]

الصورة الثانية: العدول إلى "أنَّ":

قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ٢٢ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡ﴾ [الأنفال: 22-23].

وقال بعدها: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗا﴾ [الأنفال: 66].

اختلف النّحاة إفادة "أنّ" للتأكيد فذهب أكثرهم إلى أنها مؤكدة لأنها مثل "إنّ" وهي فرع لها يقول ابن يعيش: « وكذلك "أنَّ" المفتوحة تفيد معنى التأكيد كالمكسورة، إلّا أنّ المكسورة الجملة معها على استقلالها بفائدتها، ولذلك يحسن السكوت عليها؛ لأنّ الجملة عبارةٌ عن كلّ كلام تامّ قائم بنفسه مفيدٍ لمعناه، فلا فرق بين قولك: "إنّ زيدًا قائمٌ"، وبين قولك: "زيدٌ قائمٌ" إلّا معنى التأكيد. ويؤيّد عندك أنّ الجملة بعد دخول "إنَّ" عليها على استقلالهما بفائدتها، أنّها تقع في الصّلة كما كانت كذلك قبلُ، نحوَ قولك: "جاءني الذي إنّه عالمٌ". قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾ [القصص: 76]، وليست "أنَّ" المفتوحة كذلك، بل تَقلب معنى الجملة إلى الإفراد، وتصير في مذهب المصدر المؤكَّد، ولولا إرادة التأكيد؛ لكان المصدر أحقَّ بالموضع، وكنت تقول مكان "بَلَغَني أن زيدًا قائمٌ": "بلغني قيامِ زيد".»[2]

فعند قوله تعالى: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗا﴾ [الأنفال: 66]. جاء العلم مؤكّدا بأنّ، لأنّه عِلمٌ متأكّد يقينا لا ريب فيه.

([1]) . درة التنزيل، ص1125-1127.

([2]) . شرح المفصل، ج4، ص526-527.

من هذا قوله عزّ وجلّ: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ﴾ [المزمل: 20].

أمّا عند قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ أي: ولو علم فيهم جانبا ضعيفا من الخير لأسمعهم، أي: أنّ هؤلاء ليس فيهم شيء من الخير المحتمل بله المحقّق، ولذا لم يأت في القرآن بـ"أنَّ". يقول الطّبري: ((ولو علم الله في هؤلاء القائلين خيرًا، لأسمعهم مواعظ القرآن وعِبَره، حتى يعقلوا عن الله عزّ وجلّ حججه منه، ولكنّه قد علم أنّه لا خير فيهم، وأنهم ممن كتب لهم الشّقاء فهم لا يؤمنون.))(1)

ومما يعزز هذا هو قوله سبحانه:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ﴾ [الممتحنة: 10].

ولم يقل: "فإنْ علمتم أنهنَّ مؤمنات"، لأنّ الإيمان أمر قلبي لا يطّلع على حقيقته إلا الله تعالى ولذلك قال: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ﴾ فاكتفى بالأمارات والدّلالات الظّاهرة التي تدلّ على الإيمان، ولم يؤكد بـ"أنَّ" لأنّه لا سبيل إلى اليقين القاطع.

ونجد هذا واضحا في قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام: ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [يوسف: 59]. فحين أثبت له إيفاء الكيل قال: ﴿ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ ﴾ على التوكيد بـ"أنَّ"، ثم قال بعدها: ﴿ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ على غير سبيل التوكيد، وهذا يوحي بأن قرينة إثبات الأول آكد من إثبات الثاني، وذلك ((أنه في الحكم الأول متأكّد من أنّه يوفي الكيل، تأكّدا لا شكّ فيه، لأنّ هذا أمر يستطيع الجزم به، بخلاف ما بعده: ﴿ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ فإنّ هذا الحكم ليس بمنزلة الأوّل في التحقيق والتيقّن، فجاء به غير مؤكّد، فخالف بين التعبيرين لاختلاف الحكمين.))(2)

(1) . جامع البيان، ج13، ص463.

(2) . معاني النحو، ج1، ص273.

الصورة الثالثة: العدول إلى نون التوكيد:

الموضع الأول: قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١٤٧﴾ [البقرة: 146-147]

وقال أيضا: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ٩٤﴾ [يونس: 94]

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٥٩ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ٦٠﴾ [آل عمران: 59-60].

الملاحظ في آيتي البقرة ويونس هو قوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ بتأكيد الفعل بالنون الثقيلة، أمّا في آية آل عمران فقد خلَت من هذه النون بقوله: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾

فقد أكّد في سورة البقرة لأنّ الحديث كان عن تبديل القبلة، وما صاحب ذلك من إرجاف وأقاويل وإعلان حرب نفسية على المسلمين حتى ارتدّ بعض ضعاف الإيمان قال سبحانه: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢﴾ [البقرة: 142] وذكر أنهم لن يتوجهوا إلى قبلة المسلمين مهما جئتهم بالآيات البينات، فقال تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖ﴾ [البقرة: 145].

ثمّ قرّر أنّ هذا هو الحقّ لا مرية فيه فاحتاج كلّ ذلك إلى التوكيد فقال: ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾.

وكذا الأمر في آية يونس، فقد جاء السياق مناسبا للتأكيد، لأنه لما قال سبحانه: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ ﴾ كان من الحكمة أن يؤكّد إزالة هذا الشكّ، فقال:﴿ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [يونس: 94]

أمّا في موضع الأعراف فليس من غرض النّظم الزيادة في التوكيد والتحقيق، فقد قال: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [آل عمران: 59-60] [1]

وقد وجّه الزمخشري النهي عن الامتراء وإن كان موجها لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ بأنه من باب التهييج لزيادة الثبات والطمأنينة، وأن يكون لطفا لغيره، وجلّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون ممتريا. [2]

كما بيّن ابن عاشور أنّ الخطاب في ﴿ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ وإن كان ظاهره للنبيء صلى الله عليه وسلم فالمقصود التعريض بغيره، والمعرض بهم هنا هم النصارى الممترون الذين امتروا في الإلاهية بسبب تحقّق أن لا أب لعيسى. [3]

فسياق الآية الأولى جاء في بيان عقيدة إما مسلم وإما كافر، لكن كيفية خلق آدم عليه السلام قد لا يدرك حيثياتها كلّ النّاس كيف خلقه الله من طين، وقال نفخت فيه، لا يفهمها إلا أولو العلم، إلا أن معرفتها إجمالاً، ولا يعرفون كيف خلق سيدنا عيسى عليه السّلام، لكن هناك من يتوصّل إلى هذا بعلمه، فإذا امتريت فذلك أقلّ خوفاً أو ضرراً مما لو امتريت في العقيدة.

---

(1) . ينظر: التعبير القرآني، ص132.

(2) . ينظر: الكشاف، ج1، ص395.

(3) . ينظر: التحرير والتنوير، ج3، ص264.

الموضع الثاني: قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٤٧﴾ [هود: 47].

هذه الآية جاءت على لسان نوح عليه السّلام وذلك حين سأل ربه أن ينجي ابنه من الغرق لأن الله تعالى وعَده أن ينجي معه أهله فقال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ﴾ [هود: 45]، فقال الله سبحانه وتعالى له: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [هود: 46].

فطلب نوح من ربه المغفرة والرحمة لسؤاله هذا فقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٤٧﴾ [هود: 47]

فهو ليس بمعصية إنما فهم نوح أنّ ابنه من أهله الناجين فبيّن الله تعالى له أنه ليس من أهله لأنه كافر فطلب من ربه المغفرة، لذلك لم يأت الكلام مؤكّدا. أما ما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣﴾ [الأعراف: 23]. فهذا على لسان آدم وزوجته بعدما أكلا من الشجرة التي نهاهما ربهما عنها.

وكذا الأمر عند قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ١٤٩﴾ [الأعراف: 149] فهذه في بني إسرائيل بعد عبادتهم العجل واتخذوه إلاها لهم وهو كفر صريح، وضلال مبين، ولذلك عند توبتهم أكّدوا قولهم باللام الموطئة زيادة على توكيد الجواب.

فالتوكيد يأتي متناسبا وحجم المعصية فلمّا لم يكن سؤال نوح معصية لم يؤكّد كلامه ولما كان فعل آدم معصية لربّه أكّده بالنون، ولما كان فعل بني إسرائيل كفرا وضلالا أكّد بالنون واللام الموطئة فالخسران إنما يكون على قدر المعصية. [1]

(1). معاني النحو، ج4، ص561-562.

الصورة الرابعة: العدول في استعمال حروف التوكيد الزائدة:

العدول إلى "لا":

قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف: 12]

وقال أيضا: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [ص: 75].

جاءت الآية الأولى في السّؤال عن امتناع السجود: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ بزيادة "لا"، لكن خلت الآية الأخرى من هذه الزّيادة في قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ فهل هي زيادة مجردة من الفائدة أو لها غرض بلاغي توخاه السياق وعدل إليه الأسلوب؟

يرى الزمخشري أنّ فائدة زيادتها هي توكيد معنى الفعل الذي تدخل عليه وتحقيقه، كأنّه قيل: ليتحقّق علم أهل الكتاب. وما منعك أن تحقّق السّجود وتلزمه نفسك؟ (1)

وبالنّظر في القصّة التي سيقت في سورة الأعراف نلحظ أنّ المراد فيها إبراز تكبّر إبليس وعصيانه لأمر ربّه، لذلك جاء عقب قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ قوله: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ [ص: 76]، فظهر في الآية ميزتان: الأولى: عصيان إبليس لأمر ربّه فلم يسجد، والأخرى: تكبّره على آدم، فناسب ذلك تأكيد عدم السجود لآدم بـ"لا" وتسجيل العصيان لأمر ربه على إبليس. (2)

وقد أشار ابن قتيبة(3) إلى أنّ مجيء "لا" التوكيدية أبلغ في مقامات تأكيد الجحود والامتناع المستوحى من سباق الكلام أو لحاقه، فبيّن أنه قد تزاد "لا" في الكلام، والمعنى: طرحها لإباء في الكلام أو جحْد. كقول الله عز وجل: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾.

---

(1) . ينظر: الكشاف، ج2، ص86.

(2) . ينظر: أسلوب التوكيد في القرآن، محمد حسين أبو الفتوح، مكتبة لبنان، بيروت، ط1، 1995م، ص217.

(3) . تأويل مشكل القرآن، ص154.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ويعزّز هذا ما نقله الطبري عن بعض نحويي الكوفة ((أنّ العلّة في دخول"لا" في قوله: "ألّا تسجد" أنّ في أوّل الكلام جُحْدا، يعني بذلك قوله: ﴿ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الأعراف: 11]، فإنّ العرب ربما أعادوا في الكلام الذي فيه جحد، الجحدَ، كالاستيثاق والتوكيد له.))[1]

أمّا الآية الأخرى الواردة في سورة ص فالتشكيل الأسلوبي في سرد عدم السجود لا يتطابق مع وحي الأسلوب في سورة الأعراف، وذلك لأنّ السياق في سورة ص جاء ليبرز شرف آدم عليه السلام وعلو شأنه، حيث جاء النظم مردفا فعل الخلق بكلمة "بيديّ" مع أن المخلوقات جميعا بيده سبحانه، ولكن المولى تبارك وتعالى ذكرها هنا لقصد تشريف آدم وتفضيله على المخلوقات ولم تذكر لفظة "بيديّ" بجانب "خلقتُ" في القرآن كلّه إلا في هذا الموضع، لذلك لم يحسن مجيء "لا" هنا لتأكيد عدم السّجود، إذ لم يكن منسجما مع الغرض المتوخى في سرد هذه السورة.[2]

وقد أضاف الكرماني نكتة أخرى في خصوصية ذكر "لا" في سورة الأعراف دون الموضعين الآخرين[3] وهي أنه ((لما حذف منها "يا إبليس" واقتصر على الخطاب جمع بين لفظ المنع ولفظ "لا" زيادة في النّفي، وإعلاما أنّ المخاطب به إبليس خلافا للسورتين، فإنّه صرّح فيهما باسمه. وإن شئت قلت: جَمع في هذه السورة بين ما في ص، وما في الحجر، فقال: ما منعك أن تسجد مالك ألا تسجد، فحذف: "أن تسجد" وحذف: "مالك" لدلالة الحال ودلالة السورتين عليه، فبقي "ما منعك ألا تسجد" وهذه لطيفة فاحفظها.))[4]

أمّا السامرائي فقد فصّل في الجوانب الفنية والبلاغية[5] في عدول النظم إلى استعمال "لا" في موضع الأعراف دون الأخَر، ألخّصها في النقاط الآتية:

- أنّ التوكيد في سورة الأعراف أشدّ منه في ص، وذلك لأنّ قرائن التوكيد فيها أكثر، ما يقتضي مجيء "لا" للتوكيد، ومن هذه القرائن ابتداء القصة بأكثر من مؤكد بقوله:﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ﴾ بخلاف

([1]) . جامع البيان، ج12، ص324، وينظر: معاني القرآن، الفراء، ج1، ص374.

([2]) . ينظر: أسلوب التوكيد في القرآن، محمد حسين أبو الفتوح، مكتبة لبنان، بيروت، ط1، 1995م، ص217.

([3]) . الموضع الآخر هو قوله تعالى في سورة الحجر: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣٢ ﴾ [الحجر: 32].

([4]) . أسرار التكرار، ص117.

([5]) . ينظر: التعبير القرآني، ص299-301.

الأخرى فإنها ابتدأت بقوله: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ [ص: 71]، إضافة إلى مزيد من المؤكدات في الأولى "إنك من الصاغرين، إنك من المنظرين، لأقعدنّ، لآتينهم....." فناسب هذا كلّه مجيء "لا" ليتّسق المعنى.

- مقام السّخط والغضب في قصّة الأعراف أكبر وأعظم، فناسب ذلك المبالغة في التوكيد والغلظة في القول، ومن قرائن الدّالة على إبراز هذا المقام هو عدم ذكر اسم إبليس في الأعراف، في حين ذكر اسمه في ص، وكذا تكرار صيغ الطّرد في الأعراف، ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الأعراف: 13]، ثمّ كرّر الطرد بقوله: ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا﴾ [الأعراف: 18]، في حين لم يتكرّر الطّرد في ص فقال: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [ص: 77]، ومن مقامات الشدّة عدم التبسّط في الكلام مع إبليس، بخلاف ما ورد في سورة ص فقال في الأولى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾. وقال في الأخرى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾ وقال في الأعراف: ﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الأعراف: 14]، في حين قال في ص: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [ص: 79].

العدول إلى "أنْ"[1]:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [العنكبوت: 31].

وقال بعدها: ﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [العنكبوت: 33].

ذكر النّظم مجيء الرّسل إبراهيم من دون صلة بقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا﴾لكن في مجيء الرسل لوطا عليه السّلام ذكرت "أنْ" وذلك في قوله: ﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا﴾ فما الفرق بين "لما جاء" و"لما أنْ جاءَ"؟

فبالنّظر إلى سياق الآيتين نلحظ أنّ إبراهيم عليه السّلام كان راضيا مطمئنّا لم ينكر من قومه منكرا، أو ينعى عليهم فسادا بعدما نجّاه الله تعالى منهم فرحل عنهم إلى أرض خير من أرضهم وكان عليه السّلام جوادا مِضيافا، فلمّا رأى الملائكة لم يَدُر بِخُلْده إلا أنهم أضياف مثله في ذلك كَمِثل كلّ جواد مضياف حين يقدم عليه قادمين لم تكن له سابقة بلقائهم، فليس في هذه القصّة إلا قصّة الضيافة على طبيعتها تحية وسلام فحفاوة وطعام .

أمّا لوط عليه السّلام فقد كان ضائقا بقومه شديد السّخط عليهم، فلما رأى الملائكة حَسِبهم بشرا فشغله أمرهم وتسارع إليه القلق خوفا من قومه أن يفضحوه فيهم وهم ضيف ولهم عليه حقّ الحماية والكرامة.[2]

فمن خلال سياق آية لوط نستشفّ الأثر الذي تركه العدول إلى ذكر حرف "أنْ"، وهو تصوير السّرعة وعدم التأخير المصاحبة لاستياء لوط من مجيء الرّسل؛ تصويرا إشاريا، وقد جاء في كلام الزمخشري ما يفيد هذا المعنى حيث ذكر أنّ « "أَنْ" صلة أكّدت وجود الفعلين مترتّباً أحدهما على

---

[1]. ترد أنْ في الكلام على ثلاثة أضرب: مصدرية، مفسّرة، وزائدة، والمصدرية هي التي يؤول منها ومن صلتها مصدر، والمفسرة هي المصدر بها حكاية ما فيه معنى القول دون حروفه، أما الزائدة فيقول النّحاة بأنّ دخولها في الكلام كخروجها، ولا عمل لها؛ نحو قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ [يوسف: 96]. ينظر: شرح التسهيل، ابن مالك، ج4، ص7.

[2]. ينظر: أسلوب التوكيد في القرآن، ص200.

الآخر في وقتين متجاورين لا فاصل بينهما؛ كأنهما وجدا في جزء واحد من الزّمان، كأنّه قيل: كما أحسّ بمجيئهم فاجأته المسَاءة من غير رَيث.))[1]

كما تساءل الرازي عن الحكمة من ذكر "أنْ" في الثانية والعدول عنها في الأولى ثمّ أجاب عن ذلك بأنه تضمّن ((حكمة بالغة وهي أنّ الواقع في وقت المجيء هناك قول الملائكة "إنا مُهْلكوا" وهو لم يكن متّصلا بمجيئهم لأنهم بشرّوا أوّلا ولبثوا، ثم قالوا: إنا مهلكوا، وأيضا فالتأنّي واللّبث بعد المجيء ثم الإخبار بالإهلاك حسن، فإنّ من جاء ومعه خبرٌ هائل يحسُ منه أن لا يفاجئ به، والواقع هاهنا هو خوف لوط عليهم، والمؤمن حين ما يشعر بمضرّة تَصِل بريئا من الجناية ينبغي أن يحزن ويخاف عليه من غير تأخير، إذا عُلم هذا؛ فقوله هاهنا: ﴿ وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا ﴾ يفيد الاتصال يعني خاف حين المجيء.))[2]

كما يمكن لنا استفادة هذا المعنى أيضا من آيات أخرى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗا ﴾ [يوسف: 96].

فالملاحظ في قوله:﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ﴾ هو مجيء "أنْ" مزيدة بعد "لما" وفي مقام لا يحتمل أناة ولا بطئا لأنّ البشرى التي يحملها رسول الله يوسف عليه السّلام إلى أبيه ليست مما أَلِف النّاس أن يستبشروا به ولكنّها الأمر الذي لا يُعلم له نظير سابق، فيعقوب عليه السّلام سيرتدّ بصيرا، وسيرى قرة عينه يوسف عليه السلام؛ حيّا بعد بكاء وحزن شديد عليه، فيحقّ لحامل هذه البشرى أن يطير إلى يعقوب ليُلقِي على وجهه القميص.

فالعدول إلى ذكر "أنْ" هنا جاء للدّلالة على سرعة حامل البشرى وفي الوقت الذي جاء فيه ألقي على وجه يعقوب القميص دون ريث، بل الفعلين المجيء والإلقاء حدثا في آنٍ معا، وكأنّهما فعل واحد. [3]

ومما سبق نستخلص أنّ النّظم القرآني لما يذكر حرفا في موضع دون آخر يستدعي خصوصية متوخاة قد أشربها السّياق وانصهرت في معدن المعنى، وما دام الأسلوب قد امتلكها؛ فلا يمكن لنا

([1]) . الكشاف، ج3، ص457.

([2]) . مفاتيح الغيب، ج25، ص52.

([3]) . ينظر: أسلوب التوكيد في القرآن، ص199.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

استنباطها إلا من خلال هذا المسلك، لأنّ التوكيد بطبيعته معنى خفيّ مستبطن، تجمع شتاته المواقف والأحوال ثم يترجم في أداة معينة فتأتي منسجمة مع السّياق المنشود في الآية، لتحاكي لنا إيحاءات مغيّبة، وتبعث معها مؤشرات بالغة في امتناع المخاطب وشدّة جحوده، وإبائه.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثاني:

العـدول في حـروف النـــــداء

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثاني: العدول في حروف النّداء:

النّداء هو طلب إقبال المدعو على الدّاعي بحرف نائب مناب أدعو، وحروفه: الهمزة ، وأي، ويا وأيا وهيا، وقد قرّر النّحاة أنّ الأصل في حرف النّداء طلب المتكلم إقبال المخاطب عليه لكن قد يعدل حرف النّداء عن هذا المعنى إلى معان وأغراض أخرى كالتعجب والتحسّر والتوجع وغيرها، وقد عُدّ أسلوب النّداء من أبرز الفنون تصرفا في المواقف والمقاصد اعتبارا لموقف المتكلم وحال المخاطب وما تبطّن في ثناياه من ((أغراض وأسرار ومذاقات، والبحث في ذلك ودرسه باب جليل من أبوب معرفة الأدب، وذوق اللّسان.))[1]

ولم يستعمل في القرآن من حروف النّداء غير حرف "يا"، قال السّمين الحلبي: قال الشيخ: ((وعلى كثرة وقوع النّداء في القرآن لم يقع نداء إلا بها.))[2]

ولا بدّ من التنبيه على أنّ تقدير حرف النداء المحذوف لا يمكن خروجه عن الياء باعتبارها الأمّ في باب النّداء، وبالتالي فإنّ مفهوم العدول إلى الحذف ليس باعتبار حرف آخر يمكن أن يحلّ محلّه أو يقوم مقامه في مقتضى الظاهر، بل ينصرف العدول في النداء إلى نمطين؛ أولاهما: هو خروج معنى النداء من طلب الإقبال إلى أغراض أخرى تفهم من السّياق، والآخَر هو تحوّل النّسق من ذكر أداة النّداء إلى حذفها وما يترتّب على هذا العدول من نكات وأسرار، وتقريرا لهذا يقول ابن عاشور: ((و"يا" حرف للنّداء وهو أكثر حروف النّداء استعمالا فهو أصل حروف النداء ولذلك لا يقدر غيره عند حذف حرف النداء ولكونه أصلا كان مشتركا لنداء القريب والبعيد كما في "القاموس".))[3]

ويرى الرضي أنّ استعمال "يا" في القريب والبعيد على السواء، ودعوى المجاز في أحدهما أو التأويل خلاف الأصل[4]، وهو بهذا يردّ على قول الزمخشري[5] بأنّ أصل الياء لنداء البعيد ثم استعمل في القريب تنزيلا له منزلة من بَعُدَ، أما نداء القريب فله "أيّ" والهمزة.

([1]) . دلالات التراكيب، ص262.

([2]) . الدر المصون، ج1، ص185.

([3]) . التحرير والتنوير، ج1، ص324.

([4]) . شرح الرضي على الكافية، ج4، ص425.

([5]) . الكشاف، ج1، ص121.

❖ **العدول بالاختيار:**

قال تعالى: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾ [الأنعام: 31].

موضع الشّاهد هو قول المكذبين: "ياحسرتنا" فنادوا الحسّرة، وهي ليست بعيدة منهم بل هم فيها يتقلّبون، فالنّظم القرآني اختار "الياء" دون حذفها، ولم يقل: الحسرة علينا، كما يقال: "الويل لنا".

لذلك استشكل الزجاج طبيعة هذا النداء في الظاهر ووجّه معنى دعاء الحسرة بأنّه تنبيه للناس على ما سيحصل لهم من الحسرة، والعرب تعبّر عن تعظيم أمثال هذه الأمور بهذه اللفظة. (1)

وجيء في حاشية الشهاب بقول سيبويه: ((كأنّه يقول: أيّتها الحسرة هذا أوانك...كقوله: "يَا وَيْلَتَنَا" قيل والمقصود التنبيه على خطأ المنادي حيث ترك ما أحوجه تركه إلى نداء هذه الأشياء.))(2)

فاختيار النّظم القرآني لحرف "يا" إشعارا ببعد مطلوبها وتعطّل حاجة نفوسهم مع شدّة رغبتهم إليها، ومعنى النّداء هو ((تنبيه أنفسهم لتذكير أسباب الحسرة لأنّ الحسرة نفسها لا تطلب ولا يتأتى إقبالها وإنما المعنى على المبالغة في ذلك حتى كأنهم ذهلوا فنادوها، ومثل ذلك نداء الويل ونحوه ولا يخفى حسنه.))(3)

وقيل بأنّ نداء الحسرة هو نداء مقصود به التعجّب والتندّم، وهو في أصل الوضع نداء للحسرة بتنزيلها منزلة شخص يسمع وينادى ليحضر، وأضافوا الحسرة إلى أنفسهم ليكون تحسّرهم لأجل أنفسهم، فهم المتحسرون والمتحسَّر عليهم، بخلاف قول القائل: يا حسرة، فإنه في الغالب تحسر لأجل غيره فهو يتحسر لحال غيره. (4)

فقولهم "ياحسرتنا" حملت معها مضامين أسلوبية تنبض بمعان التألّم والتأزّم النّفسي البالغ، فكان قولهم ذلك ((أبلغ من أن يقال: الحسرة علينا في تفريطنا ومثله: ﴿ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ [يوسف:

(1) . ينظر: مفاتيح الغيب، ج12، ص513.
(2) . حاشية الشهاب، ج4، ص47.
(3) . روح المعاني، ج4، ص125.
(4) . التحرير والتنوير، ج7، ص190.

84] تأويله يا أيها الناس تنبّهوا على ما وقع بي من الأسف، فوقع النّداء على غير المنادى في الحقيقة. ››(1)

ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الزمر: 56]

ذكر ابن عاشور أنّ ‹‹ حرف "يا" في قوله: "يا حسرتى" استعارة مكنية بتشبيه الحسرة بالعاقل الذي ينادى ليقبل، أي هذا وقتك فاحضري، والنداء من روادف المشبه به المحذوف، أي: يا حسرتي احضري فأنا محتاج إليك، أي إلى التحسّر، وشاع ذلك في كلامهم حتى صارت هذه الكلمة كالمثل لشدّة التحسّر. ››(2)

كما قيل في فائدة اختيار النداء بـ"يا" المفيدة للبعد لكمال الدّهشة، أو لأنّ الحسرة لكونها غير محسوسة كانت بعيدة. (3)

وجعل الزركشي أمثال هذا الموضع من خروج النداء إلى معنى التعجّب وحكى عن ابن خالويه أنّ ‹‹ هذه من أصعب مسألة في القرآن، لأنّ الحسرة لا تنادى وإنما تنادى الأشخاص، لأنّ فائدته التنبيه ولكن المعنى على التعجّب، كقوله: يا عجبا لم فعلت! ﴿ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ ﴾ وهو أبلغ من قولك: العجب. قيل: فكأنّ التقدير يا عجبا احضر يا حسرة احضري!. ››(4)

ومن المواضع التي يعدل فيها النّداء من معناه الأصلي إلى الألم والحسرة؛ قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأنعام: 27].

فعبّر القرآن عمّا يختلج في نفوس الكفّار لحظة الوقوف على النّار بأسلوب النّداء والتّمني، ومما يوضّح شدّة الحسرة هو نداء "ليت" التي يتمنى بها شيء غير ممكن أو بعيد المنال.

(1) . مفاتيح الغيب، ج12، ص514.
(2) . التحرير والتنوير، ج24، ص45.
(3) . ينظر: حاشية القونوي على تفسير البيضاوي، ج16، ص558.
(4) . البرهان، ج3، ص353.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يصوّر لنا القرآن حال كونهم في قمقم معاناتهم يصيحون بندائهم "يا ليتنا" والنّداء هنا لم يحقّق لنا معنى الإقبال بقدر ما صوّر إبلاغ نفوسهم عن تحسّرهم وطول آهاتهم يقول ابن عاشور: ((حرف النّداء في قولهم: "يا ليتنا نرد" مستعمل في التحسّر، لأنّ النّداء يقتضي بعد المنادى، فاستعمل في التحسّر لأنّ المتمنى صار بعيدا عنهم، أي غير مفيد لهم.))(1)

ولنتأمّل كيف يعدل النّداء عن معناه الأصلي ليبلغ أوجاع دفينة وتحسّر وندامة؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الفرقان: 27-28].

فالنّداء من خلال الآية يصوّر لنا آهات الظالم وهو ((يبدئ ويعيد في النّدم؛ حتى لتهُمّ بأن تقول له: كفى يا أخانا فلا فائدة! مع أنّ المدة التي يستغرقها قصيرة نسبيًّا؛ ولكن يخيل إليك أنها طويلة... فهذا النّدم الطويل، والتذكّر لما مضى، مصحوبًا بالنغمة الطويلة الممطوطة، والموسيقى المتموّجة المديدة، يخيل إليك الطّول، ولو أنّ اللّفظ نسبيًّا قليل. وإطالة موقف النّدم تتسق مع التأثير الوجداني المطلوب.))(2)

فالدّلالة النّفسية استوحاها سيّد قطب من المقاطع الصوتية لحروف النّداء المستلّة من أعماق الوجدان، وكذا الامتداد الحادث من الألف الممتدة، فكلّ هذا يوحي بإطالة عرض صورة هذا الظالم وتذكّر تفصيلاته باستخدام النّسق اللفظي المميّز، وهذا ما يكشف لنا اللّمسة الأدبية التي تحدثها الياء دون حذفها، فلو قال: " ليتني قدّمت" لزالت بهجة الكلام وما بلّغت روح المعاني الشعورية.

يقول ابن عاشور في قوله سبحانه: ﴿ وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾ [الكهف: 42]: ((حرف النّداء مستعمل في التلهّف، و "ليتني" تمن مراد به التندم. وأصل قولهم: "يا ليتني" أنه تنزيل للكلمة منزلة من يعقل، كأنه يخاطب كلمة "ليت"، يقول: احضري فهذا أوانك... وهذا ندم على الإشراك فيما مضى وهو يؤذن بأنه آمن بالله وحده حينئذ.))(3)

(1) . التحرير والتنوير، ج7، ص184.

(2) . التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، ص138.

(3) . التحرير والتنوير، ج15، ص327.

فالنّداء هنا في مثل هذه المواضع لم يأتِ بمعناه الأصلي الموضوع له كأسلوب نحوي، بل انحرف عن معناه الأصلي إلى معنى جديد وهو معنى التعجّب، ولكن أسلوب التعبير عن التعجّب هنا لم يبلّغ به وفق النّمط التركيبي للتعجّب، بل جاء مشربا داخل إطار الشّكل التركيبي للنّداء، فالبنية النّحوية للتركيب هي ندائية، لكن معناها هو تعجّب، وفي نداء الويل والثبور ما يفيد أنّ المنادي بلغ من التشوّق للخلاص مما هو فيه إلى أن يفضّل الموت والهلاك على حالته التي هو فيها.

والملاحظ في طبيعة هذا النّداء هو أنّه لا يصلح للمناداة، وليس موجها إلى مخاطب بعينه يراد منه التنبيه وتهيئته للاستقبال مما يعدل بالأسلوب إلى معنى آخر غير معنى النّداء كنداء الحسرة والويل وهذا ما دفع المفسّرين لإيجاد وسيلة تخريج لغوية يتوافق من خلالها المبنى والمعنى، وربط العلاقة بين النّداء والمعاني النفسية المستفادة من السّياق والتركيب.

وفي نداء ما لا يصلح للنّداء في الظاهر؛ يأتي نداء الجمادات في القرآن معدولا عما يقتضي التنبيه وطلب الإقبال إلى مظهر من مظاهر عظمة المولى عز وجلّ وكبريائه، ولهذا يعمد القرآن إلى هذا الأسلوب ليبثّ في النّفس هيبة الربوبية، يقول الزمخشري في قوله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: 10] ((فإن قلت: أي فرق بين هذا النّظم وبين أن يقال: " وَءاتَيْنَا دَاوُودُ مِنَّا فَضْلاً تأويب الجبال معه والطير؟ قلت: كم بينهما، ألا ترى إلى ما فيه من الفخامة التي لا تخفى: من الدّلالة على عزّة الربوبية وكبرياء الإلاهية، حيث جعلت الجبال منزّلة منزلة العقلاء الذي إذا أمرهم أطاعوا وأذعنوا، وإذا دعاهم سمعوا وأجابوا: إشعاراً بأنه ما من حيوان وجماد وناطق وصامت، إلا وهو منقاد لمشيئته، غير ممتنع على إرادته.))[1]

ومنه أيضا نداء المولى سبحانه للأرض والسّماء بقوله: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى ﴾ [هود: 44].

ففي هذه الآية تتجلى عظمة البارئ عز وجل وهو يخاطب أعظم مخلوقاته بأداة النداء "يا" ليصور لنا تصويرا حسيا استجابة وخضوع الأرض البسيطة لأمر الله تعالى، ومما يلفت النظر في التعبير عن هذه الاستجابة هو استعمال النظم الأداة "يا" دون الهمزة أو أي أو غيرها.

(1). الكشاف، ج3، ص581.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وقد تتبّع علماء النظم والبلاغة أسرار التعبير ودلائل الإعجاز الكامنة في اختيار حرف بعينه للإبلاغ عن معاني العظمة في المنادي والاستجابة من المنادى.

يقول أحمد بدوي: ((وأوثر في نداء الأرض "يا" دون الهمزة، لما يدعو اجتماعها مع همزة أرض إلى ثقل على اللّسان في النطق بهما، وفضّلت كذلك على "أيا" لما في هذه من زيادة تنبيه ليست الأرض، وهى رهن أمر الله فى حاجة إليه.))[1]

كما أوثر تنكير الأرض لما في ذلك من تصغير أمرها؛ يعني لم يقل: "يا أيّتها الأرض" بل قال سبحانه وتعالى:"يا أرض" فإنّ أمرها صغير وإنّ أمرها واضح في أنها رهن أمر الله تعالى، فالمقام هنا يستدعي ذلك التصغير ويستدعي الإسراع بتلبية الأمر، وذلك لا يكون مع التعريف المقتضي لإطالة الكلام بأيتها.

ومما سبق نستخلص أنّ طلب الإقبال في القرآن لم يكن مما يجري مجرى إقبال الحيّ العاقل فحسب وإنما جرى في متصرفات كثيرة جدا، وكأنه من أكثر فنون الكلام تصرفا في الأغراض والمواقف، وهذا على وفق ما أجرت العرب كلامها، فإنها كما نادت الحي العاقل الذي لا يجاوز امتداد صوت المنادي نودي الحي العاقل الذي يجاوز امتداد الصوت، كنداء الغائبين والصاحبة التي أخبروا عن إيغالها في الرحلة وغيرها كثير، وكذلك نودي الحي غير العاقل كالنوق والطير، كما نوديت أحوال النفس وعواطفها من حب وبغض وحسرة، ونودي في القرآن النار والويل والجبال وغيرها، ووراء كل هذا أغراض وأسرار ومذاقات تتكشف بسلامة التذوّق، وحسن مراس اللّغة. [2]

وعلى هذا نشير إلى أنّ البلاغي لا يكتفي بالحكم على هذا العدول وأضرابه على أنه من باب المجاز، أو ينتهي جهده عند كون هذا الأسلوب عربي معهود، بل يعتني بالأسرار المعنوية وراء ضروب الاستعمال فلا يرضيه القول بأنّ الشّعراء نادوا البرق والسحاب والدّيار، ولا بأنّ أكثر أدوات النداء ورودا في القرآن هي كذا لأنّ ما تقدم من أفكار سابقة هي في طبيعتها ملاحظات تتابعت وحدّدت لكنّها لم تفسّر.

---

(1) . من بلاغة القرآن، ص50.

(2) . ينظر: دلالات التراكيب، ص261-262.

الموضع الثاني: قال عز وجلّ: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ۝٣٠ ﴾ [الفرقان : 30].

هذا الموضع هو أوّل الموضعين الذي نودي فيه المولى جلّ جلاله بياء النّداء مع أنه تعالى قريب مجيب وأنّ المنادي هو رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فكيف يعدل النظم في هذا الموضع عن مقتضى الظاهر لمناداة القريب بأداة توحي بالبعد والتراخي؟ ولهذا ينقدح في ذهن الدارس تفحص السياق للظفر بالحِكم المغيبة في ثناياه.

جاء في الكتاب أنّ العرب قد تستعمل يا النّداء « إذا أرادوا أن يمدّوا أصواتهم للشيء المتراخي عنهم والإنسان المعرض عنهم الذي يرون أنه لا يقبل عليهم إلا بالاجتهاد أو النّائم المستثقل.»[1] لذا فالأصل أنّ ينادى بها البعيد، ولكن بكثرة استعمالها ودورانها في الكلام صارت تستعمل للقريب والبعيد لأغراض بلاغية.

كما بيّن ابن هشام أنّ الحرف "يا" موضوع لنداء البعيد حقيقة أو حكما، لكنّه قد ينادى بها القريب حين يراد توكيد النّداء.[2]

فمفهوم كلام ابن هشام أنّ مناداة القريب بالياء هو خروج عن مقتضى الظاهر بدليل ذكر داعي العدول وعلته وحكمته وهو زيادة التوكيد والإلحاح في النداء وإبراز مظاهر التشكّي. فكأن الأسلوب الذي يعدم توكيدا في النداء هو على أصل معناه.

وفي ضوء هذا نقول إنّ حرص النبي صلى الله عليه وسلم على هداية قومه جعله كأنّه يجأر بالشّكوى ويطيل الصّوت ولا يحذف منه شيئا تنفيسا لما في صدره، فناسب هذا ذكر أداة النداء "يا" مع "ربّ" فقال: "ياربَّ" وكأنّه هاجسا في النّفس ينبض بروح الشّفقة والإرشاد لقوم أضاعوا القرآن وهجروه.

فحرف النّداء لم يشعرنا بأنّ النبي صلى الله عليه وسلم بعيد من ربّه عز وجل إنما أراد أن يزيد في الضّراعة ويمدّد صوته بنداء ربّه ويجسد له آهات وصيحات تفيض بالنصح لقومه والخوف عليهم.

([1]) . الكتاب، ج2، ص229-230.

([2]) . مغني اللبيب، ص448.

ومما نحن بسبيله قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الزخرف: 88]

وقد يقال لِمَ لَمْ يستعمل حرف النّداء المختصّ بالقرب الذي هو الهمزة، والجواب على ذلك أنّ المدعو هنا عظيم القدر عال المقام فنداؤه لا يكون إلا بالحرف المتخصّص للبعد، والنكتة في ذلك هي تعظيم المنادي لكيلا يواجه بكلام صورته صورة الأمر، أما النّداء بالهمزة فلا يتناسب ومقام التفخيم والتعظيم الذي يليق الله تعالى عند دعاء العبد له.

وقال الزمخشري: « فإذا نودي به القريب المفاطن فذلك للتأكيد المؤذن بأنّ الخطاب الذي يتلوه معني به جدا، فإن قلت: فما بال الداعي يقول في جؤاره: يارب، وياالله، وهو أقرب إليه من حبل الوريد اسمع به وأبصر، قلت: هو استقصار منه لنفسه واستبعاد لها من مظانّ الزلفى وما يقرّبه إلى رضوان الله ومنازل المقربين هضما لنفسه وإقرارا عليها بالتفريط في جنب الله. »(1)

فعلى كثرة مجيء نداء العبد لربّه من غير "يا" جاءت هذه الآية بخاصية في النّداء كشف عنها الموقف إذ صوّر لنا « حالة نفسية أَلَمَّت بالرسول، وقد أفرغ جهده في دعوة قومه وإنذارهم، فلم يزدهم ذلك إلا تماديا في كفرهم فأطبق الهمّ على فؤاده، وكأنما شَعَر بتخلّي الربّ عن نصرته، وبعده عن أن يمدّ إليه يد المساعدة، فأتى بحرف النّداء، كأنما يريد أن يرفع صوته، زيادة في الضراعة إلى الله واستجلاب رضاه. »(2)

(1) . الكشاف، ج1، ص121.
(2) . من بلاغة القرآن، ص131.

الموضع الثالث: قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾ [مريم: 42].

دعا إبراهيم الخليل أباه بندائه إياه في قوله: "يا أبت" تحبّبا وترقيقا وشفقة، فإنّ لفظ "يا أبت" كما ذكر البيضاوي إنما ((تذكر للاستعطاف ولذلك كرّرها.))(1)

وانظر إلى دقّة القرآن في تصوير الموقف ونفث أرواح المعاني في الكلام فلم يقل: "إذ قال لأبيه لِمَ تَعبد" على إضمار النداء لكن جيء بلفظ يا أبت ليفتتح ((إبراهيم خطابه أباه بندائه مع أنّ الحضرة مُغْنية عن النداء قصداً لإحضار سمعه وذهنه لتلقي ما سيلقيه إليه.))(2)

وفي مقام تكرير هذا الأسلوب يذكر ابن عاشور خصائصه وميزاته ليفيد أنّ ((في النّداء بقوله: "يا أبت" أربع مرات؛ تكرير اقتضاه مقام استنزاله إلى قبول الموعظة لأنها مقام إطناب. ونظر ذلك بتكرير لقمان قوله: "يا بني" ثلاث مرات، قال: بخلاف قول نوح لابنه: ﴿يَـٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ [هود: 42] مرة واحدة دون تكرير، لأنّ ضيق المقام يقتضي الإيجاز وهذا من طرق الإعجاز.))(3)

ومن مواطن العدول ما بينه ابن عاشور في نداء لقمان لابنه عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَـٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: 13].

يقول بأنّ ((افتتاح الموعظة بنداء المخاطب الموعوظ مع أنّ توجيه الخطاب مغن عن ندائه لحضوره بالخطاب، فالنّداء مستعمل مجازا في طلب حضور الذّهن لوعي الكلام وذلك من الاهتمام بالغرض المسوق له الكلام كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ [يوسف: 4] وقوله: ﴿قَالَ يَـٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ﴾ [يوسف: 5].))(4)

---

(1) . أنوار التنزيل، ج4، ص11.

(2) . التحرير والتنوير، ج16، ص113.

(3) . المصدر نفسه، ج16، ص114.

(4) . المصدر نفسه، ج21، ص154.

الموضع الرابع: قال تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا ﴾ [هود: 32]
وقال أيضا: ﴿ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآ ﴾ [هود: 62] وقال سبحانه وتعالى:
﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ ﴾ [هود: 87].

ولعلّ السرّ البلاغي في استعمال أداة النداء "يا" مع قرب الأنبياء عليهم السّلام من أقوامهم هو أنّ النّداء بيا هنا مشعر الفراغ والبعد الهائل الذي كان يشعر به هؤلاء المارقون بينهم وبين رسلهم يعني بعدهم عن الاقتناع بهداية الرسل، فالأقوام لم تنطق شفاههم بالياء الممتدة الصّوت فكأنهم ينادو في من لم يبلغه صوتهم لبعد بينهما والصّوت هنا لا ينصرف إلى صوت العبارات وحركة الكلام، لكنّه وصول الاقتناع بالفكرة، فأوحت الياء في هذه النّداءات عصيان مستبطن وإباء مستتبّ، يكشف عن وضعهم النّفسي، ويرمز إلى الهوّة السّحيقة بين واقع الرّسالات وهؤلاء المتمرّدين عليها. (1)

كما يوحي قولهم في إخبارهم لنوح عليه السلام: "فأكثرتَ جدالنا" يوحي باستعمالهم النداء في التذمّر والتضجير والتأييس من الاقتناع. (2)

ومن ملامح معاني التهكّم والسخرية في النّداء ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ فَسۡـَٔلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِذۡ جَآءَهُمۡ فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا ﴿١٠١﴾ ﴾ [الإسراء: 101].

قال ابن عاشور: « أنه إنما قال: إني لأظنّك يا موسى مسحورا؛ عنادا، ومكابرة، وكبرياء. »(3)

ولهذا المعنى من الغطرسة والكبرياء والشدّة التي زرعها فرعون في نفوس قومه تجاه موسى عليه السلام فإنهم لا يكفون عن هذه الطّريقة في الخطاب من التهكّم والسخرية إذ نجدهم ينادون موسى بهذه الصّفة الباطلة وهم يسألونه أنّ يدعو لهم ليكشف عنهم البلاء كما في قوله تعالى:

---

(1) . ينظر: سورة هود دراسة لخصائص نظمها وأسرارها البلاغية، دخيل الله الصحفي، ص178.

(2) . التحرير والتنوير، ج12، ص60.

(3) . المصدر نفسه، ج15، ص226.

﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الزخرف: 49]
فقلوبهم ترجوا منه الدّعاء ولم تمتد ألسنتهم إلى ندائه باسمه. [1]

([1]) . مجازات النداء، ص226.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

❖ العدول بحذف حرف النداء:

الموضع الأول: قال تعالى: ﴿ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَا ﴾ [يوسف: 29].

وجه شاهد العدول في هذا النّداء هو حذف حرف النّداء مع إبقاء معناه المدلول عليه بالسّياق ولم يعبر الأسلوب بـ"يا"، ما يشير إلى إيحاء لطيف يهمس به هذا التركيب النّدائي.

نشير بداءة أنّ النحاة أجازوا حذف أداة النّداء من الكلام تخفيفا إذا كان المنادي مقبلا عليك متنبّها لما تقول له، يقول سيبويه: « وإن شئت حذفتهن كلّهن استغناء كقولك: حار بنَ كعبٍ وذلك أنه جعلهم بمنزلة مَن هو مقبِلٌ عليه بحضرته يخاطبه. »[1]

وقد ألمح الزمخشري نكتة أظهر من خلالها عدول النّظم إلى الحذف في هذا المقام والسرّ الذي من أجله آثر القرآن التعبير عن هذا الموقف بإضمار حرف النّداء، إذ قال بأنّ المنادى « حذف منه حرف النّداء، لأنّه منادى قريب مفاطن للحديث، وفيه تقريب له وتلطيف لمحلّه. »[2]

أما الزّركشي[3] فقد عدّ هذا العدول من باب التخفيف لكثرة دورانه على كلامهم، ومن سبيل الحذف للاستخفاف؛ حذف النّون في "لم يك"، وأضاف السيوطي[4] عن الأخفش أنّ من عادة العرب أنها إذا عدلت بالشّيء عن معناه نَقَصت حروفه.

لكن نقول إنّ التعبير القرآني آثر حذف الحرف عن ذكره ليس لمجرّد التخفيف، لأنّ التخفيف ليس معنى مقصودا في ذاته فهو إجراء يرمي به القرآن إلى رموز لطيفة ودقيقة لولاه ما تحقّقت، فهذا العدول أوحى بخفاء وعدم الإطالة في النّداء والمدّ فيه، « وله هنا رمز لطيف، وكأنّه يهمس بهذا الخبر في أذن يوسف محاذرًا أن يسمعه أحد، ثم فيه تقريب، وملاطفة ليوسف عليه السلام، وإيماء خفيّ بأنّ الخبر كلّه يجب أن يضمر في السّرائر، وألا يجري به لسان. »[5]

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

([1]) . الكتاب، ج2، ص230.

([2]) . الكشاف، ج2، ص435.

([3]) . ينظر: البرهان، ج3، ص106.

([4]) . ينظر: الإتقان، ج3، ص191.

([5]) . خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، ص158.

فكأنّما المنادي ليوسف سَتَر المسألة موحيا إلى الكفّ عن الخوض فيها، فعبّر عن ذلك بأخصر طريق في تحقيقه، فحذف حرف النّداء تمشيا مع هذا الاختصار والتستّر. (1)

كما أنّ ترك النّداء بالأداة أشارت إلى قرب منزلة المنادى، والإشعار بأنّه أنزله منزلة لم تكن له من قبل، ولا يتأتى ذلك إلا حين يعدل الخطاب من التّصريح بالأداة إلى خطاب مشعر بالدنوّ والقرب وأنّ نظرة المنادي للمنادى اختلفت فاختلف النّداء، وهذه الصّورة لا يوضّحها إلا نداء بغير أداة وقد تكرّر هذا العدول في السّورة نفسها عند قوله تعالى: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ ﴾ [يوسف: 46]. (2)

وجريانا في معنى التقريب الذي يوحي به الحذف؛ يأتي في سياق آخر مختلف في غايته لكنّه يوحي بعدم وجود مهلة أو تراخي في النّداء وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠ ﴾ [المنافقون: 10].

فقال: "ربّ" ولم يقل: "يا ربّ"، لأنّ الوقت لم يعد يحتمل التضييع في الكلام فيأتي بـ"يا" بل يريد أن يستعجل في طلبه، فيختصر من الكلام ما لا حاجة له به ليفرغ إلى مراده.

وقد ناسب معنى العجلة في حذف حرف النّداء مجيء حرف الفاء الدّالة على قصر الوقت، فجاء طلبه للتأخير رأساً بلا مهلة، ففي ساعة الموت وعند حضوره يطلب تقريب التأخير ليسلك سبيل الصالحين، ولو جاء بـ "ثم" لَمَا أفاد ذاك، بل يفيد أنّ طلب ذاك إنما يكون بعد مهلة وتراخٍ. (3)

فذكر حرف النّداء هنا مع إقامة القرائن عليه أمر مستثقل، لأنّ من مقاصد الحذف هو « بعث الفكر وتنشيط الخيال، وإثارة الانتباه؛ ليقع السامع على مراد الكلام، ويستنبط معناه من القرائن والأحوال، وخير الكلام ما يدفعك إلى التفكير، يستفزّ حسّك وملكاتك، وكلّما كان أقدر على

(1) . معاني النحو، ج4، ص696.
(2) . مجازات النداء، ص214.
(3) . ينظر: لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، السامرائي، ص186-187.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تنشيط هذه القدرات كان أدخل في القلب، وأمس بسرائر النّفس المشغوفة دائما بالأشياء التي تومض ولا تتجلّى، وتتقنع ولا تتبذل.))[1]

الموضع الثاني:

قال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ﴾ [طه: 92-94]

وقال أيضا: ﴿ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف: 150].

موضع الشّاهد في الآيتين هو ذكر حرف النداء في الأولى، فقال حكاية عن قول هارون: ﴿ يَبْنَؤُمَّ ﴾، ثم عدل عنه بحذفه في الأخرى في قوله: ﴿ ٱبْنَ أُمَّ ﴾ فلِمَ جاء حرف النّداء الدّال على البعد رغم قرب أخيه منه؟.

وذكر الحرف وعدم ذكره له دوافع سياقية تستخفه في مقامات وتستثقله في أخرى، فعندما يكون المقام مقام سعة وبسط فعادة يذكر الحرف سواء كان ياء أو غيرها من الأحرف حتى يحقق غاية تتوافق وهذا التفصيل، وإذا كان السياق في الإيجاز يحذف الحرف لتحقيق مقصدا معينا لا يمكن بيانه لولا الحذف والإقصاء.

ما نلحظه في آية طه هو أنه نادى بالحرف استعطافا منه وتلطّفا، مع أنّ النّداء بصيغة البعد يمكن عدّه مهادا لإبراز ما في نفسه من تطلّب العطف والرّحمة، وكذا في طريقة النّداء فقد ناداه بصفة استجلب فيها ذكر الأمّ دون غيرها إيقاضا لتلك الرّحمة التي تنبعث كلّما ذكرت الأمّ، لأنّ ((الأمّ أشفق وأرقّ قلبا، وأيضا أنّ مراعاة حقّها أهمّ، وأضاف إليها تذكيرا برقّة البشرية وتحريضا على مخافة حقّها، ومن جملتها اللّطف بي، والتفحّص في حالي.))[2]

([1]) . خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، ص160.

([2]) . حاشية القونوي، ج12، ص415.

وقد بيّن أبو حيان المعنى العرفي لنداء من لا يشكّ في أخوته بابن الأم بأنّ هذا من عادة العرب أنها تتلطّف، وتتحنّن بذكر الأمّ. (1)

وليس النّداء في الآيتين نداء واحد بصورتين، لأنّ في الثانية ما يتبع النّداء ما يختلف عن الأولى وفي الثانية لطف ليس في الأولى، وفي الأولى توسّل من هارون أن لا يأخذ موسى بلحيته ولا برأسه، أما في الثانية فالنّداء خلا من توسّل هارون إذ بيّن فيه عذره لموسى بقوله:﴿إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي ﴾ مما يدلّ على أنّ النّداء الأول كان استعطافا واسترقاقا لقلب أخيه، وأنّ النّداء الثاني حمل تعبيرا عما في نفس هاورن من زوال الخوف من بطش موسى، فشعر برحمة موسى له، فالنداء بغير أداة يوحي بأنس هارون لأخيه وزوال وحشة اللحظة الأولى ورهبتها واقتراب موسى إلى نفس هارون فكان مناسبا أنْ يناديه بغير أداة. (2)

ومما يعزّز لنا أنّ المغايرة بين النّدائين ما ذكره ابن عاشور في أحد وجوه النّداء بهذا الوصف إذ أبرز أنّ " كلامه هذا وقع بعد كلام سبقه فيه حرف النداء وهو المحكي في سورة طه: ﴿ قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓ ﴾، ثم قال بعد ذلك: ﴿ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي ﴾ فهما كلامان متعاقبان، ويظهر أن المحكي هنا هو القول الثاني، وأن ما في سورة طه هو الذي ابتدأ به هارون، لأنّه كان جوابا عن قول موسى: ﴿ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ﴾ [طه: 92 - 93]. "(3)

ومما سبق ندرك أنّ هذا العدول بالذّكر والحذف يبعث بالتفريق بين الموضعين، فحقيقة النّداء واضحة من كلا التعبيرين سواء أكانت لفظية أم سياقية، واللّطافة لا تكمن في المعرفة المجرّدة لطبيعة الإقبال والطلب، بل تتّضح بلاغة النّظم حين يكون حرف النداء مبلّغا عن خفايا الروح ومصوّرا لأحوال النّفس وطلباتها فتحمّل الحرف معان شعورية تنبض بالرّغبة والتلهّف، وشدّة الحاجة، وغياب الحيلة، وكلّ هذه المعاني تكوّن ملكة نفسية تجعل المنادي يهتف لمن هو أقرب بما هو أبعد.

(1) . ينظر: البحر المحيط، ج5، ص182.
(2) . مجازات النداء وحقيقته، ظافر العمري، ص217-218.
(3) . التحرير والتنوير، ج9، ص116-117.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ولما تصبو النّفس وتركن ويهدأ الفؤاد ويتقرّب منك المنادى؛ يغيَّب حينها الحرف لئلا يوهم تلك المعاني لأنها لا تبرز في هذا المقام. وهذا قبس من أسرار العدول في ذكر حرف النّداء وحذفه.

ومن خلال ما سبق أقول إنّ دراسة ظاهرة العدول في الجمل النّدائية في الخطاب القرآني وإن كانت تنطلق من التركيب النّحوي الأصلي ذو الدّلالة المكتسبة من أصالة وضعه؛ فهي تتجاوزه إلى التفاعل مع العلاقات السّياقية لتشكل مستتبعات معنوية إضافية فيتوسّع مضمون النّداء عن كونه طلبا للإخبار أو الإبلاغ إلى مؤشرات بلاغية أسبغت على النّداء سمة الخاصية الأسلوبية، وقد اكتسب النّداء في القرآن وظائف فنية ثرية بالمعاني والإيحاءات التي يمكن استثارتها بما يناسب السّياقات والأحوال.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثالث:

العـدول في حـروف الـتعليل

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثالث: العدول في حروف التعليل:

❖ العدول بالمخالفة:

الصورة الأولى: العدول من كي إلى اللام:

الموضع الأول: قال تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [القصص: 13].

استعمل النّظم حرف التعليل "كي" في تعليل ردّ موسى عليه السلام إلى أمّه: ﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾، ثم عنه في التعليل الثاني إلى اللام في قوله: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ ولم يقل: "وكي تعلم"، ما يستدعي تتبعا لسرّ التفريق بين حرفي التعليل في سياق واحد.

يبيّن ابن عاشور الحكمة من تكرار حرف التعليل بالعطف في قوله: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ بأنّ هذا من باب تأكيد حرف "كي" بمرادفه وهو لام التعليل للتنصيص من أوّل وهلة على أنه معطوف على الفعل المثبت "تقرّ" لا على الفعل المنفي "تحزن". [1]

وإذا سلّمنا أنّ حمكة عطف التعليل هي رفع الإيهام، وإشكال عود الفعل، لكن لماذا لم يعطف بحرف التعليل نفسه، وهو "كي" وعدل إلى التعليل باللام؟ مما يفهم أنّ هناك فرقا بين طبيعة العلتين إقرار عين أمه، وعلمها أنّ وعد الله حقّ، وإلا فلا يفهم للعدول مغزى سوى تناوب الحرفين.

وفي هذا يرى السّامرائي في تفريقه بين أصل الحرفين في الاستعمال؛ يرى بأنّ « الأصل في "كي" أن تستعمل لبيان الغرض الحقيقي، واللام تستعمل له ولغيره، فاللام أوسع استعمالا من "كي". »[2]

ولعلّ اختصاص "كي" بالتعليل بالغرض دون غيره خلافا للام هو كونها لم تستعمل في غير التعليل؛ جعلها تكون مؤكّدة على إرادة حصول الغرض.

ويتضّح هذا المبدأ من خلال استعمال النّظم القرآني له، يقول السامرائي: [3]

([1]) . ينظر: التحرير والتنوير، ج20، ص85.

([2]) . معاني النحو، ج3، ص307.

([3]) . المرجع نفسه، ج3، ص309.

والظّاهر من الاستعمال القرآني أنّ "كي" تستعمل للغرض المؤكّد والمطلوب الأوّل، يدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [القصص: 13]، فقد جعل التعليل الأول بـ"كي": ﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ والثاني باللام: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾، فالمطلوب الأول للأمّ هو ردّ ابنها إليها في الحال وهو المقصود الذي تلحّ عليه الأمّ بدليل اقتصاره عليه في آية طه، قال تعالى: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [طه: 40].

أمّا قوله: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ فيعدّ غرضا بعيدا للأمّ مقارنة بردّ ابنها إليها، ثمّ إنّ أمّ موسى قد وعدها الله سبحانه بأنّه سيردّه إليها، ويجعله من المرسلين: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ [القصص: 7]. ومنه فغرضها ليس لمجرد العلم، لأنها توقن مسبقا بوعد الله لها بل إنّ الغرض هو الاطمئنان، ولو قال: "كي تعلم" لأوهم المعنى أنّ لا غرض من ردّه إليها إلا لتعلم هذا الأمر.

لهذا الغرض عدل النّظم عن "كي" في هذا الموضع، وليشير إلى أنّ قوله: "ولتعلم" أي علماً هو عين اليقين، كما كانت عالمة به علم اليقين، وعلم شهادة كما كانت عالمة علم الغيب أنّ وعد الله؛ أي الأمر الذي وعدها به الملك الأعظم الذي له الكمال كلّه في حفظه وإرساله "حقٌّ" أي هو في غاية الثبات في مطابقة الواقع إيّاه. [1]

(1) . ينظر: نظم الدرر، ج14، ص253.

❖ **العدول بالاختيار:**

الصورة الأولى: عدول اللام عن مقتضى الظاهر:

الموضع الأوّل: قال تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًا﴾ [القصص : 8].

من دلائل تخيّر البيان القرآني لمعان حروف التّعليل المناسبة لسياقاتها، هو العدول عن المعاني الظاهرة للام قوله: "لِيَكُون" إلى المعنى المخالف لمقتضى الظّاهر، وهذا لما اسشكل كون هذه اللام للتعليل لأنّ العداوة والحزن ليس علة محقّقة في الظاهر للالتقاط آل فرعون.

لذلك ذهب الزمخشري إلى أنّ التعليل في اللام من باب المجاز، حيث استعيرت لما يشبّه التعليل وذلك لأنّه « لما كان نتيجة التقاطهم له وثمرته ، شبّه بالداعي الذي يفعل الفاعل الفعل لأجله، وهو الإكرام الذي هو نتيجة المجيء، والتأدّب الذي هو ثمرة الضّرب في قولك: ضربته ليتأدّب. »[1] قالوا وإلا نقض قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَ﴾ [القصص: 9] ونقض قوله: ﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي﴾ [طه: 39] [2]

فالزمخشري أثبت للام معنى التعليل لكنّه معنى غير حقيقي، وذلك لأنّ مقصود الشيء وغرضه يؤول إليه أمره، فاستعملوا هذه اللام فيما يؤول إليه الشيء على سبيل التشبيه، لأنه لم يكن داعيهم إلى الالتقاط أن يكون لهم عدوّاً وحزناً، ولكن محبّة في تبنيه، وهذا [3] كقولك: علمتك الرماية لترميني، وعلمتك الشّعر لتهجوني، أي كان ذلك مآل عملي وعاقبة أمرك.

وقد بيّن الزجاج هذا المعنى على أنها تسمية أهل اللّغة فآل فرعون لم يلتقطوه يطلبون بأخذه أن يعاديهم ولكن كانت عاقبة أمره أن صار لهم عدوا وحزنا، ومثّل لها بقولهم: كتب فلان هذا الكتاب لحتفه، فهو لم يقصد بالكتاب أن يهلك نفسه، ولكن العاقبة كانت الهلاك.[4]

([1]) . الكشاف، ج3، ص398.

([2]) . مفاتيح الغيب، ج24، ص580.

([3]) . معاني النحو، ج4، ص308.

([4]) . معاني القرآن وإعرابه، ج2، ص280.

فاللام الظاهرة في النّظم القرآني قد عدلت عن معناها الدلالي إلى المعنى الغائي، والمعنى الدلالي وهو غاية الشيء يناقض المعنى الغائي وهو ما يترتب على الالتقاط من العداوة والحزن، فهناك عدول بارز في هذه الآية، إذ صارت العلة الغائية هي العلّة الحقيقية لأخذ موسى وتبنّيه، وقد أدّت اللام إلى هذه النّكتة لأنّها جاءت مبيّنة التقاط النبي موسى عليه السّلام بما فيه عاقبته.

لكن ابن القيم[1] نظر إلى هذه اللام نظرة مخالفة لما سبق مبيّنا أنّ لام العاقبة إنما تكون في حقّ من هو جاهل أو هو عاجز عن دفعها، أما في كلام المولى عز وجل فيستحيل في حقه دخول هذه اللام وإنما الواردة في أفعاله وأحكامه هي لام الحكمة والغاية المطلوبة، ونقل هذا الرأي سماعا من شيخ الإسلام ابن تيمية وبالتالي فاللام في الحقيقة لام كي ولكنها تتعلق بالخبر لقصد المخبر عنه وإرادته ولكنها تعلّقت بإرادة فاعل الفعل على الحقيقة وهو الله سبحانه وتعالى، أي فَعل الله تعالى ذلك ليكون كذا وكذا، وكذلك قولهم: "أعتق ليموت" لم يعتق لقصد الموت ولم تتعلّق اللام بالفعل وإنما المعنى قدّر الله أنه يعتق ليموت فهي متعلقة بالمقدور وفعل الله.

ووجه تعليل الآية ليس للالتقاط وإنما هو تعليل لقضاء الله سبحانه بالتقاطه وتقديره له « فإنّ التقاطهم له إنما كان بقضائه وقدره فهو سبحانه قدّر ذلك وقضى به ليكون لهم عدوّا وحزنا، وذكر فعلهم دون قضائه لأنّه أبلغ في كونه حَزنا لهم وحسرة عليهم، فإنّ من اختار أخذ ما يكون هلاكه على يديه إذا أصيب به كان أعظم لحزنه وغمّه وحسرته من أن لا يكون فيه صنع ولا اختيار، فإنّه سبحانه أراد أن يُظهر لفرعون وقومه ولغيرهم من خلقه كمال قدرته وعلمه وحكمته الباهرة، وأنّ هذا الذي يذبح فرعون إلا بناء في طلبه هو الذي يتولّى تربيته في حجره وبيته باختياره وإرادته ويكون في قبضته وتحت تصرفه، فذكر فعلهم به في هذا أبلغ وأعجب من أن يذكر القضاء والقدر. »[2]

([1]) . ينظر: بدائع الفوائد، ج1، ص100، وشفاء العليل، ص191.

([2]) . شفاء العليل، ص191.

الموضع الثاني: قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ١٠٥﴾ [الأنعام: 105].

ذكرت هذه الآية الوجه الذي لأجله صرفت هذه الآيات وهو أمران: هما في قوله: ﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ﴾أمّا هذا الوجه الثاني فلا إشكال فيه لأنّه تعالى بيّن أنّ الحكمة في هذا التصريف أن يظهر منه البيان والفهم والعلم، أمّا اللام في "ليقولوا" فاستشكل مجيئها للعلّة لأنّ المعنى[1] هو أنه كما صرفنا الآيات والعبر والحجج في هذه السوّرة لهؤلاء العادلين بربهم الآلهة والأنداد كذلك نصرف لهم الآيات في غيرها، كيلا يقولوا لرسولنا: "إنما تعلّمت ما تأتينا به تتلوه علينا من أهل الكتاب" فينزجروا عن تكذيبهم إيّاه.

وعليه فإنّه تعالى وضح لهم الآيات ليس لأجل أن يقولوا درست، بل لئلا يقولوا هذا لأنّه كفر وفي هذا يبيّن ابن عطية[2] أنّ اللام في قراءة "لِيَقُولُو" بالكسر بمعنى: "لئلا يقولوا"، أي صرفت الآيات وأحكمت لئلا يقولوا هذه الأساطير قديمة قد بليت وتكرّرت على الأسماع، واللام على سائر القراءات لام الصيرورة، أي لما صار أمرهم إلى ذلك.

يقول الزمخشري: ((فإن قلت: أيّ فرق بين اللامين في ليقولوا، ولنبيّنه؟ قلت: الفرق بينهما أنّ الأوّل مجاز والثانية حقيقة، وذلك أنّ الآيات صُرفت للتبيين، ولم تصرف ليقولوا دارست، ولكن لأنّه حصل هذا القول بتصريف الآيات كما حصل التبيين، شبّه به فسيق مساقه.))[3]

وفي هذا النّحو لخّص ابن عاشور هذا المعنى بقوله: ((فشبّه ترتّب قولهم على التصريف بترتّب العلّة الغائية، واستعير لهذا المعنى الحرف الموضوع للعلّة على وجه الاستعارة التبعية، ولذلك سمّى بعض النّحويين مثل هذه اللام لام الصّيرورة، وليس مرادهم أنّ الصيرورة معنى من معاني اللام، ولكنّه إفصاح عن حاصل المعنى.))[4]

([1]) . ينظر: جامع البيان، ج12، ص31.
([2]) . ينظر: المحرر الوجيز، ج2، ص331.
([3]) . الكشاف، ج2، ص52.
([4]) . التحرير والتنوير، ج7، ص422.

كما بيّن الألوسي أنّ اللام في قوله: ﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ﴾ علّة لفعل قد حذف تعويلا على دلالة السّياق عليه، أي: وليقولوا درست نفعل ما نفعل من التصريف المذكور، واللام في ذلك للعاقبة. وجوّز أن تكون للتعليل على الحقيقة، لأنّ نزول الآيات لإضلال الأشقياء وهداية السّعداء قال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة: 26] .

أما اللام في "ولنبيّنه" فهي للتعليل المفسّر ببيان ما يدلّ على المصلحة المترتّبة على الفعل عند الكثير من أهل السنّة. [1]

وقد ضعّف الرازي كون اللام للعاقبة وليست للعلّة، بحجّة أنّ ((حمل هذه اللام على لام العاقبة مجاز، وحمله على لام الغرض حقيقة، والحقيقة أقوى من المجاز فلو قلنا: "اللام" في قوله: "ولِيَقُولُوا دَرَسْت" لام العاقبة وفي قوله: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ للحقيقة فقد حصل تقديم المجاز على الحقيقة في الذّكر، وأنه لا يجوز.))[2]

ومما ذكره أبو حيان أنّ لام ليقولوا؛ حقيقية، ووجه تعليل الآية في أنّ تصريف هذه الدّلائل حالا بعد حال ليقول بعضهم دارست فيزدادوا كفرا على كفر وتنبيه لبعضهم فيزدادوا إيمانا على إيمان ونظيره قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة: 26]﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: 125].

([1]) . روح المعاني، ج4، ص234.

([2]) . التحرير والتنوير، ج7، ص422.

الصورة الثانية: العدول من كي إلى اللام:

الموضع الأول: قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: 144].

الشّاهد هو استعمال لام التعليل في قوله: "ليضلّ" دون "كي"، مع احتمال تقديرها في الظاهر بدليل قوله في موضع آخر: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: 119].

حيث استعمل القرآن في هذا الأسلوب لام التعليل وعدل عن التعليل بـ"كي"، وذلك أنه لو قال: "افترى على الله كذبا كيْ يضلّ الناس" كان المعنى أنه افترى الكذب لهذا الغرض

ونحو هذا أن تقول: سعى ليفسد في الأرض من دون أن يعلم، لأنّ التعبير بـ"كي" يكون المعنى إنّ غرض السّعي الذي سعاه هو الإفساد، كيف يصحّ أن يقال: "من دون أن يعلم"، ويجوز ذلك في اللام لأنها للغرض عموما.

ومما يعزّز كون اللام أوسع استعمالا من "كي" قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾ [البقرة: 143]. وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [آل عمران: 140].

ولا شكّ أنّ الله سبحانه يعلم ذلك ابتداء، والمقصود هنا العلم الذي يتعلّق به الثواب والعقاب وليس مجرّد العلم، لذلك استعمل للتعليل اللام دون "كي"، ولو قال: "كي نعلم" لكان المقصود لذات العلم، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، لذلك لم يأت مثل هذا التعبير بـ"كي" في القرآن الكريم لئلا يوهم المعاني غير المقصودة في الآية. [1]

([1]). ينظر: معاني النحو، ج3، ص308-309.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الصورة الثالثة: العدول من اللام إلى "أنْ":

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ ﴾ [غافر: 28].

جاء التعليل بـ"أنْ" في قوله: ﴿أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ ﴾، ولم يقل: ليقول، باللام، أو "لأنْ يقول" باللام و"أنْ".

ذكر ابن هشام[1] أنّ معنى التعليل في الآية ممكن وهو متّفق عليه فلا معدل عنه، وقد صرّح جمع من اللغويين أنّ حرف التعليل الوارد في الآية هو بمعنى اللام، والمعنى: كراهة أن يقول، أو: لأن يقول [2]، وذكر ابن عاشور أنّ قوله تعالى "أن يقول" مجرور بلام التعليل المقدرة لأنها كثيرة الحذف مع "أنْ". [3] وأفاد القرطبي[4] بعد ذكره لتأويلها باللام أنّ معنى "أنْ" من أجل أن يقول ربي الله.

وقيل في معنى دخولها أنها دخلت لتدلّ على أنّ القتل إنما كان من أجل الإيمان، ولو حذفت لم يدلّ على هذا، وإنما يدل على قتل رجل مؤمن لا من أجل إيمانه، والتقدير: أتقتلون رجلا من أجل أن يقول. [5]

وقد فرق السامرائي[6] بين التعليل بـ"أنْ" والتعليل باللام، فليس قولك: أتضرب رجلا أن يعبد الله كقولك: أتضرب رجلا ليعبد الله، فالأول: يفيد أنه يضربه لأنه يعبد الله، والثاني: يفيد أنه يضربه حتى يعبد الله، أي أنّه لا يعبده.

فقوله تعالى: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ ﴾ أي: لأنه يقولها، ولو قال: "ليقول ربّي الله" ينقلب المعنى: أتقتلونه حتى يقولها.؟

([1]) . مغني اللبيب، ص204.

([2]) . معاني القرآن وإعرابه، الزجاج، ج4، ص371، وتفسير أبي السعود، ج7، ص274. الدر المصون، ج9، ص472.

([3]) . التحرير والتنوير، ج24، ص129.

([4]) . جامع البيان، ج15، ص307.

([5]) . النكت في القرآن، علي بن فضّال القيرواني، ص432.

([6]) . ينظر: معاني النحو، ج3، ص306.

وقد يقال لِمَ لَمْ تقرن "أنْ" مع اللام كأن يقال: "لأن يقول" وما الفرق بينها وبين التعبير العاري من اللام، يقال: إنّ التعليل بأداة "أنْ" وحدها تفيد نصا ثبوت ما بعدها وتؤكد حدوثه، أما التعليل باللام وحدها تفيد في قولك:" أتقتله ليعبد الله" أنه لا يعبده وإنما تفيد أنه يقتله حتى يعبد الله، وأما اقتران اللام مع "أنْ" فتدلّ على جمع المعنيين أي: أنّ القتل بسبب العبادة، أو لأجل أن يعبده. (1)

الصورة الرابعة: العدول من اللام إلى "منْ":

قال تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القدر: 4].

شاهد العدول في هذا الموضع هو قوله: ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾

ذكر القرطبي أنّ معنى "مِن" الواردة في الآية تؤول إلى معنى الباء، فمعنى «"مِن كلّ أمر": أمر بكلّ أمر قدّره الله وقضاه في تلك السّنة إلى قابل، قاله ابن عباس، كقوله تعالى: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: 11] أي بأمر الله.»(2)

لكن النيسابوري أثبت لهذا التعبير معنى عدولي يثبت لنا أنّ الأسلوب القرآني تخيّر هذا الحرف عن غيره من الحروف ليشير إلى لطيفة لن يثيرها في هذا المقام سواه، يقول: «ومعنى العدول من لام التعليل إلى "مِن" أنّ السائل كأنّه يقول: من أين جئتم؟ فيقولون: ما لكم وهذا السّؤال، ولكن قولوا: لأيّ أمر جئتم لأنه حظّكم. وقيل: مِن كلّ أمر، أي: من أجل كلّ منهم فبعضهم للركوع وبعضهم للسجود وبعضهم للتسليم.»(3)

وفي ذكر حرف التعليل إشارة إلى فائدة نزول الملائكة، أي: تتنزّل من أجل كلّ أمر قضاه الله لتلك السَّنة إلى قابل. (4)

---

(1) . ينظر: معاني النحو، ج3، ص306.
(2) . الجامع لأحكام القرآن، ج20، ص133.
(3) . غرائب القرآن، ج6، ص540.
(4) . البحر المحيط، ج10، ص515.

الصورة الخامسة: العدول من الباء إلى مِن:

قال تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾ [نوح: 25].

الملاحظ في الآية هو أنّ "مِن" في قوله:﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ﴾ هي للتعليل، لكن قد يُتوهّم في الظاهر أنها بمعنى باء السّببية، أي بسبب خطيئاتهم، ونقل الطبري[1] أنّ قوله: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ﴾ بمعنى: فبخطيئاتهم أُغْرِقُوا فأدخلوا نارا، وكانت الباء ههنا فصلا في كلام العرب.

في حين يرى ابن عطية[2] أنّ "مِن" في قوله: من خطيئاتهم أغرقوا؛ هي لابتداء الغاية وذلك باعتبار أصلها، وتعقبه أبو حيان[3] بأنّ وجه أصلها غير ظاهر في الآية ويرى أنها لا تخرج عن للسبب.

فكأنّ "مِن" أوحت بما لم تفِ به الباء وهو أنّ الإغراق كان من جنس عملهم، ومن باب الخطايا ابتدئ دخول العذاب والجزاء عليهم، فمن هنا كان لحرف العلّة الذي عدل إليه النّظم القرآني لمسة خاصة دقيقة وخفّية مستوحاة من معنى الابتداء، أما الباء فلا توحي إلا بأنّ الجزاء هو مقابل الفعل.

وهذا ما التمسه السّامرائي حين بيّن أنّ السرّ في التعبير بمن دون غيرها هو أنّ الماء دخل عليهم من خطيئاتهم، فجاءهم من هذا المكان، كأنّ الخطيئات ثغرة دخل منها الماء فهي للابتداء، ولو قيل: بخطيئاتهم أغرقوا لكان المعنى أنّ الغرق مقابل الخطيئات، كأنهم أرادوا ثمن الخطيئات وهو الغرق. [4]

أما حين يراد المقابلة فتكون الباء أكثر مناسبة لتأديته وتحقيقه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡ﴾ [النّساء: 153].

فالباء فيها معنى المقابلة فالصاعقة ثمن الظلم، ولو قال: "من ظلمهم" لكان المعنى أنّ الصاعقة جاءتهم من موطن الظلم، فالباء تفيد المقابلة والعوض، و"مِن" تفيد الابتداء يقول الرضي: «وقد

(1) . جامع البيان، ج23، ص641.

(2) . المحرر الوجيز، ج5، ص376.

(3) . البحر المحيط، ج10، ص288.

(4) . ينظر: معاني النحو، ج3، ص79.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تجئ للتعليل، نحو: "لم آتك من سوء أدبك" أي من أجله، وكأنها ابتدائية، لأنّ ترك الأتيان، حصل من سوء الأدب.))[1]

ومنه فقد تبيّن لنا أنّ التعليل بالباء ليس كالتعليل بـ"مِن"، فالتعليل بالباء يفيد العوض والمقابلة أما التعليل بـ"مِن" فيفيد الابتداء فقوله تعالى: لا يصحّ فيه أن نقول بإملاق، وقولنا: "قعد من الجبن" لا يصح أن نقول فيه قعد بالجبن، لأنه ليس مقابلا للقعود وإنما حصل منه القعود ونشأ منه. [2]

[1]. شرح الرضي على الكافية، ج4، ص270.
[2]. ينظر: معاني النحو، ج3، ص78.

الصورة السادسة: العدول من "كي" إلى "لعلّ":

اختلف النّحاة في معنى "لعلّ" الواردة في القرآن على أقوال: منها أنها على بابها وهو الترجّي[1] وهو معنى يثبت في حيّز المخاطبين، واختاره الرضي عملا بالأصل، ومن معانيها الإطماع [2] في مواضع من القرآن، وهو معنى مجازي للرّجاء لأنّ الرّجاء يلزمه التقريب والتقريب يستلزم الإطماع والمعنى الأخر أنها للتعليل بمعنى "كي" أو اللام وهو مذهب جمع من العلماء[3]، يقول ابن القيم: ((وهي في كلام الله سبحانه وتعالى للتعليل مجرّدة عن معنى الترجي فإنها إنما يقارنها معنى الترجي إذا كانت من المخلوق وأمّا في حقّ من لا يصحّ عليه الترجّي فهي للتعليل المحض...وفي هذا كلّه قد أخلصت للتعليل، والرجاء الذي فيها متعلّق بالمخاطبين.))[4]

ويرى الراغب أنّ "لعلّ" في اللّغة للطمع والإشفاق، وإن كانت طمعًا فإنَّ ذلك يقتضي في كلامهم تارة طمع المخاطِب، وتارة طمع المخاطَب، وتارة طمع غيرهما فقوله تعالى فيما ذكر عن قوم فرعون: ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝٤٠ ﴾ [الشعراء: 40].فذلك طمع منهم وقوله في فرعون: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝٤٤ ﴾ [طه: 44].فإطماع لموسى عليه السلام مع هارون، ومعناه: فقوله له قولاً ليّنًا راجيين أن يتذكر أو يخشى، وقال الله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٤٥ ﴾ [الأنفال: 45]. أي: اذكروا الله راجين الفلاح، كما قال تعالى: ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ [الإسراء: 57]. [5]

ففي نحو قوله سبحانه وتعالى: ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٢ ﴾ [البقرة: 52].

([1]) . ينظر: الكتاب، ج2، ص148، والجنى الداني، ص579.

([2]) . ينظر: الكتاب، ج4، ص233، والكشاف، ج1، ص123، والتحرير والتنوير، ج1، ص329.

([3]) . ينظر: جامع البيان، ج2، ص72، الجامع لأحكام القرآن، ج1، ص462، ومغني اللبيب، ص379.

([4]) . شفاء العليل، ص196.

([5]) . المفردات، ص741.

ذهب بعض المفسّرين[1] إلى أنّ "لعلّ" في الآية بمعنى "كي"، ومعنى لعلكم تشكرون: لتشكروا. ومعنى "لعلّ" في هذا الموضع معنى"كي". [2]

وقد أبرز ابن عاشور مسألة العدول في الأسلوب القرآني من حرف التعليل باللام إلى التعليل بـ"لعلّ" مبينا حسن معناه وسرّ اختياره والحكمة من وجوده، يقول: ((وقوله: "لعلّكم تشكرون" رجاء لحصول شكركم وعدل عن لام التعليل إيماءً إلى أنّ شكرهم مع ذلك أمر يتطرّقه احتمال التخلف فذكر حرف الرّجاء دونَ حرف التعليل من بديع البلاغة فتفسير "لعلّ" بمعنى لكي يفيد هذه الخصوصية.))[3]

فجملة ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ تعليل لقوله "عَفَوْنَا" مع بقاء معنى الترجي في "لعلّ" عند ابن عاشور وهذا لأن تجريد لعل من معنى الترجي أمر لا تقره طبيعة اللغة، وكذا تأويلها بحرف تعليل آخر لتأدية نفس المعاني والإشارات إجراء لا تقره البلاغة إذ لكل حرف معنى لا يوجد في حرف آخر وإن فسّر حملا على معناه لا يفيد ذلك ترادف الأساليب الموظفة لكل منهما.

قال القرطبي أنّ معنى ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ كيْ تشكروا عفو الله عنكم. [4]، كما جاء في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [البقرة: 53]، أي: لكي تهتدوا من الضّلالة. [5]

فإذا كانت "لعلّ" حرف بابه الترجي، لكنّه قد يفيد تعليلا بالغرض فيؤول في الظاهر إلى معنى "كي" أو اللام، فهذا غير مسوغ لأن نجعلهما مترادفين –وإنْ اشترك المعنى النحوي– فمعنى قولنا: (ادع العاصي لعلّه يتوب) ليس كمعنى: (ادع العاصي كي يتوب). فكلا الأسلوبين يشتركان في معنى التعليل بالغرض، إلا أنّ وقوع الفعل في العبارة الأولى فيه تراخ واحتمال التخلّف وهو غير مؤكد الوقوع، إلا إذا توفرت مقتضياته كلّها، فعندما يحدث الفعل تترقّب التوبة وتتوقع، وهذا من الترجي وهو معناه الأشهر فجاء مصاحبا لمعنى التعليل، أما العبارة الأخرى فليس فيها احتمال التخلّف والتراخي فكأنها متحققة الوقوع ولا ينتظر في تحقيقها لمقتضيات معينة.

([1]). ينظر: مفاتيح الغيب، ج3، ص539.
([2]). ينظر: جامع البيان، ج2، ص69.
([3]). التحرير والتنوير، ج1، ص501.
([4]). الجامع لأحكام القرآن، ج1، ص397.
([5]). المصدر نفسه، ج1، ص400.

ومن هذا الباب؛ قوله عزّ وجل: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه: 43-44].

فقد وقف كثير من المفسّرين واللّغويين أمام معنى هذه الأداة واستشكلوا بقائها على بابها من الترجّي، لأنّ هذا المعنى لا يستقيم هذا في حقّ الله تعالى وهو العالم بعواقب الأمور[1]، فمنهم من صرف "لعلّ" عن بابها في الآية إلى الاستفهام، فمعنى الآية: فانظرا: هل يتذّكر فيُراجِعَ، أو يَخْشى اللهَ فيرتدعَ عن طغيانه؟[2]، ومنهم من صرفها إلى التعليل[3]، أي بمعنى: "كي"، ووجَّهوا معنى الكلام إلى: اذهبا إلى فرعون إنّه طغى، فادْعُواه وعِظاه ليتذكَّر أو يخشى.

بَيْدَ أنَّ سيبويه لم يستشكل بقاءها على الترجّي، وعلّل ذلك بأنّ: « العباد إنما كُلِّموا بكلامهم وجاء القرآن على لغتهم وعلى ما يَعْنون... فالعِلْم قد أتى من وراء ما يكون، ولكن اذهبا أنتما في رجائِكُما وطمَعِكُما ومبلغِكما من العِلم، وليس لهما أكثرُ من ذا ما لم يعلما. »[4]

وكأنّه خرّج وجْه الترجّي مُنسحباً على المرْسَل، وهو هنا موسى وهارون عليهما السّلام ومعناه: فقُولا له قَولاً ليّنا راجين أنْ يتذكّر أو يخشى.[5]

فوجه التعليل بـ"لعلّ" ليس كالتعليل بحرف المخصّص له، وإنْ حُمل عليه في الظاهر، لأنّ طبيعة الغرض بعد "لعلّ" التوقّع والترجي لا الثبوت والتوكيد، ولو استعملت النّظم في هذا الموضع "كي" فقيل: "فقولا قولا ليّنا كي يتذكّر أو يخشى" لأوهم المعنى ثبات مقتضى الدعوة، وتأكيد تذكّر فرعون وخشيته، وأنه إلى الاستجابة بالقول اللين أقرب إلى حصول توبته، لكن النظم عدل إلى الأداة "لعلّ" لتجعل من طلب الاستجابة أمرا مرجوا بتوفّر دواعه لكنّه غير متأكّد الوقوع، ودليل عدم تحقق رجائهما هو تعطّل استجابة فرعون، ولم يزده إلا تكذيبا وغيّا، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ ﴾ [طه: 56].

([1]) . ينظر: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، ج8، ص42.
([2]) . ينظر: جامع البيان، الطبري، ج18، ص313.
([3]) . ينظر: مغني اللبيب، ص379.
([4]) . الكتاب، ج1، ص331.
([5]) . ينظر: المفردات في غريب القرآن، ص451.

ومما يعزّز أنّ مجيء "لعلّ" لا يؤكد وقوع الفعل، بل قد يتأكّد ضدّه، هو ما رآه أبو حيان عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [الشعراء: 129]، يقول: ((الظّاهر أنّ "لعلّ" على بابها من الرّجاء، وكأنّه تعليل للبناء والاتخاذ، أي: الحامل لكم على ذلك هو الرجاء للخلود ولا خلود.))[1]

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾ [طه: 113].

فدلّ قوله تعالى: "لَعَلَّهُم" على رجاء توبتهم أي ((أنّ حال القرآن أن يقرّب النّاس من التقوى والتذكّر.))[2]

فلا يمكننا تأويل لعلّ بكي أو اللام، لأنّ لكلّ حرف نصيب دلالي مستقلّ عن أي حرف آخر ولا يمكن تأديته إلا من طريقه، إذ لو كانت مطابقة لهما في المعنى؛ لماذا عدل إليها النظم الحكيم؟ وهذا يؤيد ما ذهب إليه سيبويه من أنّ معناها الرجاء لكنّه متعلق بالمخاطبين دون المخاطب ((وإنما ذلك لأنّ الأصل ألا تخرج الكلمة عن معناها بالكلية، فـ"لعلّ" منه تعالى: حمل لنا على أن نرجو أو نشفق، كما أنّ "أو" المفيدة للشكّ، إذا وقعت في كلامه تعالى كانت للتشكيك أو الأبهام لا للشكّ، تعالى الله عنه.))[3]

وفي مجي حرف لعلّ إشارة إلى الحكمة من إنزال القرآن والغاية منه فقد نزل القرآن بهذا اللسان العربي المبيّن وصرف فيه من الوعيد رجاء أن يكون محدثا لهم التقوى أو الذكرى والموعظة.

ولو ورد التعليل بأسلوبه المعتاد كأن قال: "كي يتّقونا" فلا يؤدي نفس الغرض من التعليل بالرجاء، فـ"لعلّ" أوحت بأنّ مَن خاف من ضروب الوعيد، واتعظ وانزجر بفعل الله في الأمم المكذبة فهو حقيق بأن يرجو التقوى ويتوقّع حدوثها.

كما أوحت لعلّ في هذا السياق بنفاسة معنى التقوى بالنسبة للمؤمن وأنها من أغلى الهبات وأعزها، فكأنها تشير إلى أنّ المطلب المتعلّق بها لا يأتي إلا بعد مشقّة وبذل جهد، كما ورد في قوله سبحانه: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ

([1]) . البحر المحيط، ج8، ص178.

([2]) . التحرير والتنوير، ج16، ص315.

([3]) . شرح الرضي على الكافية، ج4، ص333.

تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأعراف: 63]. يقول الألوسي: "وجيء بحرف الترجي على عادة العظماء في وعدهم أو للتنبيه على عزّة المطلب، وأنّ الرحمة منوطة بفضل الله تعالى فلا اعتماد إلا عليه."[1]

ومن مواضع عدول النظم عن "كي" إلى استعمال "لعلّ" قوله عز وجلّ: ﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الشعراء: 39-40].

يرى الطبري أنّ "معنى "لعلّ" هنا كي، يقول: كي نتبّع السّحرة إنْ كانوا هم الغالبين موسى، وإنما قلت ذلك معناها: لأنّ قوم فرعون كانوا على دِين فرعون، فغير معقول أن يقول من كان على دين: أنظر إلى حجّة من هو على خلافي لعلّي اتبّع ديني، وإنما يقال: أنظر إليها كي ازداد بصيرة بديني فأقيم عليه."[2]

لكن العالِم بخبايا القلوب ومكنوناتها جاء بلعلّ دون كي، وهذا فيما أرى لأنّه سبحانه يعلم أنّ دينهم الأوّل غير متحقّق لهم، وأنّ مرجوّهم لن يتأكّد، وإلا لكانت "كي" مناسبة في هذا السياق بدليل أنه عاقبتهم غير ما توقّعوا، وانقلبوا على دين فرعون إلى ملّة موسى عليه السلام لقوله عزوجلّ: ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الشعراء: 46 -48]. ثمّ لم يزدهم تهديد فرعون إلا إيمانا ﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الشعراء: 50 -51].

فلا مقام لـ"كيْ" هنا لأنّه ليس إلى دين السّحرة آلت ملّتهم، فلمّا كانت العلّة تؤول بفعلها إلى التردّد بين الثبوت وعدمه جاءت "لعلّ" لتدلّ على هذا المعنى، لكن لما يراد بالفعل عدم تخلّفه في إرادة إثباته وتحقيقه تكون "كي" أنسب لهذا المقام من "لعلّ"، ألا ترى إلى قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ [طه: 29-34]. فلم يقل: "لعلّنا نسبّحك" لأنّ مقام العلّة واقع في إرادة الإثبات وتقرير الفعل وتأكيده، ولا مشقّة واستثقال في مطلب التسبيح والذّكر. والله أعلم.

([1]). روح المعاني، ج4، ص392.

([2]). جامع البيان، ج19، ص347.

الصورة السابعة: العدول إلى لام الجحود:

قال عزّ وجلّ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسۡتَغۡفِرُونَ ٣٣ ﴾ [الأنفال: 33].

بيّن ابن القيّم أنّ لام الجحود تجري في كلام العرب نفيا للفعل المستقبل بالسين أو سوف؛ مفرّقا بينها وبين لام كي التي يمكن إظهار أن بعدها، فأوضح أنّ النّظم جاء بلام الجحد حيث كانت نفيا لأمر متوقّع مخوف في المستقبل ثمّ جاء بعدها: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴾ فجاء باسم الفاعل الذي لا يختصّ بزمان حيث أراد نفي العذاب بالمستغفرين على العموم في الأقوال لا يخصّ مضيا من استقبال. [1]

ولهذا جاء بعد الكون المنفي اسم الفاعل فإنّ نفيه ممكن بزيادة الباء فيقال: وما كان الله بمعذبهم ولكن هذا ليس أبلغ من أسلوب لام الجحود لأنّ التأكيد في هذه الحال أشبه التأكيد بإنَّ واللام في الإثبات، حيث كرّر النّفي مرتين مرّة على الكون المنفي ومرّة على الفعل ومن هذا يجب ألا نطلق كلمة الزيادة على لام الجحود لأنّه يؤتى بها للتأكيد كما يؤتى بإنَّ لتأكيد الجملة الاسمية. [2]

ومن صور هذا العدول قوله سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ١١٧ ﴾ [هود: 117].فذكر فعل الهلاك بلام الجحود، ثم عدل عن ذكرها في قوله: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ٥٩ ﴾ [القصص: 59].

يرى الكرماني في سر اختلاف الصيغتين أنّ ((الله تعالى نفى الظلم عن نفسه بأبلغ لفظ يستعمل في النّفي لأنّ هذه اللام لام الجحود وتظهر بعدها "أنْ" ولا يقع بعدها المصدر، وتختصّ بكان معناه ما فعلت فيما مضى، ولا أفعل في الحال، ولا أفعل في المستقبل فكان الغاية في النّفي، وما في القَصَص لم يكن صريح ظلم فاكتفى بذكر اسم الفاعل وهو أحد الأزمنة غير معين ثم نفاه.))[3]

---

[1] . ينظر: بدائع الفوائد، ج1، ص100، وانظر: البرهان في علوم القرآن، ج4، ص345.

[2] . أسلوب التوكيد في القرآن، ص161.

[3] . أسرار التكرار، ص147.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الخاتمـــة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

خاتـــــمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وبعد: فهذه خاتمة هذا البحث الذي يدرس: " **العـدول في حروف المعاني في القرآن الكريم دراسة أسلوبية"** دراسة جمعت بين المعاني النحوية والنكت البلاغية، وقد ضمنتها أهمّ ما توصل إليه البحث، ومن ذلك ما يأتي:

- أبرز البحث مدى أهمية حروف المعاني في إنتاج الدلالة حين يعدل بها عن أصلها اللّغوي أو الافتراضي، فقد اعتنى بتحليلها النّحاة على أنها أساليب متوسّع في دلالتها تؤول في مجملها إلى المعنى الأصلي، كما اعتنى بها البلاغيون على أنها أنماط تحويلية تُدرى بخواصّ التراكيب تهدف إلى معرفة المزايا والخصائص، بل إنّ الأساليب العدولية في استعمال الحروف هي ميدان تنافس البلاغيين باعتبارها مؤشّرات على نسب الجمالية بما تفيده أنماطه من قدرة على التصوير الأسلوبي.

- نظر النّحويون إلى قضية العدول في الحروف من زاوية شمولية تتوقّف عند سلامة التركيب من اللّبس فعند اقتراب حرفين في الدّلالة فإنهم يحملون أحدهما على الآخر، فيقولون إنّ "إلا" تأتي بمعنى "لكن" في باب الاستثناء، و"ما" بمعنى "إنْ" في باب النّفي، و"إنْ" بمعنى "لو" في باب الشّرط وغيرها.

أمّا البلاغيون فتجاوزت نظرتهم مستوى الأساليب النّحوية إلى معالجة معاني الحروف المعدول بها أسلوبيا بوسائل ذوقية غير خاضعة لأنماط تركيبية معيّنة، فدلالة الحروف عندهم هي إنتاج سياقي يدرّه التركيب بتوخّي المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام.

- اتّضح لنا من خلال البحث أنّ قضية العدول في الحروف لا تقتصر على كونها قضية صورية تباينت في تذوّقها الأراء والمذاهب باعتبار نظرة كلّ واحد، ولا يتعدّى أثره ذلك إلى المعنى، بل إنّ العدول هو التعبير المتخيّر باللّفظ المناسب في مقامه المناسب بما يحقّق الإرادة الاستعمالية، كما يمثل أيضا ترك التعبير لكلّ حرف تبدوا مناسبته ظاهرة وحضّه في المعنى وفير؛ لكنّه مع شدّة التقارب والمناسبة لا يناسب ولا يليق، ويوهم غير المراد، ويخدش المعنى.

فالذي يعتقد أنّ الحروف المتقاربة متماثلة في تأدية المعنى فهو واهم، لأنّ حروف المعاني وإن تقارضت واشتركت في كثير من خصائصها فإنّ لها وظيفة معنوية لطيفة هي كالشّرف الذي لا يمكن النَّيل منه، أو المعدن الذي لا يمكن انسلاخه.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

– إذا كان الأسلوب العدولي يمثّل الاتساع اللّغوي فإنّ مفهومه في حروف المعاني يمتاز بالدّقة والضبط وذلك لتعلّقه بالمخالفة القصدية في الأسلوب بين الحروف المتقاربة في المعنى والفائدة فهو بذلك إجراء بلاغي تسوغه المقاربة المعنوية بين حرفين يتفقان في أمّ المعنى كالنفي أو العطف مثلا ويختلفان في خصوصية أداء المعنى وطرق توظيفه حسب المقامات فكل ما كانت الملابسة بين حرفين أكثر كان مفهوم العدول أوضح، لأنّ حيدة البليغ في نطاق واحد من الحسن إلى الأحسن دليل على صنعة تخيّره وبراعة عدوله، أمّا إذا كانت المقاربة بين الحرفين بعيدة كان مفهوم العدول أبعد، فمن خلال الدّراسة اتضح أنّ حروف المعاني ليست على درجة واحدة في تحقيق مفهوم العدول، فظاهرة العدول في الحروف كانت أكثر دورانا في حروف الجرّ والعطف ثم النفي والشرط، أما الأخرى فتختلف على حسب ما تحقّقه من معنى المشابهة والاشتراك.

– يمكن أن نستخلص أنّ اتباع منهج العدول في حروف المعاني هو الأنسب بلاغيا لمعالجة مسألة تناوب الحروف، بخاصة إذا كان الكلام على بلاغة القرآن العالية وبيانه السّاحر، لأنّه وإن دقّت المشابهة بين حرفين فإنها لا تصل إلى الملابسة، كما أنّ خفاء مسلك العلّة لا يعني عدمها، إذ لا بدّ لاصطفاء حرف معنى على آخر وتخيره من بدائله؛ من نكت بلاغية ومزايا أسلوبية، وإلا فتقرير قضية التناوب تثبط همم الدارسين عن التحقيق والتدقيق والتأمّل.

– معنى العدول في الاستفهام في الغالب ليس على مستوى تعاور حروفه وإحلال بعضها محل بعض في الظاهر إنما يقع فيه العدول من طريق عدم اقتصاره على ظاهر معناه الأصلي –طلب الفهم– إلى معان مستتبعة تستلهم من الأسلوب على حسب المساقات والأحوال مما أكسبه السّمة الأسلوبية البارزة التي تجسّد المواقف وتصوّر الأحوال.

كما نشير إلى أبرز علامة اتسم بها الاستفهام حين يعدل به وجهه وهي خفاء معناه وتفلّته حتى لا يكاد يضبط فيوصف حينها بتعدّد الأغراض والمقاصد إذ نجد في الموضع الواحد أكثر من معنى كالتوبيخ والتقريع والتعجب والاستبطاء، وهذا التعدد دليل على محاولة التغلب على تفسير معناه.

أما عن تحليل وجه العدول في الاستفهام هو أنّ التعبير جانَبَ الإبلاغ عن الغرض بملفوظ هذه المعاني المتعدّدة إلى تخريجها في الكلام على صورة الاستفهام، وجواب العدول في الاستفهام ينصبّ حول حكمة عدم مجيء أسلوب الاستفهام على هيئة المعاني التي خرج إليها؛ مع أنها هي المقصودة وبها يفسر الاستفهام.

– اتضح من خلال البحث أنّ الأسلوب العدولي في ضوء التعبير القرآني من الأنماط الذّوقية الخاضعة للاختلاف والتنوّع التي يُبسط فيها الاحتمال، بتنوّع المقتضيات والأحوال، وهذه النسبية تعود إلى اتّساع الرّؤى الكامن في طبيعة بصائر النّاس ودقّة التأمّلين، إذ لا نكاد نجد اجماع على كشف ملابسات حرف معنى معدول به عن وجهه وسمته بنفس التوجيه والمذهب وذلك لتباين أدوات التحليل ووجه التصوّر.

– إنَّ التأمُّل لأساليب العدول يحتاج إلى مراس لغوي فائق لإدراك الفوارق بين الحروف المتغايرة، أو الأساليب المتشابهة، أو نكت اختيار لفظة معيَّنة على غيرها من مرادفاتها، ولا يتأتى ذلك إلا بمقدار ما يفتح الله عليه، وما يوهب له من أدوات التدبّر للنصّ القرآني، ولا تزال عطاءات القرآن تدرّ بالفوائد رغم اختلاف الأحوال والأزمنة.

هذا ما يسّر الله تعالى لي جمعه وبحثه فما كان فيه من صواب فمن الله تعالى وحده وما كان فيه من زلل أوخلل فمن نفسي ومن الشيطان، وأسأل الله تعالى أن يقيل عثرتي وأن يعفوَ عن زلّتي وأن يجعل هذا العمل خالصا له سبحانه وحده، إنّه ولي ذلك والقادر عليه.

ــ وصلّى الله وسلّم على نبيّنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين ــ

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ملخّص البحث

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ملخص البحث:

الحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبيّنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين، أمّا بعد:

فهذه أطروحة بعنوان: « **العدول في حروف المعاني في القرآن الكريم ـ دراسة أسلوبية ـ** » أعدّت لنيل درجة الدّكتوراه، تدور فكرتها حول بلاغة استعمال الأدوات النّحوية من خلال إبراز ظاهرة العدول في حروف المعاني؛ تنظيرا عند النّحاة والبلاغيين، وتطبيقا في القرآن الكريم، وقد استقيت مادتها العلمية من تراث السّابقين والمعاصرين من علمَاء النّحو والبلاغة والتّفسير الذين اعتنوا بالقرآن الكريم من ناحية نظمه وأسلوبه.

وقد اشتملت هذه الأطروحة على مقدمة ومدخل وخمسة فصول وخاتمة، فبعد عرض عناصر المقدمة افتتحت بمدخل تمهيدي للموضوع بيّنت فيه معاني العدول وحروف المعاني وتقسيماتها ثم الأسلوبية وطريقة معالجتها للحروف. ثم يأتي الفصل الأوّل وهو النّظري أوضحت فيه قضية العدول في حروف المعاني عند النحويين والبلاغيين وقسّمته إلى مبحثين أولاهما خاص بالعدول عند النّحاة والآخر عند البلاغيين.

ثمّ قمْت بعدها بتطبيق ظاهرة العدول في الآيات القرآنية من خلال الفصول الأربعة المتبقية فجعلت الفصل الثاني للعدول في حروف الجرّ والعطف، أمّا الثالث فيختصّ بحروف الشرط والاستفهام، والرابع في حروف النّفي والاستثناء، أمّا الفصل الأخير فعالج حروف التوكيد والنّداء والتعليل.

وقد خَلُص البحث إلى جملة من النتائج منها:

- أنّ النّحاة نظروا إلى العدول في الحروف على أنه ضرب من مخالفة الأصل؛ ومع عدم معياريتها هي معلومة المجرى فصيحة الاستعمال، أما البلاغيون فقد عالجوا خروج حروف المعاني عن مقتضى الظاهر على أنها مؤشرا أسلوبية مرتبطة بنفسية المتلقي مستندين إلى السياق والمقام.
- إنّ منهج أسلوبية العدول الذي يراعي المخالفة ولا يهمل الأصل؛ يمثل أهم طريقة لمعالجة تقلبات حروف المعاني وخروجها عن أصولها اللّغوية فأي عدول من حرف إلى حرف أو تخيّر معنى على آخر لا بدّ أن يحوي مزايا تعبيرية، ونكت بلاغية بما يوافق حال المخاطب.

Summary of the search

Praise be to allah, lord of the worlds and peace be upon our prophet mohammed.

This thesis is entitled: “reversing in preposition’s meanings in holy quran –stylistic study.“-

It is done in order to get the doctorate degree its idea about the grammatical tools through the phenomenon of reversing in preposition’s meanings grammarians and rhetorical and applying contrary in quran. It got its scientific article from ancient heritages and the contemporary grammarians and those who are interested on quran interpretation, interns of its style and verse.

This thesis included, an introduction, entrance, five chapters and a conclusion.

After displaying the introduction components, and its way of prepositions study, it comes the first chapter which is theoretical where it is mentioned “the reverse of prepositions meanings, in the part of view of grammarians and rhetorical, this last one is also divided into two studies :

The first was used 5 explain the reverse from the point of view of grammarians, and the second explains the reverse in the point of view of rhetorical.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

I applied the phenomenon of reverse in quran in four chapters that last, the second one was about conjunctions and prepositions, the third chapter was specialized in question and condition prepositions, and the fourth one was about negation and exception prepositions. However, the last chapter studied emphasis, appeal, and explanation prepositions.

At the end of this thesis we arrived to a set of results which are:

- Grammarians saw that the reverse in against the origin, its standard, it's just a clear information to use. But, rhetorical saw that its stylistic index related to the psychology of the reader and refers, also the context.
- The stylistic of the reverse takes into account the variations and doesn't ignore the origin. It represents the most important way in studying the change in prepositions and its exit from the origin of the language, it must include expressive advantages and rhetorical, jokes, as it agrees the reader's case .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفهارس العامة:

- فهرس الآيات القرآنية
- فهرس الأعلام المترجم لهم
- فهرس الشواهد الشعرية
- ثبت المصادر والمراجع
- فهرس المتحتويات

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الآيات القرآنية

الآيـــة	رقمها	الصفحة
سورة البقرة		
﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾	22	245
﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾	23	166
﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾	24	167
﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾	26	310
﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾	30	53
﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا ....فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾	35	104
﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾	44	68-26
﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ ..بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾	49	149
﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (52)﴾	52	316
﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (53)﴾	53	317
﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾	58	106
﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾	74	143
﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾	87	15
﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾	94	218
﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾	95	216-4
﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾	96	171
﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (123) ۞ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ....قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾	123-124	236
﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ﴾	142	278

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ ﴾		
﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ ﴾	143	311
﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ﴾	145	278-170
﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾	146	278
﴿ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم ﴾	100	42
﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾	150	250
﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ ﴾	167	54
﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ﴾	173	60
﴿ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ .....وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾	177	93
﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ﴾	187	-40-17 41
﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ ﴾	210	186
﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ﴾	214	215
﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾	259	209
﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ ﴾	266	191-170
﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾	286	90-89
سورة آل عمران		
﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾	20	194

99	25	﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾
64	36	﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾
279-278	60-59	﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (59) الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ (60) ﴾
61	62	﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ ﴾
148	91-90	﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (90) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ...وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾
134	111	﴿ وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (111) ﴾
254	112	﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ ﴾
311	140	﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾
		سورة النساء
130	3	﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾
161	6	﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ ....وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ﴾
263	10	﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾
163	15	﴿ وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ ...أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾
163	16	﴿ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾
122	17	﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾
163	25	﴿ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾
264	30	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ ...فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾
263	48	﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾

الآية	رقمها	الصفحة
﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا (٥٤) ﴾	54	188
﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۗ ... لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾	56	263
﴿ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) ﴾	62	132
﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾	78	172
﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢) ﴾	82	171
﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً ﴾	92	254
﴿ لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ ﴾	95	242
﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ ﴾	135	172
﴿ لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ﴾	148	250
﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ﴾	153	314
سورة المائدة		
﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ﴾	6	137
﴿ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾	44	193
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾	45	86
﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ .... أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾	60	175
﴿ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾	67	2011
﴿ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾	91	68-179-196

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

سورة الأنعام		
﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (1) .....ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (2)﴾	2-1	127-66
﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾	6	115
﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ...﴾	7	171
﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾	8	126
﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (11)﴾	11	114
﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾	23	207
﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾	25	225
﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (27)﴾	27	290
﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾	31	289-90
﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾	32	75
﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾	56	116
﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾	103	235-219 238
﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾	104	90
﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (105)﴾	105	309
﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾	119	311
﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾	131	208
﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾	144	311
﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾	158	187-186

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

سورة الأعراف		
﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ﴾	4	137-4
﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ﴾	11	255-124
﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ١٢﴾	12	281
﴿قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ١٣﴾	13	283
﴿قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤﴾	14	283
﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا ....فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾	19	104
﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣﴾	23	280
﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾	30	81
﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ﴾	33	60
﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ ...وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٥٣﴾	53	187-186
﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٦٣﴾	63	320
﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾	64	74
﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ١١٣ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ١١٤﴾	113	200
﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ١٢٣﴾	123	265-200
﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٢٤﴾	124	128
﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٣١﴾	131	158

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ﴾	136	137
﴿ لَن تَرَانِي ﴾	143	219
﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (149) ﴾	149	280
﴿ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾	150	301
﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ ﴾	161	106
﴿ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ ﴾	176	75
﴿ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ﴾	187	100
﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾	189	124
سورة الأنفال		
﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (22) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾	22	276
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾	24	98
﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾	33	321
﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (45) ﴾	45	316
﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴾	66	276
سورة التوبة		
﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (13) ﴾	13	193
﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ .... وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾	60	69
﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا ﴾	74	207

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ﴾	107	226
﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ ﴾	113	172
﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾	125	310
﴿ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا ۚ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٢٧) ﴾	127	133
سورة يونس		
﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ﴾	12	145
﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ ﴾	16	231
﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ ﴾	23	89
﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ۚ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ﴾	35	96
﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾	39	215
﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾	61	224
﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ ﴾	73	74
﴿ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧) ﴾	77	198
﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) ﴾	94	279-278
﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ ﴾	98	252
﴿ فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (١٠٢) ﴾	102	184
﴿ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾	108	88

الآية	رقمها	الصفحة
سورة هود		
﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾	19	84
﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾	23	83
﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ﴾	32	297
﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾	37	78
﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾	38	80
﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾	40	-73-72 74
﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي ﴾	44	292
﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ۖ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۖ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾	46	280
﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾	47	280
﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا ﴾	62	279
﴿ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾	63	246
﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾	87	297-199
﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ﴾	88	226
﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ﴾	111	248
﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾	117	321
سورة يوسف		
﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ﴾ ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ ﴾	5-4	296

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) ﴾	17	171
﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ﴾	29	299
﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا ﴾	31	22
﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) ﴾	32	258
﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾	40	227
﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ ﴾	46	300
﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ﴾	59	277-112
﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ﴾	70	112
﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠) ﴾	80	222
﴿ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾	84	290-289
﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) ﴾	89	182
﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) ﴾	91	262
﴿ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ﴾	96	285
﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) ﴾	97	263-262
﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾	99	112
﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾	105	80
سورة الرعد		
﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾	5	168
﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾	11	313
﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ ﴾	33	26

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

سورة ابراهيم		
﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡ﴾	6	149
﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾	9	92
﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾	10	61
﴿قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾	11	62-61
﴿لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡ﴾	21	274
﴿أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾	24	21
سورة الحجر		
﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾	6	53
﴿قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾	54	197-68
﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ٨٥ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ٨٦﴾	86-85	275
سورة النحل		
﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِ﴾	7	75
﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٢٥﴾	25	269
﴿فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٢٩﴾	29	269
﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٠﴾	30	270
﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُ﴾	77	265
﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٩٨﴾	98	137
﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾	124	265

الآية	رقمها	الصفحة
سورة الاسراء		
﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾	7	90
﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾	9	95
﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾	16	138
﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾	24	87
﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾	37	76
﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾	40	191
﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾	44	227
﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾	57	316
﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾	60	207
﴿ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ﴾	67	243
﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾	70	75
﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٣﴾ ﴾	83	160
﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾	93	183
﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي ﴾	100	14-13
﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۖ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ ﴾	101	297
﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾	111	209
سورة الكهف		
﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾	28	129
﴿ وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾	42	291

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا ﴾	56	122-120
﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ ﴾	57	120
﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ﴾	60	222
﴿ رَكِبَا ٱلسَّفِينَةِ فِي خَرَقَهَا ﴾	71	146-74
﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ ﴾	74	146
﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا ﴿٩٠﴾ ﴾	90	207
﴿ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ﴾	103	176
﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ ﴾	110	62
سورة مريم		
﴿ وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ﴾	4	213
﴿ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ﴿٢٠﴾ ﴾	20	208-205
﴿ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴿٢٨﴾ ﴾	28	205
﴿ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ ﴾	42	296
﴿ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴾	43	96
سورة طه		
﴿ وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ ﴾	9	181
﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ ﴾	12	276
﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾ ﴾	15	276-275
﴿ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴿٣١﴾ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴿٣٢﴾ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾	41-29	320
﴿ إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ ....وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴾	39-38	307-78

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾	39	78
﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾	40	306
﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾	44	316-33 318
﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ٥٦﴾	56	318
﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ٦٠﴾	60	118
﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾	86	179-178
﴿قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ٩١﴾	91	223
﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ٩٣ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾	94-92	302-301
﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾	113	319
سورة الأنبياء		
﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾	22	242
﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾	47	100
﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ٧٩﴾	79	85
﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ٨٠﴾	80	177
﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾	81	85
﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ٩٢ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ٩٣﴾	92	110
﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾	94	111
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ١٠١﴾	101	81
﴿وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ١٠٩﴾	109	230

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

سورة الحج		
﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٍ﴾	11	7
﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡ﴾	53	84
﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡ﴾	54	83
﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ...إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾	63	139
﴿قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾	72	175
﴿لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥ﴾	73	221
سورة المؤمنون		
﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾	16-15	267
﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ .....وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ﴾	22-21	152-74
﴿فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡ﴾	27	81
﴿فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ﴾	28	73
﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾	33	228
﴿أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ ﴿٣٥﴾﴾	35	228
﴿هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾	36	228
﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾	37	227
﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۢ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾	53-52	110
﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾	61	82
﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ﴾	91	209-207
سورة النور		

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾	33	162
﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾	35	96
سورة الفرقان		
﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾	28-27	291
﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾	30	294
﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾	63	76
سورة الشعراء		
﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾	7	26
﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾﴾	18	199
﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾	27	200
﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾	29	200
﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾	40	320-316
﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾	41	200
﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾﴾	48-46	320
﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾	49	200-128 264
﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾	51-50	320
﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾	71-70	50
﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾	77	243

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾	81-79	111
﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (99)﴾	99	247
﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (112) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (113) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (114) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (115)﴾	-112 115	229
﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (119)﴾	119	74
﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (129)﴾	129	319
﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (153) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾	-153 154	150-5
﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (185) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾	-185 186	150-5
﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (221)﴾	221	176
سورة النمل		
﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (10) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾	11-10	251
﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾	15	129
﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (67) لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (68)﴾	68-67	225-116
﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (70)﴾	70	116
﴿قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (72)﴾	72	116
﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (69)﴾	69	114
سورة القصص		
﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7)﴾	7	306
﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾	8	307
﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ﴾	9	307

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الآية	رقمها	الصفحة
﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ...وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾	13	306-305
﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً ....وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾	23	234
﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾	26	236
﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾	59	321-208
﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾	76	276
سورة العنكبوت		
﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾	31	284
﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ ...إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾	33	284
﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾	64	98
﴿رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ﴾	65	74
سورة الروم		
﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟﴾	9	26
﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾	33	159
﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾	36	158
﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾	51	170
﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾	53	229
سورة لقمان		
﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾	13	296
سورة السّجدة		
﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾	12	122-120

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

274	13	﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾
233	17	﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) ﴾
120-67	22	﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ﴾
		سورة الأحزاب
207	4	﴿ مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾
223	16-15	﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا (١٥) قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾
135	60	﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم ...لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴾
		سورة سبأ
224	3	﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾
-85-66 292	10	﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾
185	17	﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (١٧) ﴾
3	24	﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾
253	37	﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾
88	50	﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ﴾
		سورة فاطر
228	**23-22**	﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ (٢٣) ﴾
		سورة يس
271	17-13	﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ... وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾

﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾	30	65
﴿ وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢) ﴾	32	248
﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١) ﴾	41	73
سورة الصّافات		
﴿ إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (٤١) ﴾	41-38	255
﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾	147	42
﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) ﴾	149	191
﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾	-171 173	81
سورة ص		
﴿ وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا ﴾	6	29
﴿ بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴾	8	214
﴿ إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (١٤) ﴾	14	248
﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) ﴾	36	85
﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) ﴾	75	281
﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٧٦) ﴾	76	281
﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) ﴾	77	283
﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) ﴾	79	283
سورة الزمر		
﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾	6	124
﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾	8	108

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾	20-19	255
﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ﴾	45	108
﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾	49	108
﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾	56	290
﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾	71	270-81
﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾	72	269
سورة غافر		
﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾	12	159
﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾	28	312
﴿إِنَّ السَّاعَةَ **لَآتِيَةٌ** لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾	59	275
﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾﴾	70	270
﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾	76	270
﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾	80	74-72
سورة فصلت		
﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾	34	231
﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾	39	139
﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾	40	35
﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾	51	159
الشورى		
﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾	25	96

﴿ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ ﴾	48	158
سورة الزخرف		
﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ ﴾	16	189-34
﴿ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾	35	248
﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ ٤٩ ﴾	49	298
﴿ أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ ﴾	52	35
﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٧٢ لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴾	73	152
﴿ وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ ﴾	77	219
﴿ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ٨٨ ﴾	88	295
سورة الجاثية		
﴿ يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٨ ﴾	8	121
﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾	24	227
﴿ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا ﴾	32	226
سورة الأحقاف		
﴿ قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٩ ﴾	9	230-229
﴿ وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٧ ﴾	17	225
سورة الحشر		
﴿ مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا ﴾	5	21

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

سورة الممتحنة		
﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾	4	231
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾	10	277
سورة الجمعة		
﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٣﴾	3	213
﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ﴾	6	219-218
﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾	7	216-4
سورة المنافقون		
﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾	4	159
﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ...وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾	10	300
سورة التغابن		
﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾	9	99
سورة محمد		
﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾	38	165
سورة الحجرات		
﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾	7	89
﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا ....وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾	9	165-164
﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾	12	191
﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾	14	2011
﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا﴾	28	165
﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ... أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾	15	135

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

96	17	﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ ﴾
		سورة ق
198	3-2	﴿ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ ﴾
198	4	﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾
208	38	﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾
		سورة الذاريات
245	36	﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾
		سورة الطور
190	36	﴿ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾
190-189	39	﴿ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾
		سورة النجم
189	24	﴿ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾
90	39	﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾
268	44	﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ ﴾
268	47	﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ ﴾
		سورة القمر
78	14-13	﴿ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾
		سورة الرحمن
183	60	﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾
		سورة الواقعة
274	61-60	﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ ﴾

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ .... لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾	70-63	273
﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ ﴾	75	232
سورة الحديد		
﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾	16	196
سورة الطلاق		
﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ ﴾	2	138
سورة الملك		
﴿ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴾	20	29
﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾	22	73
سورة الحاقة		
﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ ﴾	11	-74-73 75
سورة نوح		
﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ ﴾	6	246
﴿ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴾	24	247
﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا ﴾	25	314
سورة الجن		
﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾	22-20	220
سورة المدثر		
﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ ﴾	15-11	127

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

133-117 226	25-18	﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ١٨ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ٢٢ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ٢٣ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ٢٤ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ٢٥﴾
207	34-32	﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ٤٢ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ٤٣ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ٤٤﴾
		سورة المعارج
16	1	﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾
		سورة القيامة
232	31	﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ٣١﴾
		سورة الإنسان
-180-42 213	1	﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾
142-37	24	﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا﴾
		سورة المزمل
53	2-1	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢﴾
277	20	﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ **أَنَّكَ** تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾
		سورة البلد
64	3	﴿وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ﴾
		سورة عبس
116	22-17	﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ١٧ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ١٨ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ٢٢﴾
		سورة الانفطار
193-182	6	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦﴾
193	19	﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾
		سورة المطففين

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ﴾	30-29	80
﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾	31	80
سورة الأعلى		
﴿وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ٥﴾	5-4	141
﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧﴾	17-16	141
سورة الغاشية		
﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ١﴾	1	180
سورة الفجر		
﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦﴾	6	178
﴿وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ٢٣ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ٢٤﴾	24-23	98
سورة الشمس		
﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧﴾	7-5	64
سورة العلق		
﴿لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾	15	220
سورة الضحى		
﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ٥﴾	5	264
سورة القدر		
﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ٤﴾	4	313
سورة الكافرون		
﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾	3-1	237
سورة الإخلاص		
﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ٣﴾	3	211

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الأعلام المترجم لهم:

العَلَـــــــم	الصّفحة
أمّية بن أبي عائذ	31
أيوب بن موسى الحسني (أبو البقاء الكفوي)	25
غيلان بن عقبة(ذو الرمة)	41
محمود بن أحمد بن موسى (بدر الدين العينى)	122

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الأبيات الشعرية:

الصّفحة	البيت
2	فَلَمَّا أن صَرَمْتُ، وَكَانَ أمْري ... قَوِيماً لَا يَمِيلُ بِهِ العُدولُ
31	وَيَأوِي إِلَى نِسْوَةٍ عُطّلٍ ... وَشُعْثٍ مَرَاضِيعَ مِثْلَ السَّعَالي
32	لا تَنْه عن خُلُقٍ وتَأتي مِثْلَه ... عارٌ عَليكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظيمُ
34	أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكبَ المَطايا... وأنْدَى العَالَمِينَ بُطُونَ رَاحِ
38	وكان سِيَّان ألا يَسرحوا نَعَما ... أو يَسْرَحوه بِها واغبرِت السُوحُ.
39	أنَّى جَزَوْا عامِرا سَيْئاً بِفِعْلِهِمُ ... أمْ كَيْفَ يَجْزُونَنِي السُوأى مِن الحَسَنِ
39	أمْ كَيْفَ يَنْفَعُ ما تُعْطِى العَلُوقُ به ... رِئْمَانُ أنْفٍ إذا مَا ضُنَّ بِاللّبن
41	بدتْ مثل قرن الشمس في رَوْنق الضُّحى ... وصورتها أو أنت في العين أملح
43	وكان سِيّانِ ألا يَسْرحوا نَعَما ... أو يَسْرحوه بها واغبَّرت السُوح
52	فيا لك من ليلٍ كَأنَّ نُجُومَهُ ... بأمراسِ كتّانٍ إلى صُمّ جَندَلِ
52	واحَرَّ قَلْبَاهُ ممَنْ قَلْبُهُ شَبِمُ ... ومَنْ بجِسْمِي وَحَالِي عِنْدَهُ سَقَمُ
54	فلَسْتُ بمدركٍ مَا فاتَ مِني ... بـــ"لهفَ" ولا بــــ"ليتَ" ولا "لو انّي"
87	وَمَا يَكُ مِنْ عُسْري ويُسْري، فإنَّني ... ذَلولٌ بحاجِ المُعْتَفِينَ، أَرِيبُ.
92	وأرْغَبُ فِيهَا عَنْ لَقِيطٍ ورَهْطه ... وَلَكِنني عَنْ سِنْبِس لَسْتُ أرغبُ.
94	شَهِدتُ طِرَادَهَا فَصَبَرتُ فِيهَا ... إِذَا مَا هَلَّلَ النَّكْسُ اليَرَاعُ
101	أولَئِكَ قَوْمِي قَدْ مَضَوْا لِسَبِيلِهِمْ ... كَمَا قَدْ مَضَى مِنْ قَبْل عَادٌ وَتُبَّعُ
117	ألاَ يَا اسْلَمِي ثُمَّ اسْلَمِي ثُمَّتَ اسْلَمِي
121	لاَ يَكْشِفُ الغُمَّاءَ إلاّ ابْنُ حُرَّة ... يَرَى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ثُمَّ يَزُورُهَا.
124	سألت ربيعةَ: من خيرُها ... أباً ثم أمّا؟ فقالت: لِمَهْ.
142	نَالَ الخِلافَةَ أوْ كَانت لَهُ قَدَرا ... كَمَا أتى ربّه مُوسى عَلَى قَدَر
157	إِذا أنتَ أكرَمْتَ الكَريمَ مَلَكْتَه ... وإنْ أنْتَ أكرَمْتَ اللّئيمَ تَمَرَّدَا.
157	إِذا هِيَ حَثَّتْهُ عَلَى الْخَيْرِ مَرَّةً ... عَصَاهَا، وإِنْ هَمَّت بِشَرٍّ أطَاعَهَا

أزِفَ التَّرَحُّلُ غَيْرَ أنَّ رِكَابَنَا ... لمَّا تَزُلْ بِرِحَالِنَا وَكَأنْ قَدِ	212
وكُلُّ أخٍ مُفَارِقَهُ أخُوهُ ... لَعَمْرُ أبِيكَ إلّا الفَرْقَدَانِ	250-251
وقفتُ فيها أصَيلاناً أسائِلُها... عَيّتْ جَواباً، وَمَا بالرَّبْعِ من أحدٍ	252
إلّا أواريَّ لأياً مَا أبَيِّنُهـــا ... والنُّؤي كالحَوْضِ بالمظلومةِ الجَلَدِ.	252

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثبت المصادر والمراجع

- **القرآن الكـــريم، برواية حفص عن عاصم.**

– الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1394هـ- 1974م.

– القاموس المحيط، الفيروزأبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط8، 1426هـ- 2005م.

– الاختيارين، علي ابن سليمان الأخفش، ت: فخر الدين قباوة، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1 1420هـ- 1999م.

– الأدوات النحوية في كتب التفسير، محمود أحمد الصغير، دار الفكر، دمشق، ط1، 1422هـ- 2001م.

– ارتشاف الضرب من لسان العرب، أبو حيان الأندلسي، ت: رجب عثمان محمد، مكتبة الخانجي القاهرة ط1، 1418هـ-1998م.

– الأزهية في علم الحروف، علي بن محمد الهروي، ت: عبد المعين الملوحي، مطبوعات مجمع اللغة العربية دمشق، 1413هـ- 1993م.

– أساليب العطف في القرآن الكريم، مصطفى حميدة، الشركة المصرية العالمية للنشر، مصر، ط1 1999م.

– أساليب النفي في القرآن، أحمد ماهر البقري، دار المعارف، ط2، 1405هـ- 1985م.

– الاستثناء في التراث النحوي والبلاغي، كاظم إبراهيم كاظم، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط1، 1418هـ - 1998م.

– أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، ت: محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، دط.

– أسرار التكرار في القرآن، الكرماني، ت: عبد القادر أحمد عطا، دار الفضيلة.

– أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، حسن طبل، دار الكتب، 1990م، دط.

– أسلوب التوكيد في القرآن، محمد حسين أبو الفتوح، مكتبة لبنان، بيروت، ط1، 1995م.

– الأسلوبية والأسلوب، عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، تونس، ط3.

– الأسلوبية وتحليل الخطاب، منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، ط1، 2002م.

– الأصول دراسة ابستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، عالم الكتب، القاهرة، 1420هـ- 2000م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- الأصول في النحو، ابن السراج، ت: عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1988م.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت لبنان 1415هـ-1995م.
- الإعجاز الصرفي في القرآن، عبد الحميد أحمد هنداوي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1 1429هـ- 2008م.
- إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين الدرويش، دار الإرشاد، حمص، سوريا، ط3، 1412هـ - 1992م.
- إعراب القرآن، أبو جعفر النحاس، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1421هـ.
- إعراب القرآن، الزجاج، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط4، 1420هـ.
- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط15، أيار- مايو، 2002م.
- الإنصاف في مسائل الخلاف، ابن الأنباري، المكتبة العصرية، ط1، 1424هـ-2003م.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، ت: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث، بيروت ط1، 1418هـ.
- الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين القزويني، ت: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت ط3.
- البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ت: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، 1420هـ.
- بدائع الفوائد، ابن القيم، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، دت.
- بديع القرآن، ابن أبي الأصبع، ت: حنفي محمد شرف، نهضة مصر للطباعة والنشر، دط.
- البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط3 1404هـ-1984م.
- البلاغة فنونها وأفنانها، فضل عباس، دار الفرقان للنشر والتوزيع، اليرموك، ط4، 1417هـ-1997م
- البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، ط1، 1994م.
- البيان في روائع القرآن، تمام حسان، عالم الكتاب، القاهرة، ط1، 1413هـ- 1993م.
- تاج العروس، الزبيدي، (ج36، ت: عبد الكريم العزباوي، التراث العربي، الكويت، ط1 1422هـ- 2001م)
- تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، ت: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر، ابن أبي الأصبع العدواني، ت: حنفي محمد شرف، الجمهورية العربية المتحدة.
- التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م.
- التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار الشروق، الأردن، ط17.
- التضمين النحوي في القرآن الكريم، محمد نديم فاضل، مكتبة دار الزمان، المملكة العربية السعودية، ط1، 1426هـ-2005م.
- التطور النحوي للغة العربية، برجشتراسر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1414هـ-1994م.
- التعبير القرآني، فاضل صالح السامرائي، دار عمار، عمان، ط4، 1427هــ-2006م.
- تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم) أبو السعود العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
- توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك، حسن بن قاسم المرادي، تحقيق: عبد الرحمن علي سليمان، دار الفكر العربي، ط1، 1428هـ-2008م.
- جامع البيان، ابن جرير الطبري، ت: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ-2000م.
- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ت: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة ط2 1384هـ - 1964م.
- الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه، محمود صافي، دار الرشيد، دمشق- بيروت، ط4،1418هـ
- الجنى الداني في حروف المعاني، المرادي، تحقيق: فخر الدين قباوة، ومحمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط1، 1413هـ- 1992م.
- حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، شهاب الدين الخفاجي، دار صادر، بيروت، دط.
- حاشية القونوي على تفسير البيضاوي، عصام الدين اسماعيل الحنفي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ط1 1422هـ-2001م.
- الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، عبد الله صولة، دار الفارابي، بيروت، لبنان ط1 2001م.
- حروف الجرّ في العربية بين المصطلح والوظيفة، نور الهدى لوشن، المكتب الجامعي الحديث 2006م.

- حروف المعاني بين الأصالة والحداثة، حسن عباس، مكتبة الأسد، دمشق، 2000م.
- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون مكتبة الخانجي، القاهرة، ط4، 1418 هـ - 1997م.
- خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة ط7.
- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1 1413هـ -1992م.
- الخصائص، ابن جني، ت: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، دط.
- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، السمين الحلبي، ت: أحمد محمد الخراط، دار القلم. دمشق.
- درة التنزيل وغرة التأويل، الإسكافي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط1، 1422هـ-2001م.
- دلالات التراكيب دراسة بلاغية، محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط2، 1408هـ - 1987م.
- دلالات التعبير القرآني ودورها في التحليل النفسي لشخصية المنافق، أمل إسماعيل صالح، دار النفائس بيروت، ط1، 1435هـ-2014م.
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ت: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط3، 1413هـ-1992م.
- دليل السالك إلى ألفية ابن مالك، عبد الله الفوزان، دار المسلم، ط1، 1998م.
- دور الحرف في أداء معنى الجملة، الصادق خليفة راشد، منشورات جامعة قازيونس، بنغازي 1996م
- ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1403هـ - 1983م.
- ديوان النابغة الذبياني، مطبعة الهلال، الفجالة، القاهرة، 1911م.
- ديوان امرئ القيس، دار المعرفة، بيروت، ط3، 1425- 2004م.
- ديوان جرير، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1406هـ- 1986م.
- ديوان شعر مسكين الدارمي، ت: كارين صادر، دار صادر، بيروت، ط1، 2000م.
- رصف المباني في شرح حروف المعاني، أحمد المالقي، ت: أحمد محمد الخراط، مطبوعات مجمع اللّغة العربية دمشق.

جمعية أمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- روح المعاني، الألوسي، ت: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1 1415هـ- 1994م.
- سر صناعة الإعراب، ابن جني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1421هـ- 2000م
- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ابن عقيل، ت: محي الدين عبد الحميد، دار التراث، القاهرة ط20 1400هـ-1980م.
- شرح أبيات الحماسة، أحمد المرزوقي، ت: غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1 1424هـ-2003م.
- شرح أبيات سيبويه، السيرافي، ت: محمد علي الريح هشام، دار الفكر، القاهرة، مصر، 1394هـ- 1974م.
- شرح التسهيل، محمد ابن مالك، ت: عبد الرحمن السيد، هجر للطباعة والنشر، ط1، 1410هـ- 1990.
- شرح الرضي على الكافية، رضي الدين الاستراباذي، جامعة قازيونس، 1398هـ- 1978م.
- شرح الكافية الشافية، ابن مالك، ت: عبد المنعم أحمد هريدي، مركز البحث العلمي وإحياء التراث مكة المكرمة ط1.
- شرح المفصل، ابن يعيش، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ-2001م.
- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، ابن القيم، دار المعرفة، بيروت، لبنان، دط 1398هـ- 1978م.
- الصاحبي في فقه اللغة، ابن فارس، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1418هـ-1997م.
- صحيح البخاري، محمد بن اسماعيل البخاري، ت: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة ط1 1422هـ.
- ضياء السالك إلى أوضح المسالك، محمد عبد العزيز النجار، مؤسّسة الرسالة، ط1، 1422هـ - 2001م.
- الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحي بن حمزة العلوي، المكتبة العنصرية، بيروت، ط1 1423هـ.
- طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن القيم، دار السلفية، القاهرة، مصر، ط2، 1394هـ.
- علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، صلاح فضل، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1419هـ- 1998م.

- عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- غرائب القرآن ورغائب الفرقان، النيسابوري، ت: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ط1 1416هـ.
- غريب القرآن، ابن قتيبة، ت: أحمد صقر، دار الكتب العلمية، 1398هـ- 1978م.
- الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ت: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع القاهرة دط.
- الكتاب، سيبويه، ت: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1407هـ- 1988م.
- الكشاف، الزمخشري، ت: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث، بيروت.
- كشف الأسرار شرح أصول البزدوي، علاء الدين البخاري الحنفي، دار الكتاب الإسلامي.
- كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ابن جماعة، ت: عبد الجواد خلف، دار الوفاء، المنصورة، ط1 1410هـ-1990م.
- الكليات، أبو البقاء الكفوي، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسّسة الرسالة، بيروت 1419هـ -1998م.
- اللامات، أبو القاسم الزجاجي، ت: مازن المبارك، دار الفكر، دمشق، ط2، 1405هـ-1985م.
- اللباب في علل البناء والإعراب، أبو البقاء العكبري، ت: غازي مختار طليمات، دار الفكر، دمشق ط1 1995م.
- المفصل في صنعة الإعراب، الزمخشري، ت: علي بوملحم، مكتبة الهلال، بيروت، ط1، 1993م.
- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ.
- اللغة العربية مبناها ومعناها، تمام حسان، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1994م.
- لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، فاضل السامرائي، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الأردن ط3 1423هـ-2003م.
- اللمع في العربية، ابن جني، ت: فائز فارس، دار الكتب الثفاقية، الكويت، دط.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، ت: محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية بيروت 1420هـ.
- مجاز القرآن، أبو عبيدة، ت: محمد فؤاد سازكين، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1381هـ.

- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، ابن جني، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية 1420هـ- 1999م.
- المحرر الوجيز، ابن عطية، ت: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 1422هـ-2001م.
- مختصر التفتازاني على تلخيص المفتاح ضمن شروح التلخيص، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- مداخل إعجاز القرآن، محمود شاكر، مطبعة المدني، المؤسسة السعودية بمصر، ط1، 1423هـ - 2002م
- مدارك التنزيل وحقائق التأويل، عبد الله بن أحمد النسفي، دار الكلم الطيب، بيروت، ط1 1419هـ - 1998م.
- المزهر في علوم اللغة، السيوطي، تحقيق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 1998م.
- معالم التنزيل، أبو محمد البغوي، ت: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، ط1 1420هـ.
- معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق الزجاج، ت: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتاب، بيروت، ط1 1408هـ- 1988م.
- معاني القرآن، أبو زكريا الفراء، ت: محمد علي النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، ط1.
- معاني القرآن، الأخفش، ت: هدى محمود قراعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1411هـ- 1990م.
- معاني النحو، فاضل السامرائي، (ج4، جامعة بغداد، 1990م).
- معترك الأقران في إعجاز القرآن، السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1408هـ ـ 1988م.
- إعراب القرآن، زكريا الأنصاري، ت: موسى مسعود، ط1، 1421هـ- 2001م.
- معجم حروف المعاني، محمد حسن الشريف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1417هـ- 1996م
- معجم مصطلحات النحو والصرف والعروض والقافية، محمد إبراهيم عبادة، دار المعارف، القاهرة.
- معجم مقاييس اللغة، أحمد ابن فارس، ت: عبد السلام هارون، دار الفكر، 1399هـ- 1979م.
- المعنى في البلاغة العربية، حسن طبل، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 1418هـ- 1998م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام الأنصاري، ت: مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله، دار الفكر دمشق، ط6، 1985م.
- مفاتيح الغيب، الرازي، دار إحياء التراث، بيروت، ط3، 1420هـ.
- مفتاح العلوم، السكاكي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1407هـ-1987م.
- المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ت: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية دمشق بيروت، ط1، 1412هـ.
- المفضليات، المفضل بن محمّد الضبي، ت: أحمد محمد شاكر، وعبد السلام هارون، دار المعارف القاهرة ط6.
- المقتضب، المبرد، ت: محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب، بيروت.
- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل، ابن الزبير الغرناطي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- من أسرار اللغة، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط6، 1978م.
- من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، محمد الأمين الخضري، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1 1409هـ-1989م.
- من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم الفاء وثم، محمد الأمين الخضري، مكتبة وهبة، القاهرة ط1 1414هـ-1993م.
- من بلاغة القرآن، أحمد بدوي، نهضة مصر، القاهرة، 2005م.
- من بلاغة النظم العربي دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، عبد العزيز عبد المعطي عرفة، عالم الكتب بيروت ط2، 1405هـ- 1984م.
- مناهل العرفان، الزرقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركائه، ط3، دت.
- نتائج الفكر، السهيلي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1412هـ- 1992م.
- نظرية الأصل والفرع في النحو العربي، حسن خميس الملخ، دار الشروق، الأردن، ط1، 2001.
- نظرية اللغة في النقد العربي، عبد الحكيم راضي، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، (د ط).
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، دار الكتب الإسلامي، القاهرة، دت.
- النكت في القرآن، علي بن فضّال القيرواني، ت: عبد الله الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت 1428هـ -2007م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- نمط صعب ونمط مخيف، محمود محمد شاكر، دار المدني، جدّة، ط1، 1416هـ- 1996م.
- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، السيوطي، ت: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ط1 1418هـ -1998م.
- الوجوه والنظائر، أبو هلال العسكري، ت: محمد عثمان، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1 1428هـ- 2007م.

- **الأطروحات والرسائل:**

- البنى النحوية وأثرها في المعنى، أحمد عبد الله حمود العاني، (أطروحة دكتوراه)، جامعة بغداد 1423هـ-2003م.
- بنية الأساليب النحوية في الأداء القرآني، عبد الله محمد خلف القرارعة، (أطروحة دكتوراه) جامعة مؤتة 2013م.
- حروف المعاني بين الأداء اللّغوي والوظيفة النحوية، عبد الله حسن عبد الله، (دكتواره)، جامعة جنوب إفريقيا، 2010م.
- سورة النساء: دراسة بلاغية تحليلية، خديجة محمد أحمد البنّاني، (أطروحة دكتوراه)، جامعة أم القرى 1422هـ-2001م.
- سورة هود دراسة لخصائص نظمها وأسرارها البلاغية، دخيل الله بن محمد الصحفي، (أطروحة دكتوراه) جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1413هـ-1993م.

- **المجلات:**

- العدول في البنية التركيبية قراءة في التراث البلاغي، إبراهيم بن منصور التركي، مجلة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، العدد40، ربيع الأول، 1428هـ.
- مجازات النداء وحقيقته وأغراضهما في الخطاب القرآني، ظافر العمري، مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية، العدد6، 1429هـ.
- النّحو بين عبد القاهر الجرجاني وتشومسكي، محمد عبد المطلب، مجلّة فصول، العدد1، 1984م.

فهرس المحتويات:

مقدمة .... أ

مدخل.. **2**

مصطلح العدول...2

أنواع العدول..3

مفهوم حروف المعاني وتقسيماتها...................................7

مفهوم الأسلوبية..10

العدول إجراء أسلوبي...12

الفصل الأول: العدول في حروف المعاني عن النحويين والبلاغيين..................**19**

المبحث الأول: العدول في حروف المعاني عند النحويين.......................20

المطلب الأول: العدول في مفهوم النحويين...................................21

بين العدل والعدول...21

العدول ونظرية الأصل عند النحاة....................................22

المطلب الثاني: العدول في حروف المعاني في كتاب سيبويه...................29

المطلب الثالث: العدول في استعمال الحرف عند ابن جني.....................37

المبحث الثاني: العدول في حروف المعاني عند البلاغيين.......................45

المطلب الأول: مفهوم العدول في الدرس البلاغي...........................46

- التكييف البلاغي للعدول..49

عدول حروف المعاني عند البلاغيين...................................51

المطلب الثاني: العدول في حروف المعاني عند عبد القاهر الجرجاني............55

المطلب الثالث: العدول في حروف المعاني عند الزمخشري......................64

الفصل الثاني: العدول في حروف الجر والعطف.......................**71**

المبحث الأول: العدول في حروف الجر...............................**72**

العدول بالمخالفة/ الصورة الأولى: من في إلى على...........................72

الصورة الثانية: من الباء إلى على......................................78

الصورة الثالثة: من اللام إلى على......................................81

الصورة الرابعة: من اللام إلى إلى..83
الصورة الخامسة: من اللام إلى مع...85
العدول بالاختيار/ الصورة الأولى: من اللام إلى على....................................86
الصورة الثانية: العدول إلى في..92
الصورة الثالثة: من إلى إلى اللام...95
الصورة الرابعة: من في إلى اللام...98
المبحث الثاني: العدول في حروف العطف..103
العدول بالمخالفة/ الصورة الأولى: من الفاء إلى الواو..................................104
الصورة الثانية: من الفاء إلى ثم...114
الصورة الثالثة: من ثم إلى الواو..124
العدول بالاختيار/ الصورة الأولى: العدول إلى الواو....................................129
الصورة الثانية: العدول إلى ثم...132
الصورة الثالثة: العدول إلى الفاء..137
الصورة الرابعة: العدول إلى أو..142
العدول بالحذف/ الصورة الأولى: العدول إلى الفاء.....................................146
الصورة الثانية: العدول إلى الواو...149
الفصل الثالث: العدول في حروف الشرط والاستفهام.............................154
المبحث الأول: العدول في حروف الشرط...155
العدول بالمخالفة/ الصورة الأولى: من إذا إلى إن.......................................156
العدول بالاختيار/ الصورة الأولى: العدول إلى إن.......................................162
الصورة الثانية: العدول من إن إلى لو...170
المبحث الثاني: العدول في حروف الاستفهام....................................174
العدول بالمخالفة/ الصورة الأولى: العدول من هل إلى الهمزة...........................175
العدول بالاختيار/ الصورة الأولى: العدول إلى الاستفهام بـ"هل"......................180
الصورة الثانية: العدول إلى الاستفهام بـ"أم"..188
الصورة الثالثة: العدول إلى همزة الاستفهام...191

جمعية أمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

العدول بالحذف..200
الفصل الرابع: العدول في حروف النفي والاستثناء..........................203

المبحث الأول: العدول في حروف النفي.......................................204
العدول بالمخالفة/ الصورة الأولى: من لم إلى ما"..........................205
الصورة الثانية: من لم إلى لما...211
الصورة الثالثة: من لن إلى لا..216
الصورة الرابعة: من ما إلى لا...224
الصورة الخامسة: من إن إلى ما..225
العدول بالاختيار/ الصورة الأولى: من لا إلى ما.................................231
الصورة الثانية: من لن إلى لا...234
المبحث الثاني: العدول في حروف الاستثناء..................................241
العدول بالمخالفة/ الصورة الأولى: من إلا إلى غير............................242
الصورة الثانية: من إلا إلى لما..248
الصورة الثالثة: من الواو إلى إلا...250
الصورة الرابعة: من لكن إلى إلا...252
الفصل الخامس: العدول في حروف التوكيد والنداء والتعليل.............256
المبحث الأول: العدول في حروف التوكيد......................................257
العدول بالمخالفة/ الصورة الأولى: من نون التوكيد الخفيفة إلى الثقيلة.......258
الصورة الثانية: من إن إلى إنّ...262
الصورة الثالثة: من السين إلى سوف..263
العدول بالحذف/ الصورة الأولى: العدول إلى لام التوكيد....................267
الصورة الثانية: العدول إلى أنّ...276
الصورة الثالثة: العدول إلى نون التوكيد..278
الصورة الرابعة: العدول في حروف التوكيد الزائدة...............................281
العدول إلى لا...281
العدول إلى أنْ..284

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثاني: العدول في حروف النداء..**287**
العدول بالاختيار..289
العدول بالحذف..299
المبحث الثالث: العدول في حروف التعليل..**304**
العدول بالمخالفة/ الصورة الأولى: من كي إلى اللام..305
العدول بالاختيار/ الصورة الأولى: العدول في لام التعليل..307
الصورة الثانية: العدول من كي إلى اللام..311
الصورة الثالثة: من اللام إلى أنْ..312
الصورة الرابعة: من اللام إلى مِن..313
الصورة الخامسة: من الباء إلى مِن..314
الصورة السادسة: العدول من كي إلى لعلّ..316
الصورة السابعة: العدول إلى لام الجحود..321
الخاتمة..**323**
ملخص البحث..**327**
الفهارس..**329**
فهرس الآيات القرآنية..**330**
فهرس الأعلام المترجم لهم..**357**
فهرس الأبيات الشعرية..**358**
ثبت المصادر والمراجع..**360**
فهرس المحتويات..**369**

جمعية أمير عبد القادر للعلوم الإسلامية